

لجنة التأليف والترجمة والنشر



تأليف

حسن جلال

مؤلف كتاب الثورة الفرنسية

الجزء الاول

سلسلة المعارف العامة

فهرست الجزء الاول

ص

الكتاب الاول — حداثة نابليون ٧

١) الباب الاول — بيئة نابليون . ٧

الفصل الاول ـ كورسيكا ٨

« الثانى ـ أسرة بونابرت . . . ١١

« الثالث ـ أم نابليون ١٤

« الرابع ـ الوسط المدرسى . . . ١٩

« الخامس ـ الثورة الفرنسية . . . ٣٤

« السادس ـ بين فرنسا وكورسيكا ٤٤

« السابع ـ باؤولى ٥٥

٢) الباب الثانى — بين الحظ والمواهب ٥٩

الفصل الأول ـ أسرة بونابرت فى فرنسا ٦٠

« الثانى ـ المعركة الاولى حصار تولون ٦٢

« الثالث ـ التحالف الدولى الأول ٧٤

« الرابع ـ نابليون والتحالف الأول ٧٩

« الخامس ـ كوكب النحس . . . ٨٣

« السادس ـ الحكومة فى خطر . ٩٢

« السابع ـ طالع السعد ٩٨

ص

الكتاب الثانى — الجنرال بونابرت ١٠٥
١) الباب الاول — زواج نابليون ١٠٥
الفصل الاول ـ عواطف نابليون . . ١٠٦
« الثانى ـ جوزفين ١١٠
٢) الباب الثانى — نابليون يضع أساس شهرته . ١٢١
الفصل الاول ـ فرنسا والتحالف الأول . ١٢٢
« الثانى ـ الحملة الايطالية ١٢٥
« الثالث ـ بين الحملتين ١٤٤
« الرابع ـ الحملة المصرية ١٥٢
٣) الباب الثالث — فى منزل نابليون ٢٠٥
الفصل الأول ـ خيانة جوزفين ٢٠٦
« الثانى ـ پولين فوريس ٢١٨
« الثالث ـ لقاء الزوجين . . . ٢٢٧
٤) الباب الرابع — نابليون رئيس حكومة فرنسا . ٢٣٥
الفصل الأول ـ حالة فرنسا فى غياب بونابرت ٢٣٦
« الثانى ـ انقلاب برومير ٢٤١
« الثالث ـ دستور سنة ١٧٩٩ . ٢٥٧
الكتاب الثالث القنصلية (صهه نوفمبر ١٧٩٩ مايو ١٨٠٤) ٢٦٧
١) الباب الاول — فرنسا من سنة ١٨٠٠—١٨٠٢ ٢٦٨

ص

الفصل الاول ـ نابوليون فى التويلرى . ٢٦٩
« الثانى ـ السياسة الداخلية ـ ثورة لافنديه ـ النظام المالى والادارى ـ القانون ـ الكونكوردا ـ وسام الشرف ـ المعارضة . . . ٢٧١
الفصل الثالث ـ السياسة الخارجية ـ التحالف الدولى الثانى ـ الحملة الايطالية التحالف البحرى الشمالى ـ صلح اميان ـ قنصل لمدة حياته ٢٨٩
٢) الباب الثانى — فرنسا من سنة ١٨٠٢-١٨٠٤ ٣١٣
الفصل الاول ـ انجلترا تعلن الحرب من جديد ٣١٤
الفصل الثانى ـ التعبئة . . . . ، . . . ٣٢٣
« الثالث ـ المؤامرة الكبرى . . . ٣٢٧
« الرابع ـ نابليون الاول امبراطور فرنسا وملك ايطاليا . . ٣٤٤

رجاء الى القراء

وقعت عدة أغلاط مطبعية فى هذه الطبعة لظروف قهرية . وقد أثبتنا منها فى الجدول التالى ما رأينا ضرورة التنبيه اليه . فنحن نعتذر عن وقوعها ونرجو القارئ أن يبدأ باصلاحها حتى تستقيم له المطالعة بعد ذلك

وهناك أغلاط مطبعية طفيفة أخرى اعتمدنا فى عدم اثباتها على فطنة القارئ اللبيب

المؤلف

الصحيفة ص	سطر	الخطأ	الصواب
١	٥	ولكن	وكان
٢١	٢٠	ميال	مبال
٢٥	١٥	تشوقا	تشوفا
٤٣	١٢	حبذت	جندت
٤٧	١٢	ليال	ليالى
٦٩٠	١	السبل	السيل
١٣٨	٩	الثانى	التالى
١٤٢	٧	الامبراطورية	الامبراطور
١٥٧	١٤	أميرلاى	أميرال
١٦٠	١٠	من يبعث	من أن يبعث
١٦٩	١	من	دون
١٧٣	١٢	الاصلاح على	الاصلاح والعمل على
١٩٣	١	وعادته	وعاونته
١٩٣	١	جاء	جاد
٢٢٢	٧و٨	مطلق تصرف بونابارت	تصرف بونابرت المطلق
٢٣٧	٢	حكومة	حكومته
٢٥٢	١١	وخانت	وخارت
٢٦٥	٥	الاجتماع	الأجماع
٢٧٠	٨و٩	من تلك الاخطار	من تلك الفوضى الداخلية التى كان يعيش فيها وينقذه من تلك الأخطار

صحيفة	السطر	الخطا	الصواب
٢٧٩	٩	الا	الى
٤٨١	٤	جزاء المجتهد	جزاء للمجتهد
٣٠٠	٢ هامش	المناقشة	المنافسة
٣١٥	١١	لاجتناب	لاجتثاث
٣١٦	٢	التر تيت	التر بيت



نابليون وأركان حربه

تمهيد

زعموا أن جماعة من العميان كانوا يسيرون فى طريق فاعترضهم فيل عظيم ولم يكن لهم معرفة سابقة بالفيلة ولا بأوصافها فحاروا فى أمره وأمسك كل واحد منهم بجانب من جوانبه وأخذ يصفه لأصحابه فقال أولهم وقد وقعت يده على خرطومه . « ما أشبه هذا الفيل بالأفعى ! » ولكن جاره قد أمسك بالفيل من أذنه فمال على صاحبه قائلا : — « أولا تظن أنه أشبه بالمروحة العظيمة ! »

وكان ثالثهم قد أدرك من الفيل ساقه فتعلق بها صائحاً :

— « إنه لمن الغباوة أن لا يميز الانسان كيف أن هذا الفيل أشبه الأشياء بجذع النخلة ! »

وكان الرابع قد وقعت يده على ذنبه فضاق صدره بكلام رفاقه . وهزّ لهم ذنب الفيل فى يده قائلا :

— « يا أيها الحمق ! أيكون هذا الفيل كالحبل ثم تقولون عنه ما تقولون ؟ ! » وعند ذلك تكلم الخامس فى رزانة

وتؤدة إذ لم تعجبه دفعة صاحبه . وكان قد أصاب من الفيل نابه فأمسك به وقال :

— « فيم هذا الجدل والأمر أوضح من أن يختلف فيه اثنان ؟ وكيف عزب عن ادراككم أن هذا الحيوان أشبه بالحربة منه بكل ما تهرفون ! ؟ » وكان سادسهم قد بسط يده فأصابت جانب الفيل فمر بها عليه وهو يعجب من سوء إدراك رفاقه إذ لم يفطنوا إلى أنه كالجدار . فقال : — « كفوا أيديكم ! فليس فيكم من هو خليق بالحكم على حقائق الأشياء ! ان هذا الفيل كالحائط . وليس على ظهر الأرض من يستطيع أن يحولنى عن هذا الاعتقاد ! »

٭ ٭ ٭

فهذا الفيل العظيم هو نابليون الكبير بشخصيته الهائلة يعترض طريق المؤرخين . وهؤلاء العميان هم طائفة من المؤرخين ضلوا فى تصويره وتفهم نفسيته . فهو فى نظر بعضهم مارد جبار يهدم العروش ويقلب الممالك ويهلك ملايين النفوس ! وفى نظر غيرهم ملاك حارس أرسله الله لانتشال فرنسا من وهدتها ونشر النظام فى أوربا وتعميم مبادىء الحرية والمساواة فيها ! وهو عند قوم ذئب كاسر

لا يعرف الا الفتك والسطو وله نظرات يتطاير منها الشرر !
وعنــــد قوم آخرين كالحمل وديع حلو الحديث أنيس وله
ابتسامات ساحرة تأخذ بمجامع القلوب !

وهاءنا بدورى أمد يدى إلى هـذه الشخصية العظيمة
أحاول وصفها فلعلى اذا انتهيت من هذه الرسالة لا أرانى قد
انضممت إلى الصف وأصبحت . . . . . سابع العميان حول
جسد الفيل !

* * *

وأنت أيها القارىء قد يكون لك صـديق مقرب إليك
تلازمه ويلازمك ثم إذا بدا لأحدكما أن يتحدث عن زميله
فانه قد يضل فى تصويره ويتخبط فى تحليل نفســه . وتحديد
ميوله . وضبط صفاته . فما بالك بمن يتصدى للحديث عن إنسان
لم يره ولم يعاصره . وخير ما بين يديه من آثاره مذكرات أو
كتب كتبها عنـه أنصاره أو خصومه . فهى وحى الهوى
وتصوير الاعجاب . أواملاء المقت وصدى الحفيظة ؟ ما بالك
بمن يتصدى للحديث عن نابليون بونابرت وهو تلك الشعلة
الآدمية الفريدة التى اندلعت فى فرنسا فبهرت الأنظار وخطفت
الأبصار . وأضاءت . وأحرقت . وتقلبت عليها كل الأجواء

فعصفت بها الزعازع حتى كادت تحطم مصباحها . وهفت من فوقها النسمات حتى ذكت وكاد سناها يذهب بالأبصار !

لقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن نابليون كان قائداً عظيما ومصلحاً كبيراً وسياسياً حكيما وادارياً قديراً وأن له من الوقائع والأخبار ما يملأ بطون المجلدات . ولكنا ونحن نؤرخه الآن لا نريد أن نقنع بسرد معاركه وذكر أخباره . انما نريد أن ندرس حياته لنستكشف فيها أسرار العبقرية . ولنقف ما استطعنا على عوامل النبوغ ومقدمات البطولة — إن صح ان للنبوغ والبطولة عوامل ومقدمات .

نريد أن ندرس صباه لنرى كيف نشأ وبأى المؤثرات تأثر .

ونريد أن ندرس حياته وهو طالب لنرى إلى أى مناحى العلم كانت تتجه ميوله .

ونريد أن ندرس حياته جندياً لنرى كيف كان يرسم خططه وكيف كان يعمل على تنفيذها .

ونريد أن ندرس حياته قائد جنود لنرى كيف كان يعامل جنوده وبأى الوسائل نزل من قلوبهم تلك المنزلة التى تقرب من التقديس .

نريد أن ندرس حياته امبراطوراً لنرى كيف كان ينتق

رجاله وكيف كان يدير برأسه الفرد امبراطوريته الواسعة .

ونريد أن ندرس حياته زعيم ملوك لنرى كيف جمع فى ركابه عواهل أوربا وأمراءها .

نريد أن نعرف كيف كان فى حبه لجوزفين . وكيف كان فى كراهته لهدسون لو .

نريد أن نراه وسماء أوربا كلها تضيق بجناحيه العريضين . ونريد أن نراه وقد وسعته جحور سنت هيلانه وأوكارها الضيقة . وفى الجملة نريد أن نطالع عبرة من أقسى عبر الدهر ! وهى أن رجلا أقبلت عليه الدنيا وهو فى مهاوى الفاقة والعجز فأصبح ملكا وكان من بين رعيته ملوك . ثم أدبرت عنه وهو فى قمة المجد والعظمة فسار إلى المنفى وحيداً طريداً . وقد انكره حتى رجاله . وتخلت عنه حتى زوجته !

الكتاب الأول

حداثة نابليون

الباب الأول

بيئة نابليون

الفصل الأول : كورسيكا

» الثانى : أسرة بونابرت

» الثالث : أم نابليون

» الرابع : الوسط المدرسى

» الخامس : الثورة الفرنسية

» السادس : بين فرنسا وكورسيكا

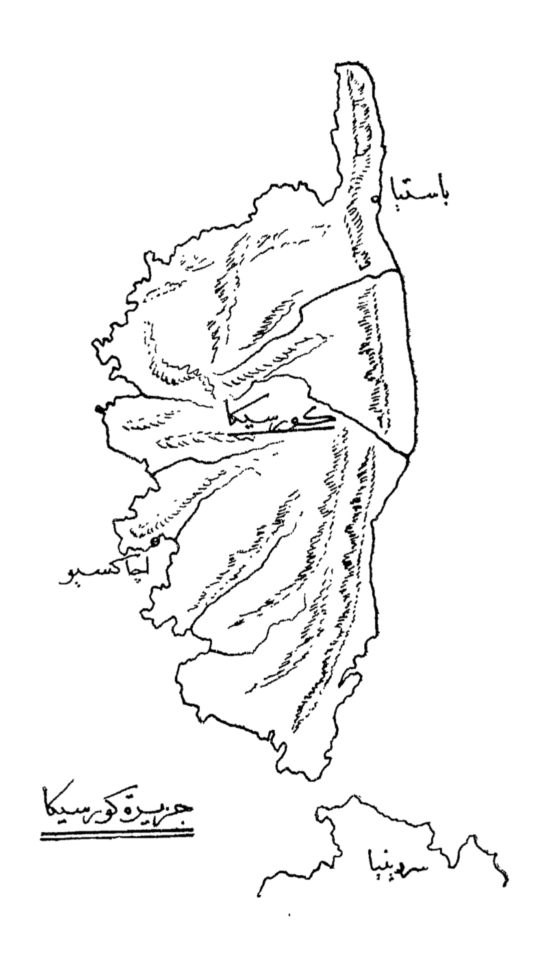
» السابع : پاؤولى

الفصل الأول
جزيرة كورسيكا

تقع جزيرة كورسيكا بالقرب من الساحل الغربى لايطاليا. وهى جزيرة ذات سطح جبلى تكسوها غابات الشاه بلوط (أشجار الكستناء) وقد اشتهر أهلها بتلك الصفات القوية التى يشاركهم فيها سكان المناطق الجبلية فى كل زمان ومكان من الصلابة والشجاعة والنخوة وحدة الطبع والمبالغة فى تقدير الشرف والكرامة.

وكانت هذه الجزيرة فى أوائل القرن الثامن عشر تحت حكم جنوا بعد أن تداولتها فى القرون السابقة أيدى الحكام المختلفين من أهل بيزا وأراجون وميلان.

وإلى هذه الدول المستبدة التى تعاقبت على الجزيرة يرجع السبب فيما امتاز به أهلها من الجموح والعناد والتمرد. ولقد فشت فى ظل هذا الحكم المستبد عادة الفاندتا Vendetta. أو الانتقام الشخصى على نحو ما هو معروف الآن بين عرب الصحراء فى الديار المصرية. فكان الرجل إذا أصابه سوء


باستيا
كورسيكا
اجاكسيو
جزيرة كورسيكا
سردينيا

من جاره لحقه عار لاصق لا يمحوه الا أن يثأر لنفسه من خصمه بيده دون الالتجاء إلى السلطة العامة لما هو مركب فى غريزته من الاعتداد بالنفس والاستخذاء من طلب النجدة ممن كان خارجا عن دائرة الأسرة .

ولقد كانت تلك الحكومات فى الواقع قليلة العطف على رعاياها من أهل الجزيرة . فلم تكن تحفل بادخال تشريعات أرقى من تلك الشرائع العتيقة . بل أنها كانت تشعر بشيء من الارتياح إلى تفشى عادة الفاندتا بينهم لينصرفوا عن مناوأتها الى اشكالاتهم الخاصة ولتستنفد هذه المشاجرات جهودهم فتبسط الدول الحاكمة يدها إلى خيراتهم وأرزاقهم تسلبها وهى فى مأمن من اعتراضهم لها أو تمردهم عليها . بيد أن ما لاقاه أهل الجزيرة أخيراً على أيدى حكامهم الجنويين من ضروب العسف والارهاق أهاب بهم الى الانضواء تحت لواء واحد لمقاومة هذا الحكم المجحف الثقيل . فلقد أثقلت عليهم حكومة جنوا فى فرض الضرائب المختلفة وسدت فى وجههم طريق الوصول إلى أى منصب من المناصب الادارية . وتركت سواحلهم نهباً لحملات القرصان المتكررة حتى أن الأهلين لم يجدوا بداً فى أول الأمر من اخلاء

السواحل الخصبة والاعتكاف فى أواسط الجزيرة القحلاء أو الفرار إلى الجزائر المجاورة .

ومازال يتلقى علم الثورة ضد حكم جنوا زعيم وطنى يقوم من بعده زعيم حتى انتهى الأمر إلى پاسكال پاؤولى Pascal Paoli الذى استطاع أن يعيد الى الجزيرة شيئاً من النظم المدنية ويقضى على كثير من مساوىء الادارة فيها . وقد ساعده فى كل ذلك ماأدرك جنوا من الانحلال والشيخوخة وصيرورة سيادتها إلى الضعف والزوال .

غير أن جنوا ما كادت تحس بتقاص نفوذها عن الجزيرة حتى تفاوضت مع فرنسا على أن تبيعها حق ملكيتها لها وتمت الصفقة بينهما فعلا فى ١٥ مايو سنة ١٧٦٨ . فما لبث أهل الجزيرة أن رأوا أنفسهم وجها لوجه أمام سيد جديد يفوق فى نفوذه وسطونه ذلك السيد القديم الذى لم تكمل فرحتهم بخلع نيره عن أعناقهم . فقر قرار پاؤولى وحزبه على أن يقاوموا هذه السيادة الجديدة . فكان من أنصار پاؤولى الذين اشتركوا معه فى تقرير هذا الرأى سكرتيره كارلو بوناپرت والد نابليون بوناپرت بطل هذا الكتاب وأمبراطور الشعب الفرنسى فيما بعد .

الفصل الثانى

أسرة بونابرت (والد نابليون)

لم تخرج أسرة بونابرت عن كونها وحدة من وحدات المجتمع الكورسيكى الذى أتينا على وصف شىء من خواصه فى الفصل السابق . فكانت تتمثل فيها تلك الصفات التى كان يفاخر بها كل كورسيكى من اعتداد بالنفس وصبر على الشدائد . ولكن ما زال بين والدى نابليون من الفوارق الخلقية ما يجعلنا نفرد كلمة لكل واحد منهما .

فأما أبوه (كارلو بونابرت) فكان من سلالة أسرة ايطالية شريفة عريقة فى النسب . فورث عنها اسمها الشريف . ولكن لسوء الحظ لم تكن تتوفر لهـــذا الاسم ملحقاته من الثروة والوجاهة ورفعة المقام فلم يأل الرجل جهداً فى الحصول على كل ما يتفق مع هذا الاسم من الجاه والثروة وكان لا يستنكف فى سعيه أن يصل إلى غايته بالمداهنة ومصانعة أولى الأمر لينال الحظوة عندهم ويكون مقرباً اليهم . وقد طوحت به مطامعه الواسعة فى مغامرات مالية جرت على أسرته من بعده أشد الارتباكات .

ولقد حصل كارلو هذا على شهادة فى القانون من جامعة بيزا وتزوج وهو فى التاسعة عشرة من عمره بفتاة لم تكن تجاوزت سنتها الخامسة عشرة ولكنها كانت نامية الجسم يحسبها الناظر اليها قد بلغت العشرين . ولقد كانت تلك الفتاة فى جمالها فتنة أهل كورسيكا قاطبة حتى لقد تنافس فيها المتنافسون من شبانها الاكفاء . فاستبقهم اليها فى تلك السن المبكرة كارلو اللبق اليقظ فولدت له غلامين ماتا فى طفولتهما ثم رزقت منه يوسف بكر أبنائها الأحياء .

ولم تكد تنتشر دعوة پاؤولى فى جزيرة كورسيكا بوجوب القيام فى وجه فرنسا التى اعتدت على استقلالهم بابتياع وطنهم من جنوا حتى كان كارلو وزوجته الحسناء فى مقدمة الملبين لنداء الوطن . وركبت جوادها الى جانب زوجها وشاطرته كل مخاطر القتال . وعلى الرغم من كل ما أبداه أهل الجزيرة من ضروب البسالة فى مقاومة فرنسا فأنه لم يكن من الصعب التنبؤ بمصير كورسيكا — إذ استتب الأمر فيها لفرنسا فى صيف سنة ١٧٦٩ وغادرها بسكال پاؤولى هو وزعماء حزبه الى لجهورن (إيطاليا) ثم الى انجلترا .

وبعد ذلك بنحو ثمانية أسابيع ولد نابليون بونابرت فى



شارل بوناپرت

اجا كسيو (١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩) ورأى كارلو أن الحكمة « الوصوليــــة » تقضى بموالاة الحكومة الجديدة فنجح فى الحصول على رضائها ونال الحظوة عند حاكم الجزيرة الفرنسى وانتهى به الأمر أن انتخب عن هيئة أشراف الجزيرة ليكون ممثلا لهم فى بلاط فرساى. وكان المستقبل بساماً لمثله لو أنه عاش حتى أدرك الثورة الفرنسية كما أدركها وفاز فيها غيره من الأشراف المفلسين . ولكن المنية عاجلته وهو فى ريعان شبابه فقضى نحبه (١٧٨٥) فى مونبلييه وهو دون الأربعين . وكان قد ذهب اليها مستشفياً من سرطان المعدة ولكنه مات به كما مات به من بعده ولده نابليون .

* * *

ولقد كان كارلو شديد الحب لابنه نابليون وكان يختصه بالعطف والملاطفة دون سائر اخوته . ويرى فيه ببصيرته الأبوية أنه سيكون زعيم كورسيكا . وكذلك كان نابليون شديد التعلق بوالده وكان يحبه حباً جما حتى أنه لما مات بعيداً عنه فى مونبلييه بسبب وجوده هو فى المدرسة بباريس ظل زمانا يندب سوء حظه لحرمانه من توديعه بنظرة أخيرة ومن تشييعه إلى مقره الأبدى مع جماعة المشيعين .

الفصل الثالث

أم نابليون

ورث نابليون عن والده الناحية البراقة من شخصيته . فهو مدين له بالطموح والعمل على كسب الشهرة وحب الظهور . ولكنه مدين لوالدته بجوهر شخصيته . مدين لها بالثبات والعزم والثقة بالنفس ومجالدة الخطوب . ومدين لها بالنظام والدقة وحسن التدبير . مدين لها بالشجاعة والاقدام وقوة القلب . مدين لها بهذا كله وبغير هذا من تلك الدعائم الخلقية الراكزة التى قام عليها بنيان مجده الشاهق .

كانت أم نابليون تدعى ليتيشيا رامولينا فهى من سلالة بيت رامولينا الماجد العتيق وهو بيت مشهور فى تاريخ كورسيكا بمتانة أخلاق أفراده ووفرة النابهين منهم . ولقد مات أبوها قبيل زواجها بسنوات فكفلها زوج أمها الجديد وهو رجل سويسرى من أرباب المصارف فشبت بين يديه على مبادىء الدقة وحسن التقدير وضبط الحساب وأضافت بهذه الصفات النافعة ثروة جديدة الى كنز جمالها الذى حبتها



الوالدة العظيمة

مدام بوناپرت (ليتيشيا رامولينو)

به الطبيعة فجعلتها ملء عين الجميع .

ولم تكد ليتيشيا تتجاوز سنتها الرابعة عشر حتى تهافت عليها شبان كورسيكا من كل حدب يطلبون يدها طمعاً فى جمالها وكمالها ففاز بها دون نظرائه سيد شبان تلك الجزيرة فى الرشاقة والذكاء كارلو بونابرت وتم زواجهما سنة ١٧٦٤ .

وعلى الرغم من انتماء زوجها الى أسرة شريفة عريقة فى النسب إلا أنه لم يكن ذا ميسرة فتجلت من البداية مواهب عروسه الاقتصادية وعاش الزوجان فى هناء عائلى مدة عشرين سنة أنجبت ليتيشيا فى خلالها ثمانية أبنـــاء منهم خمسة ذكور وثلاث أناث — أو قل ثمانيـة أبناء منهم أمبراطور وثلاثة ملوك وملكة واحدة ! وكان نابليون ثانى أبنائها الذكور . ولما مات زوجها لم يخلف لهذه الأسرة الكبيرة إلا ملكا صغيراً يتراوح ريعه بين الألف والالف وخمسمائة فرنك فى العام . فاحتملت ليتيشيا أبناءها وعادت بهم من أجاكسيو الى الريف حيث أقامت زماناً وهى تتمتع برعاية شقيق زوجها — لوسيان — غير أن المقادير أبت ألا أن تفجع الاسرة مرة أخرى فى عائلها الجديد فمات لوسيان هذا تاركا خلفه ليتيشيا وأبناءها تكافح الفاقة وحدها ولا تجد ذراعا تستند اليه .

واليك ما كتبه نابليون نفسه عن ذكريات هذا الموقف الرهيب :

« دعانا عمنا اليه وهو على فراش الموت . ثم باركنا ودعا لنا دعوات صالحات وقال مخاطباً أخى يوسف :أنت يا يوسف أرشد العائلة ولكن لا تنس آن نابليون رئيسها ! — ثم لفظ نفسه الاخيرة وسط عويلنا ودموعنا التى استدرها هذا المشهد الفاجع . أما والدتى فأنها رأت نفسها بعده بغير هاد ولا نصير فلم يكن بد من أن تدير بنفسها دفة الامور . وما كان ذلك على همتها بعزيز . فأنها تولت جميع أمرنا . وأعدت لكل شىءعدته بعناية عظيمة لا يمكن أن يتوقعها الانسان ممن كان من مثل جنسها أو فى مثل سنها . يالها من سيدة ! وأين يجد الانسان لها شبيها أو نظيراً ؟ لقد كانت تكلؤنا بعين لا تنام بل ولا تغمض وكانت تقاوم فى نفوسنا كل عاطفة خبيثة وكل نزعة شريرة . ولم تكن تسمح لشىء أن يستقر فى أذهاننا الفتية إلا أن يكون سامياً وعظيما . وكانت تمقت الكذب . ولا تطيق أن ترى واحداً منا يخرج عن طاعتها قيد شعرة . ولم تكن تغضى عن هفوة نرتكبها مهما صغر شأنها . ولقد حلت بها الخسائر الفادحة فما ابتأست ! وعضها الفقر بنابه فما

طاطات رأسها ! وأجهدتها المتاعب المضنية فما أدركها الاعياء ولكنها احتملت كل شيء ووقفت فى وجه كل شيء ! لقد كانت لها همة الرجل وعنفه تمازجها رقة المرأة ولطفها ! »

تلك كانت أم نابليون كما يصفها هو . ولا ينبئك مثل خبير ! وفى الحق لم يكن لمثل نابليون أن يخرج الا من أحضان مثل هذه الأم — أستغفر الله ! بل هذه « الا كاديمية » — فقليل على مثل لبتيشيا أن توصف بأنها « أم » فتشترك معها فى هذا الوصف كل من أرضعت وليداً !

وما دمنا بصدد الكلام عن ليتيشيا فلا بد لنا من أن نشير إلى أنها ان كانت مدينة بقسط من أخلاقها إلى نظام المجتمع فى كورسيكا . وبقسط آخر إلى زوج أمها السويسرى وبقسط ثالث الى عوامل أخرى فانها مدينة بشيء كثير لجمالها . وذلك لأن الجمال كما لا يخفى يكسب صاحبه شيئاً كثيراً من الكبرياء والدالة بسبب ما يراه حوله من اشارات الملق ووسائل التقرب فمهما كان تواضع الفتاة الجميلة فانها لا تلبث أن تجد نفسها قد تربعت فوق كرسى السيادة الذى رفعها اليه إعجاب المفتتنين بها . وهكذا يخلق الجمال لصاحبه دولة رغم أنفه ثم يجلسه على عرشها . فلا غرو أن نرى بعد ذلك فى ليتيشيا تلك

الصفات الملكية وذلك الخلق النبيل الذى كان يشع عن شخصيتها الجذابة فى كل أقوالها وأفعالها . ولقد ظلت هذه السيدة محتفظة بشىء كثير من جمالها حتى آخر أيامها مع أنها عمرت حتى قاربت التسعين .

ومما يحلو ذكره عن هذه السيدة الجميلة صاحبة السير الحلوة أنها ظلت عمرها لا تجيد الفرنسية . وأن ابنها نابليون بعد أن أصبح امبراطوراً وفتحت له أبواب الثروة على مصاريعها . أغدق عليها النعم وأمطرها وابلا من ذهبه وفضته . ورتب لها مرتبات جزيلة . غير أنها لم تكن تغترف من هذا البحر الزاخر الا بقبضتها الضيقة الأولى التى أمسكتها سنى الفاقة الطويلة . وأيام الحاجة المرة التى قاستها فى بدء حياتها وبقى الرعب الذى تسلط عليها فى عسرها الأول ماثلا أمام عينيها بقية عمرها يمنعها من الاسراف والعمل على كسب القلوب بالهبات والصلات .

وعلى الرغم من منح ولدها لها لقب « Madame Mère » وهو لقب يقربه إلى أذهاننا اقب « والده باشا » الذى تعودنا سماعه هنا فى مصر فانها عاشت فى عزلة باعدت بينها وبين قلوب الشعب الذى تملك ولدها عواطفه !

الفصل الرابع

الوسط المدرسى

تحدثنا عن كورسيكا وعن أهلها . وأتينا على شىء من تاريخها فى القرن السابع عشر فاذا هو سلسلة من المعارك المتصلة قام بها أهل هذه الجزيرة فى وجه جنوا أولا ثم فى وجه فرنسا ثانياً . وذكرنا كذلك أن نابليون بونابرت ولد على أثر هذه المعارك وغبار الحرب ما زال يملأ جو الجزيرة فكان أول ما استنشقه مع نسيم هذه الحياة ونشأ تحيط به أخبار القتال من كل جانب حتى أن القصص التى كان ينام على سماعها كل مساء وهو فى حجر أمه لم تكن تعدو سرد ما وقع لها هى وزوجها من الحوادث إبان تلك الحرب وما كابدته فيها من المصاعب والأهوال والعدو من ورائهم يطاردهم من قرية إلى قرية ومن جبل إلى جبل . ولقد تملكت هذه القصص نفس نابليون منذ حداثته إلى حد أنه لما شب وترعرع لم يكن يلذ له من ألعاب الطفولة إلا أن

يمثل هذه المعارك مع الصبية الذين يلاعبونه . وكان له مدفع صغير من النحاس يزن نحو ثلاثين رطلا لم يكن أحلى فى أذنه من وقع قصفه حين يطلقه فى الفضاء ويتخيل فيالق العدو وهى تفنى فى دخان باروده . . ! وما يزال السائح الذى يزور كورسيكا اليوم يقوده دليله إلى مكان هذا المدفع كما يقوده إلى مكان أثرى آخر يعرف باسم « كهف نابليون » وهو جحر صغير فى صخرة عاتية على شاطىء البحر كان يأوى اليه نابليون فى صباه لينفرد فيه بنفسه وليرقب منه أمواج البحر المصطخبة وهى تتكسر على الساحل — تلك الأمواج التى كانت آخر ما بقى له فى جزيرة سانت هيلانة لما حرمته السياسة الانجليزية حتى رفاقه القلائل الذين تطوعوا بحمل آلام النفى معه .

« ا » مدرسة اجاكسيو الاولية :

ولم يكد يبلغ نابليون السادسة حتى أدخله أبوه إحدى المدارس الأولية فى أجاكسيو ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة وما إليهما من العلوم التحضيرية . وعلى الرغم من نعومة الوسط فى مثل هذه المعاهد الأولية فان نابليون انفرد بين

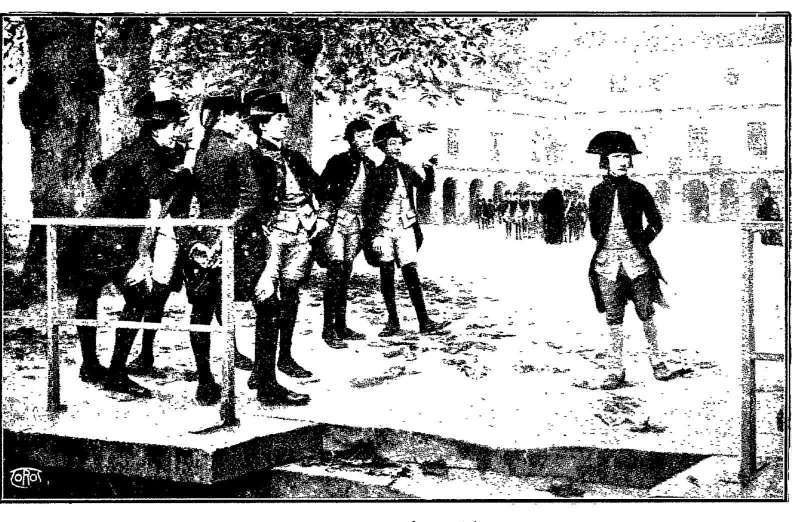
رفاقه بشيء من الشذوذ والتهور . وكان فى تلك المرحلة من عمره بعيداً كل البعد عن حسن الهندام فكان لا يرى إلا وجواربه ساقطة على حذائه ولكنه كان شديد الولع بصبية كانت معه فى المدرسة فكان دائماً يماشيها فى أوقات الفراغ وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه . ويغلب على الظن أن منظر جواربه المدلاة لم يكن يروق زملاءه لا سيما وهو يماشي رفيقته هذه فكانوا يسخرون منه ويجتمعون خلفه هازئين منددين . وكان هو يتغاضى عنهم ويتجاهلهم حتى اذا أسرفوا فى كلامهم واهتاجوه ثارت فى دمه كل طبائعه الكورسيكية وانقض عليهم كما تنقض الصاعقة غير مبال بجمعهم ولا مكترث بعواقب هجومه . وأعمل فيهم أطرافه الأربعة صفعاً ولكما ووكزاً — كل ذلك بسرعة وصرامة تكفلان له إلقاء الرعب فى قلوب غرمائه وتشتيت جمعهم . وعند ذلك يعود وعليه كبرياء النصر إلى صديقته ليضع يده فى يدها من جديد !

ولقد كان هذا الجموح البادى فى طبعه سبباً فى أن يرشحه أبوه للجندية فما كاد يبلغ العاشرة من عمره حتى سعى أبوه فى سبيل الحصول على توصية لدى ولاة الأمور فى فرنسا

لالحاقه باحدى مدارسها الحربية . ولكن جهل نابليون باللغة الفرنسية قضى بادخاله أولا مع أخيه يوسف فى مدرسة أوتان « Autun » حيث قضى بضعة شهور فى تلقى أصول هـذه اللغة ليتمكن من متابعة دروسه بها فى مدرسة برين الحربية .

« ب » مدرسة برين الحربية Brienne

وكان فى فرنسا فى ذلك الوقت اثنتا عشرة مدرسة حربية ابتدائية ينتقى سنوياً من بين تلاميذ فرقها النهائية ثلاثة طلبة عن كل مدرسة يرسلون لتتميم دراستهم فى مدرسة باريس العليا . وكانت مدرسة برين واحدة من تلك المدارس الاثنتى عشرة . وكان تلاميذها كتلاميذ بقية المدارس الحربية من أبناء الأشراف المترفين الذين يستنكفون من دخول المدارس الأخرى الخاصة بتخريج الأطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم لأنه كان من دواعى الزراية فى ذلك الجيل الارستقراطى أن يحصل الرجل على المال بكدح يده وعرق جبينه . وكانوا يقضون وقتهم فى هذه المدرسة لاعبين هازلين وكانوا يتفاخرون بالاسراف والتبذير كما يتنافسون فى الألقاب والأنساب . فدخل بينهم نابليون ــ وأبوه محام



نابليون فى مدرسة برين

كورسيكى — نخسر المعركة من أول طلقة ! وانضم الى صفوفهم وجيوبه أخلى من فؤاد أم موسى فكان موضع استهزائهم وتحقيرهم ; ولو أن شاباً غيره وفى مثل رقة حاله أُلق فى مثل هذا الوسط الأرستقراطى لصغرت نفسه ونشأ على الملق والعبودية وانطفأت عزته أمام تلك المظاهر الوجيهة التى كانت لزملائه من دونه . ولكن نفس هذه المظاهر هى التى حركت عزة نابليون وهاجت كبرياءه وملأت نفسه سخطاً على ذلك النظام الذى يسود فيه الانسان لمجرد الصدفة بحكم مولده ولا يقام فيه وزن للكفاءة والجد . ولقد لاقى نابليون من الهوان بسبب هذه الفوارق بينه وبين زملائه ما جرح فؤاده الصغير . وملأ قلبه حقداً على هذا الشرف الموروث . وجعله فى أيام عزه ومجده يتعصب للكفاءة دون النسب ويرفع قدر أهلها فوق كل اعتبار .

وهكذا قضى نابليون سنى دراسته الأولى غريباً فى وسط زملائه يتجافاهم ويتجنب مجالسهم خجلا وأنفة . ولما لم يجد بينهم رفيقاً يأنس إليه التى بنفسه بين أحضان كتبه فانتفع بكثرة الدرس . وتفوق على أقرانه وأصبح له ما يتيه به عليهم إن تاهوا عليه بمالهم ومظهرهم الوجيه !

ولكن هذه العزلة القاسية التى التزمها نابليون وذلك الجد المتواصل . الذى أبداه فى الدرس والتحصيل قد طبعا جسمه بطابع الضعف والهزال وبقى متأثراً طول حياته عما خلفته له هذه السنوات الخمس التى قضاها فى برين . وهو مدين ولا شك بقصر قامته وضئولة جرمه وضخامة رأسه إلى تلك الجهود الجبارة التى كان يبذلها وهو بعد صبى لم يكتمل نمو جسمه .

وكانت أحب الدروس الى نابليون دروس الرياضة . وقد برع فيها منذ صغره براعة جعلته موضع اعجاب أساتذته أنفسهم فكانوا يقربونه اليهم ويدعونه إلى موائدهم الخاصة تكريماً له وتنويهاً بمقدرته وكان يميل بعد ذلك إلى الجغرافية ودراسة الخرائط . ولكن كتب التاريخ هى التى كانت تستهويه وتستغرق كل حواسه بما تحويه من أخبار قيام الدول وسقوطها وأسباب رفعتها وعوامل انحطاطها . ومن الكتب الممتازة التى كانت موضع تفكيره المتواصل كتاب « الموازنة بين الأبطال » الذى وضعه بلوتارك . فان نابليون وجد فيه المادة الدسمة التى كان يسيل لها لعابه بما تضمنه من قصص أبطال اليونان والرومان وذكر أخبارهم والتحدث عن

جهودهم وما وصلوا اليه من الرفعة والكرامة بفضل نبوغهم فكان يعب عبا فى هـذه القصص وكان يخفق قلبه لمطالعتها تشوقاً إلى ذلك اليوم الذى ينفسح له فيـه الطريق لمسايرة هؤلاء الأبطال فى سبيل العظمة والشهرة والخلود .

* * *

وحلت سنة ١٧٨٤ وهى السـنة الأخيرة لنابليون فى مدرسة برين وتصادف أن جاء شتاؤها قارساً كثر فيه هطول الثلج حتى تغطت أرض المدرسـة واكتسى فناؤها بكسوة كثيفة منـه تعذر معها قيام الطلبة بشىء من ألعابهم العادية فركدت أعضاؤهم وانقبضت نفوسهم وعنـد ذلك خطر لنابليون أن يقيم من هـذه الثلوج حصناً صناعياً يحيطه بالأبراج والأسوار ويقيم دونه الخنادق والمتاريس ثم يقسم طلبة المدرسـة إلى فريقين يتحصن أحدهما داخل الأبراج ويهاجمـه الآخر من الخارج . وراقت الفـكرة لدى ولاة الأمور فوكلوا اليه أمر تنفيذها .

وهكذا أصبح نابليون فى لحظة واحدة يجد المدرسة كلها تحت أمره فأخذ فى توزيع العمل على أفرادها ووقف بينهم يصدر أوامره وتعليماته ويشرف على كل جزء يتم فى هـذا

المشروع حتى قام كل شىء وفق إرادته . ولقد بلغ من احكام التصميم أنه استرعى أنظار أهالى المدينـــة فكانوا يقصدون أسوار المدرسة ليشاهدوا من خلالهـا ذلك التخطيط الثلجى البديع .

وبدأت المعركة ولم يكن نابليون مع أحد الفريقين ولـكنه جعل مهمته تسيير الحرب وتوزيع أعمالهـــا بين القسمين المتحاربين. فكان يتولى قيادة المهاجمين حتى إذا انتظمت حملاتهم وحمى وطيسها طار إلى قوة الدفاع يحضهم على الثبات والمجالدة حتى تكل وتفتر قوة الهجوم وهكذا ظل يتنقل من جانب إلى جانب واستمرت المعركة قائمة عدة أسابيع وهو فى كل أدوارها موضع اعجـاب الجميع . ولقد بلغت صرامة نابليون فى تنفيذ أوامره أن ضابطاً فى هذه المعركة التمثيلية تردد فى إطاعة أوامره فما كان منه إلا أن ألقى عليه مقذوفا ثلجياً ألقاه على الأرض وتسبب له فى جرح بقى أثره فى جسمه مدى حياته .

ولعل من الانصاف بعد ذلك أن نذكر أن هذا الطالب بعينه تنكرت له الأيام بعد خروجه من المدرسة وضاقت به سبل العيش وكان نابليون إذ ذاك فى أوج عظمته فقصد اليه وطلب مقابلته قائلا إنه كان زميلا « للأمبراطور » فى برين

فلم يذكر نابليون اسمه وكلف حاشيته باستيضاح الزائر عن شخصيته فعاد اليه أمينه قائلا — « يامولاى أن للرجل جرحا طويلا فى جبهته يقول أنه أصيب به من يد جلالتكم » فتذكر نابليون وقال باسماً — « أجل . أنى أتذكر ذلك الجرح جيداً ؛ أدخلوا الرجل . » — ودخل الرجل وأجابه زميله القديم إلى كل ما سأل .

وتذكرنا هذه الحكاية بحكاية أخرى وقعت لنابليون مع مدرس الخط الذى كان يعلمه فى برين . فلقد لاقى هذا المدرس من تلميذه الجامح كل مشقة فى تقويم يده وذلك لأن خط نابليون كان من الرداءة بحيث لا يقرأ . وعالجه الأستاذ بكل الوسائل ولكن على غير جدوى وأخيراً يئس منه وترك حبله على غاربه وفوض أمره لله فى خيبة أحد تلاميذه . ومرت على ذلك السنون والأعوام وساءت حال الرجل فلم ير أمامه غير « تلميذه القديم » فقصده . وكان نابليون فى ذلك الوقت مع زوجته جوزفين فى سان كلو فأدخل عليه الرجل وهو ينتفض فرقا خشية أن تكون زيارته قد أزعجت خاطر الامبراطور . ولمح نابليون منه ذلك فأراد أن يستغل الموقف للتفكه قليلا على حساب هذا الأستاذ البائس . فنظر اليه

متظاهراً بالغضب . فازداد ارتباك الرجل وهو يقدم نفسه اليه قائلا أنه كان مدرس الخط فى برين . فاستمر نابليون فى إدعاء الغضب وقال : « حقاً ، لقد كنت تعلمنى الخط . فياحسن ما أنجبت ! ؟ هذه جوزفين عندك فتفضل بسؤالها عن رأيها فى خطى الذى علمتنيه ! » . . . .

وعند ذلك ابتسمت الامبراطورة بما هو مشهور عنها من الرقة واللطف الذى أكسبها قلوب الجميع قائلة « أؤكد لك ياسيدى أن خط الامبراطور من أحلى الخطوط ! »

فقهقه نابليون لسماع هذه الشهادة الجريئة ورتب للرجل البائس معاشا يستعين به على ما بقى من أيامه .

« ج » مدرسة باريس الحربية

وفى أكتوبر سنة ١٧٨٤ كان نابليون من بين تلاميذ مدرسة برين الذين وقع عليهم الاختيار ليدخلوا مدرسة باريس الحربية . فدخلها فاذا هو أمام وسط ارستقراطى أدهى من وسط برين وإذا لكل طالب من زملائه خادم خاص يقوم بخدمة حصانه وصقل سلاحه وتنظيف حذائه وإذا هم يتناولون فى غذائهم أشهى الاطعمة ويتقلبون فى نومهم على

توقيع نابليون

أوثر الفراش فافتتح نابليون عهده فى هذه المدرسة بتقديم تقرير شديد اللهجة إلى ادارة المدرسة نبه فيه إلى أن هذا النظام لا يمكن أن يؤدى إلى تخريج ضباط يصلحون لخوض المعارك وركوب أهوالها وقال بوجوب تعويد الطلبة الخشونة فى كل مرافقهم محبذا تولى كل طالب أمر نفسه يخدم حصانه بيده ويصقل سلاحه بنفسه ويقوم بكل ما هو مطلوب منه غير معتمد فى ذلك إلا على جهوده الخاصة ليشب على حب العمل وليتبدد من ذهنه ذلك الزهو الكاذب الذى يملأ عادة رءوس الضباط الصغار ويجعلهم بمعزل عن جنودهم فى حين تقضى المصلحة بالاقتراب منهم والاتصال بهم .

ولقد رأى نابليون فى هذا الوسط الجديد أن لا بد له من أن يعتصم بما اعتصم به فى برين من الرزانة والاعتكاف والاكباب على المطالعة والدرس ليدفع عن نفسه ذلك النظر الشزر الذى كان يصوبه نحوه أقرانه .

ولقد كان بسبب ضمور جيبه وتعاسة هندامه كثير الهموم حتى لقد قال بعد ذلك (سنة ١٨١١) فى وصف هذه الأيام .

« إن تلك الهموم كدرت على صفاء الشباب وأثرت فى طبعى وأكسبتنى الرزانة قبل أوانها . . . »

وكان مما زاد فى هموم نابليون فى ذلك الحين وفاة والده سنة ١٧٨٥ فقد حزن لفقده حزناً أليما لما كان يرجوه من الخير والمعونة على يديه بعد خروجه من المدرسة وقد صرح بهذا المعنى تصريحاً فى رسالة بعث بها إلى عمه على أثر الوفاة حيث قال — « ... واءسفاه لقد كان كل شيء يدلنا على أن الفقيد سيكون نعم العون لنا فى زمن الشباب . ولكن الله لم يرد أن يبقيه لنا . وارادة الله نافذة لا مرد لها وهو وحده القدير على أن يلهمنا الصبر عنه والسلوان » .

أما أمه فقد كتب اليها يقول :

« أى أمى العزيزة ! تعزى واصبرى فان الأحوال توجب علينا العزاء والصبر وسنضاعف نحن العناية بك والاعتراف بجميلك . فاذا وفقنا إلى تعويضك بعض الخسارة فى الفقيد العزيز كنا سعداء الطالع . »

وكأنما ألهم نابليون بعلم ما هو مخبوء له فى صفحة الغيب من العظمة . فكان إكبابه على الدرس والاطلاع إكباب من يعد نفسه لعظائم الأمور وكان له فى المعضلات جلد تتضاءل أمامه أعقد العقبات . حدث مرة أن أستاذ الرياضة عرض على فرقته مسألة حسابية فى غاية التعقيد ليتبارى فى حلها

التلاميذ فحجز نابليون نفسه من أجلها فى غرفته نحو ثلاثة أيام وهو يقلب المسألة على وجوهها ويعمل فكرته فيها حتى اهتدى إلى حلها . وكل ما عرفه زملاءه بعد ذلك عن هذه المسألة أن نابليون « وفق إلى حلها » وما دروا أن هذا « التوفيق » لم يكن إلا ثمرة من ثمرات الجهد المتواصل وأن نابليون كان يمهر « توفيقاته » هذه بأغلى الأثمان من صحته ووقته . وأن الليل الهادىء الساجى الذى ينامه الناس ملء جفونهم كان يقضيه هو فى التفكير والتدبير ليحصل على « توفيقة » من هذا النوع يصطبح بها الناس فيتهمونه « بحسن الطالع وسعادة الحظ » مع أنه ينكر على ذهنه تلك البداهة التى كان ينسبها الناس اليه ويردها الى كثرة التفكير والتقدير مقدما لكل ما قد يعترض طريقه من المشكلات . وقد كشف بنفسه هذا السر حين قال :

«أنا دائم الشغل كثير التفكير . فاذا رأى الناس أننى مستعد فى كل وقت لما تخلقه الظروف من عاجلات المسائل وعارضات المشاكل فذلك لأنى قبل أن أشرع فى أى عمل من الأعمال أكون قد فكرت فيه وتدبرته وتبينت ما قد ينشأ عنه فلا تحسبن أنه الذكاء يملى علىّ ما أقول وأفعل إذا حدث أمر لم يكن فى الحسبان . كلا . بل هو التفكير والتدبير . . . . . أنى دائم

الاشتغال . أشتغل على المائدة وفى قاعة التمثيل وغيرها . وأفيق فى الليل لكى أعمل عملا . »

ومن مأثور كلماته أيضاً قوله :

« قد كنت أنفق ساعات لعبى فى العمل . ولطالما قضيت الليل أفكر فيما ألقى على من دروس النهار . . . . ذلك بأن طبيعتى لم تكن تتحمل أن يكون غيرى هو المبرز فى فرقتى ! »

وفى الحقيقة أن سر نجاح نابليون كان فى تلك الطبيعة التى يصفها صاحبها بأنها لم تكن تتحمل أن يكون غيره هو المبرز فى فرقته وهو تلميذ والتى يصفها التاريخ بأنها لم تكن تتحمل أن يكون غيره هو المبرز فى أوربا وهو ملك !

ولقد كتب كثيرون عن نابليون فوصفوه بأنه جندى فحسب . كلا بل انصافاً لهؤلاء المؤرخين نقول انهم وصفوه بأنه جندى ماهر بل بارع — بل منقطع النظير ! ولكنهم فى كل ما ذهبوا اليه وفى كل ما نحسن الظن فيهم بأنهم قالوه أو أرادوه نحسب أنهم لم ينصفوا هذا البطل الذى أودعت فيه الطبيعة نفساً عبقرية كان لا بد لها من الظهور فى أية صورة أخرى لو أنها لم تظهر فى تلك الصورة الحربية التى طلعت على العالم فيها واذن لرأينا نابليون أديباً كبيراً يكسف بروعة

مخلفاته كتب الأولين واذن لرأيناه فيلسوفاً خطيراً ينبرى برأسه الكبير لحل طلاسم هذا العالم وألغازه ويترك لمن بعده أوفر ثروة خلفها العقل الانسانى للأجيال التى تليه !

ولكن نابليون خرج من مدرسة باريس سنة ١٧٨٥ وهو فى السادسة عشرة من عمره ضابطاً . فلنتتبع خطواته العسكرية ولننظر الى أين ينتهى بنا المسير !

الفصل الخامس

الثورة الفرنسية

فى السنة التى تخرج فيها نابليون من المدرسة (سنة ١٧٨٥) كانت فرنسا على أبواب ثورتها الهائلة التى قلبت كافة النظم فيها رأساً على عقب. فقد كان أهلها ثلاث طبقات :

١) طبقة الأشراف

٢) وطبقة رجال الدين

٣) وطبقة العامة

وكان على كاهل هذه الطبقة الأخيرة وحدها يقع عبء الضرائب. أما الأشراف ورجال الدين فعلى الرغم من أنهم يمتلكون أكثر من نصف الأرض فانهم كانوا معافين من دفع الضرائب. بل انهم كانوا يتمتعون بامتيازات تبيح لهم تسخير العامة فى فلاحة أرضهم من غير مقابل — كلا بل كان لهم فوق كل ذلك حق آخر وهو حق جباية ضرائب لأنفسهم من هؤلاء الفلاحين الذين يسخرونهم فى زراعة

بساتينهم وحقولهم ! ؟

وكانت مناصب الحكومه وقفاً على هؤلاء الأشراف . أما العامة فكانوا محرومين منهـــا وكانوا مقيدين حتى فى صناعاتهم فكان الرجل منهم لا يملك تغيير مهنتـه إذا أراد بل كان لا يملك أن يتزوج بالفتاة التى يختارها لنفســه من غير أن يحصل على موافقة مولاه الشريف !

فتحت هذه العوامل المرهقة كانت ترزح طبقة العامة وتتوارث هذه المظالم جيلا عن جيل حتى طفح الكيل وتنبهت الأذهان لما هى فيه من التعاسة . وذلك بفضل ما انتشر فى البلاد من كتابات الأدباء والفلاسفة أمثال روسو ومنتسكيو وفولتير الذين هاجموا تلك النظم العتيقة الفـاسدة وحملوا على أهلها حملات هادمة فجرءوا العبيـد على مواليهم وأصبح الفقير ينظر للغنى فى فرنســا شزراً ويتمثل فى شخصه كل ما اقترفه آباؤه وأجداده من المظالم والمساوىء فيصر على أسنانه تَشَوُّقاً لذلك اليوم الذى يمكنه من الاشتباك مع غرمائه المتكبرين ليسوى معهم حسابه .

وقد كان الكل يتوقعون قرب حلول ذلك اليوم حين أفلست خزائن الحكومة وعجز رجالها المسئولون عن إدخال

أى إصلاح فى شئونها . فقد اقترح أحد الوزراء مرة أن يشترك الأشراف مع رجال الأمة فى دفع الضرائب فما كان من زعماء تلك الطبقة الطاغية إلا أن حملوا الملك على عزله فعزله . واقترح آخر أن يُدعى مندبو الشعب للاشتراك مع الحكومة فى معالجة الأزمة التى كانت تهدد الجميع فكان جزاؤه العزل والنفى أيضاً . مع أن الأشراف لو كانوا قبلوا الاشتراك مع طبقة العامة فى أداء الضرائب لكان من المحتمل جداً تفادى الثورة التى وقعت بعد ذلك والتى كان الأشراف وامتيازاتهم وأموالهم فى مقدمة ضحاياها .

وكان ملك فرنسا فى ذلك الحين رجلا طيب القلب حسن النية . وكان كذلك ضعيفاً ليناً متراخياً — شأن كثير ممن يتصفون بطيبة القلب وحسن النية — فظل يتراجح بين الأشراف والعامة آناً مع هؤلاء وآناً مع هؤلاء . لا خبثاً ونفاقاً ولكن ذبذبة وتردداً فازدادت الأمور فساداً على يديه

وكانت زوجته مارى انتوانيت مثال الخلاعة والاستهتار وكانت فى هذه الضائقة المالية التى يشكو ضغطها الجميع مثال الاسراف والسفه فكانت عنواناً سيئا لميول السراى نحو الشعب . وألقت على البلاط بسلوكها الشائن ظلا ثقيلا من

الريب والشكوك .

وكان من حول الملك حاشية خبيثة رجعية دأبها أن تصد الملك عن كل إصلاح يعتزمه وتحول بدسائسها بينه وبين خدام الأمة المخلصين فأوهموه يوماً بأن الشعب ينوى مهاجمة الأسرة المالكة فى قصرها ونجحوا بذلك فى اثارة مخاوفه . واستصدار أمر منه بجمع الجيش على مقربة من باريس استعداداً للطوارىء . ولكن الباريسيين أوّلوا ذلك العمل أسوأ تأويل . وراجت بينهم اشاعة مؤداها أن الحكومة نصبت أيضاً مدافعها فوق أبراج سجن الباستيل لهدم المدينة على أهلها . فهاج الشعب لذلك واحتشدت جموعه أمام السجن فى تجمهر خطير ثم ما لبثوا أن هاجموا حاميته . وفتحوا أوابه عنوة . وقتلوا حراسه . وأخلوا سبيل نزلائه التعساء . وكان من أثر ذلك أن استولى الذعر على الملك وعاد يسترضى الشعب بكافة الوسائل . ولكن النصر الذى لاقاه الغوغاء فى يوم الباستيل (١٤ يولية سنة ١٧٨٩) ملأهم اعتداداً بأنفسهم وصاروا من بعده يثورون لأتفه الأسباب . ويهاجمون كل من توهموا فيهم مناصرة الحكومة أو الوقوف فى طريق مطالب الشعب .

وقام الناس فى الأقاليم يحذون حذو أهل باريس فهاجموا قصور الأشراف ونهبوها ثم أحرقوها وقتلوا سكانها ومثلوا بهم تمثيلا . وتمادى أهل باريس أنفسهم فى طلباتهم فكلفوا الملك أن ينزل من ضاحية فرساى مقره ومقر أسلافه من الملوك ليقيم بينهم فى باريس . وذلك لكى يأمنوا دسائسه ودسائس من حوله ممن كانوا يعملون سراً على مقاومة الشعب بالقوة والانتقام منه لخروجه على طاعة الحكومة واستعماله القوة والعنف فى الحصول على مطالبه .

ومن ذلك اليوم تجلت ارادة الشعب فى تسيير شئون فرنسا . وكرهت الملكة مارى أنتوانت أن تقيم على الرغم منها فى شبه أسر وسط الغوغاء فى باريس فاقترحت أن تهرب مع زوجها وولديها إلى النمسا عند أخيها الامبراطور ليوپولد حيث اجتمع الأشراف الذين هاجروا من فرنسا فراراً من الشعب الهائج . وكانت فكرتها فى ذلك أن تستنصر بأخيها ليتعاون معها ومع زوجها على غزو فرنسا الثائرة وقمع الثورة فيها واعادة المياه إلى مجاريها الأولى . ولكن سوء حظ الأسرة المالكة قضى بانكشاف أمرها فى الطريق فضبط الملك هو ومن معه وأعيدوا جميعاً وسط

استهزاء الشعب بهم واعتداءه عليهم .

وتقدم مندوبو الشعب بعد ذلك إلى الملك بنظام جديد لحكومة فرنسا أساسه أن الأمة مصدر السلطات . فلم ير الملك بدأً من قبوله وأقسم يمين الولاء للدستور الجديد فى سبتمبر سنة ١٧٩١ وانتقلت الحكومة بذلك رسمياً من يد أولئك الذين مارسوها أجيالا طويلة إلى أيدى الشعب الغريزة فكان من الطبيعى أن يختل ميزان الأمور ويزداد اضطرابها فى مستهل هذه التجربة الجديدة .

وأول ما شاهدت فرنسا من آثار حكومتها الشعبية أن رأت نفسها تدخل فى حرب مع النمسا . أما سبب هذه الحرب فكان تخوف الفرنسيين من ليوپولد امبراطور النمسا وشقيق مارى أنتوانت الذى رحب بالمهاجرين من أشراف فرنسا والذى أعلن الفرنسيين بأن استقرار النظام فى بلادهم أمر تقتضيه السياسة الدولية فى أوربا فدل بذلك على أنه يعترض طريق الثوار ويعمل على الحيلولة دون تحقيق آمالهم السياسية . فحملوا الملك على أن يعلن الحرب عليه فأعلنها فى أبريل سنة ١٧٩٢ .

على أن الشعب لم يقنع من الملك بذلك . بل طلب اليه

أن يعلن أيضاً بأن جميع الذين هاجروا من فرنسا خائنين لبلادهم يحلل القانون تعقبهم والحكم عليهم بالاعدام . فتوقف الملك عن توقيع هـــذا القرار فكان ذلك سبباً فى إرهابه بمظاهرة عنيفة هجم فيهـا نحو ثلاثين ألفاً من غوغاء باريس على قصر التويلرى فى (٢٠ يونية سنة ١٧٩٢) واعتدوا فيها على كرامته وتطاولوا فيها على مقامه بشكل يشمئز له الذوق السليم إذ يروى أن أحد المتظاهرين أقبل عليه وهو فى حالة سكر بَيِّن وقدم له كأساً من النبيذ ليشرب نخب المتظاهرين فتناول الملك القدح صاغراً ورفعه إلى شفتيه . كما يروى أن متظاهراً آخر بسط إليه قلنسوته الحمراء (وهى شعار الثورة) على سنان رمحه فما كان منـه إلا أن تناولها طائعاً ووضعها فوق رأسه [١].

وقد أعقبت هـذه المظاهرة مظاهرة أخرى أعنف منها (فى ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢) وقد انتهت بفشل رجال الحرس الملكى عن آخرهم والقاء القبض على الأسرة المالكة وايداعها فى السجن .

---

(١) راجع تفصيل هذه المظاهرة وأمثالها فى كتاب (الثورة الفرنسية) للمؤلف

على أن شيئاً من ذلك لم يجد الفرنسيين نفعاً فى حربهم مع النمسا فقد انهزموا لأول لقاء بجيوش أعدائهم . ولم يروا من علاج لهذه الهزيمة الا أن يعودوا إلى وسائل العنف ليرهبوا بها كل من حامت حول إخلاصه لنظامهم أدنى الشبهات حتى لا يجتمع عليهم خطر الفتنة الداخلية وخطر الغزو الخارجى . ووقعت فى هذه الفترة مذابح فظيعة تعرف فى التاريخ باسم (مذابح سبتمبر) لأنها وقعت فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٢ وقد قتل فيها خلق كثيرون ممن كانت تهمتهم أنهم يشايعون الملكية أو ينتمون الى أحد أفرادها .

على أن فريقاً من زعماء المتطرفين بالغ فى تهوره . وقضى سوء الطالع أن يتبعه العامة فى هذا التهور . وكانت أوربا قد تحركت ملوكها لاغاثة زميلهم ملك فرنسا فاقترح هؤلاء المتطرفون أن يتخلصوا من الملك وحراسته حتى يتيسر لهم التفرغ لأعداء البلاد . وحوكم الملك بناء على هذا الاقتراح بتهمة الاتصال بالأعداء والعمل على نكاية الشعب وحكم عليه بالاعدام .

ومنذ وقع رأس لويس السادس عشر ملك فرنسا تحت حد المقصلة لم تعد هذه المقصلة تتهيب رأس غيره . فسيق

اليها أنصار الملك زرافات ولم يبق على ظهر فرنسا شخص واحد تحوم حول اتصاله بالأسره المالكة الشكوك .

وأعلنت الجمهورية فى فرنسا وتولى الحكم فيها حزب اليعقوبيين وهم غلاة المتطرفين . وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة الذين أطلق الشعب عليهم لفرط طغيانهم اسم " Les Trois Dieux " (الآلهة الثلاثة) وهم دانتون ومارا وروبسبير . ويعرف عهد حكم هؤلاء الزعماء « بعهد الأرهاب » وتقدر الرءوس التى قطعت فى عهدهم فى فترة تقرب من السنة بعشرات الألوف . وجلهم لا ذنب لهم اكثر من أنهم « موضع اشتباه الجمهورية » .

عند ذلك اشمأزت النفوس من أعمال اليعقوبيين وبدأ الناس يتناجون بأن تلك الحال لا ترضى الشيطان نفسه . فانتقضت البلاد البعيدة عن باريس على الحكومة المركزية فيها وخرجت عن طاعتها .

وفى نفس الوقت تحالفت دول أوربا على اعادة النظام فى فرنسا ووضع حد لهذه الأهوال التى غرقت فيها .

ولكن جماعة الأرهاب لم يزدادوا الا قسوة وعتوا أمام هذه الاخطار التى باتت تتهددهم فى الداخل والخارج .

وعولت على الالتجاء للطرق الحاسمة الناجعة فى تبديد هذه الأشباح .

فأما فى الداخل فأنها ألقت الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالخروج عليها وذلك بالتنكيل بأهل المدن التى خرجت على الحكومة مثل أورليان ومارسيليا وليون وتولون . ولقد بلغ من قسوتهم مع أهل هذه البلاد أنهم فى ليون مثلا رأوا أن المقصلة لا تسعفهم فى أزهاق الأرواح فكانوا يلقون بالناس فى نهر الرون أفواجا ليغرقوا فيه بالجملة « ولتسبح الجثث إلى مدينة تولون وتنذر أهلها بما سيحل بهم من العقاب» كما كان يقول ممثل الحكومة الذى تولى تأديب العصاة من أهل تلك المدينة .

وأما فى الخارج فقد حبذت الحكومه الأمة الفرنسية بأسرها فلم تبق فيها يدلا تعمل لتعزيز القوة التى تواجه الأعداء .

وقد نجحت هذه الطريقة فعلا كما نجحت أختها وتخلصت فرنسا من الخطرين[1].

---

(١) اقرأ تفصيل هذه الحوادث كلها فى كتاب (الثورة الفرنسية) للمؤلف

الفصل السادس

بين فرنسا وكورسيكا

كان طبيعيا أن لا تقع كل هذه الحوادث فى فرنسا ونابليون ضابط فيها دون أن يكون له دوره الذى يليق بأمثاله أن يلعبوه .

ولقد ألحق بعد خروجه من مدرسة باريس بالفرقة المسماة لافير La Fére وكانت تعسكر فى مدينة فالنس Valence . وأنعم عليه فيها برتبة ملازم ثان . وكان اذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره لا مال له ولا أصدقاء . ولم يكن يعرف أحدا من ذوى النفوذ يستعين به على الرقى فى الجيش. مات أبوه ومات انصار أبيه الذين كان يصح الاعتماد عليهم بعد فقده . وضاقت سبل العيش فى وجه أمه واخوته ، ولم يكن راتبه الأسبوعى يتجاوز خمسة وثمانين قرشا . فلو أنه رضى بهذه الحال وانتظر الفرج فى دوره الطبيعى لبقى ست سنوات قبل أن يرقى لرتبة ملازم أول وست سنوات أخرى قبل أن يصبح يوزباشا واذا استمر الحال على هذا

المنوال فقد يحال على المعـــاش وهو بعد فى مقتبل العمر .
وحينئذ لا يكفى مرتبه لسد رمقه ولـكن هذا المستقبل المظلم
شدد من عزمه واستحث من همته . فأخذ يرقب الحوادث
بأقصى الاهتمام لينتفع من سوانح الفرص . وأكب فى
الوقت نفسه على الدرس والمطالعة بحكم خلو يده من المـال
اللازم للتلهى والترويح عن النفس أو على الأصح بحكم
رغبته القوية فى أن لا يضيع وقته الثمين فى التلهى والترويح
عن النفس كما صرح بذلك فى كلمته المشهورة .

« كنت أشعر دائما أن الوقت من ذهب حتى فى الأوقات
التى كنت فيها خلواً من العمل . »

ولقد انتشرت الـكتابات الثورية فى كل أنحاء فرنسا فى
ذلك الوقت وكان نابليون يطلع على معظم ما كانت تنفثه
الأقلام الهدامة فى تلك الأيام ولـكن ميوله كانت لا تزال
مركزة فى مثـل « بلوتارك » وفى كتب التاريخ العام . وفى
قراءة مؤلفات الفلاسـفة الحديثين أمثال روسو وفولتير .
ولقد خلفت هذه المطالعات فى أسلوب نابليون الـكتابى من
التثقيف ما جعل لبياناته التى كانـ ينشرها على جنوده فى
مستهل المعارك وعقب النصر تلك الروعة التى يحسده عليها

كثير من الأدباء . أما تلك الكهرباء الكامنة فى سطور هذه البيانات فشىء آخر لم يكن مصـــدره روسو ولا كورنى Cornielle ولا غيرهما ولكن كان مصدره روحه الفوار الذى كان يشع المعانى الحماسية كأنها ومضات الصاعقة الجاثمة فوق السحاب .

ولقد كان لمؤلفات هؤلاء الفلاسفة أثر آخر فى نفس نابليون فانه كتلميذ لفولتير مثلا أصبح يحتقر الرهبان ولا يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية وكتلميذ لروسو أصبح يكره الملوك ولكنه كان فى الجملة غير ميال لدراسة الفلسفة فى ذاتها واجهاد مخه فى معنوياتها فان الماديات هى التى كانت تستهوى عقله وتملك حواسه فتلذه قراءة الوقائع والأرقام ويستغرق اهتمامه أمثـــال « ماكيافيللى » « ومونتسكيو » بحوثهما العملية المفيدة .

ولقد ظل نابليون زماناً يعيش بين الفرنسيين ولا يرى فيهم إلا أنهم أعداؤه وغرماؤه الذين اغتصبوا بلاده وحرموها استقلالها . وبقيت كل آماله تحوم حول مستقبل كورسيكا حتى أنه هم بوضع تاريخ لها . بل إنه كتب بالفعل فصلين من هذا التاريخ ثم حال بينه وبين إتمام عمله ما تفتح

أمامه بعد ذلك من ميادين العمل الواسع غير أن آراءه السياسية ما لبثت أن تطورت بعد أن قامت الثورة الفرنسية وألغت النظام الحكومى فى فرنسا وكورسيكا وجعلت هذه الجزيرة (مديرية) من (مديريات) فرنسا بعد أن كانت مستعمرة من مستعمرات التاج فتغيرت نظرته نحو فرنسا وزالت عداوته لها ولكن حنينه إلى وطنه ما زال يملك قلبه وما زال هو يعلق على كورسيكا كل آماله فى الحصول على مستقبل سعيد .

وكأن القدر أبى أن يكون نابليون حاكم شعب من من رعاة الأغنام ورواد الدمن . فأعد له وراء حجب الغيب أرفع عرش عرفه تاريخ أوربا الحديث . ولكن كانت من دون هذا العرش أيام نكدة وليال سود كتب عليه مقاساة أهوالها أولا .

زيارته الاولى لكورسيكا

وذلك أنه بعد أن أقام فى فالانس زماناً تحركت بطاريته الى ليون حيث كانت تخشى الحكومة حدوث اضطرابات فيها . وبعد أن قضى شهراً فى تلك المدينة فكر فى زيارة أهله

ووطنه بعد أن قضى فى فرنسا أكثر من سبع سنوات دفعة واحدة . وكان قلبه ما يزال فى قلق على أمه واخوته منذ نكبت الأسرة بوفاة والده لعلمه بأنه كان عمادها الذي ينعقد حوله كل رجائها فطلب إذن الحكومة فى الحصول على أجازة فسمحت له بسنة (من سبتمبر سنة ١٧٨٦ — سبتمبر سنة ١٧٨٧)

وعاد نابليون الى أمه وتذاكرأفراد الأسرة تلك السعادة التى كانوا يرفلون فى حللها قبل سفر نابليون الى فرنسا وقبل وفاة عميدهم . وأحس نابليون بأن الأنظار تتجه إليه فى حمل مسئوليات أسرته والحلول فيها محل والده كما أحس بعجزه عن تحسين حال نفسه فضلا عن حال أمه واخوته فانقبض صدره تحت تأثير هذا الضيق وعاد الى فرنسا فى نهاية أجازته وقلبه ينفطر حزناً من حرج هذا الموقف .

وعند عودته كانت فرقته فى مدينة Auxonne فوافاها اليها وهناك أخذ نفسه بأقسى أسباب الاقتصاد لعله يستطيع أن يعين أسرته بشيء من مرتبه . فلم يطق جسمه الضعيف تلك الشدة التى أخذه بها وأصيب بفقر الدم وتهدمت بنيته حتى خشى عليه طبيب البطارية أن يموت وإليك بعض ما

ورد فى كتاب بعث به الى والدته فى تلك الايام :

«ليس لى منزع الا العمل . فانا لاأرتدى ثيابى الا مرة فى كل ثمانية أيام ولا أنام منـذ مرضت الا قليلا . أذهب الى مخدعى فى العاشرة من الليل وأفيق فى الرابعة من الصباح . أما طعامى فأتناوله مرة فى اليوم وذلك فى الساعة الثالثة مساء — وقد وجدت ذلك مفيداً لصحتى »

فيارحمة لهـــذا الغريب المسكين الذى تخونه خواطره فيفضى الى أمه بأنه يأكل مرة واحدة فى اليوم ثم يعود فيخشى عليها الهم والغم فيردف قوله بأنه يجد ذلك مفيداً لصحته

الزيارة الثانية .

على أن نابليون برح به الضعف فلم يعد يحتمله فى غربته واشتد حنينه الى أهله تحت تأثير المرض فعاد الى طلب أجازة أخرى وسافر الى كورسيكا (سبتمبر سنة ١٧٨٩) حيث أقام الى أن تحسنت صحته . ثم عاد الى فرنسـا مستصحباً فى هذه المرة أخاه لويس ليخفف الحمل ولو قليلا عن والدته .

وكانت فرقتـه ما تزال فى Auxonne فلحق بها هناك وقضى بها أياما من أتعس ما روى تاريخ البؤس والشقاء .

فكان يقضى بعض أوقات فراغه فى تعليم أخيه ويصرف ما بقى منها فى كتابة الموضوعات الأدبية سعيا وراء الحصول على أجر يتقاضاه عنها من الناشرين . ولقد كابد نابليون تلك الحال بصبره وحزمه المعهودين وأبى تعففه عليه الا أن يبدو للناس طلق المحيا حتى لا يرتاب أحد فيما كان يمزق قلبه من شدائد الخصاصة والعسر .

وأخيرا فى شهر مايو سنة ١٧٩١ رقى نابليون الى رتبة ملازم أول وألحق بالبطارية الرابعة المرابطة فى فالانس فعاد الى هذه المدينة ومعه فى هذه المرة أخوه لويس وقد ارتفع مرتبه قليلا . ولكنه لم يكن يسمح له بعد بتذوق لذائذ الحياة . فكان يقيم هو واخوه فى نفس الغرفة التى كان يقيم فيها عند أول تعيينه فى فالانس . وكان يدفع ما يتبقى له بعد النفقة الضرورية إلى إحدى المكاتب أجرا يخوله حق المطالعة فيها .

الزيارة الثالثة :

وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ أفلح نابليون فى الحصول على اجازة أخرى لمدة ثلاثة شهور فسافر هو وأخوه إلى

كورسيكا وكان يقضى أوقاته كعادته بين كتبه وخرائطه وحساباته حتى لكأنه كان يعد نفسه لمئات المعارك التى كتب له النصر فيها فى مستقبل أيامه على مختلف شعوب أوربا .

وحدث فى هذه المرة أن تجاوز نابليون مدة الأجازة التى كان مرخصا له بها لأنه التحق بخدمة الجيش الكورسيكى وعين قائدا لأحدى فرق المتطوعين الوطنيين رسميا فاصبح بذلك عرضة للعقوبات الصارمة التى يفرضها القانون العسكرى لمثل هذه المناسبات . ولكنه ما لبث أن جاءته الأنباء من فرنسا بأن حكومة الشعب التى كانت قائمة فى ذلك العهد اتهمت الملك لويس السادس عشر بأنه كان على اتصال سرى مع امبراطور النمسا وأن أشراف فرنسا الذين هاجروا منها فرارا من غضب الشعب قد التفوا حول هذا الامبراطور يستنجدون به على رجال الثورة . فأرغم لويس السادس عشر تحت ضغط الحكومة على ان يعلن الحرب على النمسا فانتهز نابليون هذه الفرصة وبادر بالعودة لعلمه بأن الحكومة فى هذا الظرف الدقيق سوف تكون فى حاجة الى كل ضباطها وتحت هذا التأثير قد تتغاضى عن غيابه . ولقد صح ظنه وصدقت فراسته فأنه ما كاد يصل الى باريس (مايو سنة

١٧٩٢) حتى رفع التماسا يطلب فيه إعادته إلى الجيش وفى ٣٠ أغسطس أصدر وزير الحربية أمره بأعادته الى بطارينه مع منحه رتبة يوزباشى .

ولقد قاسى نابليون أثناء اقامته بباريس قبيل صدور هذا الأمر ضيقا شديدا حتى لقد اضطر الى رهن ساعته وكان من جملة ما خطر بباله للحصول على المال أن يستأجر عدة بيوت خالية ثم يتولى هو تأجيرها بسعر أعلى ليربح الفرق بين السعرين . ولكن أصحاب الملك كانوا يترددون فى معاملة سمسار خطر مثل هذا الضابط المفلس .

***

وبينما كان هو يكافح هذا الضيق بين فالانس وباريس وأمه تكابد ما تكابد فى سبيل الحصول على قوت أبنائها كانت الثورة فى فرنسا قد تطورت ودخلت فى أدوارها الجدية تحت تأثير الهزائم التى لقيتها جيوشها فى حربها مع النمسا وشهد نابليون فى باريس مظاهرة ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ التى هاجم الثوار فيها سراى التويلرى واقتحموا على الملك غرفته وألبسوه قلنسوة الثورة الحمراء . ولا تسل عن اشمئزازه عند رؤية هذا المنظر الهمجى فانه لم يتمالك أن صاح : « ياللجبن

كيف سمح أولئك الحراس لهؤلاء الرعاع بالدخول ؟ ألم يكن في مقدورهم أن يكتسحوا بمدافعهم اربعمائة منهم أو خمسمائة ليروا كيف يلوذ الباقون بالفرار ؟ »

وشهد كذلك حوادث ١٠ اغسطس التي تحركت فيها باريس كلها الى سراى التويلرى بقصد حمل الملك على النزول عن العرش وحضر التصادم الذى وقع فيها بين الشعب وبين الحرس السويسرى المكلف بالدفاع عن السراى . ورأى بعينيه تلك القوة النظامية تفنى عن آخرها تحت اسنة الشعب الهائج ونيرانه . و لقد خلفت هذه الحوادث وامثالها فى نفس نابليون تقززا من اليعقوبيين وتصرفاتهم جعله لا يتحدث عنهم بعد ذلك الا باسم (السفلة) أو (الرعاع) ودفعه الى ان يقبل وهو مرتاح الضمير مهمة الوقوف الى جانب الحكومة دائما كلما حاول الشعب المسلح املاء ارادته عليها كعادته وارغامها بقوة السلاح على التسليم بمطالبه غير المشروعة .

الزيارة الرابعة وهجرة الاسرة كلها الى فرنسا :

وكان من بين أعمال اليعاقبة فى تلك الأيام أنهم فى أثناء مطاردتهم لرجال الدين أغلقوا الأديرة وفضوا مدارسها فتشتتت تلميذاتها وكانت اليزا Eliza أخت نابليون بدير سان سير St. Cyr فأسرع اليها وصحبها بنفسه إلى كورسيكا وكان ذلك عقب مذبحة باريس (سبتمبر سنة ١٧٩٢) وما تلاها من المذابح الأخرى فى فرساى وريمس وليون وأورليان وهى المذابح المشهورة فى تاريخ الثورة باسم (مذابح سبتمبر) حيث « قتل كل من كانت تحوم الشكوك حول مشايعته للملكية فى فرنسا ».

على أن نابليون لم يكد يصل الى كورسيكا حتى وقع نزاع بينه وبين « پاؤولى » أحرج مركز الأسرة كلها وحملها على الهجرة التماسا للخلاص من انتقام خصومها الأقوياء .

الفصل السابع

باؤولى

لقد نالت كورسيكا من عطف الدول الأوربية فى صراعها المشرف ضد جنوا ثم فى دفاعها عن استقلالها ضد فرنسا مثل ما نالت بلاد اليونان حين هبت فى وجه تركيا تدافع عن حريتها وتطالب باستقلالها . أما انجلترا فأن ميولها تجاوزت حدود هذا العطف الأدبى إلى تقديم المساعدة المادية فأمدت أهل الجزيرة بالمال والرجال ليتحرروا من خصومهم . والله أعلم بعد ذلك إن كانت تستخلص الطائر من يد صياده لتطلقه وتعيده إلى الجو الحر الفسيح . أم لتدخله بقفصه فى دوائرها المرنة التى أخذت على عاتقها — بطريق التطوع والأختيار — مسئولية ادخال الناس فيها . ؟

وكان باسكال باؤولى زعيم كورسيكا وملكها غير المتوج يعترف بفضل انجلترا عليه فى نضاله ضد خصومه حتى انه لما خرج أمر الجزيرة من يده واستقر سلطان فرنسا عليها لم يجد أمامه غير انجلترا مفزعا يلجأ اليه فلبث فيها سنين عددا

ثم قامت الثورة الفرنسية تهاجم الحكومة (التى اشترت كورسيكا من جنوا) وتبشر بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة للجميع وتعلن أن قواها وقف على نصرة كل مظلوم. فاتصل باؤولى برؤسائها واستدعى إلى باريس فجاءها وقوبل فيها بالحماسة والهتاف . واطلق عليه الشعب هناك لقب « بطل الحرية وشهيدها » ثم سمح له بالعودة إلى كورسيكا فعاد إليها ومنحه مواطنوه لقب « أبو الأمة » ثم عينته الحكومة الفرنسية بعد سقوط الملكية فيها (سنة ١٧٩٢) قائداً لقوات الجزيرة وحاكما عاما عليها .

وكان نابليون منذ نشأته يرى من باؤولى ويسمع عنه ما جعله يتخذ شخصيته القديرة قدوة يحتذى مثالها ويقيس على عظمتها جهوده وآماله لعله يصيب فى آخر أمره ما اصاب صاحبها من الشهرة الواسعة والمجد العظيم !

غير ان الحوادث التى وقعت فى فرنسا إبان الثورة باعدت ما بين الأستاذ وتلميذه . فقد اتسع نفوذ اليعقوبيين فى فرنسا وتطاولت ايديهم الى رأس الملك لويس السادس عشر نفسه وقطعوه وأمعنوا فى وحشيتهم ورأى باؤولى أن فرنسا كما كانت محكومة فى ذلك الوقت جديرة حقيقة بسخط العالم،

المتمدن فأعلن اشمئزازه منها وخروجه عليها ودعا الناس جهرة إلى طلب الانضمام الى انجلترا. فأصدر المؤتمر الوطنى بدوره قراره بأن باؤولى وأعوانه خارجون عن القانون (٢٦ يونية سنة ١٧٩٣).

اما نابليون فقد نظر للأمر من ناحية اخرى بصفته ضابطاً نظامياً فى قوة دفاع الحكومة الفرنسية فانه بينما كان يشارك باؤولى فى سخطه على اليعقوبين كان يرى ان الواجب يحتم عليه الوقوف الى جانب حكومته. وكان يرى من ناحية اخرى ان كورسيكا أضعف من ان تستطيع الاحتفاظ باستقلالها وسط دول اوروبا القوية وانها أقرب الى فرنسا فى لغتها وعاداتها ودينها منها الى انجلترا

فلما جمع باؤولى رجاله من جديد واخذ يعد عدته لخلع سلطان فرنسا عن الجزيرة رفضت اسرة بونابرت ان تشترك فى اى عمل من شأنه مناوأة حكومة فرنسا. فانسلخت بذلك نهائياً عن لواء باؤولى واصبحت موضع سخط انصاره واعوانه.

وبلغ من غضب باؤولى على أسرة زميله القديم «كارلو» أن أهدر دم أفرادها وطلبهم من رجاله أحياء أو ميتين

فأما نابليون فقد باغته أنصار باءولى فى الطريق وأحاطوا به وأسروه ولكنه خادعهم ولاذ بالفرار.

وأما ليتيشيا وأبناؤها فقد استيقظوا فى صبيحة ذات يوم بعد ذلك على صوت نذير يبلغهم أن ألوفا من الفلاحين أنصار پاؤولى الحانقين على اسرتهم جادون فى طريقهم لمهاجمة المنزل ومن فيه فلم تكن إلا دقائق معدودة حتى جمعت ليتيشيا أبناءها وحملت معها ما استطاعت حمله من متاعها ومالها وخلفت الدار للمهاجمين يكسرون حدتهم على جدرانها .

وبقيت الأسرة مشردة بين مخابىء الساحل اياماً بغير مورد ولا مأوى حتى تيسر لنابليون ان يعد لها العدة لركوب البحر .

وفى منتصف ليلة مظلمة كانت أم نابليون واخوته يسيرون نحو الشاطىء على ضوء مصباح ضئيل . وهناك استقلوا زورقا مكشوفا كان فى انتظارهم فما كادوا يستقرون على ظهره حتى انطلق بهم فى ليل كموج البحر تحيط بهم الظلمات من فوقهم ومن تحتهم وليس أمامهم من هذه الدنيا الفسيحة إلا ما ينتظر امثالهم من صنوف العذاب والتشريد .

فهل كان أوسع الناس خيالا يستطيع ان ينظر الى هذه الطرائد التى أخرجت من ديارها وهى لا تملك قوت يومها فيرى فيها بعثة من الملوك خرجت لتتولى حكم اوروبا ولتقتسم بينها أرفع عروشها وألمع تيجانها ؟

الباب الثانى

بين الحظ والمواهب

الفصل الأول : اسرة بونابرت فى فرنسا

« الثانى : المعركة الأولى [حصار تولون]

« الثالث : التحالف الدولى الأول

« الرابع : نابليون والتحالف الأول

« الخامس : كوكب النحس

« السادس : الحكومة فى خطر

« السابع : طالع السعد

الفصل الأول

أسرة بونابرت فى فرنسا

سارت السفينة بأهلها حتى رست فى ثغر مرسيليا وهناك نزلت اسرة بونابرت وهى لا تملك لنفسها طعاما ولا مأوى وسارت ليتيشيا بأبنائها الى سراى البلدية لعرض حالها ملتمسه أن تجرى عليها الحكومة جراية من الخبز لتعيش هى واولادها . فرق لها أهل البلدية وأجابوا طلبها .

وكان من جملة الذين ساعدوا ارملة بونابرت واولادها فى مرسيليا المسيو كلارى من كبار تجار الصابون فى ذلك الثغر فانه عطف على تلك السيدة وأبنائها وسرعان ماتوثقت عرى الألفة بين الأسرتين حتى أنه لم تمض سنتان على إقامة آل بونابرت فى مرسيليا إلا وقد اقترن يوسف بابنة ذلك التاجر بينما كان نابليون يرسم خططه للحصول على يد ابنته الأخرى مدموازيل دزيريه ولولا ان هذه الآنسة لم تشعر بأية عاطفة نحو هذا الضابط الصغير بنفسه الحزينة وجسمه

الضعيف وقبعته الواسعة التى كانت تغرق فيها أذناه لرأيناها بدل جوزفين تتربع على عرش فرنسا الامبراطورى يوما من الأيام .

أما لوسيان الصغير فكان فتى ثائراً حار الرأس مفتتنا بأعمال اليعاقبة حتى أنه لم يكن يدع مجالا يتيسر فيه القاء خطبة إلا وقام فى الناس خطيباً متدفقاً يتغنى بأعمال اليعقوبيين وحكمة تصرفاتهم . ولقد كان من وراء هذه الحماسة أن أدخله اليعاقبة فى زمرتهم وأسندوا اليه مركزاً إدارياً فى بلدة صغيرة قرب مرسيليا وهكذا استطاع هذا الشاب بفضل هوسه أن يخدم أسرته فى الوقت الذى كان لا يزال نابليون فيه نكرة بين ضباط الجيش لا يعرفه أحد بينما كان يوسف بوداعته وهدوئه أخمل من أن يحس به أفراد الأسرة أنفسهم !

الفصل الثانى

المعركه الاولى «حصار تولون»

لما قام الشعب الفرنسى بثورته يطارد الأشراف ورجال الدين لم ير هؤلاء أمامهم إلا الفرار من فرنسا فهاجروا — وكانت هجرة أكثرهم الى النمسا حيث الامبراطور ليوپولد ابن أخى مارى أنتوانت . وهناك أخذوا ينشرون الدعوة ضد الثورة ورجالها فكان عملهم هذا سبباً فى اعلان الحكومة الفرنسية الحرب على النمسا . ولقد هزمت جيوش الثورة فى بدء هذه الحرب وأوشك الأعداء أن يصلوا الى باريس وهناك ثارت كل حمية الفرنسيين فاستماتوا فى الدفاع حتى يئست منهم النمسا وآثرت الانسحاب .

ولكن جيوش الثورة أطمعها هذا الانسحاب فأوغلت وراء أعدائها فى قلب أوربا تطاردهم فى المانيا . وفى بلجيكا وبلغت الجرأة بحكومة فرنسا أنها أخذت تعان باسم الأمة الفرنسية استعدادها لمعاونة كل شعب يجاهد فى سبيل حريته

وتكلف قوادها بأن يمدوا يد المساعدة لكل أمة تضطهد بسبب هذا الجهاد .

وتلبية لهذا النداء الكريم طلبت بلجيكا أن تنضم الى الجمهورية الفرنسية . وكذلك طلبت سافوا . وعند ذلك تملك الذعر قلب انجلترا خشية أن يتسع نفوذ فرنسا وتكون لها السيطرة فى اوربا فنشط وزيرها (وليم بت William Pitt) لجمع الدول الأوربية وتكوين حلف منها لحصر الثورة داخل الحدود الفرنسية ومقاومة رجالها وكانت اسبانيا اول من لبى هذه الدعوة

ولكن فى نفس هذا الوقت كانت مدائن فرنسا البعيدة عن باريس قد شقت عصا الطاعة على الحكومة المركزية هناك نظراً لما اتسمت به كافة تصرفات اليعاقبة من التطرف والوحشية لا سيما بعد اعدام الملك لويس السادس عشر . وفر دعاة الملكية من جميع أنحاء فرنسا الى مدينة تولون فى أقصى الجنوب حيث اتخذوها مقراً لهم وقاعدة لأعمالهم وأنشأوا فيها حكومة محلية وأعلنوا ابن لويس السادس عشر باسم « لويس السابع عشر » ملكا عليهم .

ورأى وليم بت William Pitt بثاقب بصره ان هؤلاء

الملكيين يصلحون لأن يكونوا نواة تجتمع حولهم كل العناصر المعادية للثورة إذا هو قام بتشجيعهم ومؤازرتهم حتى اذا قويت كلمتهم اكتسحت حكومتهم حكومة فرنسا الشمالية التى كانت تخشاها انجلترا . فطرب لهذه التقديرات ولم يتردد لحظة فى تنفيذ خططه وتم الاتفاق بينه وبين حليفته اسبانيا على الاشتراك مع هؤلاء العصاة فى مقاومة الحكم اليعقوبى . ودخلت جيوشهما فعلا ثغر تولون فى أغسطس سنة ١٧٩٣ وتولت أساطيلهما تموين المدينة واهلها بالميرة و الذخيرة وانتعشت بذلك آمال انجلترا فى القضاء على الثورة وخيل اليها ان حكم اليعاقبة قد آذنت شمسه بالأفول .

وهنالك تعلق مستقبل الجمهورية الفرنسية فى الميزان . فلو ان كفة الحلفاء رجحت على كفتها لعادت الى فرنسا حكومة رجعية فى ظل ملك من سلالة آل بربون ولأسدل الستار على كل ما قام به الشعب الفرنسى فى السنوات الأربع الماضية . ولذهب جهاده السابق فى سبيل الحرية صرخة فى واد ولعادت الرجعية مرة أخرى تستغل جمهور الأمة لصالح بضعة افراد من الاشراف .

ولكن الاقدار كانت اسخى على القضية الفرنسية من

إرادة وليم بت فهيأت لها من أنقذها فى ذلك الموقف العصيب وأزاح عن صدرها هذا الكابوس الذى كان خليقاً أن يخمد أنفاسها ! .

وكانت جيوش الحكومة اليعقوبية تحاصر تولون منذ زمان على غير جدوى وذلك بسبب اتصال الحلفاء بها من ناحية البحر فانهم فضلا عن التحصن فى أهم قلاعها كانوا يمدونها بكل ما تحتاج إليه من طعام وذخيرة حتى لا تشعر بضغط الحصار واستمر الحال على ذلك طويلا حتى كاد اليأس يتسرب إلى قلب الجمهورية ولكن حدث فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٣ أن صدرت الأوامر لنابليون بالسفر إلى Nice لينضم إلى الفرقة المرابطة هناك وكان حتما عليه أن يمر فى طريقه بمدينة Touloun . وتصادف أن قائد المدفعية التى كانت تتولى حصار المدينة أصيب بجرح بليغ منعه من الاشراف على أعمال الحصار . فاستوقف نابليون ووُكل إليه أن يتولى قيادة المدفعية ريثما يشفى ذلك القائد . فأقبل على المدافع يعاين مواقعها ويتبين مدى رمايتها فاذا هى مصوبة على المدينة نفسها وإذا هى لا تلقى بقنابلها إلى أبعد من نصف المسافة المقدرة لها فبدأ عمله بضبطها وتسخير نارها على القلاع

المشرفة على مينا تولون حتى إذا ما دانت له تلك القلاع.
واستولى عليها أمكنه أن يصوب من أبراجها مدافعه على
سفن العدو فى الميناء فيلجئه إلى التخلى عن المدينة وتضطر
المدينة بدورها إلى أن تفتح له أبوابها .

ولم تكن انجلترا قد غفلت عن أمر تلك القلاع وأهميتها
فى الدفاع عن المدينة ولذلك فانها ما فتئت منذ دخلت تولون
تقوى خطوط الدفاع حولها حتى أصبح من المتعذر على أية
قوة عادية أن تفكر فى الاستيلاء عليها .

وعرف نابليون من جانبه فداحة العمل الذى أخذه على
عاتقه ولكن عزمته التى كانت لا تزيدها الصعاب إلا صلابة
وصرامة وثباتاً رحبت بتلك المهمة الخطيرة وتفتحت لها
نفسه المتعطشة للعمل .

وكان الانجليز يعتصمون بقلعة فى الجهة الغربية من
المدينة بالغوا فى تحصينها لعلمهم بأن سقوطها يستتبع سقوط
تولون . فجمع لهم نابليون نحو مائتى مدفع . وصوبها جميعها
نحو هذه القلعة التى أطلق عليها الانجليز اسم « جبل طارق
الجديدة » وبلغ من جرأة نابليون أنه كان يشتغل باقامة بعض
هذه المدافع على مرأى من خصومه وعلى مرمى السهم من

استحكاماتهم حتى لقد قتل تحته أكثر من حصان واحد وهو يجرى متنقلا بين رجاله هنا وهنا . ولكنه لم يكن يلبث إلا ريثما يأتيه جواد آخر ليركبه ويستمر فى جهاده . بل إن مجازفته فى الاقتراب من حمى الخصم بلغت إلى حد أن اشتبك به أحد الجنود الانجليز وطعنه فى ساقه اليسرى طعنة نجلاء هددتها زمانا بوجوب بترها . ولم تشأ انجلترا أن تتهاون مع نابليون وهو يستعد لكفاحها فأمطرت رجاله وابلا من قذائفها ونشطت مدفعيتها فى إطلاق النار على جنوده نشاطاً أوقع الرعب فى قلوبهم حتى ولى بعضهم مدبراً وهو يعتقد أن لا حرج عليه فى ذلك إذ لا قبل لزبانية جهنم نفسها بمقاومة مثل هذه النار . ولمحهم نابليون وخشى أن تسرى العدوى إلى بقية جنوده فتفشل ريحه فأسرع إلى مدفع قريب كانت قد عطلته قنابل الانجليز وتسلق ما سورته ووقف على رأسها صائحا .

« Eh bien quoi ! nos artilleurs ont peur ! ? »

« ما شاء الله ! هل دب الخوف إلى رجال مدفعيتنا ! ؟ »

فما لبث أن عاد الجنود إلى أماكنهم وقد رجعت اليهم حميتهم . وعند ذلك قال نابليون .

«Je savais bien que je commandais à des Français.»

« لقد كنت واثقاً من أنى أقود جماعة من أبناء فرنسا ! »

ولم يشأ بفطنته أن يتكرر ذلك الحادث فلجأ إلى وسيلة من وسائله الناجعة لتوريط الفرقة وسد طريق الفرار عليها مرة أخرى فقال .

« علىّ بكاتب أملى عليه أمراً ! » .

فتقدم إليه من بين الصفوف جندى بسيط فقال له اكتب :

« تطلق على هذه البطارية منذ هذه اللحظة اسم بطارية الشجعان ! » .

فتناول الجندى رقعة وما كاد يتم عليها كلمته الأخيرة حتى انفجرت على بعد مترين منهما قنبلة ذرت التراب عليهما وعلى رقعتهما فما كان من ذلك الجندى إلا أن قال باسما .

« الحمد لله ! لقد كفتنا هذه القنبلة مؤونة حمل التراب بأيدينا لتجفيف ما كتبناه ! » .

فوقع هذا القول من نفس نابليون موقع الاستحسان . ولم ينس أن يرفع صاحبه من الصفوف إلى مراتب الضباط ليكون فى شجاعته وتقدمه مثالا لغيره ممن تطمح نفسه إلى الرقى والظهور — أما هذا الجندى فكان اسمه جونو Junot

وبقى مقرباً من نابليون إلى آخر أيامه وظل يتدرج فى سلم الرقى حتى حصل على لقب دوق دابرانت Duc d'Abrantes

وما كاد يطمئن نابليون إلى قوة خطوطه التى أقامها حتى شرع يصب القذائف منهـا صباً على رءوس خصومه فى « جبل طارق الجديد » . وأخذ يستعدى رجال مدفعيته عليهم بكل ما أوتى من وسائل التحريض معرضاً بشخصه لكل المخاطر التى قد يتعرض لها أى جندى من جنوده وهو لا يبالى بما يستهدف له من الخطر . ولقد حدث يوماً أن سقط بجواره أحد رجال مدفعيته وفى يده المشعل الذى يوقد به مدفعه فما كاد يراه نابليون حتى وثب إلى حيث رقدت جثته وتناول بيده ذلك المشعل الدامى وأوقد به بارود المدفع عدة مرات .

وأخيراً حلت ساعة الهجوم الفاصل الذى أراد به نابليون أن يقضى على الحامية الانجليزية القضاء الأخير . فأعطيت إشارة الهجوم فى منتصف ليلة ١٧ ديسمبر سنة ١٧٩٣ وسط ريح صرصر عاتية وسيل غزير دافق وبروق ورعود وصواعق ولم تمض ساعات قلائل حتى كان نابليون قد أطلق من مدافعه ثمانية آلاف قنبلة على « جبل طارق الجديد » حتى تركه كومة

واحدة من الأنقاض ولكن الانجليز ظلوا كلما تعطل منهم مدفع أقاموا غيره . ودامت المعركة على أعنف ما يكون بين الفريقين ساعات طويلة . وكان الفرنسيون يتقدمون فى وسط الظلام المخيم وبين القصف والهزيم حتى يصلوا إلى فوهات مدافع الانجليز والنار تحصدهم حصداً وكلما فنيت صفوفهم بدلهم نابليون بصفوف غيرها حتى اكتظت الخنادق بجثث القتلى والجرحى وأخيراً ذابت قوة الانجليز تحت هجمات نابليون الحارة . وهدأت نيران القلعة قليلا فانقض عليها الفرنسيون دفعة واحدة ووقفوا فوق أطلالها يخمدون ما لايزال يتردد تحت أنقاضها من أنفاس خافتة وفى دقائق معدودة كانت الحامية الانجليزية قد لملمت آخر أذيالها وهى تحتجب وراء أستار الفناء .

وعند ذلك نظر نابليون إلى الجنرال « ديجومييه » Dugommier قائدالقوة المرابطة حول تولون قائلا : « اذهب إلى فراشك ياسيدى ونم فقد استولينا على تولون ! »

ويقول «سكوت — Scott » أحد كبار كتاب الانجليز فى وصف تلك المعركة : لقد كان فى وسط تلك الليلة المليئة بالأهوال وفى وسط ماسطع فى ظلامها من نيران وما أريق

فيها من دموع ودماء أن ظهر نجم نابليون فوق الأفق .

على أن استيلاء الفرنسيين على « جبل طارق الجديد » لم يكن آخر فصول تلك المأساة الفاجعة . فان القذائف مافتئت تنهال على مبانى المدينة وطرقاتها المزدحمة بالمستغيثين والفارين حتى لاحت شمس الصباح وتحت أشعتها الباردة الضئيلة تكشفت ظلمات الليل عن أبشع ما رأت عين الانسان : برك من الدم تغطى وجه الأرض فى كل مكان وأجساد متناثرة بعضها هامد وبعضها يجود بالنفس الأخير . ولكنها كلها قد مثلت بها المدافع أشنع تمثيل . وكانت نيران القنابل لا تصيب مكاناً فى المدينة إلا التهمت حطامه التهاماً .

على أن نابليون بعد أن استولى على « جبل طارق » لم يسمح لنفسه باضاعة لحظة واحدة فى تحصيل شىء من الراحة لنفسه أو الاستمتاع بثمرة من ثمرات انتصاره بل شرع فى نصب مدافعه على متون الحصن المتهدم وصوبها نحو البوارج الانجليزية الراسية فى الميناء تنفيذاً لخطته المرسومة من قبل . فما رأى اللورد هاو « Howe » أميرال الأسطول الانجليزى علم الثورة يرفرف فوق ذلك الحصن حتى أيقن بأن المدينة وقعت غنيمة فى يد نابليون . وأعطى الاشارة لبوارجه بالانسحاب

ونشر أمير البحر قلوعه بالفعل عملا بالنصيحة الذهبية «انج سعد فقد هلك سعيد» .

أما أهل المدينة فانهم ما كادوا يشعرون بحركة الأسطول الانجليزى حتى هرولوا نحو الشاطىء من كل فج فى حالة هلع شديد يلتمسون ركوب البحر فراراً من نابليون وجنوده الهائجين . ولم تستطع مراكب الحلفاء أن تحمل أكثر من ٢٠٠٠٠ من أهل المدينة . أما باقى سكانها فقد تركتهم تحت رحمة رجال الثورة الذين اندفعوا من أبواب المدينة كالذئاب الكاسرة يطاردون فرائسهم وهى تجرى أمامهم فوق الاشلاء المبعثرة فى حالة ذهول وجنون .

ولقد حاول ديجوميه كما حاول نابليون أن يكبح جماح جنوده الثائرين ولكن جريمة تولون فى إيواء أعداء الثورة ورفع أعلامهم على قلاعها كانت جريمة تصم آذان اليعقوبيين عن أى نداء اللهم إلا ما كان متمشياً مع صوت ضمائرهم فى وجوب أخذ الثأر من أعداء الوطن الخونة المتمردين !

وبلغ من إعجاب ديجوميه بنابليون وبلائه الحسن الذى أبلاه حول تولون أنه بعد سقوط المدينة تأبطه معه إلى مارسيليا وهناك رآه بعض أصحابه فمال عليه مازحاً يقول :

« من هذا الضويبط ؟ وأين وقعت يدك عليه ؟ » .

فما كان من ديجوميبه إلا أن أجاب :

هذا الضابط اسمه نابليون بونابرت ! وقد وقعت يدى عليه فى حصار تولون التى يرجع الفضل الأكبر فى إسقاطها إليـه ولسوف ترى يوماً من الأيام أن هذا (الضويبط) أكبر من أى رجل فينا ! » .

الفصل الثالث

التحالف الدولى الاول

أشرنا فى الفصل السابق إلى الجهود التى قام بها وليم بت وزير انجلترا فى سبيل جمع الدول الأوروبية على فرنسا لحصر الثورة فيها والقضاء عليها داخل حدودها . قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر عدواها فيما جاورها من البلدان .

وكان طبيعياً أن يكون ملك اسبانيا أول من يلبى هذه الدعوة لمتاخمته لميدان الثورة .

كما كان طبيعياً أن تدخل هولندة فى هذا الحلف بعد أن رأت فرنسا تستولى على بلجيكا .

أما النمسا وبروسيا فدفعهما إلى الانخراط فى سلك هذا التحالف ما كان لا يزال عالقاً بأيدى القوم من دم مارى انتوانت ملكة فرنسا وعمة امبراطور النمسا . وما كان بينهما وبين فرنسا من ثارات الحرب التى أعلنها ملك فرنسا لويس السادس عشر قبل محاكمته وإعدامه . وهكذا أطبقت جيوش الحلفاء على فرنسا من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب !

ولم يكن بد تحت هـذا الضغط من أن تتراجع جيوش الثورة التى كانت قد أوغلت فى قلب أوربا . وكان من بين القواد الفرنسيين المنهزمين رجل اسمه ديموريه « Dumouriez » ينتمى الى حزب الجيرنديين الذى كان يحكم فرنسا بالائتلاف مع حزب اليعاقبه . فلمـــا رأى ديموريه أنه قد خذل أمام النمساويين استولى عليـه اليأس لأنه كان يعلم أن ليس للقائد المنهزم عند اليعاقبة غير المقصلة فتخلى عن مكانه وانضم إلى الأعداء فراراً من الموت المحقق . وكان عمله هذا سبباً فى نكبة حزبه فى باريس حيث حامت الشكوك حول زعماء الحزب واتهموا بالخيانه وممالأة العـدو والـكيد للجمهورية . وتمثل اليعاقبة فى أشخاصهم جريمة صاحبهم ديموريه فألقوا القبض عليهم وطرحوهم فى السجن ولـكن كثيرين منهم تمكنوا من الهرب وانتشروا فى أنحاء فرنسا يلقون بذور الفتنه ويثيرون الرأى العـام فى الأقاليم على حكومة اليعاقبة . وأفلحوا فى ازعاج غرمائهم إلى حد بعيد حيث قامت مرسيليا وطولون وبردو وليون تشق عصا الطاعة . ويعلن أهلها خروجهم على الحـكومة القـائمة فى باريس . وقد أشرنا الى ذلك فى فصل سابق .

أزاء هذا الانقلاب الذى حصل فى فرنسا وانقسام اهلها بعضهم على بعض تغيرت خطة الدول فبعد أن كانت نيتهم مقاومة الثورة ومحاربة القائمين بها اتجهت أنظارهم إلى تقسيم فرنسا وتوزيع أسلابها بين أنفسهم فاستولى الانجليز والنمساويون على « Condé » كونده وفالنسين Valencienne واستعاد البروسيون ما كانت فرنسا قد سلختها عن بلادهم وانتصرت جيوش أسبانيا على الفرنسين فى جبال البرانس. وزادت انجلترا هذا الطين بلة بأن أعلنت الحصر البحرى على جميع الموانى الفرنسية .

فلم ير اليعاقبة تحت هذه الضربات المتتابعة إلا أن يعلنوا أن « الوطن فى خطر » وأن لا سبيل لخلاصه إلا تركيز السلطة فى يد هيئة صغيرة تخول سلطة واسعة مطلقة لدفع هذا الخطر عن البلاد . فوضعت هـــذه السلطة فى يد لجنة أطلق عليها اسم « لجنة الأمن العام » وتولت هذه اللجنة حكم فرنسا من يونيه سنة ١٧٩٣ لغاية يوليه سنة ١٧٩٤ ويعرف عهدها فى تاريخ فرنسا باسم « عهد الأرهاب » لأنها لم تتعفف فى سبيل القضاء على خصومها فى داخل فرنسا عن سلوك أشد السبل قسوة وأكثرها وحشية واستكثرت من القوانين

الاستثنائية التى تمكنها من ارهاب أعداء الجمهورية والتنكيل بهم وجعلتهم عبرة لغيرهم حتى تنصرف الجهود بعد ذلك إلى خصوم الدولة خارج الحدرد .

وقد قررت هذه اللجنة فعلا تعبئةالأمة الفرنسية بأسرها تعبئة عامة لدفع الخطر الخارجى الذى كان يتهددها بوقوف الأعداء على حدودها كما سبق لنا البيان فى الفصل الخامس من الباب الأول (الثورة الفرنسية) .

« فأما الشبان فيذهبون الى ميدان القتال . وأما الأزواج فيبقون فى المصانع لأعداد الذخيرة وصنع السلاح . وأما الزوجات فيفرغن للخيام ونصبها والجرحى وتطبيبهم وتهيئة الطعام واللباس وأما الصبية فيشتغلون بتحويل الخرق والمزق إلى أربطة لتضميد الجروح وأما الشيوخ فيستقرون فى الأسواق لأنهاض الهمم وتغذية النفوس بالغيرة والحماسة »

أما ما أعدته اللجنة لدفع الخطر الداخلى فكان « قانون الاتهام » الذى يقضى بالاعدام على كل من تشتبه الحكومة فى عدم ولائه لها .

وبهذه الصرامة والبساطة فى الاجراءات استطاعت اللجنة أن تتغلب على العقبات التى اعترضتها وأن تدفع عن نفسها

خطر الغزاة وخطر الثائرين

فأما المدن الثائرة فقد سقطت واحدة بعد واحدة فى أيدى جيوش اليعاقبة . ولم تستعص على تلك الجيوش منها الا مدينة تولون . وقد رأينا فى الفصل السابق كيف وصل نابليون اليها وأقام أساس عظمته الحربية حول اسوارها

وأما جيوش الحلفاء فقد ردهم قواد الثورة واستردوا مواقعهم الاولى فى المانيا وبلجيكا واستولوا على هولندا فى أواخر سنة ١٧٩٣ ولم ينقض عام ١٧٩٤ حتى كانت فرنسا صاحبة السيادة فى البلجيك وهولندا ونيس وسافوا وشاطىء الرين الغربى وهى الحدود التى كان يحلم بها لويس الرابع عشر ولا يستطيع تحقيقها .

وعلى أثر هذه الانتصارات انسحبت بروسيا من الحرب وتبعتها اسبانيا وبذلك أنهار التحالف أو كاد ولم يبق من أركانه غير انجلترا والنمسا .



الجنرال بونابرت

الفصل الرابع

نابليون والتحالف الاول

قدرت الحكومة الفرنسية الخدمات التى قام بها نابليون لصالح الجمهورية حول تولون فأمرت بترقيته إلى رتبة لواء اعترافا بفضله . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز بعد سنته الخامسة والعشرين حين حصل على هذه الرتبة السامية فان اسمه كان لايزال مجهولا بين الفرنسيين حتى أن الضابط الذى عين ياورا له لما كتب إلى أبيه يقول له أنه سيكون ياورا للجنرال بونابرت كتب إليه أبوه والأسف يملأ فؤاده :

« لماذا تركت القائد لابورد ؟ ولماذا تركت فرقتك ؟ ومن هو الجنرال بونابرت وأين خدم ؟ انى لا أعرف أحداً يعرفه . . . . . » .

على أن نابليون لم تكن تنقصه معرفة والد ياوره لتقدره الحكومة الفرنسية حق قدره فانه كان أملها الوحيد فى القضاء على ما بقى من عناصر التحالف الأول (انجلترا والنمسا) — ولما كانت انجلترا قد أعلنت حصرها للشواطئ الفرنسية

لخنق تجارتها وحرمانهـا من الاتصال بأية دولة أخرى فان الحكومة عهدت إلى نابليون فى القيام بمهمة تحصين الشاطئ الجنوبى فى وجه السفن الانجليزية . فانغمس فى هذا العمل الجديد بهمته المعهودة : ولم يترك فجوة فى البحر ولا ربوة على الأرض إلا سبر غورها وضبط أبعادها حتى اجتمع له من المعلومات فى بضعة أسابيع ما لم يكن ليجتمع لبعثة كاملة فى شهور . وبعد أن قسم المنطقة الساحلية إلى ثلاثة خطوط للدفاع وأقام على كل خط مدافعـــه عاد إلى قاعدة الجيش المرابط فى نيس .

وكانت الحكومة الفرنسية قد أعدت هذا الجيش لمحاربة النمسا التى حشدت جيوشها فى سهول إيطاليا الشمالية استعداداً لمهاجمة الحدود الفرنسية بمساعدة (بيدمنت) . فلمـا دخل نابليون هذه المدينة وجد الجيش الفرنسى قانعاً بالكمون فى خنادقه ينتظر وثبة النمسا عليـه ليقوم بردها . فلم تعجبه هذه الحال وقام من فوره بوضع خطة للهجوم بناء على معلوماته التى اكتسبها عن طبيعة ذلك الميدان وقدمها من تلقاء نفسه لقائده الأعلى . وكان رجلا شهماً لبيبـاً فلم يتردد فى قبولها وتولى بالفعل تنفيذها . وبذلك لم تكد تمضى على نابليون فى

نيس ثلاثة أسابيع حتى كانت القوة الفرنسية كلها تزحف على العدو . ففر جيش (بيدمنت) أمام هذه المباغتة تاركا وراءه مؤنته وذخيرته غنيمة باردة للفرنسيين وبهـــذه الطريقة استولى الجيش الفرنسى على كافة الممرات التى تخترق جبال الألب من جهة الغرب .

غير أن نابليون لم يكد يتنفس قليلا فى ذلك الجو السعيد الذى كان يحيط به فى ذلك الوقت حتى ألقى القبض عليه بتهمة أنه عند ما كان مكلفاً بتحصين الشواطئ الجنوبية عمل على تسليح سجن قديم فى مرسيليا توهم النـاس أن القصد منه إنما هو إقامة (باستيل) جديد يهدد سلامة الوطنيين بينما كان نابليون لا يرمى من وراء تسليحه إلى أكثر من أن يجعـله مستودعاً للذخيرة تستمد الجنود منه حاجتها ولقـــد وفق نابليون فى هذه الأزمة إلى الحصول على معـاونة روبسبير الصغير شقيق روبسبير الـكبير طاغيـة باريس وزعيم حكم الأرهاب فنجح فى توصيل صوته إلى أسماع ذوى الشأن وسط تلك الضوضاء التى لم يكن يسمع فيها غير جعجعة الجيلوتين . ونجا نابليون من القتل المؤكـد . فأخلى سبيله وأعيد إلى جيش نيس .

وفى ذلك الحين عرض عليه روبسبير الصغير مساعدته لدى شقيقه الأكبر ليعينه قائداً لحامية باريس ولكن نابليون لم تكن تخفى عليه الفوضى المستحكمة هناك . ولم يشأ أن يلقى بنفسه فى ذلك الوسط الموبوء الذى لم تكن تستقر الرءوس فيه على أكتاف أصحابها طويلا . وفضل الخدمة فى جبال الألب على الاتصال « بآلهة الأرهاب » فى باريس !

الفصل الخامس

كوكب النحس

كان نابليون حكيما فى رفضه الاشتراك مع روبسبير الكبير فى حكم باريس ولكن ما كانت الحكمة لتجدى إذا تلألأ فوقها كوكب النحس . وما كان فى الحذر غناء مما تجرى به المقادير . ولقد كان مقدراً على نابليون أن يسجن أولا ثم يوقف ويحرم من مرتبه ثم يشطب اسمه من الجيش مرة واحدة ثم تضيق الدنيا فى عينيه إلى حد أن يفكر فى الانتحار!

سجن نابليون

فى تلك الفترة وقع فى باريس من الحوادث ما اهتزت له فرنسا كلها وقلب جميع شئونها رأساً على عقب . إذ كان « الآلهة الثلاثة » روبسبير ودانتون ومارا يحكمون باريس بالاشتراك فيما بينهم . فلما قتل مارا بقى فيها « إلهان » اثنان فقط ثم لم يلبث روبسبير أن اختطف روح شريكه وانفرد بالملك وحده . غير أنه بالغ فى سوء الظن بالناس وأسرف

فى الاعتداء على أرواحهم حتى ضجت باريس وائتمرت (بألهها) الباقى وقتلته . وارتفع بمقتله ذلك الكابوس المفزع الذى طحن فرنسا تحت كلكله شهوراً طوالا . وأحس الناس بعد موته كأنما أفاقوا من حلم مريع . وأصبحوا يتلهفون جميعاً للعودة إلى حياتهم الأولى حياة الدعة والسكينة والاطمئنان . وتعالت الأصوات من كل ناحية بوجوب مطاردة عمال الارهاب وقطع دابرهم والتخلص من نفوذهم .

وأمعن الناس فى تعقبهم لرجال الارهاب وأنصار حكومته حتى وصلوا إلى عنق نابليون فقبضوا عليه بدعوى أنه كان على اتصال بروبسبير فأودع السجن رهن التحقيق . ولم يبق إلا أن يخطو الخطوة الثانية فى هذا الطريق المحدود الذى كان ينتهى عادة تحت سكين الجيلوتين .

ودخلت أسرة نابليون على أثر هذه الحادثة فى برج النحس من جديد إذ ألقى القبض على لوسيان أيضاً وجاء وقت حسابه عن هوسه الذى استسلم له منـــذ كانت الأسرة فى جزيرة كورسيكا وود المسكين لو جلد بعدد حروف خطبه الرنانة حرفاً حرفاً على أن يسلم رأسه من المقصلة .

وهكذا خيم النكد على رأس هذه الأسرة فى الوقت

الذى كانت تتجاوب فيه أنحاء فرنسا بصيحات البشر والفرح لتخلصهم من شرور اليعاقبة وانتهاء حكم الارهاب .

على أن روح نابليون العنيد لم يفارق قوته حتى فى هذه الظروف اليائسة فلم يأل جهداً فى الاحتجاج لدى أولى الشأن على ما أصابه بعد أن وقف لصالح فرنسا كل تلك المواقف المشرفة التى رفع فيها راية الوطن عالية فى وجه خصومه وكذلك لم يأل صديقه جونو جهداً فى الدفاع عنه والشهادة له بأنه كان بعيداً عن جماعة الارهاب كل البعد وأنه رفض فعلا أن يمد يده اليهم عندمادعوه لمعاونتهم وأطمعوه بنفوذهم ووعودهم وأخيراً أراد الله أن تنكشف عنه هذه الغمة فبعد أن فتشت أوراقه ولم يتوفر فيها الدليل على اتهامه أخلى سبيله .

بعد ذلك أعيد نابليون إلى رتبته وسافر مرة أخرى إلى الجنوب ليشترك فى حرب النمسا وكأنه أحس بأن واجباً عليه أن يثبت للحكومة التى أفرجت عنه بأنها أحسنت إلى نفسها بهذا الافراج قبل أن تحسن إليه فما كاد يتسلم عمله فى الجيش حتى رد النمساويين عن مواقعهم وانتصر عليهم انتصارات أولية مهدت السبيل أمام الجيوش الفرنسية التى

كانت تنوى غزو السهول الشمالية لايطاليا .

ولكن الحكومة المركزية فى ذلك الحين سجلت على نفسها أنها كانت أعجز من أن تقدر جهود العاملين من رجالها حينما قضت بنقل نابليون من جيش إيطاليا ووكلت اليه قيادة لواء المشاة الذى نيط به إخماد الفتن التى قام بها أهل مقاطعة «لافندة La Vendée» فى غرب فرنسا . فامتعض نابليون لهذا القرار ورأى فيه نكرانا للمواهبه واعتداء على كرامته فان رجال المدفعية كانوا فى ذلك العصر — كما هم اليوم — يعتبرون أنفسهم أرقى من زملائهم (مشاة وفرسانا) بالنسبة لما تتطلبه الخدمة فى سلاحهم من الخبرة والمهارة الفنية على عكس سلاح المشاة مثلا الذى لا يتطلب فى نظرهم كفاءة خاصة والذى يمكن لأى ضابط من الأسلحة الأخرى أن يخدم فيه .

ورأى نابليون من جهة أخرى أن لانتصاراته على أعداء فرنسا خارج حدودها قيمة أكبر وأسمى من قيمة انتصاراته على أبناء فرنسا أنفسهم داخل الحدود . فلم يتردد فى الاعتذار عن قبول هذه الخدمة الجديدة مدعياً أن صحته فى حاجة الى الراحة والعلاج .

وقفه وحرمانه من مرتبه

ولقد ترتب على رفض نابليون لما عرضته عليه لجنة الحربيـة أن أوقف وحبس عنه مرتبـه فساءت حاله وحال أسرته معه . ولم يعد لهم من مورد يستندون اليه إلا ماقبضه يوسف من مهر عروسه ابنـة المسيو كلارى التى تم زواجه بها حديثاً فى مارسيليا ويستطيع الأنسان أن يقدر قيمة هذه المعونة متى عرف أن نابليون نفسه كان يغبط أخاه على هذه الزيجة ويتمنى لنفسه مثلها وهو يقول « ما أسعد حظ هذا الأبله يوسف ! » .

شطب اسمه من الجيش

وحدث أن سقطت الحكومة القائمة فى فرنسا فى ذلك الوقت وقامت فى مكانها هيئة جديدة فبادر نابليون بالسفر إلى باريس وهو يرجو أن يأتيه الفرج على يدها فيعود إلى مركزه السابق فى الجيش ولكنه لم ينل منها مأربا . وأخيراً فكر فى السفر إلى تركيا حيث كان السلطان يرغب فى اعادة تنظيم جيشه بمعاونة خبراء عسكريين من الجيش الفرنسى .

فرشح نفسه لذلك فعلا مع غيره من المرشحين وبينما هو يمنى نفسه بقرب الخلاص من هذا الضيق ويحلم بما سيصادفه فى الشرق من النجاح كانت الحكومة تقلب ملف خدمته بين يديها تمهيداً للنظر فى أمر ارساله إلى تركيا فلا تجد فى سلوكه معها إلا مخالفة من بعدها مخالفة بسبب كثرة غيابه فى كورسيكا وتخلفه عن المواعيد التى كان يرخص له بها واعتـــذاره عن قبول المناصب التى تعرض عليه فقررت بشطب اسمه من كشف القواد . وبذلك حلت النكبة كاملة بعد أن ظلت زمانا تحلق فوق رأسه وهو يتقلب تحتها بين الرجاء واليأس .

ولقد كان لهذه الضائقة فى نفس نابليون من الأثر ما لم تقو الأيام على محوه وإزالته . واليك ما قصه هو بنفسه على زملائه الذين صحبوه فى سانت هيلانه عما كان يعانيه من الآلام بعد ما فوجىء بشطب اسمه من الجيش وأصبح على الرغم من كل مواهبه عاطلا شريدا يتسكع فى طرقات باريس :

كنت فى ذلك الحين فريسة لتلك الحالة النفسية التى يخلقها الضيق ويشل معها حركة الفكر وتصبح الحياة على صاحبها حملا ثقيلا لا يطاق وورد إلى من أمى كتاب تصف لى فيه ما وصلت إليه من العجز التام عن القيام بنفقات إخوتى.

الضرورية ورأيت نفسى لا عمل لى ولا راتب ولم يكن فى جيبي غير ريال واحد . فاستيقظت فى نفسى غريزتها البهيمية فى العمل على التخلص من هذا الشقاء الذى لا يحتمل وفقدت كل أمل فى أمكان الخلاص من هذه التعاسة الملازمة . فرأيت أقدامى تقودنى إلى جانب النهر وكنت أحس بما فى الأقدام على الانتحار من عدم الرجولة ولكنى لم اكن أستطيع مقاومة الدافع الذى يدفعنى إلى إلقاء نفسى فى الماء . ولم تكن بينى وبين هذه الخاتمة الشنيعة إلا لحظات قصيرة كان لابد منها لهذا الخاطر المشئوم حتى ينضج وينتقل إلى دور التنفيذ وعند ذلك لم أشعر إلا وانسان يطوقنى بذراعيه ويناديني باسمى فنظرت فأذا أنا بين ذراعى صديق قديم كان معى فى المدرسة . وكان هذا الشاب من سلالة إحدى الأسر الشريفة بفرنسا ثم هاجر منها مع المهاجرين ولكنه كان يعاود زيارة باريس فى الخفاء من حين إلى حين ليزور أمه العجوز .

وكأنما راع صديقى ما رآنى عليه من الكآبة وما كان باديا على ملامحى من النوايا الشريرة فأقبل على بلهفة يسألنى « ما بالك يا نابليون ؟ إنك لا تلتفت الى ! وكأنى بك لم تسر

بلقائى ! أى شىء يشغل بالك ؟ أنك لتنظر إلىّ نظرات رجل مجنون يوشك أن يقتل نفسه ! » .

وكأنما كشفت فراسة صديق الغطاء عن دخيلة نفسى فلم أعد أفكر فى أخفاء شىء عنه مما كان يجول بخاطرى وأفضيت اليه بكل سرى . فما كدت أفرغ من حديثى حتى رأيته يحل عن وسطه نطاقا كان يشده عليه وهو يقول : أهذا كل شىء ؟ دونك ستة آلاف ريال ذهباً لاحاجة لى بها الآن خذها وفرج بها كربة أمك ! » فلم أدر والذهب أمامى كيف سمحت لنفسى بأن استولى عليه ولكنى اختطفته من غير وعى وغلبنى الانفعال فطفقت أعدو حتى أدركت البريد المسافر لى مرسيليا فحملته إياه . وعند ذلك عدت إلى نفسى وبدأت أفكر فيما صنعت . وكان أول ما فكرت فيه أن أعود إلى حيث تركت صديقى ولكنى حاولت عبثاً أن أنتظره أو أهتدى إليه . ولقد لبثت أياماً وأنا أذهب إلى ذلك المكان كل صباح ولا أعود منه إلا فى المساء لعلى أظفر بلقاء هذا الصديق ولكن ذهبت كل جهودى فى هذا السبل أدراج الرياح ولم أوفق للعثور على هذا الصديق إلا بعد أن تربعت على عرش الأمبراطورية فوجدت أن الفرصة مؤاتية للانتقام

لنفسى من جميله الذى أسداه إلىّ وانتشلنى به من وهدة الضياع . فسألته عن رأيه فى تصرفى معه فى تلك الليلة العصيبة فأجابنى بانه لم يكن فى حاجة إلى المال ولذلك لم يبرز لمطالبتى به بعد ذلك . وقال إنه خشى أن يقدم نفسه لى فأحرمه من عزلته التى كان يعيش فيهـــا هادئاً بين مزارعه وبساتينه . فأغلظت عليه فى قبول ستين ألف ريال وفاء لمبلغ ستة الآلاف التى دفعها إلى فى محنتى . والححت عليه فى قبول وظيفة المدير العام للحدائق الامبراطورية بمرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال وعينت شقيقه كذلك فى مركز من المراكز السامية »

الفصل السادس

الحكومة فى خطر

كانت حكومة فرنسا أيام لويس السادس عشر حكومة ملكية استبدادية ثم تقرر جعلها حكومة دستورية . وأقسم الملك يمين الولاء للدستور الذى وضع تحت إشرافه . ولكنه حنث بيمينه فثار عليه الشعب وسجنه وقتله وأعلن انقضاء عهد الملكية فى فرنسا . ودعى مؤتمر وطنى (سنة ١٧٩٢) ليرسم للبلاد نظام حكومة جديدة . ووقع الاختيار على النظام الجمهورى . ولكن قامت بعد ذلك « حكومة الأرهاب » بسبب الأخطار التى تهددت فرنسا . وقاست البلاد فى ظلها الويلات فلما قتل روبسبير. وانتقل الحكم من يد (اليعاقبة) إلى (المؤتمر) عاد الناس يتنفسون فى جو الحرية المنعش وحاول المصلحون أن يقبضوا مرة أخرى على دفة الحكم ليعودوا بتلك السفينة المرتطمة التى خلفها لهم روبسبير الى شاطئ السلام والرخاء والنظام . وعاد المؤتمر يستأنف جهوده فى وضع نظام الحكومة الجديدة .

ولكن اليعقوبيين لم تكن تروقهم هذه الحركة بطبيعة الحال فانتشروا يثيرون الناس على هيئة المؤتمر وساعدهم على نشر هذه الدعوة ما كان يقاسيه العامة من الضيق وقلة الاقوات فكثرت اجتماعات العمال والغوغاء. وأخيراً تقدموا إلى المؤتمر بطلباتهم وفى مقدمتها تنفيذ (دستور سنة ١٧٩٣) الذى وضع فى عهد الارهاب وحالت ظروف البلاد فى ذلك الوقت العصيب دون تنفيذه وكان يمتاز هذا الدستور بأنه يجعل الحكم للشعب مباشرة لأن حق الانتخاب فيه مقرر لكل من بلغ عمره ٢١ سنة . وكانت السلطة التشريعية بمقتضاه فى يد مجلس واحد ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام وكان لابد لنفاذ القوانين التى يُصدرها هذا المجلس من استفتاء الشعب فيها استفتاء عاماً . وغنى عن البيان أن مثل هذا الدستور كان أدعى إلى الفوضى منه إلى النظام نظراً لأنه يحاول أن يشرك أفراد الأمة كلها فى حكم البلاد . فقرر المؤتمر ادخال بعض التعديل على نصوص هذا الدستور . وعينت لجنة للقيام بهذا العمل . فثار الجمهور بايعاز اليعاقبة وهاجم دار المؤتمر واقتحم أبوابها واختلط بالأعضاء وحاول أن يحملهم بالارهاب على إجابة مطالبه . ولكن هيئة المؤتمر ظلت ثابتة . واعتصمت

بالحكمة والرزانة حتى تفرق الثائرون وزال الخطر وعند ذلك بادرت بالرد على هذه المباغتة الآثمة فأصدرت قراراً بأن حرية مداولات المؤتمر قد اعتدى عليها فى ذلك اليوم . وأنه لا بد من اجراء التحقيق لمعرفة زعماء هذه الفتنة وتوقيع العقاب عليهم كما قررت نفى أربعة من زعماء اليعقوبيين فى فرنسا وإعلان الأحكام العرفية فى باريس وتعيين الجنرال « بشيجرو » حاكما عسكرياً للمدينة حتى تستأصل عناصر الفتنة ويعاقب مدبروها . وهكذا تمكن المؤتمر من رد كيد العصاة فى نحورهم .

ورأى اليعاقبة بعد هذه الهزيمة المنكرة أن المؤتمر أثبت من أن تزعزعه المظاهرات فقرروا فيما بينهم أن يرسموا خطة منظمة لمهاجمته واضطرار أعضائه بقوة السلاح إلى التسليم بمطالبهم وأهمها الافراج عن زعمائهم . وإعادة (دستور سنة ١٧٩٣) من غير تعديل .

وفى صبيحة اليوم التالى (٢٠ مايو سنة ١٧٩٥) أطبقت جموعهم حول قاعة الاجتماع ثم دخلوها مدججين بالسلاح وأحاطوا برئيس الجمعية ليحملوه على إقرار ما يطلبون . ولكنه بقى رابط الجأش على الرغم من وقاحة مهاجميه .

وأخيراً تقدم أحد النواب ليصد عنه الغوغاء فرماه أحدهم برصاصة ألقته صريعاً . فهجم الثوار على جثته وحملوها إلى الخارج حيث مثل بها الرعاع وقطعوا رأسه ثم دخلوا به إلى القاعة محمولا على رمح طويل . وبعد أن خيمت الفوضى على قاعة المؤتمر نحو ست ساعات تمكن جنود الحكومة فى النهاية من طرد الثائرين وتخلص الأعضاء مما كان يحيط بهم من الأخطار . ثم رأى المؤتمر أن ينتقم لنفسه هذه المرة انتقاماً ذريعاً يجعله بمأمن من خصومه اذا وسوس لهم الشيطان بالفتنة من جديد . فقرر القبض على جميع الزعماء اليعاقبة ومحاكمتهم وتجريد كل من يشتبه فى انتمائه إلى اليعقوبيين من السلاح وسيرت حملة عسكرية على معقل الفتنة فى شارع سانت أنتوان لتنفيذ هذا القرار فوقع فى يدها كثير من الزعماء وحكم على كثير منهم بالأعدام . وبذلك هدأت الأحوال وعاد المؤتمر يتناقش فى مشروع الجمهورية الجديدة .

فتقرر أن تكون الهيئة التشريعية من مجلسين يتألف أحدهما من خمسمائة عضو ويسمى (مجلس الخمسمائة) ويتألف الآخر من ٢٥٠ عضواً لا يقل عمر أحدهم عن أربعين سنة

ويسمى (مجلس الشيوخ) . وقد جعل لمجلس الخمسمائة وحده الحق فى تقديم مشروعات القوانين والمناقشة فيها على أن تعرض بعد ذلك على مجلس الشيوخ ليقرها أو يرفضها . أما السلطة التنفيذية فقد وضعت فى يد مجلس يتألف من خمسة مديرين يتعاون فى انتخابهم مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ ويسقط كل سنة واحد منهم بالاقتراع .

وقد رأى المؤتمر أن يمنع نفوذ اليعاقبة ما استطاع عن أن يتسرب إلى الحكومة الجديدة فقرر أن يحتفظ لأعضائه بثلثى المقاعد فى الهيئة التشريعية الجديدة وأن ينتخب الثلث الباقى فقط من الخارج وبذلك سد طريق الحكم فى وجه كل ساع إليه لأنه ضمن الأغلبية لرجاله . وكان قراره هذا كفيلا بأن يجمع أحزاب المعارضة كلها فى صف واحد . وأصبح من المحقق وقوع معركة فاصلة بين الفريقين تحدد نتائجها مستقبل الحكومة . وتكون حكما بينها وبين الثائرين .

وسرعان ما اجتمع من أهل باريس نحو أربعين ألفاً من المعارضين — ملكيين ويعقوبيين — وتولى قيادتهم زعماء مدربون وكانت نية الجميع أن يحملوا على المؤتمر حملة مسلحة يطلبون إليه فيها أن يعدل عن قراره هذا . وأن

يخضع لمطالب الشعب فلم تكن المسألة هـــذه المرة مسألة مظاهرة اعتيادية يتحطم فيهـا بعض ألواح الزجاج كالمعتاد وترجم فيهـــا بعض النوافذ والأبواب بالحجارة ثم يعود المتظاهرون أدراجهم قانعين ولـكنها كانت غارة منتظمة بمدافعها وبنادقهـا وموسيقاها تسير كما يسير الجيش النظامى إلى ميدان القتال .

ولقد تنبه المؤتمر للخطر المحدق بكيـانه فأعد على وجه السرعة نحو خمسة آلاف جندى سلم قيادتهم للجنرال (مينو) ووكل إليه قمع هذه الحركة . وكان مينو رجلا ليناً ضعيف الأعصاب فما هو أن طلعت على قوته طلائع الثائرين وتبين وفرة عدد خصومه حتى أصدر أمره بالانسحاب إلى سراى التويلرى حيث كان ينعقد المؤتمر .

الفصل السابع

طالع السعد

كان نابليون بونابرت — الجنرال سابقاً ! — يجوب فى تلك الساعات شوارع باريس ويشهد ما يجرى فيها والقلق يكاد يأكل قلبه على ما قد يصيب البلاد من الفوضى إذا انتصر الثائرون . فلما انسحب مينو بجنوده إلى التويلرى تبعهم إليها . وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله على المدينة الهائجة فانصرف الثائرون وقد امتلأوا يقيناً بأن الحكومة سوف تدين لارادتهم ما دام جنودها قد انهزموا أمامهم ولما تنطلق منهم طلقة واحدة ! .

وبقى نابليون يستمع للمناقشات المحتدمة فى المجلس حتى كانت الساعة الحادية عشرة ليلا . وعند ذلك أجمع الأعضاء على وجوب عزل الجنرال مينو وتسليم أمر الدفاع عن المؤتمر إلى (باراس) Barras أحد رجال المؤتمر الممتازين نظراً لما

يتطلبه الموقف من اليقظة والحزم. وأدرك باراس ما فى المهمة الملقاة على عاتقه من الخطر وود لو أزاح مسئولياتها عن رأسه وعلقها فى عنق غيره. وكأنما لمح وجه نابليون فى أروقة المجلس فانه صاح بزملائه قائلا: «أنى أعرف الرجل الذى يستطيع حمايتنا والدفاع عنا. ذلك هو الضابط الكورسيكى نابليون بونابرت الذى عرفته فى تولون!».

وأرسل المؤتمر فى طلب نابليون يستدعيه. وجلس الأعضاء ينتظرون ذلك المارد الذى يقول لهم (باراس) عنه: «انه يستطيع حمايتنا والدفاع عنا!» ولم يكن لمعظمهم معرفة سابقة بهذا الضابط الكورسيكى الذى عرفه باراس حول تولون فأيقنوا فى أنفسهم بكثرة الشحم واللحم... ودخل عليهم نابليون فأذا هم أمام شخص قمىء وجسم ضئيل يضن الناظر إليه بان يقول عن صاحبه أنه بلغ العشرين. فوجه إليه الرئيس كلامه قائلا.

— «هل لك إلى أن تتولى الدفاع عن المؤتمر؟

فأجابه نابليون بكل إيجاز: — «نعم!»

فأطرق الرئيس قليلا ثم قال:

— «أو تدرك خطر المهمة التى عهدت إليك؟».

فرمقه نابليون بعيني النسر اللتين حبته الطبيعة بهما وقال :
- « أعرفها تماماً ! وأن من عادتى أن أقوم بكل ما أتعهد به ! . . . . ولكن لى شرطا واحداً لا بد لى من توفره قبل القيام بهذه المهمة . ذلك أن تكون يدى مطلقة فى العمل لا تقيدها إرشادات المؤتمر ولا تعليماته ! » .

ولم يكن المجال يسمح بمجادلة نابليون فيما يشترط فأطلقت يده ليفعل كيف يشاء .

وكان على مقربة من باريس نحو خمسين مدفعا من المدافع الضخمة الرشاشة فأمر نابليون باحضارها فى الحال فأحضرت ونصبت حول التويلرى . وصوبت فوهاتها إلى جميع الطرق المؤدية إلى مكان المؤتمر . وظل نابليون طول الليل يتنقل حول المكان ليشرف على كل معدات الدفاع . وأخيراً بعث إلى أعضاء المؤتمر نحو ثمانمائة بندقية وكمية وافرة من الذخيرة لتكون تحت أيديهم عند الضرورة . وكان ذلك دليلا على تقدير نابليون لحرج الموقف حيث لم يكن من المتعذر على الثائرين وهم على ما هم عليه من وفرة العدد أن يحاصروه هو وأعضاء المؤتمر أياماً حتى يضطر إلى التسليم تحت تأثير الجوع ونفاد الذخيرة .

وأخيراً أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن قصر التويلرى وهو محاط بتلك الاستحكامات كأنه قلعة شاكية لم تعرف قط غير السلاح والجنود . . . وبكر الثائرون إلى الميادين التى تواعدوا على الاجتماع فيها وأقبلوا على المؤتمر فى صفوف متراصة كثيفة ورآهم نابليون يتقدمون إليه ولم يبق إلا أن يشتبك الخصمان : أربعون ألفا يهاجمون ونحو خمسة آلاف يدافعون ! . . . ولكن نابليون عول على الانتظار حتى تقع مسئولية الضربة الأولى على عاتق الثائرين . ولا بأس من أن تقع على عاتقه هو مسئولية الضربة الثانية . ولم يكن يحلم الثائرون بأنهم سيصادفون أدنى مقاومة من جانب المؤتمر وكانوا يعتقدون أن بضع طلقات يطلقونها على حاميته سوف تخلى لهم السبيل . وما دروا أن نابليون قد بات ليلته وهو يعد مدافعه ليستقبلهم فى الصباح برصاصها الرشاش ! .

ولما اقتربت طلائع الثائرين من صفوف نابليون ورأوهم جاثمين حول المؤتمر ينظرون إلى تقدمهم نحوهم ولا يحركون ساكناً صوبوا بنادقهم إليهم وأطلقوها . ووقعت مسئولية الضربة الأولى فعلا على عاتق الثائرين كما أراد نابليون وعند ذلك أمر بأن تفتح عليهم أفواه المدافع وتفرغ فى صفوفهم

كل ما تستطيع إفراغه من طلقاتها الرشاشة . فانسابت عليهم ميازيبها بوابل من الرصاص وانفجرت الزوبعة التى قضى نابليون فى تعبئتها ليلة كاملة . فارتبكت صفوف الثوار تحت هذا البلاء الهاطل . وحاولت الثبات ولكن العاصفة بقيت ثائرة برعدها وصواعقها حتى لم يطق الشعب عليها صبراً . فحاول الاحتماء منها ولكنها كانت خلف كل واحد كأنما تتعقبه وحده من دون زملائه . فلم يبق إلا الفرار وإخلاء الميدان . ولكن الزوبعة بقيت أيضاً تطارد الجميع لا تهدأ لها حدة ولا تنطفى لها سورة . ولم تكد تمضى ساعة حتى كان نابليون يلتمس فرداً من الأربعين ألف الذين أطبقوا عليه من كل صوب فى الصباح فلا يجد إلى واحد منهم سبيلا . ولكنه لم يكتف بذلك بل أرسل جنوده وراء الثائرين ووكل بكل حى من أحياء باريس طائفة من رجاله ينزعون السلاح من أهله حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . ولما فرغ من كل ذلك عاد أدراجه إلى المؤتمر هادئاً ساكناً .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهناك قابله الأعضاء بما استحقه من التكريم والاعجاب

وأعلنوا اعترافهم له بأنه صاحب الفضل فى إنقاذ الجمهورية .

وكأنما آن أوان الحصاد لكل ما بذل نابليون من الجهود الجبارة سواء أكان ذلك فى إكبابه على الدرس والتحصيل فى برين وباريس أم فى تفانيه فى العمل على شواطئ فرنسا الجنوبية ضد الانجليز أم فى حملاته التى قام بها فى جبال الألب على النمساويين . فان صديقه (باراس) عين مديراً من بين المديرين الخمسة الذين تألفت منهم الحكومة الجديدة فكوفئ هو تبعاً بتعيينه قائداً عاماً للجيش الداخلى وهو مركز عظيم . وافر الدخل . انتقل به نابليون من حياة البؤس والشقاء إلى حياة العز والرفاهية . فأصبح له قصر مشيد يسكن فيه . وعربة خاصة تجرى به فى شوارع باريس . وخدم . وحشم . وحاشية وياوران وما شئت من بقية مظاهر الوجاهة .

وكان أول ماخطر بباله وهو يتلقى البسمات الأولى لهذه الدنيا التى بدأت تقبل عليه أن يبادر إلى جوار أمه لتنعم معه بما هو فيه من نعيم وملك عظيم . فسافر إليها فى مرسيليا حيث كانت تقيم مع إخوته . ومنذ هذه اللحظة أخذ يتجلى بر نابليون بوعده حين كتب لأمه عقب وفاة والده يقول :

« أى أمى العزيزة ! تعزى واصبرى . فان الأحوال توجب

علينا العزاء والصبر . وسنضاعف نحن العناية بك والاعتراف بجميلك . فاذا وفقنا إلى تعويضك بعض الخسارة فى الفقيد العزيز كنا سعداء الطالع ! »

الكتاب الثانى

الجنرال بونابرت

الباب الأول : زواج نابليون
الباب الثانى : نابليون يضع أساس شهرته
الباب الثالث : فى منزل نابليون
الباب الرابع : نابليون رئيس حكومة فرنسا

الباب الأول

زواج نابليون

الفصل الأول : عواطف نابليون
الفصل الثانى : جوزفين

الفصل الأول

عواطف نابليون

لم تكن طبيعة نابليون من تلك الطبائع الهادئة التى يزينها القصد والاعتدال ولكنه كان حاد العواطف . إذا أحب أغرم . وإذا أبغض مقت . وإذا رغب أراد . وحيث تتجه ميوله تمتد قبضته بكل ما أودع الله فيها من قوة ليحصل على بغيته . وحيث تقع كراهيته ينقض كالصاعقة بكل ما أودع الله فى روحه من عنف وبكل ما تصل إليه يده من الوسائل

ولقد تجلت هذه الطبيعة فى نابليون منذ صباه ولكن ما كان يعانيه من الفقر بعد موت والده وما كان يرى فيه أمه وأخوته من العسر والضيق صرف كل ميوله إلى العمل على انتشال الأسرة من تلك الوهدة التى سقطت فيها . فكان عنفه فى دراسته وكانت حدته منصبة على الكتب وقتلها اطلاعا وبحثاً . ولقد كان ذلك سبباً فى أن تتركز كل عواطفه فى تلك الناحية . فشب وبلغ أشده دون أن تجد

عواطف الشباب عنده مجالا للظهور والنمو وبقيت محتبسة فيه زماناً وهى مهملة لا حساب لها عنده حتى اشتهر عنه بين النساء أنه جامد العواطف جاف الطباع . ويروى عنه أنه لما كان مع فرقته فى فالانس كان يقيم مع جماعة من زملائه فى دار حلاق . فبينما كانت ربة الدار موضع تودد اخوانه وملاطفتهم لم يكن لها حظ مطلقاً من عناية نابليون وملاطفته فكان ذلك اهمالا بالغاً منه لم تنسه قط له ولم تغفر له أبداً خطيئته فيه . ومن مأثور كلام نابليون فى تلك الفترة من عمره قوله : « انى أرى الحب مضراً بمصلحة المجتمع . وبسعادة الفرد ! »

وليس بعجيب طبعاً أن يصدر مثل هذا الكلام عن شاب لا يملك رزقه ورزق أخيه (الذى كان يعيش معه فى فرنسا فى ذلك الوقت) إلا بشق الأنفس . فان الحب « يحتاج إلى معدة ملأى » كما يقول الانجليز .

ولقد قال نابليون أيضاً : « الحب مشغلة الخلى . وملهاة الجندى . ومنقصة الملوك » — ولكنه قال ذلك أيام لم يكن يريد أن يفتح قلبه لانسان وأيام كان يستنفد العمل كل جهوده . وأيام كان مجرى عواطفه ينصب فى ناحية واحدة

وهى ناحية أسرته العاجزة المعوزة . أما بعد ذلك فان تلك العواطف المحتبسة قد انتقمت لنفسها وبرزت فى صورة شرهة ضارية . فأن نابليون لم تكد تنصلح حاله حتى تفتح قلبه للحب بنفس الحدة التى اتسمت بها سائر عواطفه . بل لقد أصابه فى هذه العاطفة بالذات نوع من رد الفعل كان أشبه الأشياء بالنهم المخيف الذى يعقب الجوع المدقع . فكان اذا اتصل بامرأة ذاب فى هواها وتوله بها وارتمى بين يديها يطلب الزواج منها غير آبه لما قد يكون بينه وبينها من الفوارق التى تجعل الزواج بينهما مستحيلا . ومما يروى عنه أنه وقع فى غرام سيدة كهلة تكبره بعشر سنوات ولكنه ولع بها ولعاً شديداً ولم يكن يهنأ له عيش إلا بمجالستها . وأخيراً طلب اليها أن تتزوجه فأغرقت فى الضحك قائلة : « أنك بهذا تجعل الناس يضحكون منك . فأننى فى سن أصلح معها أن أكون لك أماً لا زوجة . فأقلع عن هذا الحب الذى يجعلك أضحوكة بين عارفيك ! »

فيئس منها نابليون وسلاها ... ولكنه مالبث أن وقع فى غرام امرأة أخرى كانت بالفعل أكبر من أمه سناً حتى قيل أنها كانت قد تزوجت لأول مرة قبل أن يولد هو بثلاثين سنة

على أن نابليون كان ضحية أكثر من غرام واحد فى بدء حياته فلقد مر بنا ذكر الآنسة (دزيريه) بنت المسيو كلارى التى أحبها دون أن يتلق عن حبه لها غير الصد والازورار مما جعله ينقم من أخيه يوسف توفيقه فى الوصول الى قلب أختها جوليا وزواجه بها بعد ذلك « هـذا الأحمق يوسف الذى ما أسعده ! » كما كان يقول عنه نابليون .

وكأنما سئمت نفس نابليون هذا الرفض المتواصل فعاد الى كظم غرامه واكتفى بالتردد على صالونات الشهيرات من نساء باريس أمثال مدام تاليان Mme Tallien حيث كانت تلتقى صفوة القوم من كل ذى جاه وحسب أو ذات جمال وأدب . وبقى على هذه الحال حتى عرف جوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais ودخل فى دائرة جاذبيتها وعندئذ تنبهت فيه كل عواطف الحب ووقع فى غرامها الوقعة الكبرى التى لم يسبق له مثلها . وأحس بأن هذا هو الحب الذى طالما تمرد على سلطانه حتى وقع أسيراً فى قبضته . فاستسلم وألقى سلاحه طائعاً مختاراً للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ حياته .

الفصل الثانى

جوزفين

ولدت جوزفين باحدى جزائر الهندالغربية التابعة لفرنسا فى الثالث والعشرين من شهر يونيه سنة ١٧٦٣ (فهى أكبر من نابليون بنحو ست سنوات) وكان أبوها قبودان مينا سان بيير St. Pierre فى جزيرة المارتنيك . وبحكم نشأتها فى تلك الجزيرة لم تتلق من التعليم الا المبادئ الأولية التى يسمح بها مثل هذا الوسط . غير ان الطبيعة عوضتها عما نقصها من مؤهلات العلم بما أسبغت عليها من المحاسن الساحرة التى جعلتها ملء عين الجميع حيث أقامت ولم تكد تبلغ الخامسة عشرة من عمرها حتى رحلت الى فرنسا . وسرعان ما التقطها هناك الفيكونت اسكندر بوهارنيه أحد أشراف فرنسا . فتزوجها وولدت له صبياً اسمه أوجين ثم فتاة اسمها هورتنس ولم يمض على ذلك قليل حتى حصدت مقصلة الثورة رأس بوهارنيه فيما حصدت من رؤوس الاشراف اثناء عهد



الامبراطورة جوزفين

الارهاب (سنة ١٧٩٤) وأوشكت جوزفين أن تلحق بزوجها حيث قبض عليها وأودعت سجن الكونسيرجرى Conciergerie رهن الطلب ولكن حدث عند ذلك أن سقطت حكومة روبسبير وانتهى عهد الارهاب فانفتح طريق النجاة أمامها وأمام أمثالها ممن أوشكوا أن يكونوا ضحايا ذلك العهد

ومن عجيب ما يروى بهذه المناسبة أن زنجية من اهل المارتنيك تنبأت لجوزفين وهى بعد فتاة فيها بأنها ستتزوج ولكن زوجها الأول سيموت عنها ويتركها فريسة فى يد الدهر يعبس لها حقبة من الزمن ثم يعود فيبسم لها ويرتفع شأنها حتى تصير من ربات العروش والتيجان فكانت هذه النبوءة مما خفف عنها آلام سجنها حيث كانت تمنى نفسها بنصف النبوءة الثانى بعد أن تحقق فيها نصفها الأول . ولقد بالغت جوزفين فى حسن ظنها بكلام الزنجية العجوز الى حد انها وعدت صاحباتها فى السجن بأنها ستتخذهن لنفسها وصيفات بعد أن تجلس على عرشها الموعود

ودار الزمان دورته ووكل إلى نابليون أمر الدفاع عن المؤتمر كما مر بنا الكلام فى الفصول السابقة . وأنقذت الجمهورية على يديه بفضل ما بذله من الجهود فى تشتيت

الثائرين ونزع السلاح من أهل باريس عامة حتى لا يكون هنـاك خطر يتهدد الحكومة بعد تلك الثورة . وقد جمع رجاله فيما جمعوه من الأسلحة سيف الفيكونت بوهارنيه الذى خدم الثورة فى بدء أيامه كقائد من قوادها . فجاءه بعد ذلك بأيام أوجين بوهارنيه يلتمس منه أن يرد اليه سيف أبيه وكان أوجين فى العاشرة من عمره وعليـه من مخائل النجابة والوسامة ما فتح له قلب نابليون فتلطف له وحنا عليه حنوا عظيما تأثر له قلب جوزفين لما عاد صبيها وقص عليها ما كان بينه وبين نابليون . ولقد بلغ من تأثر جوزفين أنها قامت فى اليوم التالى بزيارة هذا القائد الكريم الذى أحسن الى ولدها كل هذا الاحسان . وكانت جوزفين علاوة على ما وصفناها به من رقة الشمائل متفردة فى حسن الذوق بارعة فى آداب اللياقة وأصول المجاملات ووقعت زيارتها فى نفس نابليون أجمل وقع وأخذت محاسنها بمجامع قلبه حتى أنه لم يتمالك أن يعجل برد الزيارة لهـا فى منزلها طمعاً فى الاستمتاع بحديثها ومجلسها مرة أخرى . واستقبلته جوزفين أحسن استقبال وأعربت له مرة أخرى عن حسن تقديرها لجميله ثم استرسلت فى حديثها تقص عليه من أنباء زوجها ما استأنس له نابليون

فذكرت له كيف كان (الكونت) المرحوم من أجمل رجال باريس وجهاً وأبرعهم رقصاً . وكيف أنه حظى بشرف مراقصة مارى أنتوانت نفسها أكثر من مرة . وكيف أنها حرمت عشرة زوجها وهى فى ميعة صباها . وكيف أن ولديها باتا يتيمين وهما بعد فى سن طفولتهما . وطفق نابليون من ناحيته يقص عليها أيضاً تاريخه فى كورسيكا . ويقابل بين حاله هو وأخوته بعد موت والدهم وبين حال أوجين وهورتنس . وأظهر عليهما من العطف ما كان كفيلا بأن يكسبه هو عطف جوزفين . وهكذا انتهت هذه الزيارات العارضة بتلك النتائج الخطيرة التى فتحت أمام نابليون طريق غرام جديد ملك عليه حواسه وفتحت أمام جوزفين ذلك الطريق الذى تنبأت لها به زنجية المارتنيك . ومالبث أن انتهى بها الى العرش والتاج .

على أن جوزفين — وان تكن قد رحبت بنابليون فى مبدأ الأمر كصديق — قد ترددت قليلا قبل أن توافق على خطبته وترضى به كزوج . ولكنها أخيرا أمام تفانى نابليون وتحبيذ الأصدقاء وافقت على الزواج به فتم العقد فى ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وكان نابليون قد عين قبل ذلك بيومين اثنين

فقط قائدا للحملة الايطاليـة ليتولى بنفسه تنفيذ خطة كان قد وضع تصميمها قبل ذلك وقدمها الى لجنة الأمور الحربية .

ولقد كتب كثيرون عن نابليون وجوزفين فقالوا عنها إنها كانت خليلة (باراس) وأن نابليون الطموح لم يكن يبغى من وراء الاتصال بها إلا أن ينال الحظوة عند رئيسه . وأيدوا كلامهم هذا بأن جوزفين لم تكن تحبه بدليل خيانتها له . وأن باراس لم يعينه قائدا لجيش إيطاليا إلا إكراما لخاطرها بدليل أن التعيين لم يتم إلا بعد الاتفاق على الزواج .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن باراس لم يكن يملك تعيين نابليون بمفرده فى مثل هذا المركز وأن المديرين الخمسة أجمعوا على انتخابه لقيادة جيش ايطاليا بسبب ما تحققوه من أهليته وكفاءته . وأن باراس كان عشيق مدام تاليان صديقة جوزفين وليس عشيق جوزفين نفسها وأن جوزفين لم تكن تحب نابليون حقا فى بادىء الأمر . ولكنها توسمت فيه الرجولة والذكاء الطموح . ورأت أن الميدان أمام مستقبله واسع فسيح . وكانت هى من الجانب الآخر أرملة تكفل يتيمين ولا ناصر لها ولا معين كما كانت لعوبا طروبا تميل الى الاسراف وحياة البذخ وتطمح الى الشهرة والظهور بينما

كانت مواردها لا تسمح لها بتحقيق شيء من هذه الأماني العريضة فرأت في نابليون خير مطية تصل بها إلى هذه الغايات جميعها . فلم تتردد في التعلق به والتودد اليـــه حتى خبلته وملكته واستولت على أعنته .

أما نابليون فقد رأى في جوزفين أرملة شابة جذابة ما تزال تحمل لقب زوجها الشريف . وراقت في عينه كل مظاهرها . وحببه فيها ما كانت تتسم به كل حركاتها واشاراتها من سمات الأرستقراطية فبهره هذا السناء الجذاب وزاد حبه فيها ما أحس به من الحاجة في الاستناد بمظهره القمىء إلى مثل مظهرها الوهاج المضيء لتكون له المنزلة التي يبتغيها لنفسه في المجتمع . وكأنما كان يدخر في قلبه كل ما حال الفقر بينه وبين اظهاره من عواطف الشباب في أيامه الأولى فما كاد يجتمع له من جوزفين ذلك الجمال الفاتن وتوددها اليـه ذلك التودد الساحر حتى عشقها عشقاً عظيما يؤهله ولا شك لأن يقف في صف واحد مع أبطال الغرام في أساطير الأولين .

وبحسبي أن أنقل لك هنا شيئا من رسائله اليهـا لتتحقق بنفسك إن كان نابليون يحب باراس في شخصها كما يتقول عليه بعض المؤرخين أم يحبها لذاتها .

كتب اليها مرة على أثر سهرة قضاها معها :

« أنى أستيقظ ولا أرى أمامى غيرك . فأن صورتك والسهرة المسكرة التى قضيناها أمس لم تبقيا لحواسى شيئاً من الراحة . فما هذا التأثير الغريب الذى أحدثته فى قلبى ياجوزفين ياعزيزة المثال ! إنى إذا رأيتك مكدرة الصفاء أو حزينة القلب أو قلقة الفكر تفطر فؤادى وفقدت الراحة . . اعطنى ألف قبلة ! لا بل امنعيها عنى فأنها تحرق دمى فى عروقى ! »

على أن كتب نابليون اليها بعد الزواج كانت أفصح كثيراً فى الدلالة على ما يكنه قلبه نحوها كما سترى فى السطور التالية إذ قضت الظروف أن يسافر على رأس جيشه الصغير الى ايطاليا بعد زواجه بأيام قلائل فلم يكد يتجاوز الحدود حتى كتب اليها يشكو ألم الفراق ويتوسل اليها بأن تكتب له كل يوم رسالة طويلة . ولكن ردودها عليه كانت بطيئة ولا يتجاوز الواحد منها ثلاثة أو أربعة أسطر . فما لبث نابليون أن عدل طلباته ورجاها فى أن تسافر للحاق به فى ايطاليا غير أن جوزفين لم تكن لتترك باريس وشبانها الظرفاء ومجالس الأنس فيها لتدخل فى معسكر نابليون وتقيم معه فى خيامه المتنقلة تحت ظلال الموت والهلاك . فماطلته فى أول الأمر

ولكنه لم يكف عن مطالبتها بالحضور وأخيراً ألح عليها فى وجوب السفر فوراً لأنه أصبح لا يطيق الصبر على فراقها وأوشك أن يفكر فى التخلى عن جيشه فى شمال ايطاليا ليعود اليها وعند ذلك أرسلت «سيدة النصر» كما كان يسميها أهل باريز بعد ما توارد اليهم من أخبار نابليون وانتصاراته فى ايطاليا — تعتذر عن السفر بأنها مريضة تشكو آلام الحمل وأنها لذلك تفضل البقاء فى فرنسا. فأثار هذا العذر كل ما كان كامناً فى نفس نابليون نحوها من حب وشوق وقلق وكتب اليها هذه الرسالة الفريدة :

« . . . صارت حياتى كلها أحلاماً مخيفة . وصرت كأنى لست بين الأحياء . وفقدت ما هو أغلى من الحياة والسعادة وكاد اليأس يتولانى . . . اكتبى لى عشر صفحات فأن هذا هو الأمر الوحيد الذى يعزينى بعض التعزية . . قلت أنك مريضة . وأنك تحبيننى . وأننى أحزنتك . وأنك حامل . فاذا أذنبت اليك ذنوبا عديدة لاأدرى كيف أكفر عنها فاغفريها لى واعذرينى أيتها الصديقة لأن حبك ذهب بعقلى فلست أجد الى التفكير سبيلا .

« إن مابى من الداء لايقبل الشفاء . وما عنـــدى من

الأفكار السوداء بلغ حداً صرت أكتفى معه بأن أراك فأضمك ساعتين الى قلبي ثم نموت معاً .... ألا خبريني من يعتنى بك ؟ أظنك دعوت هورتنس إليك ... إن حبي لهذه الفتاة اللطيفة زاد الف ضعف منذ عرفت أنها تقدر على انزال شيء من السلوان على قلبك . أما أنا فلا عزاء لى ولا راحة ولا أمل قبل أن يَرِدَ علىّ كتاب طويل منك أعرف منه ماهو مرضك . فاذا كان من خطر عليك فأنى أسرع إلى السفر نحوك ... أيتها الصديقة قولى لى أنك مقتنعة كل الاقتناع بأن حبي لك يتجاوز ما يستطيع الفكر أن يتصوره . وبأنى لا أفكر فى امرأة غيرك وبأن كل النساء هن فى نظرى عاطلات من حلى اللطف والظرف والجمال والذكاء . وبانك أنت وحدك تعجبينى وتروقين ناظرى وبأن قواى وساعداى ومداركى كلها لك وروحى مقيم فى جسمانك فاذا متِّ متُّ أنا معك ... أيتها الصديقة المعبودة أنا مريض لمرضك والحمى تتسعر فى جسمى فلا تدعى البريد يتأخر أكثر من ست ساعات بل أعيديه إلىّ على عجل بكتاب من سيدتى ومولاتى » .

ولم تكن جوزفين عند ماوصلتها هذه الرسالة تشكو اى مرض ولكنها كانت على عادتها تلهو وتلعب وتضن بروحها

المرح الطليق أن يستأثر به من دون النـاس زوجها نابليون فبقيت فى باريس تنتحل الأعذار وبقى نابليون يرسل اليها الكتاب تلو الـكتاب حتى ضاقت به الحيل وأخيراً علمت بأنه أرسل الى باريس رسولا يحمل اليها الرايات والغنائم التى غنمها من النمساويين . وعند ذلك خشيت ان يعود فيخبر نابليون بحقيقـــة امرها فى باريس فأسامت أمرها الى الله واعتزمت الرحيل .

الباب الثانى

نابليون يضع أساس شهرته

الفصل الأول : فرنسا والتحالف الأول
» الثانى : الحملة الايطالية
» الثالث : بين الحملتين
» الرابع : الحملة المصرية

الفصل الأول

فرنسا والتحالف الاول

لعلك لم تنس بعد أن انجلترا كانت قد جمعت كثيرا من دول أوربا فى حلف لتقاوم الثورة الفرنسية وتحصرها داخل الحدود الفرنسية قبل أن تنتشر عدواها الى ما جاورها من البلاد فيختل النظام فى أوربا ويصيب حكوماتها ونظمها ما أصاب الحكومة الفرنسية ونظمها من الانهيار .

ولقد فوجئت فرنسا بهذا التحالف فى أول الأمر فانهزمت جيوشها كما أسلفنا أمام الجيوش المتحالفة فى كل مكان وأوشكت آمال أوربا فى القضاء على الثورة أن تتحقق ولكن الشعب الفرنسى ما لبث أن استرد كل حميته وثقته بنفسه . ووقف للحلفاء وقفة مشرفة ردتهم على أعقابهم ثم إنه اتخذ لنفسه خطة الهجوم بعد خطة الدفاع فطارد هؤلاء الحلفاء الى قلب أوربا وأعلن عن عزمه فى استرداد حدود الغال القديمة وهى التى تجعل فرنسا تمتد من خليج بسكاى

غربا الى نهر الرين وجبال الألب شرقا . ونجحت فرنسا فعلا فى الوصول — أولا — الى نهر الرين حيث وضعت يدها على بلجيكا وهولندا وثانيا — فى بلوغ جبال الألب حيث استولت على سافوا ونيس .

وبعد أن كانت انجلترا تثير الرأى العام فى أوربا لتدرأ الخطر قبل وقوعه . أصبحت بعد وقوع الخطر بالفعل تسعى لاعادة الحال الى ما كانت عليه . وإجلاء فرنسا عن البلاد التى استولت عليها لا سيما مصبات نهر الرين وثغر انفرس نظرا لما لها من الأهمية التجارية عند انجلترا مما تجعلها تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى هذه الاصقاع تحت سيادة منافسة قوية لها كفرنسا .

بيد أن هذا التحالف — على رغم كونه حيويا بالنسبة لانجلترا — تفكك إذ انسحبت منه بروسيا سنة ١٧٩٥ . وتبعتها كافة الولايات الألمانية ثم آسبانيا . أما الروسيا فشغلتها مصالحها فى پولندا عن شئون أوربا الغربية . فلم يبق من الدول المكونة للتحالف إلا النمسا وانجلترا .

ولقد شاهدنا ما كان يحمل انجلترا على الاستمرار فى العمل ضد فرنسا أما النمسا فكان الدافع لها على البقاء إلى

جانب انجلترا من دون الدول الأخرى ما كان لهـــا من الثارات عند الفرنسيين وذلك بسبب ما يأتى :

أولا — قتل رجال الثورة مارى انتوانت وهى عمة امبراطور النمسا فرنسيس الثانى

ثانياً — استيلاء الفرنسيس على نيس وسافوا واعتداؤهم بذلك على سلطة النمسا فى إيطاليا .

ثالثا — اعتداؤهم كذلك على نفوذها فى ألمانيا باستيلائهم على بعض الجهات الواقعة غرب نهر الرين .

وقد وضحنا فى الفصول السابقة (١) أن انجلترا اكتفت بحصر شواطىء فرنسا . وتركت للنمسا منازلة الفرنسيين فى البر حيث لا قبل لها هى بالاشتباك معهم فى قتال .

---

(١) راجع فصلى التحالف الدولى الاول — ونابليون والتحالف الاول من الباب الثالث من الكتاب الاول

الفصل الثانى

الحملة الايطاليــة

لما رأت النمسا أنها أصبحت وحدها من دون الدول الأوربية كافة فى وجه فرنسا رسمت خطتها كما بسطناها فى بعض الفصول السابقة (نابليون والتحالف الأول) وعولت على غزو فرنسا من جهة الشرق بمساعدة مملكة سردينيا (بيدمنت) وحشدت جيوشها فعلا على الحدود ولكن كان ما كان من توجيه الحكومة لنابليون الى تلك المنطقة وتحويله خطة الجيوش الفرنسية من الدفاع إلى الهجوم . وانتصاره بذلك على جيوش سردينيا ثم استيلائه على كافة الممرات التى توصل بين شمال إيطاليا وفرنسا .

ورأت حكومة الادارة بعد ذلك أن تنازل النمسا بلا هوادة . فأعدت لذلك حملتين حملة رئيسية كانت خطتها أن تسير شرقا وتعبر الحدود الى النمسا لتلاقى جيوشها التى كانت تحت قيادة الأرشيدوق شارل . وحملة فرعية كان المقصود منها أن تدخل الى شمال ايطاليا لتقوم بمشاغبة النمسا من

الجنوب وتكون سببا فى توزيع قواتها حتى يتمكن جيش الشمال من التغلب على الأرشيدوق شارل والوصول الى فينا

خطة الحملة .

وكان نابليون قد تقدم منذ زمان إلى حكومة فرنسا بخطة حربية لاكتساح شمال ايطاليا . فعرضتها الحكومة على القائد العام لقوات الجنوب كى يبدى رأيه فيها . فما كاد يطلع عليها حتى أعادها فى استنكار وتهكم قائلا : [إن الذى وضع هذه الخطة رجل مجنون . ومن توحى اليه شياطينه بخطة مثلها فليأت هنا لتنفيذها] ولكن كارنو — رئيس اللجنة الحربية — لم تخف عليه قيمة هذه الخطة وانتهى الأمر بأن عهدت حكومة الادارة الى نابليون بونابرت بتنفيذها

استعداد نابليون :

وكان نابليون يعلم أنه سيلاقى فى شمال إيطاليا جيشين . أحدهما جيش النمسا والآخر جيش حليفتها سردينيا . وكان يعلم أيضا ما كانت عليه الجيوش النمساوية من الاستعداد لهذه الحرب . وكانت قد وصلت الى سمعه كذلك تهديدات النمسا وتوعد قوادها العتاة بأنهم سيجعلون إيطاليا مقبرة

الفرنسيين » . وكان هو فى الوقت نفسه شابا هزيلا صغير
السن . ولم يكن له فى الجندية نسب عريق يشفع له فى تولى
الرياسة على أمثال أوجيرو Auguereau ومسينا Massena
وبرتييه Berthier وكلهم من رجال الحرب الذين مارسوها
ونشأوا فى حجرها . وركبوا أهوالها أيام كان هو لا يزال
صبيا يلهو بمدفعه النحاسى فى جزيرة كورسيكا . ولقد برم
هؤلاء الابطال بحكومتهم فعلا حين رأوها تولى عليهم مثل
نابليون وأضمروا له السوء فى نفوسهم حسداً له وحقداً عليه .
ولم يكن يخفى على نابليون شيء من كل ذلك ولكنه كان شديد
الثقة بنفسه وبهمته وكان يحس بأن غيره قد يفوقه فى كبر
السن ووفرة التجاريب وضخامة الجثة ولكنه كان يحس
أيضاً بأن له روحا قوياً فذا لم تودعه الطبيعة فى أضخم الجثث
ولم يخلعها الزمن على أكبر المعمرين . وان هذا الروح كفيل
بأن يخضع لسلطانه أشد النـــاس غروراً بنفسه وأكثرهم
اعتزازاً بمظهره . وقد يكون من المستحسن أن أنقل هنا ما
يرويه الأستاذ جوستاف لوبون عن أول لقاء وقع بين نابليون
وقواده عند استلامه مقاليد جيش إيطاليا ليتبين منه القارئ
كيف أخذ نابليون بزمام هؤلاء الرجال من أول مقابلة

وكيف سلس قياد أجسامهم الضخمة تحت نفوذ روحه الكبير.

« جاء قواد الفرق إلى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة . وكان بينهم اللواء (أوجيرو) وهو جندى عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده فخور بشجاعته . وكان ممتعضاً يسب بالشتائم على نابليون من يوم أن سمع به وعرف أوصافه فسماه (صنيعة باراس) — (ولواء الشارع) ونعته بالدب لأنه كان مكتنز الجسم قليلا ميالا إلى العزلة والتفكير . فلما اكتملوا أدخلوهم غرفة الاستقبال . فأبطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن طلع عليهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه وأفضى إليهم بتعليماته وأنفذ إليهم أوامره وأشار إليهم بالانصراف . أما أوجيرو فقد تولاه الصمت ولم يرجع إلى نفسه إلا بعد أن خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا القائد الصغير أوقع الرعب فى قلبه وأنه حار فى التأثير الذى أخذه به أول ما وقع بصره عليه »[١].

أما القوة الفرنسية التى أسندت قيادتها إلى نابليون فكانت لا تشرف الدولة التى جردتها . إذ كانت رثة الثياب

(١) ترجمة فتحى زغلول لكتاب جوستاف لوبون « روح الاجتماع »

قليلة الغذاء معطلة الاجور وعلى الرغم من كل هذه المساوى كان نابليون مغتبطاً بها لأنها كانت مؤلفة من شبان متحمسين يلقون العدو بأرواحهم لا بأجسامهم ويسيرون للقتال سير المجاهد الذى يحارب فى سبيل عقيدته ليدفع عنها كيد الكائدين ولينشرها بين العالمين .

سير القتال :

ولقد تجلت براعة نابليون فى فن القيادة والزعامة حين أشرف بهذه القوة على سهول إيطاليا الخصيبة وألقى على رجالها الخطاب التالى الذى لمست كلماته أوتار آمالهم ووقعت عليها أشهى الأنغام :

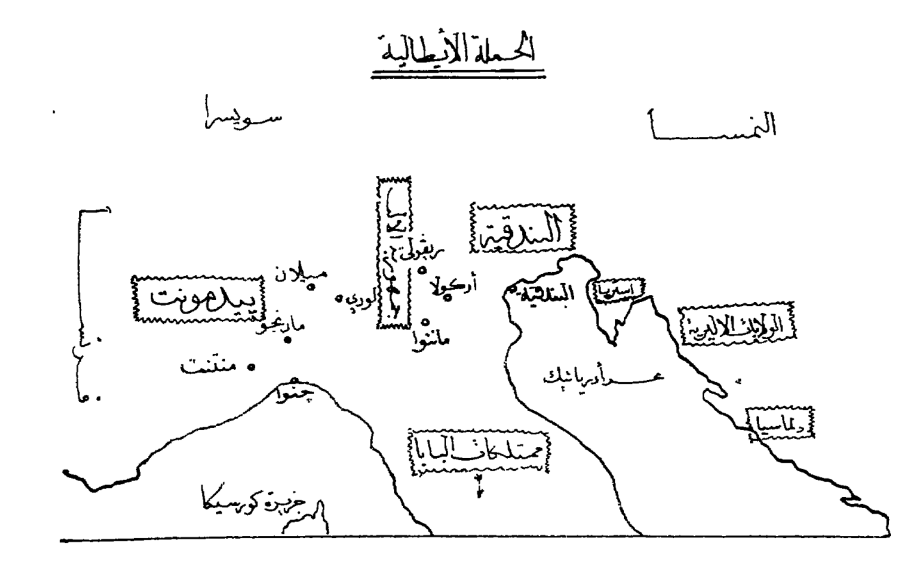
« أيها الجند إنكم والله لجياع عراة . وأن الحكومة لمدينة لكم ولكنها لا تستطيع أن ترفع عنكم سوء حالكم وان صبركم على ذلك وتجلدكم لن يجديا كم غير الشرف فلا كسب فيهما ولا نفع . وهاءنا أقودكم الى أخصب سهول العالم حيث المدن العظيمة والغنى الوفير . بل حيث تجدون الشرف والعزة ولذات الحياة ! فيا جنود جيش إيطاليا : أو تنقصكم فى ذلك الشجاعة ؟ »

ولقد كان لهذه الكلمات المثيرة أثرها فى نفس الجنود

فانهم انقضوا على الجيش المؤتلف ومزقوا وحدته . وتمكن بفضل ضرباته السريعة المتتالية أن يفصل السردانيين عن حلفائهم النمساويين . فتراجعت جنود القائد النمسوى (بوليو — Beaulieu) إلى الشرق وانسحبت جنود سردانيا إلى الغرب وهذا عين ما كان يرمى إليه نابليون لأنه أراد أن ينفرد بكل واحد من خصومه حتى يكيل له من الضربات ما لا يجد منه مجيراً ولا ظهيراً . وما لا يرى معه مفراً من التسليم . ولما كان ميدان العمل مع النمساويين واسعاً فسيحاً فانه اتجه أولا إلى جيش حليفتها سردانيا وتعقبه فى انسحابه وانتصر عليه فى أيام قلائل عدة انتصارات باهرة سارع السردانيون على أثرها إلى طلب الهدنة منه فقبل مهادنتهم مع أنه لو شاء لسحقهم سحقاً ولكنه فضل أن يترك وراءه وهو يحارب النمسا أصدقاء يوالونه عن أن يخلف أعداء يأتمرون به ويثورون عليه وهكذا فرغ نابليون من نصف مهمته وشرع فى تنفيذ النصف الثانى .

معركة لودى Lodi

وكانت خطته بعد ذلك أن يطارد النمسويين فى شمال


الحملة الأيطالية
سويسرا
النمسا
بيدمونت
ميلان
مارنجو
منتنت
جنوا
لودي
ريفولي
أركولا
مانتوا
البندقية
البندقية
استريا
الولايات الاليرية
بحر أدرياتيك
دلماسيا
ممتلكات البابا
جزيرة كورسيكا

ايطاليا حتى يجليهم عنها ثم يعبر جبال الألب شمالا لأنجاد جيش فرنسا الرئيسى الذى يحارب الأرشيدوق شارل . وكان الجنرال بوليو النمسوى قد تراجع أمام نابليون حتى أتى مدينة لودى على نهر أدا Adda فعبر النهر عندها ورابط خلف الجسر ليمنع جنود نابليون من عبوره ودخل الفرنسيون المدينة عند الغروب وكان أول ما عمله نابليون أن عقد مجلسا حربياً لبحث الحالة ورسم خطة الهجوم فما من أحد من قواده الا وحذره من التفكير فى عبور الجسر مقررين أن عبوره من المجازفات التى لا يقدم عليها رجل رشيد . غير أن نابليون لم يكن يبالى بالمجازفات بل انه كان يتلمسها تلمسا لأنها مفترق الطرق بين ما يستطيع أن يعمله كل انسان وما لا يقدم عليه الا كل جبار عنيد . ولقد اعترض عليه أحد الضباط قائلا :

« إنه من المستحيل على أية قوة أن تعبر هذا الجسر الضيق وهى تواجه تلك النار المدمرة التى لا بد أن يقابلها بها العدو ! »

فالتفت اليه نابليون وأجابه بتلك الكلمة المأثورة التى تداولتها الأجيال من بعده « ماذا تقول ؟ مستحيل ؟ ! إن

هذه الكلمة ليست فرنسية ! »

على أن ضباطه ظلوا على أحجامهم فما كان منه الا أن تناول العلم بيده وتقدم فوق الجسر ثم صاح فى جنوده قائلا « أيها الجند اتبعوا قائدكم ! »

فأذهلت هذه الجرأة رجاله وساروا من خلفه وناز الأعداء تحصدهم حصداً وهم يتساقطون عن يمينه وشماله وكأنه فى وسطهم طلسم مسحور لا تصيبه النار ولا يعمل فيه البارود حتى وصل من وصل منهم أخيراً الى صفوف النمسويين وقتلوا رجال مدفعيتهم بحرابهم وذللوا الطريق أمام زملائهم فعبروا الجسر آمنين .

ولقد كانت نجاة نابليون من مخالب الموت فى هذه المعركة الحامية ذات أثر عظيم فى مستقبله فانها ألقت فى روعه أنه فوق يد الهلاك . وان ملاكا حارسا يحميه من كل خطر وثبت فى وجدانه أن قوة خفية تعمل لرفعه فوق مستوى البشر . ولقد أشار نابليون نفسه إلى شىء من هذه الخواطر فى كلمته المأثورة التى قال فيها

انى لم أشعر بقدرتى على أن أكون عاملا من أفعل عوامل السياسة الا بعد أن عبرت قنطرة لودى واجتزت

تلك المفازة الرهيبة . يومئذ طارت شرارة مطامعى والتهب بها صدرى ! » .

حصار مانتوا . .

ولم يبق بعد (لودى) أمام النمسويين إلا حصن مانتوا فى أقصى الشرق من سهول ايطاليا فاحتموا فيه وهم يعلمون أن المعركة التى ستقوم بينهم وبين نابليون حول هذا الحصن ستكون معركة حاسمة فاصلة . فأما اخلاء لكل الولايات الايطالية وفرار إلى النمسا . وإما استرداد لممتلكاتهم الواسعة ونفوذهم الضائع فى تلك البلاد .

وأدركت حكومة النمسا خطورة الموقف ورأت ميدان القتال ينتقل الى ايطاليا بعد أن كان مقدرا له أن يكون فى الشمال فأسرفت فى ارسال النجدات لمانتوا . ووقف نابليون بجنوده القلائل يتلقى تلك الفيالق الجرارة التى كانت تبعث بها النمسا لنجدة مانتوا . فلم يفلح جيش واحد منها فى الاقتراب من أسوارها . وذلك بفضل ما أبداه نابليون من الخفة المتناهية والنشاط المربك الذى خبل شيخوخة القواد النمسويين وسخر من فنونهم العتيقة وحير ألبابهم وملأ

قلوبهم ياسا منه حتى لقد صاح أحدهم ناقما متذمراً .

« هذا الشاب الأمرد كان ينبغى كسره مراراً وتكراراً إذ من ذا الذى رأى قط مثل هذه (التكتيكات) . إن هذا الغبى لا يعرف حرفا واحداً من أصول الحرب . فبينا نراه اليوم فى مؤخرتنا إذا به فى الغد إلى جانبنا وبعد غد أمامنا . ان الاعتداء على قواعد الحرب الراسخة بهذه الصورة أمر لا يطاق . »

وليس للقارىء أن يتوهم أن خفة نابليون ونشاطه كانا يصلان به الى هذه الانتصارات الباهرة على محفة ناعمة لا تعرف الأهوال والأخطار . فأن الجهود التى كان يقوم بها هو وجنوده كانت أفدح من أن تطيقها غير طبيعته الجبارة وأعظم من أن يوحى بها غير روحه العاتى . ولقد كان خصومه من أمهر قواد أوربا فى ذلك العصر وأشدهم مراسا وكانت الحرب سجالا بينهم وبين نابليون . ولقد تقهقرت أمامهم الجنود الفرنسية غير مرة . بل لقد قتل تحت نابليون فى احدى المعارك ثلاثة جياد . وأوشك هو مرة على الغرق فى النهر تحت ضغط النمساويين له ولجنوده على جسر أركولا عند حصاره لمدينة (منتوا) . ولم ينج من الهلاك إلا

بأعجوبة ولكنه كان فى كل مرة يستعيد قواه بسرعة البرق الخاطف . ويفاجىء العدو وهو ما يزال فى غمرات المعركة بين مسترخ يلتمس الراحة من وعثاء القتال ومستنيم يحلم بالنصر القريب فيوقع الهزيمة فى صفوفهم على غير انتظار ويضطرهم الى التسليم .

وهكذا تمكن نابليون أخيراً من دخول مانتوا وتراجع النمساويون الى التيرول . وأصبحت ايطاليا الشمالية كلها تحت أقدام الفرنسيين .

نجاح الحملة :

وكان نابليون كلما فتح اقليما ايطاليًا جال بيده فى حواشيه وجمع منه الغنائم الكثيرة واستولى على تحفه وطرفه وأرسل بها جميعاً الى حكومة الأدارة فامتلأت خزائن باريس الخاوية وازدانت متاحفها العاطلة وتجاوزت الحكومة تحت تأثير هذه الهدايا عن استقلال نابليون بالتصرف فى ايطاليا دون الرجوع اليها والاتفاق معها سلفا على ما يبرم من الأمور . ولقد كان ذلك من حسن حظ فرنسا نفسها إذ لا يخفى ما كان بين رجال الثورة الفرنسية وبين رجال الكنيسة من

العداوة . ولو أن قائداً غير نابليون كان يقود الحملة الأيطالية لما منعه من دخول روما واذلال البابا فيها أى مانع ولكن نابليون يبعد نظره أبى أن يثير على فرنسا وعلى نفسه العالم الكاثوليكى بالتعرض للبابا وشعر بحاجته الى كسب عطف الدول المسيحية . فسعى الاتفاق مع البابا فى معاهدة ودية اكتفى فيها بأخف المغانم . وضمن بها صداقته ورضاه . وكان هذا الانتصار السلمى الذى أحرزه نابليون أبعد أثراً فى مستقبله من انتصاره فى الستين معركة التى عقد له لواء الفوز فيها على النمساويين فى هذه الحملة .

ويطول بنا الحديث اذا نحن فصلنا كل ما قام به نابليون فى ايطاليا من الأعمال الجليلة قبل أن يرحل عنها الى النمسا للقضاء على الارشيدوق شارل . ولكنا نكتفى بتسجيل تنظيمه للأصقاع التى استولى عليها فى شمال ايطاليا وتقسيمها الى قسمين أقام فى كل واحد منهما جمهورية على نسق الجمهورية الفرنسية .

ولقد قام نابليون بكل هذه الأعمال فى ايطاليا فى مدة لا تكاد تتجاوز العشرة الشهور واستطاع بنحو ستة وثلاثين ألفا من الفرنسيين أن ينتصر فى أكثر من ستين موقعة على نحو ٢٥٠ ألف رجل منهم ٢٠٠ الف تقريبا من النمساويين.

وكانت تتواتر أخبار هذه الانتصارات على فرنسا فتقوم لها البلاد وتقعد ويشتد شوقها الى ذلك اليوم الذى يعود اليها فيه قائدها الصغير لتقوم بما يجب عليها نحوه من التكريم والتعظيم. ولكن النمسا حالت دون هذه العودة السريعة بأصرارها على الاستمرار فى الحرب. فعقد نابليون نيته على ان يزحف على فيينا نفسها ليصل الى الصلح الذى كان يسعى اليه هو وفرنسا وتأباه عليه النمسا. وتساعدها انجلترا على عدم تحقيقه.

نابليون والبندقية.

ورأى نابليون قبل مغادرة ايطاليا أن يطمئن على فتوحه فيها فعرض على جمهورية البندقية أن تدخل معه فى حلف فرفضت فأرسل يحتم عليها أن تكون على الحياد قائلا:

« لتبق جمهورية البندقية إذن على الحياد. ولتذكر أنها اذا أخلت بشروط حيادها وتعرضت لجنودى ومواصلات جيشى فان انتقامى سيكون ذريعاً. انى أسير الآن الى فيينا والساعة التى تجترىء فيها البندقية على خيانتى هى الساعة التى أمحو فيها استقلالها من الوجود. »

نابليون والنمسا .

ثم انه ترك نحو عشرة آلاف من جنوده فى ايطاليا وصعد بالباقين جبال الألب الشاهقة فى عاصفة مطيرة ضاعفت من وعورة الطريق . ولكن نابليون كعادته استخدم نفس هذه العوائق فى تحقيق خطته فانه فاجأ النمساويين بجيشه وهم لا يحلمون بأمكان اقتراب الفرنسيين منهم بكل هذه السرعة . وفى مثل هذه الظروف . وأوقع فى صفوفهم الهزيمة بعد الهزيمة حتى قاربوا مدينة فينا وهنالك بعث نابليون بالكتاب الثانى الى غريمه الارشيدوق شارل :

« أيها القائد العام

أن الجنود الشجعان يحاربون وهم راغبون فى الصلح . وهذه الحرب قد دارت رحاها ست سنوات . أفلم يكف ما قتلنا من إخواننا فى الأنسانية ؟ أولم ترزح هذه الأنسانية تحت ما سخرنا عليها من الويلات ؟ إنها لتلتمس الراحة فى جميع نواحيها ! وها هى أوربا التى رفعت سلاحها فى وجه الجمهورية الفرنسية قد ألقت فى آخر الأمر هذا السلاح ولم

يبق على العداء معنا إلا النمسا ! وهذه الدماء توشك أن تفيض بأغزر مما جرت في الماضى . وأن هذه الحرب مهما كانت نتيجتها فأنها لن تنتهى إلا بقتل الألوف من كلا الجانبين . ثم هى لا بد أن تنتهى على كل حال . فأن لكل شىء غاية حتى عاطفة العداء . وأنت أيها القائد العظيم بحكم مولدك لا بد أن تكون فوق تلك العواطف التى تتحكم فى الوزراء والحكومات فهل وطنت العزم على أن تستحق لقب « مخلص النمسا » « وصاحب الفضل على الأنسانية » ؟ أنى لأرجو ذلك ! أما عن نفسى فأن هذه الدعوة التى لى شرف القيام بها إذا كانت سبباً فى إنقاذ روح واحد من الموت فأنى أفخر بمجدها أكثر من فخرى بتيجان المجد الكئيبة التى يمكن أن يضعها النصر فوق رأسى ! »

على أن الأرشيدوق شارل لم يجد ما يرد به على هذه الدعوة السامية إلا أن قال :

« إن الواجب الذى أُلقى علىّ فى هذه الحرب لا يخولنى البحث فى أسبابها ولا تحديد مداها . ولذلك لا أرانى قادراً على الدخول معك فى أية مفاوضات للصلح ! »

وليس يخفى على القارىء ذلك البون الشاسع المتجلى بين

روح هاتين الرسالتين فبينما تقرع الأذن نغمات السيطرة التى ترن فى كل لفظ من كلمات نابليون يلمح الأنسان بين سطور الأرشيدوق شارل كل تلك الأغلال التى يمكن أن يرسف فيها تابع مسخر . وعلى قدر ما أبدى نابليون من السماحة فى دعوته النمسا إلى الصلح وهو الظافر المنتصر على قدر ما أبدت النمسا من العناد فى رفضها لهذه الدعوة وجيوش العدو قاب قوسين من عاصمتها أو أدنى .

وكانت مدافع نابليون أول من تكلم بعد حبوط هذه المفاوضة . فاكتسحت قذائفها جيوش الأرشيدوق شارل اكتساحا . ولم تمض أيام حتى كان أمراء النمسا وأقيالها وعلى رأسهم الأمبراطور يفرون من فيينا كقطعان الغزال . فأسرع الأرشيدوق شارل إلى رفع علم الهدنة طالبا من نابليون أن يوقف القتال أربعاً وعشرين ساعة وكان نابليون قد بلغ مدينة ليوبن Leoben على بعد نحو ١٠٠ ميل من فيينا . فلم يشأ أن ينخدع بهذا العلم وقال إنه يرى أن الوقت ثمين جداً وأنه لا بأس من أن تجرى المفاوضات التى ترغب النمسا فيها مع بقاء الحرب مستمرة . ولكن الامبراطور أرسل اليه سفراءه يلتمسون منـــه وقف الحرب مدة خمسة أيام ريثما تجرى

المفاوضات على شروط الصلح . فلما رأى نابليون جدية الدعوة أجاب طلب الأمبراطور . وانتهت المفاوضات الأولى فى أبريل سنة ١٧٩٧ . ورجع نابليون إلى إيطاليا ريثما يتم الاتفاق النهائى على شروط الصلح .

معاهدة كامبوفورميو Campo Formio

وبينما كان نابليون يجاهد هذا الجهاد فى النمسا قام أهالى البندقية بثورة أوقعوا فيها بجنوده الذين تركهم وراءه فى إيطاليا فما كان منه بعد عودته إلا أن دخلها بجيشه عنوة . واستولى على ما فى خزائنها ومتاحفها من غنائم وبعث به الى فرنسا وجرت بعد ذلك المفاوضات النهائية لعقد الصلح الذى تم فى معاهدة كامبوفورميو وفيما يلى بيان ما كسبته فرنسا على يد نابليون فى هذه المعاهدة :

أولا : اعترف امبراطور النمسا بأن يكون نهر الرين حد فرنسا الشرقى .

ثانيا : تنازل لها عن بلجيكا .

ثالثا : أعترف بانشاء جمهورية شمال إيطاليا (الخاضعة لنفوذ فرنسا) .

رابعـا : تنازل عن دوقية ميلانو ولمبارديا لهذه الجمهورية
خامسا : استولت فرنسا على جزائر أيونيان Ionian
(التابعة للبندقية) فى البحر الأبيض المتوسط
فقوى بذلك مركزها البحرى .

أما ثمن هذه الشروط فقـد جعله نابليون ضم البندقية نفسها إلى النمسا . وبذلك أصاب العصفورين بحجر واحد — كما يقولون — فأنه كفل بهذا الضم موافقة الامبراطورية على التنازل عن بلجيكا وغيرها من الأصقاع التى كسبتها فرنسا . وفى الوقت نفسه انتقم لجنوده الذين ضاعوا فى ثورة البندقية بسبب عدم رعايتها للحيدة التى رسمها لها فى إنذاره .

ولقد أثبت نابليون بهذه المعاهدة أنه لا يقل دهاء عن أدهى ساسة أوربا فى ذلك العهد كما أثبت فى خلال الحرب أنه لا يقل فى قدرته الحربية عن أقدر جنود أوربا .

ولقد كانت هذه الحملة الايطالية الأساس الحقيق لعظمة نابليون فانه صادف فيها نجاحاً باهرا على طول الخط ونبهته حوادثها الى ما يمكن ان يصل اليه فى مستقبل ايامه وافسحت الطريق امام مطامعه الواسعة ولاقى بسببها من التكريم والتعظيم ما رفعه فوق مستوى البشر حتى لقد ذكر أيامهلة

وهو فى منفاه بكلمته المؤثرة المشهورة .

« ربما كان أسعد أوقاتى أيام فزت بالنصر فى ايطاليا .. هنالك كانت الجموع لاهجة بذكرى متحمسة . هنالك كانوا يصيحون من اعماق قلوبهم « ألا فليحى محرر ايطاليا » — كل ذلك وانا فتى لم أعد الخامسة والعشرين من العمر ! منذ تلك البرهة تمثل لنفسى ما صرت اليه فى مستقبل الأيام . رأيت العالم جميعه يمر من تحتى كأنما قد ولدت فى الهواء .... ! »

الفصل الثالث

بين الحملتين

رأينا قبل أن نتكلم فى الفصل التالى عن الحملة المصرية أن نقف قليلا لننظر فى آثار الحملة الايطالية وما أنتجته من النتائج الخطيرة.

(١) مصير البندقية.

ولا شك ان اول هذه النتائج هو تقلص نفوذ النمسا عن ايطاليا الشمالية بعد ان ظل علمها ذو النسر الأسود يرفرف على ربوعها اجيالا طويلة متعاقبة. ولكننا بينما نرى هذا العلم ينطوى فى غرب ايطاليا إذا بنا نرى نابليون ينشره فى شرقها فى ربوع البندقية.

ولقد كان اعتداء نابليون على استقلال هذه الجمهورية موضعا لأقسى الهجمات وأعنف الحملات من اقلام بعض المؤرخين حتى لقد وصفه بعضهم فى هذه المناسبة « ببعده عن الانسانية »

وقد يكون من المفيد ان نقف هنا قليلا لنحلل هذا العمل الذى عمله نابليون فى البندقيـة كى نستطيع ان نقدر قيمة هذه الحملات .

ويذكر القارىء مما اسلفنا فى الفصل السابق ان نابليون قد عرض على البندقية ان تحالفه فرفضت ان تمد يدها اليه . فطلب اليها لزوم الحيدة وأنذرها بتعريض استقلالها للضياع إذا هى لم ترع هذا الطلب فما هو ان رحل عنها حتى قام اهلها بثورة كان يقتل فيهـا جنوده الجرحى وهم على فراشهم فى المستشفيات .

فهذه الفتنة التى طعنت بها البندقية نابليون فى ظهره هى التى استحقت من اجلها فى نظره ان تمحى من خريطة اوربا فقام بعض المؤرخين يصفونه بسبب هذا العمل « ببعده عن الانسانية » بينما لم ير غيرهم فيه الا مثالا مما جرى عليه باقى الدول فى كل عصور التاريخ .

(٢) انشاء جمهورية شمال ايطاليا .

وهناك حادث آخر ربما كان أبعد أثراً فى نتائجه من حادث الاعتداء على اســـتقلال البندقية . وذلك هو ضم

مقاطعة لمبارديا إلى جهات ما وراء البو Po إلى بعض اقسام صغيرة من البندقية ومن سويسرا لتكوين جمهورية واحدة مستقلة عن النمسا . وتكون على شاكلة الجمهورية الفرنسية فى نظامها (حكومة إدارة ومجلسين) عملا بمبدأ الثورة الفرنسية الذى قامت من اجله جيوشها تحارب الدول المجاورة . وهو نشر مبادىء الحرية والديمقراطية وانقاذ الشعوب الضعيفة من أيدى حكامها المستبدين .

على ان القيمة التاريخية العظمى لهذا العمل الذى قام به نابليون هى انه وضع بتكوينه لهذه الجمهورية الصغيرة نواة ايطاليا المتحدة (١) التى اصبحت فى العصور الحديثة احدى القوى الأوربية التى تشترك مع زميلاتها فى تقرير سياسة العالم .

(٣) القضاء على الرجعية فى فرنسا

وهناك حادث ثالث تحسن الاشارة اليه فى هذا المقام وقد حدث قبل التوقيع على معاهدة الصلح فى كامبو فورميو بشهر واحد ونابليون ما يزال فى قصر ممبلو Mombello الأنيق فى

(١) لم تكن ايطاليا فى العصور السالفة الا مجموعة إمارات مستقلة لا يربط بعضها ببعض أى رباط سياسى

ضواحى ميلان يعيش عيشة الملوك العظام ويستقبل الوفود والسفراء ويستمع إلى قصائد المديح والأناشيد التى سماه الشعراء فيها — بطل الزمان — ومشيد أركان السلام — وهانيبال الجديد — ورسول الانسانية . . . وذلك أن حل موعد الانتخابات فى فرنسا لتجديد فريق من رجال الهيئة التشريعية فاذا بنابليون يرى أن الغالبية فى هذا الفريق قد انتخبوا من (اللاجمهوريين) أنصار الملكية القديمة وكان نجاح هذا الحزب معناه القضاء على نابليون وآماله فان عودة البوربون إلى عرش فرنسا لا يدع مجالا يعمل فيه أمثال نابليون من ربائب الثورة . ولذلك عول على القضاء على هذه الحركة فأعد منشورات باسم الجيش وبعث بها إلى باريس وكانت كلها احتجاجاً على أن يضحى نابليون وجنوده بأرواحهم فى سبيل اعلاء كلمة فرنسا فى أوربا حتى إذا عادوا إلى وطنهم ظافرين كان جزاؤهم أن تتلقاهم الحكومة بالخناجر! وأرسل أوجيرو بفرقته إلى باريس لنجدة الحكومة القديمة وتطهير المجلس من الأعضاء الرجعيين الذين تسربوا إليه وقد نجح أوجيرو فى ارهاب تلك العناصر الرجعية ومطاردتهم وبذلك زال الخطر وتعزز مركز « الديركتوار » . ولكن

هذا الحادث جاء سابقة أخرى لاستعانة الحكومة بالجيش في تثبيت أقدامها . وقد كان لهذه السوابق قيمتها في تمهيد الطريق أمام الدكتاتورية الحربية التي وصل بها نابليون فيما بعد إلى أسمى المراكز .

* * *

عودة نابليون الى باريس :

وأخيراً وصل نابليون بنفسه إلى فرنسا ودخل باريس في السابع من شهر ديسمبر سنة ١٧٩٧ . وكانت المدينة كلها تتحرق شوقاً لاستقبال هذا البطل الصغير الذي فاقت أعماله قصص الخيال . أما هو فدخل متنكراً ونزل في دار أعدها لاقامته في شارع شانترين « Chantereine » فما بلغ المجلس البلدي هذا الخبر حتى أمر بأن يدعى ذلك الشارع شارع النصر تكريماً لنابليون وتخليداً لذكرى فتوحه . وحددت حكومة الديركتوار يوم ١٠ ديسمبر لاستقباله استقبالا رسمياً في قصر اللوكسمبرج واستلام شروط الصلح التي وقعتها النمسا فأعدت القاعة العظمى لاقامة هذه الحفلة وزينت أحسن زينة . وفي الساعة المعينة أقبل أعضاء الحكومة والوزراء

والسفراء والحكام واعضاء المجلسين واستوى كل فريق على مقاعده ثم دخل قائدان يحملان رايتين كتبت عليهما أسماء السبع والستين معركة التى دارت فى إيطاليا وألمانيا وعقد النصر فيها كلها لنابليون وأخيراً وصل الجنرال بونابرت نفسه ومعه تاليران فقدم الجنرال للحاضرين بكلمات فخمة أنيقة تناسب المقام الذى أعدت له ثم جلس وقام بونابرت ليلقى كلمته فخفتت الأصوات وأرهفت الآذان وثبتت الأحداق على ذلك الهيكل الضئيل فى ملابسه العادية البسيطة . وقد وقف كأنه تمثال من الرخام فى هدوئه وتمالكه لنبرات صوته حين وجه الكلام للحاضرين قائلا :

« أيها المواطنون :

إن رغبة الشعب الفرنسى فى أن يعيش حراً حملته على محاربة الملوك . وإن رغبته فى الحصول على دستور يستند إلى أصول العقل حملته على مغالبة المبادئ السقيمة التى ظلت تحكم العالم ثمانية عشر قرناً من الزمان . . . . أما الآن فستتخذ هذه اللحظة التى صدقتم فيها على هذا الصلح تاريخاً يوقت به عهد الحكومات الدستورية النيابية . . . وهاءنا أتشرف بتقديم المعاهدة التى وقعنا عليها فى كامبو فورميو واعتمدها

الامبراطور وهى معاهدة تكفل للجمهورية حريتها ورخاءها ومجدها . . . » .

ولم يكد يتم نابليون كلماته حتى انطلقت تلك الأنفاس المحتبسة المعلقة وتحركت تلك الأطراف الجامدة المتشنجة ودوى المكان بالهتاف الحار « لفاتح إيطاليا » « ومعيد السلام إلى أوربا » « ومنقذ فرنسا » وعند ذلك قام (باراس) بالنيابة عن المديرين وألقى الكلمة الآتية :

« أيها السادة . .

لقد أجهدت الطبيعة نفسها فى خلق بونابرت . — ثم أدار رأسه إلى نابليون وقال اذهب أيها القائد وتوج أعمالك الباهرة بفتح جديد تدعوك إليه أمتنا العظيمة كى تثأر فيه لشرفها المعتدى عليه . اذهب إلى لندن وألهب ظهر وزرائها بسوطك واجعلهم أمثولة يزدجر بها كل من تحدثه نفسه بالنيل من هذا الشعب الحر . إن اليوم الذى يخفق فيه علم الثورة على شواطئ التاميز الدامية لهو اليوم الذى تتلقاك فيه هذه الأمة الكريمة هاتفة بحق . « ليحى محرر فرنسا » — » .

وفى وسط هذه النشوة التى مالت برءوس الجميع دقت الموسيقى لحن الحفلة الختامى وانفرط عقد هذا الاجتماع

التاريخى ولا حديث للناس إلا نابليون وأعماله وقد ظلت المدينة تقيم له الزينات والحفلات أياماً وليالى وهو مصر على عزلته كأنما يعد نفسه لذلك العرش العالى الذى تبوأه بعد قليل فوق رأس الجميع .

وليس أدل من النادرة الآتية على اتزان نابليون ورجاحة عقله ووقوفه على حقيقة طبائع الجماهير وعدم انسياقه مع تياراتها اذ قال له صديقه بُورْيِن والأفراح على أروع ماتكون عند ما كان هو فى طريقه إلى توقيع معاهدة الصلح فى إيطاليا .

« لا بد أن يكون من المطرب حقاً أن يقابل الانسان بكل هذه الحماسة وهذا الاعجاب ! » .

فما كان من نابليون إلا أن أجاب : « وحقك يا صاحبى إن هذا الجمهور الغر إذا ما طرأ على الظروف أقل تغيير ليشيعنى بنفس هذه الحماسة إلى آلة الاعدام ! »

الفصل الرابع

الحملة المصرية

١ — العدوة الأولى والأخيرة
٢ — أسباب الحملة
٣ — معدات الحملة
٤ — حالة مصر
٥ — فتح الاسكندرية
٦ — الحالة فى القاهرة
٧ — معركة الرحمانية
٨ — معركة الاهرام
٩ — دخول القاهرة
١٠ — اصلاحات نابليون
١١ — معركة أبى قير البحرية
١٢ — ثورة القاهرة
١٣ — الحملة السورية
١٤ — حصار عكا
١٥ — الانسحاب
١٦ — نابليون فى ميزان التاريخ
١٧ — حالة الفرنسيين فى مصر
١٨ — معركة أبى قير البرية
١٩ — معدات العودة الى فرنسا
٢٠ — مجازفة بارعة
٢١ — نتائج الحملة

(١) العدوة الاولى والاخيرة .

كان من مظاهر التقدير التى قوبل بها نابليون فى فرنسا بعد عودته من ايطاليا أن عرضت عليه (أكاديمية) باريس مقعداً من مقاعدها الخالدة . فقبله نابليون مع السرور العظيم وبعث الى الاكاديمية بالرسالة الآتية :

« إن القرار الذى قرره رجال المجمع النابهين ليشرفنى .
وأنى لأحس بأنى قبل أن أتمكن من الوقوف معهم فى موقف
الزمالة ينبغى على أن أبقى زمناً طويلا تلميذاً لهم . وأن النصر
الحقيق الذى لا يعقبه أسف ولا ندم هو ذلك النصر الذى
يحرزه العلم على الجهل . وأن أنبل وأنفع ما تسعى له الأمم
هو سعيها فيما تتسع به مملكة الذهن البشرى وأن عظمة فرنسا
الحقيقية يجب أن يقوم بناؤها من الآن على حيـازة سائر
كنوز العلم التى وضع العقل البشرى يده عليها . وعلى عدم
السماح لأية فكرة علمية جديدة أن تنبت بغرس أيد غير
أيدى الفرنسيين . »

ومنـذ ذلك اليوم حلا لنابليون أن يخلع عن أكتافه
كسوته العسكرية موقتاً ويرمى بنفسه فى بحر هذا المجمع العلمى
يحضر جلساته بنظام ويشترك فى بحوثه ويطلق العنان لذهنه
الوثاب يسرح ويمرح فى ميادينه الفسيحة .

وكانت الجمهورية الفرنسية فى تلك الفترة على وفاق مع
كافة الدول الأوربية ما خلا حكومة انجلترا فانها ظلت على
عدائها لفرنسا بحكم جوارها لها وخشيتها من تسرب مبادئها
الثورية اليها . ولم تأل جهدا فى اثارة الخواطر عليها وفى تسخير

أسطولها لمناوأة تجارتها مما جعل فرنسا تعود إلى حمل سلاحها لتستأنف جهادها فى الدفاع عن نفسها أزاء هذا الاعتداء المتواصل .

(٢) أسباب الحملة

ولم يكن بد للجمهورية الفرنسية فى هذه الضائقة أيضاً من أن تفكر فى نابليون صاحب الأيادى البيضاء عليها فى كل الأزمات التى اجتازتها فعهدت اليه فى تجهيز حملة لغزو الجزائر البريطانية . وسرعان ما كان نابليون فى طريقه الى شواطىء فرنسا الشمالية يرتادها ويعاين قلاعها . ويطبق خططه على مواقعها ولكنه لم يلبث أن اقتنع بعدم أرجحية رأى الحكومة فى مهاجمة انجلترا ذاتها وخطرت له إذ ذاك فكرة مهاجمتها فى مستعمراتها . فما هو أن لاح له هذا الخاطر حتى استجابت له كل ميول نفسه . فان أهم مستعمرات انجلترا فى الشرق . والشرق كان مسرح خيالات نابليون منذ حداثته ففيه ظهر الاسكندر قدوته الأكبر وأستاذه الذى ما فتىء يتتبع خطاه ويسير على نهجه ويطمع فى مثل مكانته من التاريخ . وفيه المجال الفسيح الذى يتسع لوثبات روحه الطموح فدوله

إذ ذاك أضعف الدول وشعوبه أطوع الشعوب وأسلسهم قيادا .
وكان أول ما خطر ببال نابليون أن يسير الى مصر فيستولى عليها ويجعلها قاعدة لأعماله الحربية ضد انجلترا فيسير منها الى الهند أو يتغفل أسطول انجلترا الذى يتعقبه فى البحر الأبيض وينقض عائدا الى بحر المانش فيدخل لندرة ويملى شروطه على حكومته قبل أن تتهيأ لها وسائل مقاومته . أو يسير إلى الشام اذا فشلت كل هذه الخطط ويتابع سيره إلى القسطنطينية فيستولى عليها ثم يعود إلى فرنسا عن طريق جنوب أوربا ناشرا مبادىء الثورة فى البلاد التى يمر بها وبذلك تتحقق له ولفرنسا جل غاياتهما المشتركة .

على أن حكومة الادارة فى ذلك العهد كانت تحس بضعف موقفها أزاء الشعب الفرنسى الذى أنهكته سنو الثورة وتركته فى حاجة ماسة الى الاصلاح من كافة نواحيه وتحس فى الوقت نفسه بتعلق هذا الشعب بنابليون وتطلعه اليه فى سد هذه الحاجات . فكانت تغار على سلطتها من نفوذه المتزايد . وتخشى أن يفلت زمام الحكم من يدها اليه .

وحدث فى شهر يناير سنة ١٧٩٨ أن حل موعد الاحتفال السنوى الذى كانت تقيمه الحكومة إحياء لذكرى مقتل

لويس السادس عشر . فدعى نابليون لحضور هذه الحفلة بصفته العسكرية ولكنه رفض الاشتراك فيها قائلا :

« إن هذا اليوم يعيـــد إلى الذهن ذكرى مأساة لا تلذ ذكراها إلا للقليل وأن الاحتفال بذكرى قتل انسان ليس مما يليق بحكومة أن تقوم به فانه يعمل على إثارة الخواطر بدلا من أن يعمل على تهدئتها ويزعزع أركان الحكومة بدلا من أن يثبت قواعدها » .

ولكن الحكومة ألحت عليه فى وجوب حضور هذه الحفلة بأية صفة يختارها لأن الشعب لن يتردد فى تأويل غيابه تأويلا يضر بصالح الحكومة . فقبل نابليون أخيرا أن يحضرها ولكن مع زملائه رجال (الأكاديمية) . وهناك كان قبلة الأنظار وموضع تطلع كل انسان . وما كادت تنتهى مراسم الاحتفال حتى انقلب هذا الجمع الحافل الى مظاهرة عامرة سار الناس فيها يشقون أطباق الفضاء بالهتاف له وذهب الانفعال ببعضهم إلى حد أن صاح :

« لابد لنا من طرد هؤلاء المحامين (يعنى رجال الادارة) وتتويج الكاورال الصغير (يعنى نابليون) ملكا على فرنسا ! »

وكان من شأن هذه الحوادث وأمثالها أن دفعت حكومة

الادارة إلى التعجيل فى التخلص من بقاء نابليون فى فرنسا فما هو أن أفضى اليها بخطته فى السفر إلى مصر ومهاجمة انجلترا فى الشرق حتى رحبت برأيه وهى تتمنى من كل قلبها لو أنه سار إلى غير رجعة من هذا السفر الطويل .

(٣) معدات الحملة

أما نابليون فأنه انهمك كعادته فى اعداد معدات هذه الحملة الجديدة وكانت تجرى تجهيزاته سرا فى ثغر تولون حتى لا تتنبه انجلترا إلى نواياه فتعرقل مساعيه وبذلك تمكن من جمع ٣٨ الف مقاتل . ونحو أربعمائة نقالة بحرية لحملهم وأسطول حربى مؤلف من نحو عشرين بارجة عظيمة كانت من بينها (لوريان — L'Orient) أو مركب نصف الدنيا كما كان يسميها المصريون لضخامتها . ولأنها كانت تحمل على ظهرها مايقرب من ١٢٠ مدفعاً . ولما تمت هذه المعدات أخذ نابليون يترقب غفلة نلسون أميرلاى الأسطول الانجليزى الذى كان منوطا بمراقبة شواطىء فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط ليقلع هو الى مصر . وفى التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٨ ثارت عاصفة شديدة اضطر الأميرال نلسون تحت تأثيرها إلى

الانسحاب نحو جزيرة سان بيترو St Pietro في جنوب سردينيا . فخرج نابليون في هذا الجو العصيب ناشرا أشرعته وسار في محاذاة الشاطىء حتى بلغ جنوا ثم مر بأجاكسيو مهبط رأسه ومن هناك سار إلى صقلية وأخيرا أشرف على جزيرة مالطا بأسطوله الضخم وكانت إذ ذاك في حكم فرسان القديس يوحنا فاستأذن رئيس الفرسان ليسمح لبوارجه بأخذ ما يلزمها من الماء ولكن الرئيس رفض هذا الطلب . فأنزل اليها نابليون فرقة من جنوده حاصر بهم عاصمتها (لافاليت) « La Valette » فما لبثت حاميتها أن طلبت التسليم . وبذلك دخلت هذه الجزيرة وما حولها من الجزائر الصغيرة تحت سيادة فرنسا . وبعد ذلك استأنف نابليون سيره إلى الاسكندرية . وكانت البوارج لكثرتها تسير كأنها مدينة طافية على وجه الماء . وكان نابليون قد اصطحب معه جماعة من العلماء الذين اتصل بهم عند دخوله (الأكاديمية) ليعاونوه في دراسة مصر حتى يتسنى له وضع المشروعات اللازمة لتعميرها واحيائها فكان معه علماء التاريخ القديم كما كان معه الاخصائيون في علم النبات والخبراء في الشئون الاقتصادية والصناعية . وكان يجتمع بهم على ظهر مركبه كل ليلة يتبادل

معهم الحديث ويستعرض أمامهم آراءه ومشروعاته التى اعتزم تنفيذها فى بلاد الفراعنة . وهكذا انقضت الأيام الباقية من سفر الحملة على خير حال .

أما نلسون فانه ما لبث أن عاد تجاه الشواطئ الفرنسية حيث علم بخروج الأسطول الفرنسى ولكنه لم يكن يعرف وجهته بالتحقيق وذلك لسرية المعدات التى قام بها نابليون فتبادر إلى ذهنه خاطر حضوره إلى مصر فسار إليها رأساً وهو ينهب البحر نهباً بمراكبه السريعة . ومن عجائب الصدف أنه مر فى طريقه بجوار المراكب الفرنسية دون أن يراها أو تراه . وأخيراً بلغ الاسكندرية قبل أن يصل اليها أسطول نابليون فأرسل إلى الحاكم يخطره بقرب وصول هذا الاسطول طالباً إليه أن يسمح له بالبقاء فى الميناء ليمنعه حين يصل من الاعتداء على الديار المصرية . فلم يستطع السيد محمد كريم حاكم المدينة تصديق هذه الدعوى وظن أن نلسون يريد أن يخدعه بها ليبقى هو فى ميناء الاسكندرية فأرسل اليه بأنه ليس بين مصر وفرنسا ما يدعو إلى حضور نابليون إليها . وعلى ذلك لا حاجة بالاسطول البريطانى إلى البقاء فى المياه المصرية الا ريثما يحصل على ما يريده من الماء والزاد

ولما رأى نلسون أن لا سبيل إلى البقاء فى مصر وأن البوارج الفرنسية لم يظهر لها أى أثر بقرب شواطئها أقلع إلى الاستانة ظناً منه أن نابليون ربما يكون قد قصد اليها دون مصر . ولكن لم يمض على ذلك يومان حتى ظهر الأسطول الفرنسى تجاه مدينة الاسكندرية . فما كاد الناس يرونه وقد غاب الأفق من وراء أشرعته حتى انخلعت أفئدتهم من الخوف وأدركوا أن نلسون كان صادقاً فيما ادعاه وأن الجو أصبح خالياً أمام نابليون ليفعل بهم ما يشاء ،

أما السيد محمد كريم فلم يملك حين شاهد هذا الأسطول أكثر من يبعث إلى مراد بك فى القاهرة بالرسالة الآتية :

« سيدى

إن العمارة التى حضرت إلى مدينة الاسكندرية تتألف من مراكب كثيرة وليس لها أول يعرف ولا آخر يوصف . لله ولرسوله أدركونا بالرجال . . . » .

(٤) حالة مصر .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر أن مصر كانت خاضعة فى ذلك العهد لحكم المماليك الذى يضرب به المثل حتى اليوم

فى الفوضى والاستبداد. ولقد كان من آثار حكومتهم السيئة الظالمة أن تضاءل فى عهدهم عدد السكان فأصبح ثلاثة ملايين بعد أن كان نحو عشرين مليوناً مدة حكم الرومان والعرب. وكان الشعب المصرى . إذ ذاك يتألف من ثلاثة عناصر متباينة. فالأقباط أولا وهم سكان البلد الأصليون. ثم العرب الذين استوطنوا بعد ذلك فى عهد الدولة الاسلامية ثم الأتراك الذين نزحوا إلى مصر بعد أن فتحها السلطان سليم.

أما حكومتها فكانت فى يد المماليك الذين جاء بهم سلاطين الدولة الأيوبية ليكونوا لهم خدما وأتباعا فكثر عددهم ونما نفوذهم واستقلوا بالسلطة دون سادتهم وأصبحت لهم حكومة البلد الفعلية. ولقد رأى السلطان سليم أن يستعين فى حكم مصر بهؤلاء المماليك وذلك بسبب بعدها عن مقر ملكه ولسوء وسائل الاتصال فى ذلك العهد. فولاهم إدارتها على أن يسلموا خراجها لوزير الدولة العلية الذى كان يبعث به السلطان إلى مصر ليمثل حكومة الباب العالى فيها. غير أن المماليك لم يلبثوا أن أعلنوا استقلالهم عن السلطان. واستبدوا بوزرائه. وتسلطوا عليهم إلى حد أنهم كانوا يعزلون من يقف منهم فى طريقهم أو يحاول بأية وسيلة أن يعترض على إرادتهم.

وبذلك استتب لهم الأمر فى هذه البلاد . وأصبحوا هم حكامها الفعليين . وانتهى الأمر ببعضهم أن امتنع عن دفع الاتاوة المفروضة للباب العالى . فلم يبق للسلطان على مصر إلا السيادة الاسمية . وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت السلطة فى يد زعيمين كبيرين من زعماء المماليك وهما ابراهيم بك ومراد بك . وقد كثر فى عهدهما النهب والسلب حتى ضج التجار الفرنسيون الذين كانوا بمصر وقدموا شكاياتهم العديدة إلى فرنسا يستغيثون بحكومتهم مما كانوا يلقونه على أيدى هذين الزعيمين ورجالهم فخابرت فرنسا حكومة تركيا فى هذا الشأن فكان جواب الباب العالى أن المماليك قوم عصاة !

وجاء هذا الجواب متمشياً مع عزم فرنسا على مهاجمة انجلترا فى مستعمراتها فرأت أن الفرصة قد سنحت لتسيير حملتها على مصر وقام نابليون فعلا بتجهيز هـذه الحملة على النحو الذى وضحناه بعد ان اشترط على حكومة الاداره أن تبعث بتاليران وزير خارجيتها إلى الاستانة ليتفق مع الباب العالى على عقد محالفة مع فرنسا تخولها دخول مصر وطرد المماليك من ربوعها

ولقد كان من صالح الباب العالى لو أن تاليران وفق فى

مهمته فان التفاهم مع فرنسا على شئون مصر فى تلك الظروف كان أدنى إلى التحقق من التفاهم عليها مع المماليك . ولكن انجلترا كانت أسبق إلى إذن السلطان من فرنسا ولذلك فشلت مفاوضات تاليران . وأقبل نابليون بأسطوله على مصر وهو يواجه أربع خصومات قوية إذ كان أمامه المماليك بخيلهم ورجلهم والأهالى بتعصبهم وجهلهم والأتراك بنجداتهم المتتالية — ومن وراء كل هؤلاء الانجليز بأساطيلهم ودعايتهم .

(٥) فتح الاسكندرية .

وكان لا بد لنابليون ازاء هذه العوامل من أن يلجأ إلى أساليبه الخاصة التى امتاز بها وحده والتى كفلت له النصر فى إيطاليا من حيث سرعة التحرك . ومفاجأة العدو . وعدم تمكين خصومه من التجمع عليه فى جبهة واحدة . فأسرع بنحو خمسة آلاف جندى إلى النزول عند (العجمى) وهو مكان يقع على مسيرة نحو ست ساعات فى غرب الاسكندرية ثم واصل السير ليلا حتى طلع الفجر عليه وهو على أبواب المدينة وشرع يهاجم أسوارها فورا فلم يتمكن أهلها من الدفاع أكثر من ساعتين لضعف استعدادهم وسوء وسائل

الدفاع المتوفرة لديهم — فدخلها نابليون بجنوده وفى اليوم التالى أرسل اليه السيد محمد كريم يعرض التسليم بصفته حاكم المدينة فقابل طلبه بالترحاب وعرض عليه أن يكون عوناً للفرنسيين فى مهمتهم التى جاءوا مصر من أجلها وهى إبادة دولة المماليك الظالمة فأقسم له السيد محمد يمين الاخلاص والولاء فأبقاه نابليون فى عمله ثم أخذ فى تأمين الأهالى وطمأنتهم على أموالهم وأنفسهم ومعتقداتهم باسطاً لهم مبادئ الجمهورية الفرنسية التى أخذت على عاتقها أن تذيعها فى العالم وهى أن يسوس كل أمة عقلاؤها وأن يتساوى أمام القانون أفرادها . وأن لا يفضل أحد منهم أحداً إلا بقدر ما فيه من علم وكفاية يميزانه على غيره . فاستنام الأهالى لهذه المبادئ وألقوا اليه سلاحهم فأناب عنه فى حكم المدينة الجنرال كليبر . وشرع هو يصدر منشوراته لكافة بلاد مصر كى يمهد لنفسه سبيل الاستيلاء عليها غير تارك وسيلة للتأثير فى عواطف الشعب إلا استغلها . فأعلن فى تلك المنشورات بأنه أنما جاء مصر لطرد المماليك الذين استأثروا دون الأهالى بأوفر غلاتها وأجمل نسائها وأفخر قصورها وادعى أن الفرنسيين مسلمون مستدلا على ذلك بأنهم دخلوا إيطاليا

وهدموا فيها سلطة البابا واستولوا على مالطا وشتتوا فرسانها الذين كانوا يدعون أن الله أقامهم لمحاربة الاسلام . ثم نوه بأن الفرنسيين كانوا منذ القدم حلفاء السلطان العثمانى وأعداء أعدائه . ووعد الذين يتفقون معه من المصريين بالأمان والسعادة ثم انتهى بأن هدد كل من اتفق مع المماليك بالويل والهلاك . ولما فرغ من ذلك بعث إلى وزير الدولة التركى الذى كان يقيم فى القاهرة إلى جوار مراد بك وابراهيم بك بكتاب خاص هذه خلاصته :

« دولتلو أفندم حضرتلرى

إن جمهورية فرنسا عزمت على ارسال حملة لقطع دابر المماليك من مصر ومع أنكم أنتم أصحاب السيادة والسلطان فان المماليك قد جعلوكم كالأسرى تحت نفوذهم وسطوتهم ولذلك لابد أن يسركم مجيئنا إلى هذه الديار . فهلموا للقائنا والعنوا معنا المماليك ؟ بونابرت »

(٦) الحالة فى القاهرة

وكان مراد بك قدهاج وانتابته نوبة لدى وصول رسالة السيد محمد كريم الأولى التى بعث بها إليه وذهب إلى قصر ابراهيم بك واختلى به زماناً وذاع الخبر فى كل القاهرة

فاختلجت له وارتبك أهلها واجتمع المماليك والعلماء والأعيان بمنزل ابراهيم بك وأخذوا يتشاورون فى الأمر فصرح مراد بك لوزير الدولة بأنه يعلم أن حكومة تركيا هى التى دبرت مع فرنسا أمر هذه الحملة الفرنسية . ثم قال متهكما :

« ولا ريب أن حضرة الوزير يقدر أن يخبرنا بشىء عن ذلك ! غير أن العناية لابد أن تسعفنا على الاثنين ! » .

فرد عليه الوزير مستهجناً لهذه الظنون حاثاً له وللمصريين على الاسراع فى العمل لانقاذ مصر بدل اضاعة الوقت فى إثارة الشكوك حول موقف السلطان .

فاجتمعت كلمة الحاضرين على وجوب إلقاء القبض على قنصل فرنسا وسجنه هو والتجار الفرنسيين خوفاً من الخيانة . وأخذ مراد بك على عاتقه جمع قوة يواجه بها الأعداء فاجتمع له فى أيام قليلة نحو ٢٠ ألف مقاتل سار فيهم للقاء نابليون .

(٧) معركة الرحمانية :

وكان نابليون قد غادر الاسكندرية قاصداً فرع رشيد ليسير إلى جانبه حتى يصل إلى القاهرة ورأى أن يختصر الطريق إلى النيل باجتياز قفر دمنهور بدل أن يصل إليه عن

طريق الشاطئ فلاقى فى قطع هذا القفر كل مشقة وعناء إذ
لم يكن فيه ماء للشرب ولا ظل تأوى إليه الجنود مع أن
ذلك كان فى شهر يولية حيث تشتد الحرارة اشتداداً عظيما
ولم يكن يرى الفرنسيون فى هذا القفر من بشر غير فرسان
العرب الذين كانوا يختبئون منهم خلف تلال الرمل ثم
ينقضون على مؤخرهم فيفتكون بالمتخلفين من رجالهم ولذلك
كثرت الشكوى بينهم واشتد التذمر ومات كثير من الظمأ
ومن ضربة الشمس. وكان يتزايد سخط الجنود كلما أوقفهم
رجال البعثة العلمية التى ترافقهم أثناء فحصهم لأثر من الآثار
التى كانت تصادفهم فى طريقهم حتى بدأ الجيش يتشكك
أخيراً فى صدق نية الحكومة الفرنسية ظناً منهم بأنها لم تبعث
بهم إلى مصر لفتح ولا لحرب ولكن لحراسة هؤلاء العلماء
أثناء بحثهم وتحقيقهم وأخيراً زالت عنهم كل هيبة لهؤلاء
العلماء وصاروا ينتهرونهم ويشتمونهم إذا أرادوا إيقافهم.
وكان من بين رجال هذه البعثة مهندس بارع فى فنه ولكنه
كان أعرج قطعت رجله فى حرب سابقة فاستعاض عنها
برجل من الخشب ولذلك سماه المصريون فيما بعد — (أبو
خشبة) — وكان هذا العالم بصفة خاصة كثير البحث شديد

التدقيق إلى حد أن الجنود كانوا من شدة ضيقهم يتفكهون فيما بينهم بأمره — قائلين :

وما ذنبنا نحن اذا كان هـذا الرجل يريد أن يهلك فى مصر ولا يرجع إلى بلاده لأنه دفن رجله الأخرى فيها . »

* * *

وأخيراً بعـد أن لبثت الحملة على هذه الحـال أربعة أيام طوال ذاقت فى خلالهـا ألوان العذاب أشرفت على شاطئ النيل فما لاح للجنود حتى تسابقوا إليـه يطفئون ظمأهم على ضفافه وينعمون بأكل البطيخ والشمام فى ظلال أشجاره .

ورأى بونابرت أن يعوض جنوده عما قاسوه فى رحلتهم هذه فأقام فى تلك البقعة نحو أربعة أيام أخرى ولـكن مراد بك طلع عليهم بجيشه فى اليوم الخامس وعند ذلك انتشبت بين الفريقين معركة الرحمانية المشهورة التى انكسرت فيها جماعة مراد والتى تابع نابليون من بعدها سيره إلى مدينة القاهرة .

وسرعان ما وصلت أنبـــاء هزيمة مراد بك إلى زميله ابراهيم بك فى القاهرة فجمع نساءه وأمواله وملأ بها مراكبه الراسية فى النيل عند بولاق لتكون بضاعة حاضرة تحت يده اذا دعا داعى الفرار . ثم كتب إلى مراد بك يستدعيه ليرابط

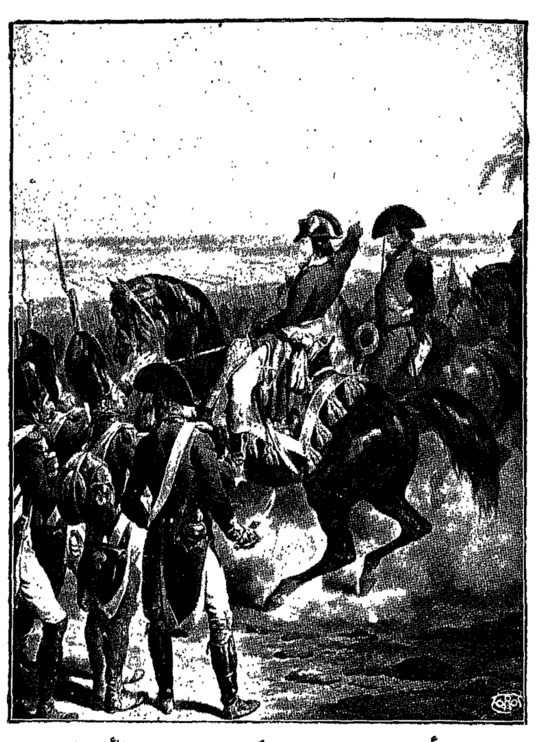
أمامه فى جهة امبابة حتى يحولا معاً من تقدم نابليون. وثارت حماسة الأهالى واحتمل كل واحد منهم سلاحه الذى قدر عليه بينما سار العلماء فى موكب حافل تتوسطه الراية النبوية قاصدين بولاق ليشتركوا فى لقاء العدو وكل عدتهم فى ذلك اليوم العصيب هتافهم ملء حناجرهم .

« الله أكبر على من طغى وتكبر ! »

(٨) معركة الاهرام :

وفى الحادى والعشرين من شهر يولية سنة ١٧٩٨ أشرف نابليون برجاله على مدينة القاهرة . وما لاح لهم منظر مآذنها العالية عن شمالهم ومنظر الأهرام الجاثمة فى وسط الرمال عن يمينهم وأشعة الصباح الباهتة تكلل هامة الجميع حتى بهرتهم تلك الصورة السحرية فشخصوا إليها جامدين وتملكت نفس نابليون الحماسة وصاح فيهم قائلا : « أيها الجنود ! إن اربعين جيلا تنظر إليكم من فوق هذه الأهرام » فأشعلت هذه الكلمة حماسة الجنود وتطلعوا أمامهم فرأوا جيوشاً جرارة فى بطن السهل بالقرب من إمبابة عليها أفخر اللباس وفى مقدمتها ما لا يقل عن عشرة آلاف فارس تحتهم أفراس مطهمة تأخذ

حللها بالأبصار . ونظر نابليون بمنظاره إلى العدو وعلى وجهه كل علائم الاهتمام ثم ما لبث أن نزل بالمنظار عن عينه وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنصر القريب . ذلك بأنه رأى ما لم يره مئات الضباط حوله ممن يحملون مثل منظاره . واستطاع ببصره الثاقب أن يعرف أن المدافع التى مع المماليك ثابتة فى الأرض وليست محمولة على دواليب تديرها حيث يكون العدو ولكنها مصوبة كلها نحو الشمال فدار نابليون بجنوده عن وجهة أفواهها وهاجم خصومه من جناحهم الأيسر فسقط فى أيديهم . وعلموا أن مدفعيتهم قد شلت بهذه الحركة فهاجوا وانقضوا على الفرنسيين انقضاض الصاعقة ولكن هجومهم كان كالسحابة التى تصطدم بالطود الراسخ فيسقط مطرها على رأسه دفعة واحدة ثم تنقشع ولا يبقى لها أثر . وكذلك ثبت الفرنسيون تحت هجوم المماليك كالطود حتى حسب هؤلاء أن بعضهم لا بد أن يكون مربوطاً ببعض فسرى اليأس إلى قلوبهم ودب الفشل فى صفوفهم وسرعان ما تشتتوا كل يلتمس لنفسه الخلاص . أما مراد بك فانه أحرق السفينة العظيمة التى كان قد جمع فيها أمواله وخزائنه . وولى هارباً نحو الجيزة ثم أوغل فى قلب الصعيد وأما ابراهيم



« إن أربعين جيلا تنظر اليكم من فوق هذه الأهرام »

فانه ما كاد يرى رجاله يشتبكون مع الفرنسيين ويحس بتفوق هؤلاء عليهم حتى فر بأمواله ونسائه قاصداً إلى الشام يصحبه وزير الدولة بكر باشا . ولما رأى الشعب زعماءه يفرون على هذه الصورة ويتخلون عنه فى أشد الأوقات وقع الرعب فى قلبه . ولم ير أمامه غير التسليم فاتفق أهل الرأى منهم على ذلك وجاءوا بقنصل فرنسا وزملائه الذين كانوا فى سجن القلعة وبعثوا برسولين منهم إلى نابليون ليطلبا إليه تأمين الأهالى على أموالهم وأنفسهم فى نظير تسليمهم إليه فأجاب نابليون سؤلهم وأرسل الجنرال ديبوى لاستلام المدينة وتأمين أهلها فقابله العلماء والأعيان عند بولاق فى مساء ذلك اليوم ودخلوا المدينة أمامه بالمشاعل والمنادى بين يديهم ينادى :

« الأمان للرعية جميعها . »

(٩) دخول القاهرة :

وفى اليوم التالى دخل نابليون القاهرة هو وبقية جنوده وخرج الأهالى للقائهم فى الطرقات فرحين بهم معجبين ببساطة لباسهم بالنسبة لما ألفوه من بذخ المماليك وأبهة ملابسهم العسكرية وقد نزلت جيوش نابليون فى منازل بكوات المماليك

الفسيحة الجميلة . أما هو فاختار لنفسه منزل محمد بك الألفى الذى كان على بركة الأزبكية وأقام فيه (وشارع الألفى الموجود الآن بالقاهرة ليس إلا رمزاً لمكان هذا القصر العتيق) .

(١٠) اصلاحات نابليون

واستتب الأمر لنابليون فى القاهرة . فرسم أساس حكومة البلاد بأنشاء عدة مجالس للادارة والقضاء . ثم أخذ فى تقسيم القاهرة نفسها إلى أقسام أقام على كل قسم منها حاكما فرنسياً لحفظ الأمن وتوطيد السلام وأمر بأن يتعهد الأهالى نظافة الطرقات ورشها واضاءتها كل فى دائرة مسكنه ثم رأى حاجة السكان إلى دار عامة يتعالجون فيها فأنشأ مستشفى القصر العينى لتطبيب المرضى والجرحى . وأمر بأن تضرب النقود فى القلعة باسم السلطان سليم حسب العادة . ثم قسم القطر المصرى كله إلى اقاليم وجعل على كل اقليم منها قائداً من قواده ثم أرسل وراء مراد بك من يطارده ويقضى عليه فى الصعيد وعلم بأن ابراهيم بك وبكر باشا قد وقفا فى طريقهما عند مدينة بلبيس وأنهما ينويان جمع أمرهما فيها بقصد العودة لمهاجمة القاهرة فسار اليهما بنفسه . فما لبثا أن انقلبا على عقبيهما وتابعا سيرهما

إلى مدينة غزة فى حدود سورية واتصلا منها بالجزار باشا والى عكا وشرعا بتحريضه يبعثان إلى مصر بالمنشورات السرية لحض الأهالى على الثورة والعصيان. فجمع نابليون علماء البلد وذوى المكانة فيها وكلفهم بأن يقوموا بأسداء النصح إلى مواطنيهم ويدعوهم إلى الطاعة والامتثال وتأدية الخراج فى سكينة وهدوء مرددين عليهم ماسبق لنابليون إذاعته من أن الفرنسيين حلفاء السلطان وأنصار الاسلام . وأنهم ما جاءوا مصر إلا لتطهيرها من عسف المماليك وفسادهم فصدرت نشرة طويلة بهذا المعنى ذيلهابتوقيعه كل من السيد خليل البكرى والشيخ عبد الله الشرقاوى . وأعلام شيوخ ذلك العصر كالمهدى والفيومى وغيرهما .

وانصرف نابليون بعد ذلك إلى الاصلاح على مافيه خير هذه البلاد فكان فى مقدمة ماعنى به تعيين أمير للحج ومخابرة الولايات الاسلامية الغربية كطرابلس وتونس والجزائر بأن مصر ترحب بحجاج تلك البلاد الذين يفدون اليها فى طريقهم الى الحجاز علماً منه بما يترتب على مرور تلك القوافل فى مصر من الرواج والرخاء . ثم جاء موعد الاحتفال بفيضان النيل وكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة التى يجتمع فيها الناس

من جميع الجهات لحضور مهرجانه فاشترك نابليون وجنوده
فى إحياء هذا العيد الوطنى وأقام الولائم لأعيان البلاد وابتدع
لهذا العيد بدعة الألعاب النارية التى ظلت من تقاليد المهرجان
حتى اليوم . وجاء بعد ذلك موعد الاحتفال بالمولد النبوى
فحضر بنفسه وليمة السيد خليل البكرى نقيب الأشراف الجديد
الذى ولاه نابليون بدلا من السيد عمر مكرم النقيب السابق
الذى فر إلى الشام مع ابراهيم باشا وبكر . وقد عرف نابليون
كيف يستولى على مشاعر المصريين فى ذلك العيد العظيم حيث
يروى أنه دخل معهم إلى المسجد فى وقت الصلاة وجلس
متخشعاً يتلو معهم مايلقنونه من آيات القرآن الكريم ويركع
ويسجد مع الراكعين والساجدين .

ولقد قام نابليون إلى جانب هذه الأعمال بتنفيذ مشروعه
الجليل الخالد الذى كان فاتحة عصر جديد لمصر بل وللعالم أجمع
فى كل مايصل بينه وبين مصر وذلك بأنشاء المجمع العلمى وتنظيم
أعماله وتقسيمه إلى فروع ليأخذ كل فرع منها القيام بمهمته فشرع
المهندسون فى مسح الأراضى وضبط حدودها ورسم خرائط
مفصلة لجهاتها . وأخذ آخرون فى دراسة نهر النيل ووضع
المشروعات اللازمة لضبط مياهه وصرفها لفائدة الأهالى واهتم

فريق آخر بدراسة نباتات مصر وحاصلاتها وتربتها ومناخها وأخذ علماء الآثار فى الحفر والتنقيب للبحث عن الآثار القديمة التى تنير تاريخ مصر القديم وتكشف عن أسراره . وقد وفق أحد الضباط الى العثور على لوحة من البازلت فى مدينة رشيد كانت تحمل على جوانبها عبـــارة كتبت بالمصرية القديمة وبالرومية فى آن واحد . فجاء كشف هذه اللوحة نصراً باهراً فى هـذا الميدان جنى منه العالم بأجمعه أطيب الثمرات حيث تمكن بعض العلماء بواسطتها من حل رموز الكتابة الهيروغليفية وانفتح بذلك باب البحث أمام العلماء والمؤرخين .

(١١) معركة ابى قير البحرية

على أن نابليون ما كاد يجتمع له من أمر مصر كل هذا الشأن حتى فوجىء بصدمة هادمة لم يكن يقوى غيره على الاستواء بعدها على قدميه . وذلك أن نلسون أمير البحر الانجليزى الذى كان يتعقب أسطوله ما لبث أن عاد إلى الاسكندرية بعد أن علم بوصوله اليها فرأى مراكبه راسية فى خليج أبى قير فهاجمها من فوره وكان الفرنسيون على غير أهبة للقتال . فانتشبت بين الفريقين معركة عنيفة بدأت فى مساء أول أغسطس سنة ١٧٩٩

ودامت الليل بطوله واسفرت قبيل ظهر اليوم التالى عن تحطيم معظم البوارج الفرنسية وفرار البقية الباقية منها إلى مالطا . وبذلك انقطعت الوسيلة الوحيدة التى كانت تربط رجال الحملة بفرنسا وتحرج موقف نابليون أكثر من ذى قبل .

ويدهشك بعد ذلك أن تعلم أن كل ما أثارته هذه النكبة من الخواطر فى صدر نابليون هو أنه أحس بأن واجباً عليه أن يوسع دائرة العمل الذى كان ينوى القيام به فى الشرق بعد أن أصبح لا أمل له ولو موقتاً فى الاتصال بالغرب . وأنك لتقرأ ذلك صراحة فيما كتب الى الجنرال كليبر بالاسكندرية على أثر هذه الحادثة حيث أرسل اليه يقول « إن ما حدث فى أبى قير يحملنا على أن نقوم بأعمال أعظم من الأعمال التى شرعنا فى القيام بها » .

ولقد أخذ نابليون فعلا بعد ذلك فى تجنيد فرقة من الشبان المصريين ممن تتراوح سنهم بين ١٦ و ٢٤ سنة وأنشأ فى مصر معملا للبارود والرصاص وأصناف الذخيرة اللازمة حتى يكون فى غنى عن الرجوع الى فرنسا فى طلب نجدة أو مؤنة وأقام بريداً بين القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة واستمر فى إدخال اصلاحاته والقيام بأعماله المعتادة حتى تغلب بثباته وقوة

روحه على ما كان قد تسرب الى قلوب رجاله من اليأس والضعف والاستسلام للمقادير .

(١٢) ثورة القاهرة

على أن نكبة أبى قير ما لبثت أن انتشرت أخبارها بين الأهالى وتوسع المعارضون فى تأويل نتائجها والتعليق عليها بما تطمئن له قلوبهم حتى حسب الناس أن لا قبل للفرنسيين بعدها بالمقاومة وكانوا قد بدأوا يحسون بثقل الضرائب التى فرضها عليهم نابليون لتنفيذ إصلاحاته كما أنهم لم يرتاحوا لكثير من هذه الاصلاحات لما فيها من التكاليف التى لا عهد لهم بها كانارة الطرقات والعناية بكنسها ورشها والامتناع عن دفن الموتى داخل المنازل وغير ذلك . فاختمرت الفتنة فى نفوسهم وباتوا يتربصون للايقاع بنابليون وجنوده متى سمحت الظروف . وتمكن عمال نابليون فى تلك الفترة من ضبط رسالة بخط السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية يحرض فيها مراد بك على الحضور من الصعيد ليسلمه المدينة . فقدمه نابليون للمحاكمة وحكم عليه المجلس بالاعدام فكان لهذا الحكم صدى شديد فى نفوس الأهالى واشتد حقدهم بسببه

على نابليون . وحدث فى أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ان خرج نابليون إلى الجيزة ليتفقد بعض الأعمال العسكرية التى كانت تجرى هناك . فانتهز أهالى القاهرة فرصة غيابه وقرروا مهاجمة رجاله . فاجتمعوا فى الطرقات العامة أفواجاً أفواجاً ثم هاجموا الجنرال ديبوى حاكم المدينة الفرنسى وقتلوه واعتدوا على الجنود الفرنسيين حيث وجدوهم ثم تحصنوا فى المساجد الكبيرة وكان الأزهر مركز رياسة هذه الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى الأقاليم انتشار البرق حيث قام الأهالى يقتلون الفرنسيين فى كل مكان يصادفونهم فيه . ولم يقفوا فى اعتدائهم عليهم عند حد فقد حدث ذات يوم أن أقبلت ثلة من الفرنسيين إلى المدينة ومعها نحو ٢٠ جندياً من الجرحى . فهاجمها البدو ففر رجالها وخلفوا أولئك العجزة تحت رحمة خصومهم فقتلوهم عن آخرهم .

وأقبل نابليون فى مساء ذلك اليوم العصيب عائداً من الجيزة ولكن الأهالى كانوا قد أغلقوا دونه باب المدينة . فلم يتمكن من دخولها إلا بعد أن دار حول أسوارها حتى دخل من باب آخر . وهناك اجتمع برجاله وشرع فى مقاتلة الثائرين فوقع اختياره على تل مرتفع بجوار قلعة صلاح الدين تشرف

قته على الجامع الأزهر . فأقام عليه صفاً من المدافع ولبث ينظم وسائل دفاعه حتى انتصف الليل وعند ما تمت معداته أرسل لشيوخ الأزهر يطلب إليهم أن يعودوا إلى الهدوء والطاعة ووعدهم بالعفو إذا هم دانوا له وأقلعوا عن العصيان فرفضوا طلبه ظناً منهم بأن الخوف هو الذى دفعه إلى مفاوضتهم . فما كان منه إلا أن أمر بمحاصرة منطقة الأزهر من نواحيها الأربعة حتى لا يتمكن أحد فيها من الفرار . ثم صب على الثائرين ناره بدون انقطاع مدة ساعتين وهم لا يجدون عنها مصرفاً إلا إلى رماح جنوده التى أحاطت بحيهم . فلما أيقنوا بالهلاك إذا هم صبروا على هذا البلاء أرسلوا إليه يستغيثون بعفوه فأجابهم لقد عرضت عليكم السلم فأبيتم إلا الحرب والعدوان فأنا الآن أتمم ما شرعتم أنتم فيه .

أزاء ذلك لم يبق من أمل للثائرين إلا أن يستميتوا فى الدفاع فهجموا على خطوط الحصار المضروبة حولهم يلتمسون اختراقها ولكنهم كانوا يرتدون عنها كل مرة بعد أن تذوب صفوفهم تحت نار المحاصرين وأخيراً تقدم كبار العلماء بغير سلاح طالبين مواجهة نابليون فأذن لهم هذه المرة بالدخول

عليه ثم أمر بإيقاف القتال ، ولكنه ألقى القبض على زعماء الفتنة وتشكلت هيئة لمحاكمتهم فى الحال فحكمت عليهم بالاعدام . وأعدموا فى نفس ذلك اليوم . وأعلنت بعد ذلك الأحكام العرفية فى القاهرة وفرضت على أهلها غرامة طائلة . وبذلك عادت الأمور تجرى فى مجاريها الأولى وانصرف كل إلى ما كان قد شرع فيه فعاد الأهالى إلى شئونهم وعاد نابليون إلى عمل الاستحكامات اللازمة لجنوده والضرب على أيدى اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا فى ظل عهد الفوضى وأقام كثيراً من المنشآت العامة فى القاهرة كالملاهى والمتنزهات والمكاتب والصحف وهكذا كانت ثورة القاهرة سبباً فى رسوخ أقدام الفرنسيين فيها .

(١٣) الحملة السورية

ولكن الانجليز كانوا ما فتئوا يعملون على إثارة السلطان ضد نابليون ويحضونه على إرسال قوة لطرده من مصر ووعدوه بتقديم كل مساعدة ممكنة عن طريق البحر فتحرك السلطان أخيراً وجهز حملة برية عظيمة بمساعدة أحمد باشا والى عكا الملقب بالجزار . وكانت تتألف هذه الحملة من

عشرات الألوف من المقاتلين الذين اجتمعوا من مختلف الأقاليم . وظهرت طلائعهم عند حدود مصر حوالى يناير سنة ١٧٩٩ واستولت فعلا على قلعة العريش . وكان نابليون إذ ذاك بجهة السويس ينقب عن آثار القناة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر فلما جاءته هذه الأنباء رحب بها لأنه كان من جانبه ينوى غزو الشام والحصول منها على المدد اللازم له فى حفظ مركزه بمصر وتعويض نفسه عن الخسائر التى أصابته على يد الانجليز والمماليك ولكنه كان كعادته لا يريد أن يتحمل مسئولية البدء فى العدوان . فلما استولت جنود االجزار على العريش أسرع اليهم وحاصرهم فيها ثمانية أيام طوال عرضوا عليه من بعدها أن يخلوا له القلعة إذا هو سمح لهم بالخروج منها بسلاحهم فسمح لهم بذلك وأطلق سراحهم على أن لا يعودوا لقتاله قبل مضى سنة فأقسموا له على ذلك وتابع هو سيره إلى غزة ولم تطل إقامته حول أسوارها لأن أهلها بادروا بتسليمها إليه بعد أن أمنهم على حياتهم . فأقام فيها ليلة ثم سار عنها قاصداً يافا فأرسل إلى حاكمها رسولا يطلب إليه أن يحقن دماء أهلها ويسلمها إليه على أن يكون آمناً هو ورجاله كما فعل أهل غزة . فكان جواب الحاكم

أن قتل الرسول ورفع رأسه على برج من أبراج المدينة العالية فهاج لرؤيته الفرنسيون وحمل بهم نابليون على تلك المدينة حملة شديدة تمكنوا بها من فتح أبوابها على أن أهلها رفضوا التسليم على الرغم من ذلك واستمروا فى القتال . فدامت الحرب بين الفريقين يومين كاملين كانا من أشأم أيام الحروب لوفرة ما ذهب فيهما من الضحايا وكثرة ما ارتكب فيهما من ضروب القسوة وأعمال العنف والتخريب . وأخيراً تم لنابليون إخضاع هذه المدينة وكانت غنيمة الفرنسيين من فتحها عظيمة وافرة إذ حصلوا على زاد كثير ومدافع عديدة ووقع فى أسرهم نحو ثلاثة آلاف جندى فأمر نابليون باطلاق سراحهم أيضاً على أن يهادنوه سنة كاملة . وكان الذى يدفع نابليون إلى سلوك هذا السبيل مع أسراه أنه كان لا يجد المئونة الكافية لجنوده إلا بكل مشقة . فكان من غير الميسور له أن يحتفظ بهؤلاء الأسرى معه فيلتزم بأطعامهم وحراستهم وهو محتاج الى كل لقمة يأكلونها والى كل جندى يشغلونه .

(١٤) حصار عكا

ولم يبق بعد يافا امام نابليون الا حصن عكا ليتم استيلاؤه على سورية بأكملها وقد قدر فى نفسه انه متى تم له ذلك فلا بد للسلطان من مهادنته وطلب الصلح منه لأن عكا كانت القلعة الشمالية الوحيدة التى تستطيع أن تحول دون تقدمه إلى القسطنطينية فسار إليها وقد علق كل آماله على إسقاطها ولكن الطاعون كان قد علق بأردان جيشه مذ خرج من مدينة يافا فما بلغ مدينة عكا وألقى عليها الحصار حتى كابد من الطاعون أكثر مما كابد على يد الجزار والعثمانيين وحلفائهم الانجليز الذين تولوا تموين المدينة عن طريق البحر كما كانوا يفعلون فى تولون . ومن سوء حظ نابليون أيضاً أنه كان قد بعث بمدافعه الثقيلة عن طريق البحر لتجتمع به عند عكا فتنبه الانجليز إلى ذلك وتربصوا لها فى البحر حتى ظفروا بها وبالسفن التى كانت تحملها واستولوا عليها جميعاً . ثم أقاموا تلك المدافع بعينها لتعزيز الدفاع عن أسوار المدينة وهكذا أصبح نابليون عند عكا يحاربه أعداؤه بسلاحه وتحاربه الطبيعة بما لا قبل له على دفعه ولكنه تجلد وبدأ الهجوم على

المدينة فى الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٩ بكل ما أودع الله فيه من عنف وقوة حتى وقع الرعب فى قلب الجزار . وفكر فى إخلاء القلعة والفرار بنفسه منها لولا وقوف الانجليز فى وجهه واعتراضهم عليه . وقد وفق السير سيدنى سميث كوميدور الأسطول الانجليزى الذى كان يعاون الجزار إلى الاتصال فى تلك الفترة بالمهندس الفرنسى بيكار دى فيلبو « Picard de Phélippeau » صاحب الشهرة الواسعة فى شئون المدفعية وهو من أنصار الملكية الذين فروا من فرنسا إبان الثورة الكبرى . فكان من المعونة التى قدمها هذا المهندس أكبر مشجع للجزار على البقاء واستئناف الدفاع .

واجتمع خارج المدينة جيش جرار من كافة أنحاء سوريا يبلغ تعداده ثلاثين ألفاً وعلم نابليون بزحف هذا الجيش نحو المدينة لنجدتها فخرج للقائه فى وسط السهل ودارت بين الفريقين معركة هى من مفاخر الفرنسيين حيث انتصر ستة آلاف منهم على هذه الثلاثين ألفاً وغنموا كل ما كان معها من مدافع وذخيرة وبذلك اشتد ساعدهم وقوى روحهم وعاد بهم نابليون لاستئناف الهجوم على عكا وهم أوفر عدة

وأرحب آمالا .

ولم يكتف السير سيدنى سميث مدير حركة الدفاع عن عكا بما كان يلقيه على خصومه من القنابل والمفرقعات ولكنه امعاناً فى النكاية بنابليون لجأ إلى الطريقة الانجليزية المشهورة المأثورة فوزع على الجنود الفرنسية نشرات يقطع فيها أصدق الوعود على نفسه بأن يعيد الى فرنسا كل من يلتجىء إليه منهم تاركا خدمة بونابرت . وكان فى ذلك اغراء تدور له أرسخ الرءوس لا سيما فى مثل تلك الظروف التى كان يكابدها الفرنسيون بين الطاعون المبيد وبين النار والحديد . على أن جندياً واحداً لم يستمع لهذه الدعوة فيروى التاريخ عنه أنه فر من فرقته . وقد لذ لنابليون أن يجيب على نشرة السير سيدنى سميث بنشرة أخرى أذاعها هو وقال فيها « أبشركم أيها الجنود فقد أصيب الكوميدور الانجليزى بالجنون ! » فبلغ ذلك السير سدنى سميث فاهتاج وأرسل لنابليون يطلب إليه أن يخرج لمبارزته فأجابه بونابرت : « إذا أمكن السير سدنى سميث أن يبعث مارلبرو Marlborough من قبره ليبارزنى فانى سأفكر فى الموضوع . أما إذا أراد هو أثناء ذلك أن يظهر بطشه ومبلغ قوته فانى على استعداد

لتعيين مكان أرسل إليه فيه أحد جنودى المماليق ليقاتله » .
فكان ذلك أنكى للسير سدنى سميث وأبلغ فى إيلامه .

وظل الحصار مضروباً حول عكا حتى تهدمت أسوارها واندلت منازلها وتشققت طرقاتها ولم يبق لها من معالم المدن ما يجعلها جديرة بهذا الاسم وأخيراً ظهرت فى البحر أمام عكا عدة بوارج أجنبية ظنهـا كل فريق من المتقاتلين أنها قد جاءت لنجدته فهدأت حركة القتال انتظاراً لقدوم هذه البوارج وخرج إليها السير سيدنى سميث ليضمهـا إليه ان كانت موالية له أو ليحاربها فى عرض البحر إن كانت آتية لنجدة خصومه . فاذا بها بوارج عثمانيـة جاءت لعكا بنجدة جديدة فلما تحقق الفرنسيون ذلك هاجوا وعولوا على مهاجمة المدينة للمرة الأخيرة قبل أن تصل هذه النجدة غير أن هجومهم كلفهم ضحايا غالية كثيرة . وأخيراً علم نابليون بأن البوارج العثمانيـة قد سارت إلى مصر لتتمكن من الدخول أثناء غيابه . ووصلته فى تلك الفترة أخبار عن فرنسا كانت هى الأولى بعد ثمانية شهور قضاها فى عزلته التى سببتها نكبة أبى قير البحرية . وعرف نابليون من هذه الأنباء أن حكومة الادارة واقعة فى أشد الارتباك بسبب تحالف الدول عليها

من جديد . وأن ميدان القتال انفتح فى أوربا وأن نظراءه مورو وأوجيرو وغيرهما يتولون القيادة العليا هناك وهو هنا مرابط أمام عكا يجالد أقدر خلق الله على الجلد وقد تنقضى شهور وشهور قبل أن يقلع سدنى سميث عن الدفاع . وليس هذا الصبر البليد من طبع نابليون الذى كان من مأثور كلامه : « شيئان يجب على الانسان أن يستولى عليهما بالهجوم المفاجئ أو يتركهما دون أن يتعرض لهما — الحصون والنساء ! » — ولذلك عول على رفع الحصار عن عكا والعودة إلى مصر للدفاع عنها أولا أمام الجيش التركى الذى كان يسير فى طريقه إليها حتى إذا ما اطمأن عليها أمكنه انابة بعض قواده عنه وسافر هو إلى فرنسا .

(١٥) الانسحاب

وليس يخفى إن ارتداد نابليون عن عكا كان فى الواقع شر هزيمة لقيها هذا البطل منذ بدء حياته العسكرية . وفيها انهارت آماله التى كان يمنى نفسه بها للوصول إلى الهند . ولتكوين امبراطورية عظيمة فى الشرق . ولكن لما كانت هذه الآمال سرا بالنسبة لجنوده الذين لم يكونوا يعلمون من

أمر الحملة السورية الا أنها وجهت لتفريق تلك الجيوش التى اتفق الأتراك والانجليز على تسييرها على مصر فقد رأى هؤلاء الجنود أن الحملة السورية قد تكللت بالنجاح فى مقصدها حيث استولوا فيها على مدينتى غزة ويافا وهدموا حصن عكا وأسواره وتركوه خراباً بعد أن كسروا ذلك الجيش الجرار الذى كان كل ما يمكن أن تهددهم به سوريا ولذلك عاد نابليون إلى مصر ودخلها دخول الظافرين وقد سبقته اليها أخبار نصره فى غزة ويافا ومعارك عكا الشهيرة المشرفة .

(١٦) نابليون فى ميزان التاريخ

على إن قصة عودة هذه الحملة من سورية كانت فى ذاتها فاجعة أليمة من تلك الفواجع التى نكب بها نابليون والتى لم يكن غير روحه العاتى يقوى على مناهضتها وحمل أثقالها . فأن أكثر من ألف من جنوده القلائل الذين نجوا معه من الهلاك أثناء الحملة كانوا بين الموت والحياة من أثر الطاعون . أو أثر المعارك . ولم يكن يملك نابليون من الخيل ما يكفى لحملهم وتخفيف آلامهم فنزل عن جواده الخاص وأمر ضباطه

بان يترجلوا عن خيلهم لتكون فى خدمة هؤلاء الجرحى والمرضى وسار هو وسط جنوده تحت شمس الصيف المحرقة يقطع على قدميه تلك القفار الجرداء التى خربتها الحروب حتى قارب الحدود المصرية . وهناك علم بأن جماعة من جنوده المصابين بالطاعون أصبحوا لا أمل فى شفائهم وإنهم لاشك هالكون بعد قليل . فاقترح على طبيب جيشه أن يرحم هؤلاء البائسين باعطائهم جرعاً من الافيون تذهب بصوابهم فيما بقى من ساعات نزعهم . وتعجل بهم فى قطع المرحلة الأخيرة من حياتهم الأليمة . ولكن الطبيب اعترض عليه قائلا إن مهمته أن يشفى المرضى وليس أن يقتلهم ! فما كان من نابليون إلا أن سلم مكرهاً بتركهم يموتون على مهلهم تحت حراسة ثلة من جنوده أمرها بالبقاء لحراستهم حتى يسلموا الروح

ولقد كان هذا الحادث سبباً فى حملة أثارها بعض المؤرخين على نابليون وأكثروا فيها من ذكر الوحشية وسفك الدماء وموت الضمير وأذاعوا تفاصيل الأمر على الوجه الذى أرادوا تصويره للناس فى كافة انحاء أوربا وفى أمريكا ليشوهوا أعمال نابليون وليدمغوا سمعته ولن يعدم الانسان حتى اليوم مؤرخاً من هؤلاء المؤرخين ما نزال يرمى نابليون

بمثل هذه النعوت بعد أن وضحت الحقيقة وتكلم نابليون بنفسه مؤكداً أنه ما كان يتردد فى طلب مثل ما طلب من ذلك الطبيب لو أنه رأى ابنه فى مثل تلك الحالة التى كان يعانيها جنوده .

على أن أخبار تلك الأيام السوداء مليئة بأعمال البر والعطف والمعونة الكفيلة بأن تخلد اسم نابليون بين أسماء احب المحسنين لولا أن خصومه حرصوا على أن لا يعلم الناس من أمر غريمهم إلا ما يزرى به ويبخس من قدره ولذلك نسمع منهم أن نابليون فكر فى تسميم جرحاه ومرضاه ولا نسمع منهم انه بعد أن نزل عن جواده لهؤلاء الجرحى وسار هو على قدميه فى قفر ملتهب ورمل غزير محرق . صادف ضابطاً من ضباطه صحيح الجسم ما زال يحتفظ بجواده تاركا رفاقه العاجزين يجرون على الرمال المحرقة أطرافهم المهشمة فاشتد غيظه وهجم عليه فى سرجه ورماه عنه بضربة من قبضة سيفه طرحته على الأرض ثم أمسك بيد أحد الجرحى القريبين منه ورفعه إلى ظهر الجواد وسط هتاف الجنود وتهليلهم لهذا العمل الانسانى المجيد

على أن المنزلة التى كان يتمتع بها نابليون فى نفوس رجاله

كانت من السمو بحيث لم يرو التاريخ لها شبيهاً عن عظيم من عظمائه . فان جنوده لفرط عنايته بأمورهم وحنوه عليهم كانوا لا يترددون فى التضحية بأرواحهم لحمايته من كل ما يهدده ويحولون بأجسامهم دون الخطر المحدق به . وقد حدث حول أسوار عكا نفسها أنه كان فى خندق من خنادق الحصار يصدر بعض تعليماته لجنوده فسقطت قنبلة تحت قدميه فما هو أن رآها الجنود حتى انقض منهم اثنان على نابليون واحاطا جسمه بأطرافهما وانفجرت القنبلة فأحدثت فجوة فى الأرض «تسع عربة بجواديها» كما يروى الرواة فلم يلبث الثلاثة أن انهاروا وغطتهم الانقاض والحجارة وأوشك أحد الجنديين أن يهلك من أثر السقوط . أما نابليون فانه أصيب برضوض خفيفة وكان أول ما عمله بعد أن أفاق من غشيته أن رفع هذين الجنديين الى رتبة الضباط

وانك لتقرأ أخبار مثل هذه التضحية فى كل صحيفة تقلبها من تاريخ نابليون والحقيقة التى لا مرية فيها أن قائداً من قواد العالم لم يظفر بمثل ما ظفر به هو من محبة جنوده وتفانيهم فى الولاء له .

٭٭٭

وأخيراً (فى ١٤ يونيه سنة ١٧٩٩) بعد مسيرة ثلثمائة ميل على طريق قفرة وعرة وطعام تافه ضئيل وصل جيش الشام الى القاهرة . وبرهن بذلك السفر الذى استغرق ٢٦ يوما على مبلغ ما يستطيع الانسان احتماله من الشدائد والآلام إذا ما أتيح له قائد عظيم ينفث فيه من سحر همته وينفخ فيه من روح إرادته .

(١٧) حالة الفرنسيين فى مصر .

دخل نابليون القاهرة بعد أن غاب عنها نحو ثلاثة شهور فألفى روح القلق سائد على من خلفهم فيها من رجاله إذ كانت أخبار أهلهم ووطنهم قد انقطعت عنهم قرابة عام . وباتوا كلهم يتطلعون إلى العودة من هـذه الديار التى كانوا يمنون أنفسهم قبل دخولها بقصور الرخام والمرمر فاذا هم لا يرون فى بلدانها غير الطوب والآجر والتى كانوا يطمعون فى لين جانب أهلها واستسلامهم فأذا هم لا يجدون فيها أمنا إذا ما ابتعدوا عن خيامهم بضع خطوات .

ولـكن كان على نابليون قبل أن يفكر معهم فى العودة أن يلاقى ذلك الجيش الذى جهزته له تركيـا وأمدته الروسيا

وعادته انجلترا وقيل عنه إنه جاء فى طريقه إلى مصر . غير أنه لم يكن يعرف حتى هذه الساعة متى تصل السفن التى كانت تقل هذا الجيش ولا فى أى مكان عزمت على أن تلقى مراسيها فلم ير بدا من انتظارها والتربص لأخبارها .

وفى ذات مساء بينما كان يساير صديقاً له فى ظل الأهرام إذا بفارس يقبل نحوهما وقد غشيته سحابة من الغبار . فلما جاءهما ترجل وسلم نابليون رسالة كان يحملها إليه من الاسكندرية مؤداها أن أسطولا بحرياً عظيما قد وصل مياه أبى قير ونزل منه نحو ثمانية عشر ألف مقاتل شاكى السلاح تعززهم مدفعية قوية وأن أخباراً وردت عن مراد بك بأنه فى نفس الوقت يغادر الصعيد بجيش كبير لينضم إلى هؤلاء الجنود العثمانيين .

فعندما وقف نابليون على هذه الأخبار الهامة قرر السير من فوره إلى أبى قير لمفاجأة تلك الحملة قبل أن تأخذ عدتها للقتال . ثم دخل خيمته وظل يملى أوامره على أركان حربه حتى الساعة الثالثة صباحاً . وفى الساعة الرابعة ركب فرسه وخرج فيمن اجتمع له من رجاله قاصداً أبا قير .

(١٨) معركة أبي قير البرية

كانت القوة التى تيسر لنابليون جمعها فى تلك الليلة نحو ستة آلاف مقاتل وكان الجنرال كليبر مكلفاً باعداد فرقة أخرى قوامهــا ألفان للحاق بقوة نابليون . على أن نابليون واصل زحفه ليلا ونهاراً بدون تمهل مدة سبعة أيام وفى منتصف الليلة الأخيرة (ليلة ٢٥ يولية سنة ١٧٩٩) أشرف على خنادق العدو فى أبى قير واستطاع بخبرته الحربيــة أن يقدر قوة أعدائه فاذا هى لا تقل عن عشرين ألفاً لا يملك لقتالهم إلا هذه الثمانية آلاف على فرض أنه ينتظر حتى يصل إليه كليبر ومن معه . ولـكنه كان يتحرق شوقاً للثأر لنفسه ولوطنه من نـكبة أبى قير البحرية . ولتعويض ما أصابه فيها من الخسائر . وكان يعلم أنه لو كسر فى هذه المعركة فسوف لا تقوم له من بعدها قائمة . وأن الضربة التى تصيبه فيها ستكون القاضية عليه وعلى جيشه كما كان يقدر أن النصر الذى يحرزه فى هذا الميدان سيفتح له طريق الخلاص من جديد . فيذهب إلى فرنسا حيث يتيسر له الاشتراك فى الدفاع عنها ضد الدول الأوربيـــة التى تألبت عليها . وهناك ميدان العمل الطلق

الفسيح . وهناك الحياة والمستقبل الواسع فقرر الهجوم من فوره دون انتظار كليبر .

وأجفل الجيش العثمانى عندما أشرقت عليه أشعة الفجر الأولى فاذا هو أزاء نابليون وفرسانه واذا بوابل من القنابل يهطل عليهم وهم فى خيامهم وخنادقهم آمنون فدب الرعب فى قلوبهم وبادروا إلى سلاحهم ولكن سرعة نابليون وعنف هجومه كان لهما أثرهما فى نشر الذعر بين صفوف أعدائه فصاروا يتخبطون تحت حملات الفرنسيين ويروغون منهم هنا وهناك يلتمسون التخلص من تلك النار التى تنصب عليهم كأنما تفتحت عنها أبواب السماء فلا يجدون حولهم الا ماء البحر المحيط بهم . فدفعهم يأسهم إلى أن يلقوا بأنفسهم فيه لعلهم يصلون سباحة إلى بوارجهم الراسية قريباً من الشاطىء . ولكنهم بعد أن نزلوا فى الماء أمسوا غنيمة باردة لنار الفرنسيين وأصبح التخلص منهم لا يكلف نابليون أكثر من إطلاق مدافعه عليهم وهم فى الماء لا يملكون لها دفعاً ولا رداً وبالفعل لم تمض إلا ساعات قلائل حتى كانت تطفو على سطح ميناء أبى قير اثنتا عشرة ألف جثة خضبت دماؤها زرقة الماء . ولم يبق من رجال هذه الحملة الا الألفى الأسير الذين وقعوا فى

يد نابليون فى ذلك اليوم العصيب . وبذلك تم له هذا النصر المبين . وتمكن نابليون من أن يمحو بذكره كل ما يمكن أن يكون قد علق باسمه من عار المعركة البحرية الأولى . وأمن بعده على مصير مصر . واطمأن اليه كختام باهر لتاريخه القصير فى الشرق . وارتضاه شاهداً يشهد له ببراعة المقطع إذا هو ختم جهاده فى ميدان من ميادين القتال !

(٢١) معدات العودة الى فرنسا :

واتصل نابليون عقب هذه المعركة بأمير البحر الانجليزى يتظاهر بمفاوضته فى أمر تبادل الأسرى وكل همه فى الحقيقة أن يصل منه إلى شيء من أخبار فرنسا وأوربا وكان السر سيدنى سميث من جانبه قد أعيته الحيل فى مقاومة نابليون واقصائه عن هذا الميدان الشرقى الذى أمسى وجوده فيه أكبر مهدد للانجليز فى امبراطوريتهم الشرقية العظيمة . ففكر فى أن يشغل باله بأخبار فرنسا وما هى متورطة فيه من الحروب والهزائم (بعد أن تألف ضدها التحالف الدولى الثانى) لعله يفكر فى العودة إليها واخلاء مصر . ولذلك أرسل إليه مجموعة من الجرائد فحملها ياور نابليون من فوره

إلى خيمته فاذا هو نائم فى فراشه . فناداه أنه قد حمل إليه مجموعة من الصحف الأوربية . فاستوى نابليون جالساً فى سريره . وسأل بلهفة « وما هى أخبار أوربا ؟ » فأجابه ياوره بأن (شِرَرْ) قائد الجيوش الفرنسية فى إيطاليا قد انهزم أمام الأعداء وأن إيطاليا توشك أن تفلت من أيدى الفرنسيين . فوثب نابليون من سريره وأكب على تلك الصحف يقرؤها حتى طلع الفجر وهو يصرخ كلما جاء على خبر يسوؤه صراخ الاستنكار والحنق . ولما فرغ من قراءته دعا إليه رئيس أسطوله ولبث معه فى خيمته زهاء ساعتين وبعد ذلك قفل راجعاً إلى القاهرة .

(٢٠) مجازفة بارعة

ولقد كان من مظاهر عبقرية نابليون أنه كان إذا اعترضت طريقه عقبة أبرم فيها رأيه بسرعة البرق . ولم يكن لسرعة تفكيره فى مثل هذه المواقف من شبيه إلا سرعة إجراءاته فى العمل على تنفيذ أفكاره . فما علم من الجرائد التى تصفحها بأن ملوك أوربا قد اجتمعوا لمقاومة الجمهورية الفرنسية فى حلف جديد (التحالف الدولى الثانى) وانهم نجحوا

فى طرد الفرنسيين من إيطاليا وفى تعقبهم إلى الحدود الفرنسية نفسها حتى قرر العودة فوراً إلى فرنسا ضارباً عرض الحائط بكل ما كانت تعج به مياه البحر الأبيض المتوسط من السفن الانجليزية والتركية والروسية. ورسم الخطة التى يريد أن تدار بها شئون مصر بعد سفره ثم أناب عن نفسه الجنرال كليبر ليشرف على إدارة البلاد وبعد أن تم له ذلك أعلن عزمه على السفر إلى شمال الدلتا لفحص بعض جهاتها. وذلك لكى يصرف أذهان الناس عن حقيقة نواياه حتى لا يحدث منهم ما يعوقه عن السفر ثم جد فى السير حتى وصل الاسكندرية فى بضعة أيام. وفى مساء ٢٢ أغسطس خرج فى جنح الظلام ومعه ثمانية من رجاله المخلصين وهم لا يعلمون أين يذهب بهم قائدهم فسار بهم إلى مكان منقطع فى المينا كانت ترسو فى مياهه بارجتان. وقد شدت إلى الشاطئ تجاههما جملة زوارق صغيرة. فلما جاء نابليون إلى تلك البقعة فاجأ رجاله بأنه سيستصحبهم معه إلى فرنسا فكادوا يطيرون من الفرح لذكرى بلادهم وأهليهم ونزلوا عن أفراسهم وتركوها تعدو وحدها إلى الاسكندرية واستقلوا القوارب إلى البارجتين فأقلعتا بهم تواً وما أصبح الصباح حتى غابت

عن أعينهم أرض مصر ؟ .

وكان على ظهر هاتين البـارجتين خمسمائة جندى أمر نابليون بأعدادهم ليصحبوه فى هـــذه الرحلة إلى فرنسا وليكونوا عدته إذا ما اصطدم فى طريقه ببوارج الانجليز . وكان قبطان البحر الفرنسى يرغب فى قطع الطريق إلى فرنسا فى عرص البحر حتى لا يظل فى مياهه المحفوفة بالمخاطر طويلا ولـكن نابليون أمر بأن تسير البـارجتان بجوار شواطئ أفريقية الشمالية حتى لا تكون عرضة لأنظار الانجليز « وحتى نكون قريباً من البر فننزل اليه ونسير نحن ورجالنا الأبطال ومدافعنا القليلة إلى أوران أو تونس ومنها إلى فرنسا ».وبعد أن أقاموا فى البحر أربعين يوماً لاحت لهم فى الأفق جبال كورسيكا فقصدوها وألقوا مراسيهم فى مياه مينا أجا كسيو . وانتشر خبر وصول نابليون إلى أهلهـــا فطاروا إلى لقائه والاحتفاء به وغصت المينا بزوارقهم وأعلامهم وكلهم يدعى القرابة لذلك البطل الذى خرج هو وأمه واخوته منذ ست سنوات فقط يلتمس النجاة من شرهم وأذاهم .

والناس من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهى ولأم المخطئ الهبـل

وبعد أن تزودت البعثة بما تحتاج اليه من ماء وطعام وبعد أن استطلع نابليون من الأهالى أخبار فرنسا وما لحقها من الهزائم استأنفوا سيرهم نحو تولون . ولكنهم لم يبتعدوا عن شواطئ كورسيكا مسيرة يومين حتى لاحت لهم بعض البوارج الانجليزية فصاح القبطان : « إلى الوراء » ! يريد العودة إلى كورسيكا ولكن نابليون صاح بدوره : « إلى الأمام ! — فان الذهاب إلى كورسيكا يصل بنا إلى انجلترا فى حين أنى إنما أريد الوصول الى فرنسا ! » .

وكان ظهور تلك البوارج عقب غروب الشمس بقليل فلما أرخى الليل سدوله على الفرنسيين وحجب عنهم غرماءهم لم يعرفوا كيف يتقون الوقوع فى قبضتهم وزادت مخاوفهم وضعف كل أمل فى الخلاص حتى أن نابليون نفسه أمر بتهيئة زورق ليفر به اذا ما اشتبك الانجليز بمركبه وجمع كل أوراقه التى يخشى عليها أن تقع فى يد أعدائه لتكون حاضرة أمامه ساعة فراره ثم ظل هو وصحابه يترقبون طول الليل على أى حال تطلع عليهم شمس الغد ولكن الحظ كان فى هذه المرة أيضاً يسير فى ركاب نابليون . فانه وجد نفسه فى صباح اليوم التالى ازاء جبال فرنسا الجنوبيـــة الشاهقة فاطلع فى الجهة

الأخرى فاذا هو يرى أطراف البوارج الانجليزية وهى تغيب أمامه تحت الأفق . . .

وبعد أن قضى نابليون فى البحر خمسين يوماً وطئت أقدامه هو ورجاله أرض فرنسا فى الساعة الرابعة من صباح يوم ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٩ قرب مينا فريجو Fréjus وانتشر الخبر فى جميع أنحاء فرنسا انتشار البرق. وبلغ من فرح الناس واستبشارهم بعودة نابليون فى تلك الضائقة التى كانوا يعانونها أنهم هجروا قراهم ومنازلهم وخرجوا لاستقباله على طول الطريق من فريجو الى باريس . بل لقد حدث أن نائباً من نواب الشعب اسمه بودان Baudin بلغت به غيرته ووطنيته أنه قضى نحبه من فرط السرور والانفعال لدى علمه بأن نابليون ظهر فى فرنسا من جديد وأن الأمل فى التخلص من أعداء الوطن على يديه بات قوياً عزيزاً .

(٢١) نتائج الحملة .

وجدير بنا قبل أن نختتم هذا الفصل وننتقل مع نابليون الى فرنسا أن نلقى نظرة سريعة على ما خلفته هذه الحملة المصرية من الآثار .

فأما عن مصر فقد كانت غارقة بمماليكها وحكومتها فى أغوار العصور المظلمة متخلفة عن ركاب الزمن الذى سار بغيرها الى ساحات التقدم والرخاء . فامتدت يد نابليون واستخلصتها من ذلك الحضيض . وكشفتها لضوء الشمس وأمدتها بما تيسر من عناصر المدنية الحديثة . وأوقدت فيها تلك الجذوة التى يصح أن تعتبر بحق أساس كل ما يرى اليوم فيها من نور . فمستشفى القصر العينى الذى أنشأه نابليون كان أول ما عرفته مصر الحديثة من المنشآت العامة التى تعمل على محاربة الأمراض وتخفيف آلام المصابين . وحجر رشيد الذى اكتشفه أحد رجال نابليون كان مفتاح التاريخ المصرى القديم بكنوزه وفنونه . ووضح تحت ضيائه ما استتر على العالم من تاريخ الفراعنة العظام عدة قرون . وكتاب « وصف مصر » الذى وضعته بعثة نابليون العلمية كان أول وأدق ما وصل الى علم العالم المتمدين من شئون مصر بعد الذى كتبه عنها رجال الدولة الرومانية . ولسنا نذكر فى هذا المقام ما شقته الحملة من الطرق الرئيسية فى مدينة القاهرة القديمة ولا ما أقامته من الجسور ولا ما استحدثته من البدع المفيدة ولعل آخر ما كان يتوقع القارىء سماعه فى هذا الصدد أن مدفع

الظهر الذى يطلق الآن وقت الزوال كان واحدا من تلك البدع .

وأما عن نابليون فقد صدقت فراسته فيما سيكسبه لنفسه من الشهرة والمجد بظهوره فى هذه الميادين الشرقية التى ظهر فيها قبله كبار الأبطال والزعماء . وسطع فيها نجم الاسكندر المقدونى . ولقد عاد من الحملة الايطالية تحيط باسمه هالة من السحر اكتسبها لنفسه على جسر لودى وحول أسوار مانتوا ! ولكنه لم يكن يستطيع أن يقوى ضوء هذه الهالة ويؤكد نورها بأكبر من ربط اسمه بتلك الأسماء التاريخية الخالدة كالاهرام ويافا والناصرة .

ولقد كانت الأحوال فى فرنسا أثناء غيبة نابليون فى مصر تدعو أهلها إلى اليأس والقنوط . فان الابتسامة التى افتر لهم عنها ثغر الدهر فى معاهدة كامبو فورميو بعد حرب مهلكة استمرت نحو عشر سنوات ما لبثت يد الحوادث أن عفت آثارها فتقلص نفوذهم عن ايطاليا — ايطاليا التى كسبها لهم نابليون — وانكسرت فيها جيوشهم — تلك الجيوش التى أدهشت أوربا تحت لواء نابليون — وتزعزع من جديد مركز الحكومة — تلك الحكومة التى حماها وثبت قواعدها نابليون

ـــ فبات الناس ينتظرون رسولا من عند الله يقوى ضعفهم ويشد أزرهم ويقيل عثراتهم . وفى تلك اللحظة ظهر أمامهم نابليون عائدا من مصر وكأنما هبط عليهم من السماء . فالتفوا حوله واستسلموا اليه . وكان هذا اكبر مشجع له على احداث (انقلاب برومير) الذى سار به خطوة جديدة نحو العرش .

الباب الثالث

فى منزل نابليون

الفصل الأول : خيانة جوزفين
« الثانى : پولين فوريس
« الثالث : لقاء الزوجين

الفصل الأول

خيانة جوزفين

وضحنا فى بعض الفصول السابقة كيف كان حب نابليون لجوزفين، وكيف أن تكوين هذا الرجل الخاص جعل من هذا الحب تتيماً وولها . وكيف أن ارادته الحديدية التى كان ينثنى تحت ضغطها أصلب الأعواد كانت تلين بدورها وترق حتى تصبح كالهواء أمام رغبات جوزفين . وذكرنا أن نابليون سافر وحده عقب زواجه إلى ايطاليا وأن هذا الفراق العاجل الذى جاء فى غير أوانه كان نكبة على أعصابه حتى أنه ظل يرسل الى زوجته الكتب كل يوم يتوسل إليها أن توافيه فى سهول ايطاليا لتكون على مقربة منـــه حتى يسعد بصحبتها وينصرف إلى أعداء الوطن وهو قوى النفس هادىء البال . كما ذكرنا أنها كانت تلتمس لنفسها المعاذير لتبقى فى باريس حيث تنعم بمظاهر العزة والمجد الذى كسبه لها نابليون ولتتمتع وهى تمرح فى ميادين اللهو بثمرة أعمـــال زوجها وهو يكدح فى ميادين القتال . ولقد أحاط بها هناك جماعة من شبان باريس

وظرفائها ووقفت هي منهم موقف طاحونة الهواء من خطرات الريح : — صدر مفتوح — وذراعان مشروعتان — وجناح ينخفض لكل هبة نسيم !

وظل نابليون المسكين على حاله يتوسل ويشكو حتى أحرجت جوزفين وتبين لها أن السفر أمر لامفر منه فشدت رحالها اليه وخرجت من باريس « وهي تبكي وتذرف الدمع السخين وتشهق كأنها سائرة الى العذاب » . أما نابليون فانه كاد يطير من الفرح للقائها وسر بقدومها أبلغ سرور كما ذكر مارمون أحد رجاله المقربين « لأنه لم يكن يعيش إلا بها . وأني لم أر حباً تملك قلب رجل وكان أصدق مظهراً وأشد صفاء وأقوى اندفاعا من حب نابليون لجوزفين » .

وأن الانسان ليحزن حقا كلما تأمل في هذا الحب القوى الذي كان يضمره نابليون لزوجته والذي لم تكن تبادله له جوزفين . فأن خيبة أمل نابليون في هذا الحب قد مهدت الطريق أمام قلبه وعينه لتبحثا لهما عن ساكن جديد . ثم لما تبين اعوجاج جوزفين بعد ذلك وتيقن من خيانتها له مع ضباطه ورجال جيشه لم يتردد في يأسه من هذا العالم وحنقه على أهله أن يمد عينيه إلى زوجات غيره هو أيضاً فيعاشر

بعضا ويستبي بعضا ويندمج بهذه النقائص فى زمرة الفجار ويشوه بمثل ما أتاه من الفضائح جمال اسمه الرائع الوضاء .

وتفصيل ذلك أن جوزفين ما وصلت الى ميلانو حتى اتخذتها قاعدة لمقامها فكان نابليون يكاوح النمساويين ويكافحهم فى شرق ايطاليا ثم يأوى اليها كلما سمحت له ظروف القتال . أماهى فكانت فى غيبته تسلك نفس مسلكها فى باريس وقد أحاط بها فى تلك المدينة أيضاً جمهور من الضباط الشبان الذين أخذوا يلتفون حولها باسم الاعجاب بزوجها ويبالغون فى التحبب لها والتزلف اليها . وقد نسيت هى وسط أنسهم وما كانوا يتنافسون فيه من ضروب الملق نابليونها وما كان يشكو فى وحدته من الوحشة « وكانت تصل اليها كتب الشوق والرجاء والتضرع التى يرسلها اليها نابليون وهى فى ذلك المحيط بين صنوف الملذات وأفانين المسرات فتنتحل الأعذار التى ألفتها فى باريس لتؤجل سفرها إلى حيث يكون » .

على أن ذلك لم يكن ليؤثر فى حب نابليون لها وإن كان الشك قد بدأ يتطرق فعلا إلى نفسه من جراء هذا السلوك الغريب . فأنك لتقرأ فى إحدى رسالاته اليها وهى فى ميلان :

« . . . كنت أؤمل أن أحصل على كتاب منك فخاب الأمل وتولانى عليك قلق مخيف . . . . ألا خبرينى كيف يمكنك أن تنسى من يحبك هذا الحب الشديد ؟ . . . فكرى فىّ ياجوزفين ولا تعيشى لغيرى واقضى معظم أوقاتك مع من يحبك فانى لا أخاف فى هذه الدنيا إلا مصيبة واحدة وهى أن لا تحبنى جوزفين ! » .

بل إنك لتقرأ هذا الشك وهو يساوره فى صورة أقوى وأوضح حينما سكتت على هذا الخطاب وغيره ولم تحر جوابا فكتب اليها يقول :

« ماذا تعملين سحابة نهارك ؟ وأى شغل هام لا يدع لك وقتا لمكاتبة محب طيب القلب مثلى ؟ ألا خبرينى أى حبيب جديد يستغرق كل أوقاتك ويقتل ساعات نهارك فيحول بينك وبين مراسلة زوجك ؟ حذار حذار ياجوزفين فأنى سأباغتك ذات ليلة وأخلع باب مخدعك . . . . . . أرجو أن أضمك بين ذراعى عما قريب وأنهال عليك بقبلات حارة كجو خط الاستواء ! » .

وعلى الرغم من كل هذا النذير فقد قصد نابليون فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٧٩٦ إلى ميلانو ليحظى بتلك القبلات .

الاستوائية التى وعد بها زوجته ، فوجد القصر خلوا من زوجته فسأل عنها فقيل له أنها سافرت إلى جنوا لترويح النفس وحضور بعض الحفلات هناك فاستولى عليه يأس عنيف وكتب اليها يقول :

« وصلت ميلان وأسرعت إلى غرفتك تاركا كل شيء ورائى لأراك وأضمك إلى صدرى فلم أجدك لأنك تنتقلين من بلدة إلى أخرى فى طلب الأفراح والملاهى وتبتعدين عنى كلما دنوت منك . ولم تعودى تهتمين (بنابليونك العزيز) لأن تقلب أهواءك مال بقلبك إليه برهة ثم مالبث أن صرفك عنه انصرافاً . على أنى رجل ألفت المخاطر وعلمتنى صروف الدهر كيف أتغلب على محن الحياة وأعالج همومها فامضى أنت فى طريق مسراتك فان السعادة قد كتبت لك وأن الدنيا بأسرها لتعد نفسها سعيدة إذا أتيح لها أن تدخل على نفسك شيئاً من السرور . أما الشقاء والنكد فهما نصيب زوجك وحده دون سواه . »

وانك لتلمح من نفسك مبلغ التطور الذى طرأ على كتابة نابليون أزاء صد جوزفين عنه فانه بعد مطالبته إياها بأن تفكر فيه وأن لا تعيش إلا له أصبح يقنع بأن يتمنى لها

السرور والصفاء لأنها خلقت للسعادة والهناء ويكتفى بان يندب سوء حظ نفسه لأنه خلق للشقاء والنكد والحرمان .

وإليك أيضاً ما كتبه لها فى صبيحة اليوم التالى لترى إلى أى مدى بلغ به اليأس وإلى أى حد من العجز والذلة هوى به ضعف الحب :

« إن رجلا لا تحبينه ليس من حقه أن تكون سعادته أو شقاؤه موضع اهتمامك . أما عن نفسى فقد جعلت غايتى من هذه الحيـاة أن أعيش لأحبك فلا تهتمى بشئون رجل لايستمد حياته الا من حياتك . ولو أنى تقاضيت منك أن تحبينى بقدر حبى لك إنى إذن لفى ضلال مبين ! وهل أنا إن فعلت ذلك إلا كمن يتطلب أن تزن «الدنتلا» مثل وزن الذهب؟ وإن الذنب لذنبى اذا كانت الطبيعة لم تهبنى من الجاذبيـة ما أجذب به فؤادك ! ولـكن الذى أستحقه من جوزفين إنما هو اعتبارها وتقديرها لأنى أحببتها هذا الحب العنيف الفريد ! وانى فى الساعة التى أعرف فيها أنها لم تعد تحبنى سأطوى على هذا السهم الدامى جناحى وأرضى من هذه الدنيا بأن أوفق إلى تأدية خدمة نافعة لها فى أية ناحية من نواحى الحياة . . . . ها أنا أعيـــد فتح كتابى لأقبلك ! آه — ياجوزفين !

ياجوزفين ! »

فانظر كيف غلب الحب على عقل نابليون حتى أنساه أن جوزفين إن لم تكن تستطيع أن تحبه طائعة فلم يكن اقل عليها من أن تخافه وتخشاه وتنزل على إرادته ولو كارهة . فتكون إلى جواره حيث أقام وتحفظ اسمه مما يجعله مضغة فى أفواه العامة . وهو الذى وجدها أرملة فآواها ووجدها عائلة فأغناها . ولكن العبرة قضت بأن يفقد نابليون العظيم ثقته بنفسه معها فينقلب آدمياً كبقية الناس ويهبط من سمائه إلى مستوى كل من ضاعت ثقته بنفسه منهم فلا يعود له مايميزه على غيره .

ولقد كان العامل الأكبر فى غواية جوزفين وهى فى ميلانو فتى ضابطاً فى جيش نابليون اسمه هيبوليت شارل Hyppolite Charles كان قد نال حظوة التعرف اليها وهى فى باريس ثم جمعته الظروف بها فى ميلان . وكان شاباً نحيف الجسم أسمر اللون شديد العناية بملبسه وهندامه حلو الفكاهة أنيس المحضر لا يجلس فى جماعة الا ويسترعى سمعهم وبصرهم بحلاوة حديثه وخفة روحه فمالت إليه جوزفين وافتتنت به وخلعت عنده ثوب حشمتها وقربته من نفسها حتى تقول

الناس عليهما الأقاويل . وبلغ شيء من ذلك أسماع نابليون فأسرع إلى هذا الضابط فطرده من الجيش هو وكل من ثبتت صلته من الضباط الآخرين بزوجته

ولكن ذلك جاء بعد فوات أوانه وبعد أن علقت بأذهان الناس شبهات كان من شأنها أن تخدش اعتبار نابليون وتغشّى حيناً على وضاءة اسمه المجيد .

على أن الحملة الايطالية انتهت بما أكسب نابليون مجداً وفخاراً يحسده عليهما أبطال التاريخ وعادت جوزفين إلى فرنسا وعاد هو أيضاً بعد توقيع معاهدة كامبوفورميو وافتتحا فى منزلهما « بشارع النصر » عهداً جديداً كان يطمع نابليون فى أن ينسخ به صفحة الماضى وصفا لهما العيش بالفعل دهراً الى أن نيط به أمر الحملة المصرية فزود جوزفين بنصائحه ووصاياه ثم ودعها وداعاً مؤثراً . وقد آثر أن يسافر وحده إلى مصر مضحياً بهنائه وصفائه فى سبيل راحة زوجته وسلامتها من التعرض لاخطار تلك الرحلة المحفوفة بالمكاره .

وأبحر هو ورجاله فى شهر مايو سنة ١٧٩٨ قاصدين الى مصر فوصلوها على الرغم من أساطيل الانجليز وجواسيسهم فى أول يوليو من تلك السنة ودخلوا القاهرة فى الرابع

والعشرين من هـذا الشهر واستتب لهم الأمر فيها وهكذا سطعت فى وجه نابليون ابتسامة أخرى من فم الدهر الساخر فخيل اليه أنه أصبح سيد الشرق بأسره وأنه أصبح من القدرة بمنزلة لا تظل آماله فيهـا كى تتحقق إلا ريثما تمر بخاطره ولـكن الطبيعة التى من دأبها أن ترمى بالصاعقة فى سنا البرق هيأت لنابليون فى هذا الصفو من أخبـار خيانة جوزفين له ما نغص عليه مقامه الجديد وما جعله يكتب إلى أخيه يوسف هذه الرسالة التالية وفيها يتجلى يأسه من الحياة بأسرها وثورته على الطبيعة البشرية بسبب ما فيها من العيوب والنقائص .

« أن مصر أغنى بلاد العالم فى قمحها وتيلها وخضراواتها ولحومها . والهمجية فيها على أتم ما تكون . والمال معدوم حتى إننـا لا نجد ما يكفى لسد مرتبات الجنود . أما أنا فقد أصل إلى فرنسا فى مدى شهرين . وانى أكل اليك أمر مصالحى فان أحزانا بيتية كثيرة ترهق فؤادى حيث قد انكشف الغطاء ولم يعد يخفى على من الحقيقة شىء . وأنت الوحيد الذى بقيت لى على ظهر هذه الأرض وليس بينى وبين (الميسانتروبيه)[١]

---

(١) الميسانتروبيه mesanthropie احسـاس يستولى على الانسان فيجعله يكره الناس ويفر منهم ويبتعد عنهم ويحقد عليهم .

إلا أن أراك تخوننى مع من سبقوك إلى ذلك ! ألا ما أشق الرجل الذى يركز كل عواطف قلبه فى محبة شخص واحد ! فاستمع الى ما أقول لك . انى أريد أن تعد لى منزلا فى الريف يكون فى بورجونى أو بجوار باريس فانى أنوى أن أعتكف فيه مدة الشتاء . لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية وأصبحت أحس بالحاجة إلى الانفراد والعزلة . وسئمت مظاهر العظمة وجف نبع عواطفى وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاترا لا طعم له . لقد فنيت منى هذه الكنوز جميعها ولم يبق لى إلا أن أعيش خالصا لنفسى . فاما منزلى فسيكون لى وحدى ولن أعطيه لكائن من كان إذ لا مطمح لى بعد اليوم فى أكثر من أن أعيش . وداعا أيها الصديق الأوحد . انى لم أسىء اليك قط فى حياتى ومن حقى أن تعترف لى بذلك . قبل لى زوجتك وجيروم ! »

وهكذا نرى هذه الرسالة التى بدأها نابليون بأحاديث القمح والخضروات تنتهى بأمر عبارات اليأس والسخط والاشمئزاز إذ ما قيمة المجد والنصر والفتوح لرجل مثله يصاب فى ناحية الضعف الوحيدة التى فى بنيان نفسه وهى

محبته لزوجته تلك المحبة التى تجعله ينسى نفسه معها حتى ليعتذر اليها عن ذنوبها ويكتب اليها عند يأسه منها : « كونى سعيدة فان لك السعادة والهناء وكلينى لهمى فان نصيبى من هذه الدنيا الهم والشقاء ! » .

لقد احتمل نابليون من جوزفين فى ايطاليا ما احتمل وكان يظن بعد أن عاد الى باريس أنها طوت صحيفة النزق التى نشرتها فى ميلان وأنها ستعيش معه بعد ذلك معيشة الزوجات الصالحات . فاذا به يعلم وهو فى مصر من الكتب التى وردت لبعض ضباطه أن زوجته عادت الى (هبوليت) وفتحت له أبواب قصرها ولم تستنكف من الظهور معه فى كل مكان أثناء غيبة زوجها بعد ما كان من طرده له من جيش ايطاليا ومن معاهدته لها على أن يعيش كل منهما للآخر مخلصا له الحب فى حضوره وغيبته وأن يصون اسمه فى قربه وبعده . فما بلغته هذه الأنباء حتى ثار لكرامته وجعل يرغى ويزبد ويتوعد جوزفين وهو على مسيرة ستمائة مرحلة منها بالطلاق . « نعم بالطلاق . . . طلاقا فاضحا واضحا أعلنه على رءوس الأشهاد . . . لا بد لى من الكتابة الآن . . . انى أعلم كل شىء ولست أريد أن أكون أضحوكة العاطلين من أهل باريس ! » .

وعلى أثر هذه الثورة جلس نابليون فكتب إلى أخيه تلك الرسالة التى أوردت لك نصها قبل هذه السطور والتى غلب اليأس فيها على قلبه حتى ليقول :

« لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية وأصبحت أحس بالحاجة إلى الانفراد والعزلة وسئمت مظاهر العظمة . وجف نبع عواطفى وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاترا لا طعم له . لقد سلبتنى يد الدهر كل أمل فلم يبق لى إلا شخصى أحيا به حيـــاة الأثرة والأنانية التامة المطلقة ! » .

ولقد بر نابليون فى هذه المرة أيضاً بهذا العهـد الذى قطعه على نفسه وكان الدرس القـــاسى الذى تلقاه على يد جوزفين سبباً فى نكبة عشرات الأزواج الذين رمتهم الأقدار فى طريقه ليمثل مع زوجاتهم نفس الدور الذى مثله هيبوليت مع جوزفين .

الفصل الثانى

بولين فوريس

فتاة شقراء — ذات عينين زرقاوين — وثنايا عذاب — (موديست) صناعتها ابتكار الأزياء وتأليف ألوانها — أما أمها فطاهية وأما أبوها فسر تعرفه أمها وحدها ولا يعرفه الناس . . . . . . تلك هى پولين (Pauline) .

وتزوجت پولين وهى تناهز العشرين من عمرها فتى ضابطا صغيراً ثم صدرت الأوامر إلى هذا الضابط بالسفر إلى تولون ليكون مع الحملة التى أزمعت السفر إلى مصر تحت قيادة نابليون فعز على الزوج الصغير أن يترك عروسه وراءه فى فرنسا فألبسها لباس الجنود ونكرها على الناس لأن صغار الضباط لم يسمح لهم فى تلك الرحلة باستصحاب زوجاتهم — وهبط الضابط بعروسه أرض مصر . وظل أياماً وهو سعيد بها قبل أن ينكشف أمره . . . ذلك هو الملازم فوريس .

وبقيت پولين فوريس فى لباسها العسكرى إلى أن كان يوم أقام فيه نابليون حفلة فى ضواحى القاهرة فخرجت هى

إلى هذه الحفلة فيمن خرج من زملائها الجنود . وقد استقل كل واحد من رفاقها حماراً وهى وسطهم على حمارها تضحك كما يضحكون وتتصايح معهم كما يتصايحون . فلفتت رخامة صوتها وحلاوة ابتساماتها انتباه نابليون فوكل بها بعض رجاله ليتحرى عن أمرها . فما لبث أن عاد إليه وقص عليه حقيقة حالها . فوقعت من نفسه كل موقع . وفكر لساعته فى أن تكون له ينسى بين يديهـــا جوزفين ويتخذها لنفسه خليلة تؤنسه وتسليه .

ولم يكن عزيزاً عليه وهذه نيته أن يضع لها (بتكتيكاته) الموفقة خطة تكفل له الاستيلاء عليها . وقد نفذت هذه الخطة فعلا بأحكام عسكرى دقيق فلم تدر مدام فوريس آخر الأمر إلا وهى غنيمة بين يدى نابليون .

وبيان ذلك أن وليمة أقيمت باسم الجنرال بونابرت لكبار ضباط الحملة ونسائهم وأرسلت دعوة إلى مدام فوريس دون زوجها فحاول هذا أن يمنعها من حضور الحفلة فى أول الأمر . ولكنه عاد فخشى غضب رؤسائه عليه وسمح لها أخيراً بالذهاب .

« وكانت المأدبة شائقة وبينما القوم فى أنس وانشراح فتح الباب ودخل بونابرت فوقف الجميع اجلالا واحتراماً .

ثم مر بين المدعوين وهو يبتسم لهذا ويحي ذاك إلى أن وصل إلى حيث الجنرال (دبوى) ومدام فوريس وكان من حولها جماعة من الضباط والقواد فتقدم مسلما وحيا الجنرال دبوى فشكره هذا على تنزله لتشريف المـأدبة ودعاه لتناول فنجان من القهوة فلبى نابليون الدعوة وجلس بين قائدين مواجهاً مدام فوريس وأخذ يحدق فيها بنظره .

ولحظت مدام فوريس من تلك النظرات الحادة التى كان يرمقها بها نابليون أنها وقعت من نفسه موقعاً عظيما فساورتها حمرة الخجل . على أن نابليون لم يخاطبها بكلمة ولـكنه شرب قهوته مسرعاً وانصرف قبل أن يفرغ المدعوون من تناول العشـــاء .

وكانت مدام فوريس جالسة بين الجنرال دبوى والجنرال جونو . وبينما كان هذا يتناول قهوته بعد الفراغ من العشاء سقط الفنجان من يده وانسكبت القهوة على ثوب مدام فوريس . وكان سقوط الفنجان برشاقة تامة لم يلحظها أحد . وسرعان ما أقبل القوم يحاولون تنظيف ثوب السيدة بواسطة المـــاء .

وما كان أشد اعتذار الجنرال جونو وتظاهره بالأسف

وازدادت البقعة انتشارا فى الثوب بسبب غسلها بالماء فاقتاد الجنرال جونو مدام فوريس إلى غرفة فى الطابق الأعلى لكى تنشف ثوبها .

وهناك كان بونابرت فى انتظارها . . فبقيت معه بعد خروج جونو — ولم تبرح غرفته إلا عند منتصف الليل .

وبعد هذه المأدبة بأيام صدر أمر للضابط فوريس أن يذهب لمقابلة الجنرال برتيه Berthier . فذهب فاستقبله القائد ببشاشة عظيمة وقال له :

إن حظك عظيم ياعزيزى فوريس لأنك ستعود إلى فرنسا ! فأن القائد العام (بونابرت) يريد إرسالك إلى باريس فى مهمة سرية فيجب أن تستعد للسفر بعد ساعة وهذه هى الأوامر الصادرة لقائد ميناء الاسكندرية لتسهيل سفرك .

فسقط فى يد فوريس ولم يعلم بماذا يجيب ولكنه شكر الجنرال لحسن ظنه به وقال : إذا كان لابد من سفرى بعد ساعة فيجب أن أذهب وأخبر زوجتى لتستعد حالا للسفر معى .

فقال برتيه : — زوجتك ! أو تظن أنك تستطيع أن تأخذها معك فى مهمة سرية يجب تأديتها بأقصى ما يمكن من

السرعة ولا سيما وأنت تعلم أنك معرض لخطر الأسر لأن بوارج انجلترا تملأ البحر المتوسط ؟

فلم يسع فوريس إلا الخضوع . وفى الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم (١٨ ديسمبر سنة ١٧٩٨) ركب مركبة خاصة قاصدا الاسكندرية . ومن هناك ركب سفينة فرنسوية تدعى (شاسور — Chasseur) وهى بقيادة قبطان يسمى لورنس.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مدام فوريس تحت مطلق تصرف بونابرت . فاستأجر لها منزلا مجاورا لقصر ألفى بك حيث كان يقيم هو وأركان حربه وكان يقضى أكثر أوقاته عندها أو يخرج للتنزه فى مركبة وكان يصحبها أحيانا فى مثل هذه النزه ياوره الصغير أوجين بوهارنيه ابن جوزفين . وعلم الجيش كله بهذه الصلة الجديدة بين قائدهم ومعشوقته فلم يجدوا تعليقا أفكه ولا أظرف من أن يطلقوا على مدام فوريس اسم — Notre Dame d'Orient أى قديسة الشرق .

أما مسيو فوريس فان الذى كان من أمره بعد أن غادر الاسكندرية أنه رأى السفينة (شاسور) تمخر البحر متعرجة فى خط غير مستقيم . فسأل القبطان عن سبب ذلك فقال له أنه يحاول اجتناب البوارج الانجليزية وكان فوريس قلقا

يتعجل الوصول الى باريس لينجز مهمته ويعود سريعاً إلى
زوجته ولكن قبطان السفينة كان يتباطأ ويتلوى فى سيره
كأنه يبحث عن البوارج الانجليزية ليقع فى أسرها عمدا .

وفى الواقع لم تمر بضعة أيام حتى التقت البارجة (ليون)
الانجليزية بالسفينة (شاسور) فأسرتها ونقلت رجالها اليها .

ولا تسل عما خامر فوريس إذ ذاك من الحزن والأسف
فأنه أقبل على قبطان السفينة يلومه ويغلظ له فى الخطاب ويلقى
عليه تبعة الوقوع فى أسر الانجليز .

وبينما هو كذلك أقبل عليه مستر جون بارنت — أدهى
جواسيس الانكليز يومئذ ومن أقدر الذين سعوا لنكاية
نابليون — فأخذ يحادثه ليهدئ روعه ويرفه عن نفسه . وكان
فوريس المسكين يكاد يقتل نفسه حزناً لأنه اضطر أن يسلم
الأوراق السرية التى كان ذاهباً بها الى باريس الا أن بارنت
أعادها إليه بدون أن يفتحها وقال له : — خذ هذه الأوراق
فاننا لم نفتحها ولا نريد أن نفتحها . وقد صدرت الأوامر
بارجاعك الى مصر واطلاق سراحك هناك . فلم يكد فوريس
يصدق أذنيه وأدرك بارنت سبب دهشته فقال له :

نعم انك ستعود إلى مصر فترى زوجتك بين ذراعى

بونابرت ! فلم يكد يسمع ذلك حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه ولكن بارنت أخذ يتلو عليه ما يأتى ويرمقه من آن إلى آن بالنظرات . قال :

« لقى الجنرال بونابرت مدام فوريس أول مرة على الطريق بين القاهرة ورشيد . وللحال أمر برتييه رئيس أركان حربه أن يستقصى أخبار السيدة ليعلم من هى . وفى ذلك اليوم نفسه أعلمه برتييه أنها مدام فوريس زوجة الملازم فوريس من ضباط فرقة الفرسان الثانية والعشرين . فأمر بونابرت الجنرال دبوى أن يقيم فى الغد مأدبة يدعو إليها بعض النساء الفرنسيات وفى مقدمتهن مدام فوريس بدون زوجها وفى صباح الغد ذهب الجنرال جونو فقابل مدام فوريس على غير علم من زوجها وألح عليها بحضور المأدبة بدون زوجها لأن بونابرت يريد مقابلتها فأطاعت مدام فوريس ووعدت بالحضور الا إذا منعها زوجها بالقوة .

« وفى المساء حضرت وجلست إلى المائدة بين الجنرال جونو والجنرار دبوى وكانت موضوع سمر الجميع . وفى الساعة التاسعة والربع أى قبل الفراغ من العشاء دخل نابليون مع اثنين من قواده وجلس تجاه مدام فوريس تماما

ولم يحول نظره عنها . وفى الساعة العاشرة تظاهر بالانصراف ولكنه صعد فى الحقيقة إلى غرفة خاصة فى المنزل حيث لحقت به مدام فوريس بعد ذلك ببضع دقائق وبقيت معه الى منتصف الليل .

وظل نابليون يجتمع بها يوميا من سبتمبر الى آخر نوفمبر وأخيرا اتفق معها على ابعاد زوجها ورأى نابليون أن أحسن طريق لذلك هو أن يعيده الى فرنسا متظاهراً أنه يريد أن يرسله الى باريس بمهمة سرية . ولكنه كان فى الواقع يعلم أنه لابد من وقوع سفينته فى أسر الانكليز . وبذلك يتخلص منه ويخلو له الجو مع مدام فوريس » .

ولما فرغ بارنت من تلاوة هذا التقرير التفت الى فوريس وقال له « هذا ما اتصل بنا من وكيلنا بمصر . أما الأوراق التى تحملها والتى تزعم أنها سرية فأن عندنا صورة منها فلا شأن لنا بها . خذها وأعدها إلى بونابرت كما هى . وستعود بك البارجة (ليون) إلى مصر . ومتى وصلت إلى القاهرة فأن أحد رجالنا سيستقبلك ويوصلك إلى منزل بشارع ألفى بك حيث تجد زوجتك بين ذراعى عشيقها ! » .

وكان كذلك فأن فوريس عاد إلى القاهرة وسار تواً إلى

المنزل الذى قيل له عنه . فوجد زوجته وحدها فطلب اليها أن تطلعه على الحقيقة . فاعترفت له بكل شىء فانهال عليها بالضرب والركل والرفس حتى كاد يقتلها . وفى اليوم التالى طلب طلاقها فأجيب طلبه .

وكان بارنت يرجو من اعادة فوريس إلى القاهرة أن ينتقم هذا لشرفه ويقتل بونابرت ولكن ظنونه لم تتحقق . وكادت الجناية تقع على رأس پولين !

الفصل الثالث

لقاء الزوجين

خرج نابليون من مصر كما أسلفنا وهو يعتزم طلاق جوزفين (طلاقا فاضحاً واضحاً على رءوس الأشهاد . . .) جزاء خيانتها له وعقد النية على أن يعيش بعدها حرا طليقاً خالصاً لنفسه ما دام تفانيه فى حبها لم يحقق له حتى وفاءها لعهده بله غرامها به ! .

فلما بلغ شواطىء فرنسا خرج الناس لاستقباله من كل مكان . وتنافس المتنافسون فى تكريمه والاحتفاء به وكانت تضاء الأنوار ليلا ويفرش طريق مركبته بالزهور وتقام له أقواس النصر . ولكنه كان يسير وسط هذه الحفاوة البالغة منكس الرأس مشغول الفكر كثير الهواجس بسبب همومه التى كان يجترها فى نفسه أسفاً على ما كان من تصرفات زوجته

وكان فى طريقه يلقى السمع إلى كل من يحيط به لعله يعلم من أخبارها شيئاً فلا يسمع إلا حديث الحكومة وخذلانها والنمسا وتنمرها وجيوش فرنسا وما حل بها من الهزائم فى كل ميدان . ولم يكن هو يجد فى نفسه الشجاعة على بدء الناس بالسؤال عنها . والاستفسار عن شئونها فظل يكظم هذه الرغبة فى نفسه حتى أشرف على باريس .

أما جوزفين فانها كانت فى وليمة عند مسيو جويه Gohier (أحد المديرين الخمسة) فى نفس الليلة التى انتشر فيها بباريس خبر وصول نابليون إلى أرض فرنسا فوجمت لهذه المفاجأة التى لم تكن تتوقعها وساورها قلق شديد على أثر الصدمة التى أحدثها هذا الخبر فى نفسها . وذلك لأنها كانت قد انقطعت عنها مكاتبات نابليون منذ شهور بسبب وقوف البوارج الانجليزية بالمرصاد له ولرسله ورسائله . ولأنها كانت تعلم ما يعتقده الناس فيها وما يقولونه عنها فخافت أن يسبقها خصومها إلى زوجها ليوقعوا بينهما ولذلك قررت القيام من فورها للقائه قبل أن يصل إلى باريس وقبل أن يتصل به حسادها لتقطع عليهم الطريق اليه ولتحول دون سعاياتهم لديه . ولتكون هى البادئة بالهجوم — ألم تكن قاعدة نابليون

نفسه أن « الهجوم خير وسيلة للدفاع » .

وعلى ذلك أسرعت إلى غرفتها فتجملت وتزينت ثم خرجت (شاكية السلاح) وهى تطمع فى النصر والفتح القريب . واستقلت عند منتصف تلك الليلة مركبتها هى ولويس بونابرت أخو زوجها وهورتنس ابنتها الصغيرة وسارت فى اتجاه مدينة ليون . وبعد أن واصلت الليل بالنهار فى قطع هذا الطريق الطويل دخلت ليون فاذا بنابليون قد غادرها إلى باريس قبل وصولها هى بساعات . فسقط فى يدها وعلمت أنها خسرت المعركة وأن نابليون سوف يدخل باريس ويجتمع بأهلها قبل دخولها هى بيوم أو يومين فكاد يغشى عليها من فرط الحزن واليأس ولكنها عادت فتماسكت ولم تر بدأ من استئناف السير للحاق به ومحاولة الوصول إلى قلبه من جديد .

ولعل هذه الساعة كانت ساعة الانقلاب الذى حصل فى عواطف جوزفين بالنسبة لنابليون . فانها ظلت طول عهدها السابق مستهترة متجنية عليه يدعوها فلا تجيبه ويستعطفها فتضحك منه وهو قانع بهذه الحال يصبر عليها ويطمع فى

تحسنها على مضي الأيام إلى أن كان ما كان من أمرها مع هيبوليت وغير هيبوليت وإلى أن كان ما كان من أمره مع پولين وغير پولين وعنـد ذلك انعكس الميزان بينهما إذ رأته جوزفين يكاد يفلت من قبضتها وسمعت عنه أنه يتلهى بغيرها فأكلت قلبها الغيرة عليه واستماتت فى الاحتفاظ به والتودد اليه . وكان من أثر ذلك خروجها فى تلك الرحلة غير الموفقة حيث وقفت هى فى ليون وعرفت أن زوجها جاد فى طريقه الى باريس وعند ذلك أحست بأن الخاتمة قد دنت وأنها لن تسترد منزلتها الأولى من قلبه وأن هذا البطل الذى كان طوع بنانها وهذا الملك غير المتوج الذى كان عبد هواها قد خسرته بخفتها وطيشها وسوء تدبيرها فتضعضعت ثقتهـا بنفسها وانهزم كبرياؤها واستأنفت رحلتها عائدة إلى باريس لتبدأ دور الاستعطاف والتـذلل بعد أن فرغ دور الأعراض والتدلل !

أما نابليون فأنه ما وصل الى باريس حتى قصـد قصر اللوكسبورج توا وهناك قابله الحراس بهتاف يشق أطبـاق الجو فلما سمع الآهالى هتافهم التفوا حول القصر وأخذوا يصيحون معهم « لتحى الجمهورية ليعيش بونابرت ! » وانتشر

الهتاف من شارع الى شارع حتى أصبحت تتجاوب به أنحاء المدينة وقرعت الأجراس وأطلقت المدافع وأخليت الملاهى والمنازل وخرج الناس من ديارهم وهم ألوف ليستقبلوا قائدهم ومنقذهم الذى نيط به الرجاء وانعقدت حوله الآمال. واجتمع بنابليون فى ذلك اليوم كل من كانت تخشى اجتماعهم به جوزفين فأكد لهم نابليون نيته فى الطلاق وكرر لهم صدق عزمه عليه ولم يبق إلا أن تصل جوزفين نفسها ليصدمها تلك الصدمة الحاسمة التى بدأ تعبئتها فى مصر.

وبعد يومين وصلت جوزفين ودخلت عربتها قصر اللوكسبورج فى ساعة متأخرة من ليلة ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وكان فى استقبالها هناك ولدها أوجين ياور نابليون فى مصر فطرحت نفسها على صدره باكية منتحبة وهى ترجف كما ترجف أوراق الخريف المتساقطة. فعاونها على صعود السلم إلى حجرة نابليون وهناك تقدمت إلى بابها بيد واجفة ودفعته دفعاً خفيفاً فبدا لها من خلفه نابليون وقد عقد يديه على صدره ووقف جامدا كالتمثال فما وقع نظره عليها حتى ابتدرها بخشونة قائلا:

« مدام ! أطلب اليك أن تذهبى حالا إلى مالميزون ! »

فترنحت جوزفين بين يدى ولدها وبكت بكاء مراً وعادت أدراجها تستند إلى ذراع أوجين . وكان نابليون يعلم أنها صرفت فى سفرها هذا نحو أسبوع وهى تحاول لقاءه أو اللحاق به وأنها قد أنهكها التعب وأضناها ولذلك لم يكن يتوقع أنها ستصدع بأمره فورا وانما ترجئه إلى الصباح لأن المالميزون Malmaison (منزل نابليون) كان يبعد عن باريس بنحو اثنى عشر ميلا . فلما سمع وقع أقدامها على السلم هى وولديها ورآها تتأهب لركوب مركبتها أخذته الشفقة عليها وأسرع إلى فناء الدار ووجه خطابه إلى أوجين طالبا إليه أن يعود بأخته وأمه ليقضوا الليل وليتناولوا شيئاً من الطعام والشراب فصعدت جوزفين وهى تكاد تسقط من الجهد والاعياء وانطرحت على فراشها وهى توشك أن تكون فاقدة الصواب .

وتركها نابليون على هذه الحال يومين متتابعين وهو يضطرم شوقا إليها وحنقاً عليها . واحتشدت فى رأسه كل الذكريات الماضية واستعرض أيامه الأولى معها وما كان يلقاه

عندها من السعادة والهناء. ثم تذكر الأيام التى قضاها بعيداً عنها فى مصر — وذكر پولين وكيف أنها على الرغم من كل حسنها وجمالها لا يمكن أن تضارع جوزفين فى سحرها وفتنتها وعاوده العطف على زوجته فقصد إلى حجرتها فى اليوم الثالث وفتح بابها رويداً رويداً فاذا هى جالسة إلى مائدة صغيرة نثرت عليها رسائله التى كان يبعث بهـــا اليها من مصر وقد اعتمدت رأسها بيديها وفى قلبها جيش من الأحزان والأكدار فتقدم نحوها فى تردد ورفق ثم ناداها بقوله :

— جوزفين !

فأجفلت ورفعت عينيها المتقرحتين قائلة بصوت مختنق .

— ياعزيزى ! Mon ami

فهزت نبرات صوتها قلب نابليون ووقع هـذا النداء القديم المحبوب موقعـــاً مؤثراً من نفسه فمد اليها ذراعيه . فطرحت نفسها بين يديه وألقت رأسها الموجع على صدره وغلب عليها التأثر فأجهشت بالبكاء ! .

☆☆☆

ودار بينهما عتاب تصافيا من بعده وفى اليوم التالى أطلعته جوزفين على ديونها وكانت تتجاوز عشرات الألوف من الفرنكات فدفعها راضياً ولم يفه بكلمة اعتراض !.

الباب الرابع

نابليون رئيس حكومة فرنسا

الفصل الأول : — حالة فرنسا فى غياب بونابرت
« الثانى : — انقلاب برومير
« الثالث : — دستور سنة ١٧٩٩

الفصل الأول

حالة فرنسا فى غياب بونابرت

لما سافر نابليون إلى مصر حسبت حكومة (الديركتوار) أن الجو خلا لها من منافسها الخطر . وأنها أصبحت تستطيع أن تسترد نفوذها وتثبت شخصيتها بتصرفاتها النافعة وأعمالها الرشيدة المفيدة .

وكانت السياسة التى رسمها رجال الثورة بفرنسا والتى تولت حكومة الديركتوار تنفيذها هى نشر المبادىء الديمقراطية ونظام الحكم الجمهورى فى سائر أنحاء أوربا لتكون فرنسا بحكم سيادة هذا النظام صاحبة النفوذ على دول هذه القارة جميعها . وهذه السياسة نفسها هى التى اتبعها نابليون فى خلال الحملة الايطالية . وكان من آثارها انشاء جمهوريتى شمال إيطاليا .

وقد حدث بعد ذلك أن نزاعا قام فى ولايات البابا بين الحزب الوطنى فيها وبين البابا بيوس السادس Pious VI (ديسمبر سنة ١٧٩٧) وقتل بسبب هذا النزاع ضابط فرنسى

فى السفارة الفرنسية . فبادرت الحكومة بتسيير حملة إلى روما أسقطت البابا عن عرشه وقلبت حكومة البابوية إلى حكومة جمهورية وجعلت هذه الحكومة الجديدة تحت حماية فرنسا (١٥ فبراير سنة ١٧٩٨) .

وكانت سويسرا أيضاً بحكم متاخمتها لفرنسا قد تأثرت بمبادىء الثورة وقام أهلها بفتنة ضد حكومتهم يسعون إلى قلبها وإقامة حكومة جمهورية فيها كحكومة فرنسا فانتهزت الديركتوار هذه الفرصة واحتلت البلاد السويسرية وقلبت نظامها الاتحادى إلى نظام جمهورى (ابريل سنة ١٧٩٨) كما فعلت فى روما .

ومذ رحل نابليون إلى مصر فى مايو سنة ١٧٩٨ لم تفتأ حكومة الديركتوار تتحين الفرص لتوسيع دائرة نفوذها فنجحت بادىء الأمر فى بسط سلطانها على بعض الولايات الايطالية ولكنها لم يكن من السهل عليها بعد ذلك الاحتفاظ بفتوحاتها وذلك لعدم كفاية مديريها وعجزهم عن حفظ النظام فى فرنسا نفسها فضلا عن إدارة فتوحاتها الخارجية

وكانت الدول الأوربية العظمى تستنكر سياسة فرنسا ، ولا تنظر بعين الارتياح إلى ما تصدت لنشره من المبادىء

الديمقراطية ، فتألف ضدها حلف جديد من الروسيا ، وانجلترا ، والنمسا ، وتركيا ، ونابولى ، والبرتقال[١] . واتفق المتحالفون على أن يطبقوا على حدود فرنسا من كل صوب ليخرجوا منها ما حشر فى دائرتها غصباً . فنجحوا فى ذلك الى حد بعيد ، وهزمت جيوش فرنسا فى النمسا وفى ايطاليا . . . وكانت أخبار هذه الهزائم هى التى دسها السير سدنى سميث إلى نابليون وهو فى مصر ليجذبه بها إلى فرنسا ، وكان بعد ذلك ما سبق لنا بيانه من ركوب نابليون البحر فى جماعة من صحابه وعودته إلى أوربا لينظر ماذا فعلت الحكومة بتراث المجد الذى كسبه لفرنسا هو وجنوده الشجعان على ضفاف نهر البو وفى معاهدة كامبو فورميو

على أن الحالة فى فرنسا كانت أسوأ مما صورته

---

(١) كان لكل واحدة من هذه الدول سبب خاص للاشتراك فى هذا التحالف الدولى الثانى . فالروسيا كانت غير مرتاحة لانتزاع الفرنسيين لمالطا من يد الفرسان الذين كانوا تحت حماية القيصر . وانجلترا كانت ترغب فى اخراج الفرنسيين من مصر . والنمسا لم تنظر بعين الارتياح الى احتلال الجيوش الفرنسية لسويسرا . ونابلى لم ترض كذلك عن انشاء جمهورية تجاورها بدل امارة البابا . والبرتقال كانت حليفة لانجلترا . وكانت تركيا تعتبر دخول الفرنسيين فى مصر اعتداء عليها .

الجرائد التى استفزت عواطف نابليون فى خيمته المنعزلة عند أبى قير فان حالة الأمن كانت من الفوضى بحيث لم يعد يأمن معها تاجر على تجارته ولا مالك على ملكه ، إذ كانت تنهب الأموال ويسطو اللصوص على المتاجر جهارا نهارا ، ولم يكن يمر يوم فى باريس من غير أن تتناقل الأندية فيه خبر مقتل بعض الصيارفة ونهب أموالهم ، أو خبر سرقة جديدة جريئة لمخزن بعض الجوهريين أو لصندوق دار من دور التجارة الكبيرة ، وكثر اقتحام اللصوص للاسطبلات ودور الذخيرة لتزويد أنفسهم بالخيل والبارود ، وانتشرت عصابات الشر فى كل مكان ، وعجز البوليس عن مطاردتها وضبط المجرمين ، وانقطعت الطرق وتعطلت التجارة ، وساد البوار على الأسواق ، وكانت الثورة فى بدء حربها مع الاشراف وامتيازاتهم قد اكتسحت رجال الدين وكنائسهم وسخرت من طقوسهم ونبذت عقائدهم فأصبح الناس وليس لهم ضابط يضبطهم من دين أو خلق ، وراجت بينهم سوق الخلاعة والتهتك وارتد المجتمع الفرنسى الى حالة تشبه الهمجية الأولى وعمت الشكوى من هذه الحالة ولم يجد الشعب أمامه من يلقى عليه مسئولية هذه الفوضى غير الحكومة . فأبدى

تبرمه بها وسخطه عليها وبذلك سقطت هيئتها وضعفت كلمتها وزاد تخبطها وارتباكها وتطلع الناس من كل ناحية إلى يد قوية تنشلهم من هذه الوهدة التى تردوا فيها ، وفى وسط هذه الضائقة ظهر نابليون فجأة فى فرنسا يحمل على رأسه أكاليل المجد التى صاغها لنفسه فى ميادين مصر والشام ، فطرح الشعب تحت قدمه آماله وآلامه واستقبله ذلك الاستقبال الفخم الذى أتينا على وصفه فى البـاب السابق وأدرك نابليون أن الساعة ساعته فلم يتردد فى تلبية نداء الشعب وانتهاز هـذه الفرصة لقلب الحكومة واستلام مقاليد الحكم

الفصل الثانى

انقلاب برومير[1]

ليس من الأمور الميسورة أن يقوم فرد أو جماعة بقلب نظام الحكم فى أى بلد من البلاد . وكثيرا ماتصحب حركات الانقلاب ثورة أو حرب داخلية تجر فى ذيلها كثيرا من الويلات .

وهناك شروط لابد من توفرها فى الحكومة التى يراد قلبها ، وفى الشعب الذى تحكمه هذه الحكومة لكى تتم حركة الانقلاب فى هدوء ومن غير اراقة للدماء ، فكلما كانت الحكومة ضعيفة مكروهة كان من السهل قلبها وكلما كان الشعب أميل الى التساهل والاستسلام كانت حركة الانقلاب مأمونة العاقبة — ولكن على الرغم من ضعف حكومة الديركتوار وقوة مركز نابليون ورغبة الشعب فى التخلص من تلك الحكومة الضعيفة فقد كانت أمام نابليون عقبات جمة يجب عليه تذليلها قبل أن يقدم على قلب تلك الحكومة

---

(١) برومير فى تقويم الثورة الفرنسية اسم الشهر الذى يوافق شهر نوفمبر

فى هدوء وسكينة وبدون أن يلتجىء إلى القوة المادية والسلاح —

وذلك أن رجال الديركتوار أنفسهم وهم الذين ما تزال السلطة التنفيذية فى يدهم كانوا بحكم مركزهم أول من يعترض طريق نابليون ويقف فى وجهه .

وكان فى فرنسا غير هؤلاء قواد ينافسون نابليون وينظرون بعين الريبة والتوجس إلى كل حركاته . ولا يمكن أن يرضوا بسيادته عليهم . وكان من وراء هؤلاء جنود يحبونهم ويطيعون أمرهم . وكان لابد لنابليون أن يتفادى التصادم مع هؤلاء إذا هو أراد أن يقلب الحكومة دون أن يثير حربا أهلية .

وكان هنـاك غير هؤلاء وأولئك رجال من ساسة فرنسا (كاليعاقبة مثلا) تتفق مصالحهم مع بقاء حكومة الديركتوار وهم لهذا السبب يقفون ولا شك موقف المعارضة من كل من يريد المساس بنظامها

وما دمنا فى معرض الـكلام عن الهيئات التى لا بد أن تقف فى طريق الانقلاب الذى أراد نابليون إحداثه فليس لنا أن ننسى ذكر مجلس النواب (مجلس الخمسمائة) ومجلس الشيوخ وهما عماد الدستور الذى اعتزم نابليون القضاء عليه

فكل هـــذه القوى كانت فى وجه نابليون . وكان هو أحرص من أن يدفع نفسه بينها قبل أن يرسم طريق خطواته خطوة خطوة ليضمن سلامة الوصول . فاعتزل الجماهير وعكف على دار الأكاديمية يشترك مع رجالها فى بحوثهم ويحاضرهم عن قناة السويس وحجر رشيد يريد من ذلك أن لا يلفت أنظار الأحزاب السياسية إلى شخصه حتى يطمئنوا اليه ويأمنوا جانبه ويتمكن هو فى ظل غفلتهم هذه من تدبير امره واحكام خططه :

وكان فى فرنسا فى ذلك العهد أحزاب ثلاثة :

١) — الحزب الملكى — وكان أعضاؤه يعملون فى الخفاء على إعادة الحكم فى فرنسا إلى أسرة بوربون التى قتل آخر ملوكها (لويس السادس عشر) أثناء ثورة سنة ١٧٨٩ .

٢) — حزب اليعقوبيين — وكان أعضاؤه من الديمقراطيين المتطرفين الذين يعملون على استبقاء الحكم فى يد الشعب . وكان باراس (أحد المديرين الخمسة) زعيم هذا الحزب

٣) — حزب الجمهوريين المعتدلين — وزعيمه الأب سايس (أحد المديرين الخمسة أيضا) وكان أعضاؤه يرغبون

فى تعديل نظام الحكم لفشل الديركتوار وعجزها عن إدارة شئون البلاد .

وعلى الرغم من أن نابليون لم يكن يريد أن يشترك احد معه فى تدبيراته إلا أنه أراد أن يستغل الحزب الأخير وزعيمه لتسهيل العمل الذى اعتزم القيام به . فاتصل بسيايس وتم الاتفاق بينهما على وجوب استقالة (المديرين) أولا حتى إذا سقط ركن من أركان الحكومة بسقوطهم تشكلت لجنة تنفيذية من ثلاثة قناصـــل موقتين تكون مهمتهم اعداد دستور جديد .

وهذه الفكرة — على بساطة ظاهرها — لم يكن من السهل تنفيذها دون التعرض لأخطار كثيرة ومقاومات عنيفة . فأن (المديرين) الخمسة مثلا وهم سيايس Siéyès وديكو Ducos وباراس Barras وجوهيه Gohier ومولان Moulins لم يكن من الميسور اقصاؤهم عن مراكزهم . وكان لا بد من اغراء بعضهم على الاستقالة بالمنى والوعود وحمل الآخرين على التخلى عن مناصبهم بالقوة عند اللزوم .

ولما كان كل ما حدث فى الانقلاب الذى نحن بصدده إنما هو فى الواقع ثمرة التدبيرات التى قام بها نابليون فلسنا

نحاول هنـــا شرح هذه التدبيرات ولكننا نكتفى بعرض الحوادث كما وقعت وهى تنم من نفسها عن الاجراءات التى اتخذت فى سبيل تحقيقها .

١٨ برومير :

ففى فجر يوم ١٨ برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) خرجت الفرق المعسكرة فى باريس من ثكناتها وهى تهز بموسيقاها أرجاء المدينة .

وفى الساعة السادسة صباحا من ذلك اليوم انعقد مجلس الشيوخ ـــ ومنذ تلك الساعة بدأ يتوافد على منزل نابليون كبار الضباط الذين كانوا يلحون فى مقابلته والاجتماع به منذ عودته من مصر ـــ وذلك بناء على موعد سابق بُلِّغ على حدة لكل ضابط من هؤلاء الضباط .

وفى الساعة الثامنة كان منزل نابليون يموج بالزائرين حتى لم يعد يتسع لهم جميعا فخرج بعضهم إلى الشارع يذهبون أمام بابه ويجيئون .

وفى تلك الساعة تقدم إلى مجلس الشيوخ اقتراح بطلب جعل اجتماع اليوم التالى فى ضاحية سان كلو St Cloud بدلا من باريس حيث يشاع أن مؤامرة تدبر فيها ضد أعضاء

المجلسين للتأثير عليهم والتدخل فى شئون الحكومة [١]. فتقرر ذلك كما تقرر تعيين نابليون بونابرت محافظا لباريس وقائدا لقوات الدفاع فيها .

وعقب صدور هذا القرار حمله رئيس مجلس الشيوخ بنفسه الى منزل نابليون فخرج به نابليون إلى شرفة فى منزله وأطل منها على ضيوفه ثم تلا عليهم ذلك القرار . وخاطبهم قائلا : « أيها السادة ! هل تعدون بمعاونتى فى العمل على انقاذ الجمهورية ؟ » .

فصاح الحاضرون فى صوت واحد قائلين : « نقسم لك ! نقسم لك ! » .

ونزل نابليون فأمر بأن يتلى هذا القرار على الجنود ليحيطوا به علما وركب هو فى وسط الضباط الذين كانوا بانتظاره وما كادوا يتجاوزون حدود المنزل حتى اتصلت بركابهم كوكبة من الفرسان يبلغ عددها نحو ألف وخمسمائة فارس كانوا ينتظرون هذه الساعة . فطلع هذا الموكب الفخم

---

(١) كان المقصود من الانتقال إلى سان كلو أن ينفرد نابليون بأعضاء المجلسين ليسهل عليه التأثير فيهم وليتم الانقلاب بهدوء بعيدا عن شغب باريس .

على أهل باريس فدهشوا له دهشة النائم للحلم الرائع الغريب .
وسار نابليون فى طريقه حتى بلغ سراى التويلرى وهناك
تقدم الى مجلس الشيوخ ليحلف اليمين الخاصة بمنصبه الجديد .

وكان المديرون الخمسة فى تلك الساعة مجتمعين فى قصر
اللوكسمبرج . فذهب اليهم من أبلغهم قرار مجلس الشيوخ .
فتقدم الأب سيايس لدى سماع الخبر وقدم استقالته من
الحكومة (طبقا للاتفاق السابق مع نابليون) وتبعه فى ذلك
ديكو . أماباراس فأنه أرسل مع سكرتيره احتجاجا على ماحدث
وذهب به السكرتير الى سراى التويلرى حيث يجتمع البرلمان
فرآه نابليون وما كاد يطلع على الخطاب حتى انفجر فيه أمام
الحاضرين قائلا :

. لقد تركت فرنسا هادئة ظافرة . وهاءنا أجدها تنوء
تحت أثقال الذل والانقسام . لقد تركت جيوشا جرارة منيعة
الجانب . وها هى الآن من نجا فيها من الموت لم ينج من
الهزيمة . أنى أسأل ماذا أصاب رجالى الذين عاونونى فى أعمالى ؟
إنهم ماتوا ! إنهم هلكوا فى ميدان البؤس والتعاسة ! إن من
جر على البلاد مثل هذه الويلات لا ينبغى أن تمتد بعد اليوم
يده إلى شئونها العامة ! إنه يجب أن ينسحب من الميدان

ويقضى بقية ايامه مطمورا تحت أطباق الاهمال والنسيان !»

أما السكرتير المسكين فأنه كاد يتناثر تحت هذه العاصفة التى انفجرت فى وجهه وتسلل بين الناس منكس الرأس ثقيل الخطا — وأما باراس فأنه بادر الى الاستقالة حتى لايحيق به غضب نابليون . وبذلك سقطت أغلبية الهيئة إذ لم يبق من أعضائها إلا اثنان وهما جوهيه ومولان . غير أنهما أصرا على التمسك بمناصبهما إلى النهاية . بل لقد بلغ الأمر بجوهيه أن يواجه نابليون وينبهه إلى عدم الاخلال بواجباته نحو الديركتوار . فما كان من نابليون إلا أن أجابه بقوله : أى ديركتوار ؟ إن الديركتور الآن لا وجود لها والجمهورية فى خطر . ولا بد لنا من تخليصها . تلك إرادتى ! وقد استقال سيايس وديكو وباراس وأنى أنصح لكما أن لا تفكرا فى المقاومة .

غير أنهما بقيا على اصرارهما فأمر بهما نابليون فأعيدا إلى قصر اللوكسمبرج . وعزل كل منهما عن صاحبه فى غرفة خاصة به وبقى فيها (تحت الحفظ) .

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم اجتمع مجلس الخمسمائة . وأبلغ قرار مجلس الشيوخ الذى يقضى بأن ينعقد المجلسان فى صباح اليوم التالى بضاحية سان كلو . فلم ير

المجلس سبيلا للاعتراض لأن ذلك القرار كان من حق مجلس الشيوخ اتخاذه ما دامت تدعو إليه الظروف وعلى ذلك انفض الاجتماع . وتحققت نصف آمال نابليون بسقوط الهيئة التنفيذية من حكومة الديركتوار ولم يبق إلا أن ينعقد المجلسان فى صباح الغد ليقررا تشكيل الهيئة الجديدة التى يناط بها إعادة النظر فى الدستور

وأكب نابليون من فوره على تدبير شئون ذلك الغد فقرر أن يرابط الجنرال Lannes فى سراى التويلرى . وأن يسير الجنرال مورا Murat إلى سان كلو وأن يبقى الجنرال Moureau فى اللوكسمبرج لحراسة جوهيه وومولان . واقترح سيايس أن يأمر نابليون بألقاء القبض على زعماء اليعاقبة الذين تخشى معارضتهم فى جلسة الغد . ولكن نابليون استنكر منه هذا الاقتراح وأكد له رغبته فى أنه لن يعمل عملا إلا فى ظل القانون .

وفى وسط تلك الحوادث الخطيرة التى ازدحمت بها ساعات ذلك اليوم المشهود لم ينس نابليون زوجته جوزفين التى كانت تنتظر فى منزلها أخباره بغاية القلق وفارغ الصبر فكان يرسل اليها كل ساعة رسولا يخبرها بما تم وأخيرا عاد اليها بنفسه فى

ساعة متأخرة من الليل . وأعاد على مسامعها قصة النهار فباركته وزودته بدعواتها الصالحة ؟ ليصيب فى غده من التوفيق مثل ما أصاب فى يومه . ثم تركته يستجم نشاطه لمعارك اليوم التالى وانقلبت الى فراشها لتحلم بذلك الملك الواسع الذى سوف يتفتح لزوجها بعد يوم سان كلو . . .

١٩ برومير :

وفى صبيحة اليوم التـالى خرج نابليون مبكرا على ظهر جواده ومن حوله حاشية ملكية فخمة وكان اليعاقبة قد تحفزوا لابداء معارضتهم الشديدة لقرارات الأمس فما رأوا حدائق سان كلو تعج بالجنود حتى تعززت وساوسهم وأوجسوا شرا وصاحوا « ليسقط الطاغية ! » «الموت للظالم ! » « ليحيى الدستور ! »

ولم يكد ينعقد المجلس حتى اقترح بعضهم أن يعيد الأعضاء من جديد حلف يمين الولاء للدستور واستحسن النواب هذا الاقتراح فساروا الى المنبر واحدا واحدا حتى لوسيان أخو نابليون رئيس المجلس وجددوا يمينهم التى أقسموها قديما للمحافظة على الدستور واحترام أحكامه واسترسل النواب بعد ذلك فى حماستهم فاقترح آخرون أن يقرر المجلس أن

نابليون (خارج على القانون) وكان مثل هذا القرار لا يصدر
فى حق انسان إلا توطئة للحكم عليه بالأعدام .

فأمام هـذا الخطر الداهم اقتحم نابليون مجلس الشيوخ
وصعد منبر الخطابة فيه ثم قال « أيها السادة ! انكم تعيشون
هنـا على فوهة بركان ولقد رأيتم الخطر المحدق بالجمهورية
فدعوتمونى الى معونتكم . فخففت اليكم . ولـكن هاءنا الآن
تهاجمنى جيوش القذف والمفتريات واصبحت أسمع الناس
يذكرون قيصر وكروميل والاستبداد العسكرى! ونحن هنا
تحدق بنـا المخاطر ويدلهم حولنا ليل النكبات . وقد سقطت
حكومتنا واستقال مديرونا واستحكمت الفوضى فى مجلس
الخمسمائة . وأرسل الرسل إلى باريس لأشعال نار الثورة فيها
وود المشاغبون لو أعيدت محاكم الثورة — ولـكن ثقوا بى
واطمئنوا إلى معونتى ومعونة رجالى . وعلم الله ما لى فى ذلك
من مغنم لنفسى إلا أن أقوم بواجبى نحو الجمهورية وسلامتها .
وأقسم لأحمِيَنَّ مبدأ الحرية والمساواة الذى ضحينا من أجله
كل ما ضحينا ! »

وهنا صاح به من جانب الندوة صائح يقول « والدستور ! »
فعقدت هذه الصدمة لسان نابليون برهة لأنه أغفل ذكر

الدستور عن قصد . ولكنه ما لبث أن توجه نحو المعترض وهو يقول — « الدستور ؟ أنتم ليس لديكم دستور ! فلقد هدمتموه يوم تركتم السلطه التنفيذية تتدخل فى شئون السلطة التشريعية ! وهدمتموه يوم تركتم السلطة التشريعية تعتدى على استقلال السلطة التنفيذية ! وهدمتموه يوم تركتم السلطتين تفتاتان على حقوق الشعب وسيادة الأمة بألغاء انتخابهم ! أنى أعجب لكم كيف تذكرون الدستور بعد أن صيرتموه مهزلة . كلكم يحتج به وليس فيكم من يرعى أصوله ويجرى على أحكامه ! »

وكان أعوان نابليون وأنصاره قد سرى الى نفوسهم قبل هذا الخطاب شيء من الضعف وخانت عزائمهم لاسيما بعد أن وصلت إلى علمهم أخبار مجلس الخمسمائة وتحفز أعضائه ضد نابليون ولكنهم بعد أن سمعوه وهو يحمل هذه الحملة على معارضيه . وبعد أن رأوا أثر كلامه فى النفوس عاودهم الأمل واستردوا أنفاسهم المعلقة فقاموا يؤيدونه ويعلنون ثقتهم به واعتمادهم عليه .

أما نابليون فأنه ما كاد يفرغ من كلامه فى مجلس الشيوخ حتى أسرع الى مجلس الخمسمائة يريد أن يحول بشخصه دون

تلك القرارات الخطرة التى كان يعمل أعداؤه على استصدارها وإبقاعه فى شباكها فقابله أوجيرو فى الطريق فابتدره بقوله « لقد ألقيت بنفسك فى مأزق حرج ! » فأجابه نابليون : «إن الظروف على جسر أركولا كانت أحرج منها هنا . فاطمئن . ولسوف ترى فى مدى ساعة أن كل شىء قد تغير مجراه ! »

ودخل نابليون مجلس الخمسمائة واتجه فوراً إلى المنبر يريد أن يخطب الأعضاء ولكنهم ما كادوا يرونه فى وسط قاعتهم حتى هجموا عليه وتنافسوا فى الوصول اليه وإيقاع الأذى به غير أن جنوده لحسن الحظ كانوا أسبق منهم الى الاحاطة بجسمه وصيانته من خناجر خصومه . ولما رأوا أن الكلام متعذر عليه فى هذا الهياج وأن حياته نفسها فى خطر حملوه خارج القاعة وهو فاقد الصواب . وانقلب النواب فيما بينهم كالبحر الهائج يموج بعضهم فى بعض . وتعالت أصواتهم . واختل نظامهم . ولم يستطيع لوسيان بونابرت رئيس ندوتهم أن يحفظ نظام الجلسة . بل إنه لم يستطع دفع عدوانهم عليه باعتباره شقيق (الطاغية) . فانسل من بينهم وخرج الى الحديقة حيث لحق بأخيه وهناك وقف يخطب الجنود ويحضهم على دخول القاعة ، وطرد (الخونة) منها — أُجَرَاء (وليم بت)

الذين اتخذهم أعداء الوطن سلاحا للقضاء على مجده وسيادته »
ولكن الجنود وقفوا ذاهلين ولم يستجيبوا لندائه فاختطف
سيفاً من بعض الضباط الذين كانوا إلى جانبه وصوبه نحو قلب
نابليون وقال « أقسم لأكونن أول من يغمد سيفه فى هذا الصدر
لو أن أخى اراد بالجمهورية سوءاً فاتبعونى ننقذ الوطن من
أعدائه . » وهنا ثارت حمية الجنود ودخلوا القاعة بسلاحهم
لطرد النواب منها ولم تمض على هذه الحملة دقيقتان حتى كان
آخر النواب يقفز من أقرب نافذة اليه يلتمس الفرار والنجاة
بنفسه من تلك الحراب .

ولم يكد يفيق نابليون من تلك الغاشية حتى عمل على جمع
فريق من النواب والشيوخ الموالين له وجعلهم يقررون أن
جنوده بأنقاذ الموقف قد استحقوا تقدير الوطن وأن السلطة
التنفيذية قد انتقلت من يد (المديرين) الخمسة إلى يد ثلاثة
(قناصل) هم نابليون وسيايس وديكو وتقرر فى نفس تلك
الجلسة أن تتألف لجنة من كل من المجلسين لتشترك مع القناصل
الثلاثة فى وضع الدستور الجديد[١] .

---

(١) كان نظام (القنصلية) من مبتكرات الجمهورية الرومانية وقد اقتبسه
رجال الانقلاب فى فرنسا تشبها بتلك الجمهورية العظيمة

وفى مساء ذلك اليوم التاريخى المشهود (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩) راجت فى باريس اشاعة مؤداها أن حركة نابليون قد فشلت . فغلب الذعر على قلوب الناس وخافوا أن تعود سيطرة اليعقوبيين بعهد إرهاب جديد . ولكن أذيع فى الساعة التاسعة من تلك الليلة (بيان) أملاه نابليون فى سان كلو وشرح فيه النتائج التى أدت اليها حوادث النهار وأعلن فيه سقوط حكومة (الديركتوار) وقيام حكومة (القنصلية) فكان الناس يتهافتون على هذا البيان فى الطرقات ويقفون لاستماعه مستبشرين وقد عادت اليهم الطمأنينة لثقتهم بأنهم باتوا على باب عهد جديد — عهد يلقون فيه عن أكتافهم أعباء الحكم التى أثقلتهم عشر سنوات متوالية . ويسلمون فيه قيادهم إلى يدى ذلك البطل الذى فاقت انتصاراته السلمية انتصاراته فى ميادين الحروب . ويقرنون فيه نجمهم بنجمه الموفق السعيد .

٭٭٭

وظل نابليون مشغولا فى سان كلو حتى الساعة الثالثة صباحا ثم ركب عائداً الى باريس وإلى جواره كاتم سره Bourienne ولكنه لم يفه بكلمة واحدة طول الطريق .

وأخيراً وصل الى باريس وسار الى منزله «بشارع النصر»

فرأى جوزفين تنتظره فى نافذة غرفتها فما هو أن وقع نظرها على عربته حتى هرعت إليه فتلقاها بين ذراعيه وأخذ يقص عليها أخبار ذلك اليوم المشهود .

وبعد أن تبادلا التهانى على ما هيأ الله لهما من أسباب السعادة قصد نابليون إلى سريره فألقى عليه جسمه المتعب وهو يقول :

« طاب ليلك يا جوزفين ! . . . غدا ننام فى قصر اللوكسمبرج ! »

الفصل الثالث

دستور سنة ١٧٩٩

وقع الانقلاب الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق فى مساء ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ وتقرر فى نفس المساء أن تتشكل لجنتان قوام كل واحدة منهما ٢٥ عضوا ينتخبون من بين أعضاء المجلسين التشريعيين لمعاونة القناصل فى وضع الدستور الجديد.

وفى صبيحة اليوم التالى (١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩) التقى القناصل الثلاثة الموقتون فى قاعة بقصر اللوكسبرج كان من بين أثاثها كرسى فخم عظيم فاتجه اليه نابليون بكل ثبات وقعد فيه . فما كان من « سيايس » إلا أن قال متذمراً .

— أيها السادة ! لمن سيكون هذا الكرسى ؟

فأجابه ديكو :

— « لبونابرت طبعا ! وها هو جالس عليه فعلا ! وانه للرجل الوحيد الذى يستطيع انقاذ الموقف ! »

وهنا تحرك نابليون بدوره قائلا :

— « حسنا أيها السادة . فلنبدأ الآن بالعمل ! »

وكان سيايس صاحب فكرة الدستور الجديد . وكان قد رسم نظامه على أساس ألا تكون السلطة فيه بيد نابليون لأنه يخشى نفوذه ويعرف فيه هذا التهجم الذى لا يترك مجالا لمن معه أن يتقدم عليه . فلما وقعت تلك المشادة البسيطة على كرسى الرياسة . وانهزم فيها سيايس صبر نفسه بأنه سوف ينتقم لها متى جاء دور الكلام فى الدستور ونظامه . فانه كان قد وزع السلطة التنفيذية فيه بين قنصلين جعل لهما السلطة الفعلية فى إدارة شئون البلاد . وعلى رأسهما — « ناخب أعظم » — يتناول مرتبا قدره ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنكا فى السنة . ويقيم فى قصر فرساى ليمثل الدولة تمثيلا سياسيا ويكون له من الملك أبهتـه ومنظره دون أن يكون له شىء من نفوذه وسلطته .

وكان سيايس موقنا فى نفسه بأن نابليون سوف يقبل مركز « الناخب الأعظم » راضيا مسرورا لأنه كان — فى رأيه — مصابا بداء العظمة وحب الظهور . وبذلك تئول السلطة اليه هو وصاحبه الآخر (ديكو) . ولـكنه لم يكن فى الواقع يعرف زميله الـكورسيكى حق المعرفة . فان نابليون

لم يكن يسعى وراء مثل هـــذه المظاهر التى كان يحاول أن يبهره بها سيايس ليلهيه عن السلطة الفعلية . . . وعلى عكس ذلك أتيحت الفرصة لنابليون ليعرف مقدار نفس صاحبه ومبلغ عقليته فيعامله بما يستحق من الزراية والتحقير . وذلك أن سيايس فى نفس ذلك اليوم الذى اجتمع فيه القناصل الثلاثة انتحى بنابليون جانبا ثم أشار له إلى دولاب صغير وقال له :

— « انظر ! أترى ذلك الصندوق ؟ »

فظن نابليون أنه انما يدله على تحفة فنية مما اشتهرت بحيازته واقتنائه تلك القصور العتيقة — وبدأ يفحص الصندوق على هذا الأساس فاستدرك سيايس وقال له :

« انى انما أردت أن أقول لك انى لمـــا كنت فى حكومة الأدارة الماضية رأيت مع زملائى (ومنهم ديكو) أن نستعد للطوارىء حتى لا نترك مناصبنا يوم نتركها ونحن فقراء فملأنا هذا الصندوق ذهبا وهو يحتوى الآن على نحو مليون فرنك . وحيث أن حكومة الأدارة قد آلت الينا فهذا المال لنا نحن ! »

فأدرك نابليون أين تتجه أنظار رفاقه وميولهم وما لبث أن قال :

— « أيها الساده لقد كنتما فى حكومة الادارة فدونكما هذا المال فاقتسماه إذ لا علم لى بأمره . ولئن وصل حديثه إلى سمعى فلن أتردد فى اعادته الى خزينة الدولة . وأنصح لكما أن تنجزا عملكما اليوم . فأن شمس الغد لن تطلع على المال فى هذا الصندوق ! »

وهكذا اختار كل واحد مركزه فى تلك الحكومة المؤقتة وظل نابليون بين زميله أرفع الجماعة نفسا وأليقهم لمنصب الزعامة والحكم .

✡ ✡ ✡

وأخيراً عرض سيابس مشروعه الذى قضى نحو خمس سنوات فى صياغته وتهيئة صورته فما أسرع ما اعترض نابليون على توزيع العمل بين القناصل فيه قائلا .

— « هل تظن أن أقل الناس شأنا يقبل أن ينحط إلى حد قبول منصب كمنصب هذا « الناخب الأعظم » الذى لا عمل له إلا أن يرعى هذه الملايين من الفرنكات ليزداد لحمه وشحمه كما يفعل الخنزير ! »

ولم يكن نصيب بقية المشروع من نابليون إلا مثل هذا الاستخفاف والتشنيع حتى أن سيايس آخر الأمر لم يملك إلا أن ينسحب من تلك الحكومة الموقتة فاستقال واستقال معه زميله ديكو . فأحل نابليون محلهما كامبا سيريس Cambacérès وليبران Lebrun وصرح بأنه سيقوم بنفسه بأعداد مشروع جديد يعرض للاستفتاء العام بعد تهيئته وانجازه .

وبدأ نابليون النظام الجديد بجعل السلطة التنفيذية فى يد قنصل واحد يعاونه زميلان آخران بلقب قنصل أيضا على أن لا يكون لهما من الأمر الا أبداء رأى استشارى فيما يعرضه عليهما القنصل الأول من الشئون . ورشح نفسه هو لمنصب القنصل الأول .

ثم رشح كامباسيريس وليبران لمركزى القنصل الثانى والثالث .

وجعل مدة بقاء القنصل فى مركزه عشر سنوات .

وكان سيايس قد اقترح فى مشروعه أن يجمع الناخبون فى فرنسا (وعددهم نحو ٥,٠٠٠,٠٠٠ ناخب) فينتخبون عشر عددهم لتتألف منهم قائمة الأعيان الأولى أو « القائمة البلدية » . ويقوم هؤلاء بدورهم (وهم ٥٠٠,٠٠٠ ناخب)

بانتخاب عشر عددهم (٥٠,٠٠٠) لتتألف منهم قائمة الأعيان الثانية أو « قائمة المقاطعة » . ثم تستخرج من هذه القائمة هيئة أعيان أصفى من الطبقات السابقة (عددها ٥,٠٠٠) لتتألف منها القائمه الثالثة أو « القائمة الوطنية » . ومن هذه الخمسة الآلاف تنتخب هيئة الحكومة جميعها من تنفيذية وتشريعية وقضائية — فاقتبس نابليون عن سايس هذا النظام حتى يحس الشعب بأنه ممثل فى حكومته أقوى تمثيل فيسبغ عليها ثقته الكاملة الشاملة .

وكانت السلطة التشريعية تتألف فى الدستور الجديد من أربعة مجالس

١) مجلس الدولة — Conseil d'Etat

٢) مجلس الشيوخ — Senat

٣) مجلس الشورى — Tribunat

٤) المجلس التشريعى — Corps Legislatif

فكان مجلس الدولة هو الذى يعاون القنصل الأول فى عمله . وكان فضلا عن ذلك يختص بوضع القوانين . وكان أمر انتخاب أعضائه موكولا الى القنصل الأول وحده .

أما مجلس الشيوخ فكان اختصاصه الاشراف على تنفيذ

الدستور وضمان بقائه . ونفاذ أحكامه . وكان عدد أعضائه ستين عضوا تنتخب الحكومة منهم ٣١ وهؤلاء ينتخبون الأقلية الباقية (٢٩ عضوا) وكان أعضاء هذا المجلس يمتازون على أعضاء المجالس الأخرى بأنهم يظلون فى العضوية طول مدة حياتهم .

وأما مجلس التريبونا فكان يتلقى القوانين من مجلس الدولة ليبحثها ويناقش نصوصها . ثم يرسلها بدوره الى المجلس التشريعى .

وفى المرحلة الأخيرة يحضر مندوبو مجلس الدولة إلى المجلس التشريعى للدفاع عن القوانين ويحضر مندوبو التريبونا لإبداء ملاحظاتهم عليها ويظل أعضاء المجلس التشريعى يستمعون للفريقين فى صمت مطبق ثم يقترعون سراً على رفض القوانين أو إصدارها من غير أن يكون لهم هم حق عرضها أو مناقشتها

ومن ذلك يرى القارىء أن أهم هذه المجالس جميعها هو مجلس الدولة لأنه هو وحده الذى كان له حق وضع القوانين والذى كان من اختصاصه أن يتبعها حتى يصدرها المجلس التشريعى الأخير .

فاذا ذكرنا ذلك وذكرنا معه أن القنصل الأول هو الذى

كان يعين بنفسه أعضاء هذا المجلس عرفنا أى تركيز ركزت به السلطة فى يد نابليون — على أن أوضح صورة تتمثل فيها سلطة القنصل الأول ربما كانت فى المادة ٤١ من ذلك الدستور. واليك مضمونها :

٤١ — القنصل الأول يصدر القوانين — وله الحق المطلق فى تعيين أعضاء مجلس الدولة وعزلهم — والوزراء — والسفراء — وغيرهم من كبار الموظفين فى السلك السياسى الخارجى — وضباط الجيش والبحرية — وموظفى الادارة والقضاء — وهو الذى يعين قضاة المحاكم الجنائية والمدنية — وقضاة المصالحات — وقضاة محكمة النقض . . . الخ . الخ » .

وقد انتهت لجنة الدستور من عملها فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ وصدر الدستور فى ١٥ ديسمبر من تلك السنة . وتحدد لعملية استفتاء الأمة فيه شهر يناير سنة ١٨٠٠ .

وقد أسفرت نتيجة هذا الاستفتاء عن ظهور ١٥٦٢ صوتا ضد المشروع فى حين بلغ عدد الأصوات الموافقة عليه ٣,٠١١,٠٠٧

ولكن نابليون لم يتمهل بعد أن صدر الدستور فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ريثما يتم الاقتراع عليه فى موعده (يناير

سنة ١٨٠٠) بل شرع فى تنفيذه فعلا قبل حلول هذا الموعد بستة أسابيع .

ويقول المعارضون من مؤرخى نابليون أن هذا مضعف لقوة الاجماع الذى أبدته الأمة فى تصويتها العام على هذا النظام . أما المناصرون فأنهم يجعلون هـذا الاجتماع أساسا لشرعية مركز نابليون فى حكم فرنسا حيث أن الأمة نفسها هى التى رفعته إلى مركز السيادة عليها . و يدفعون به كل ما اتهم به من أنه متهجم على ملوك فرنسا الشرعيين غاصب لحقوقهم .

انتهى

الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

القنصلية

من ديسمبر سنة ١٧٩٩ — مايو ١٨٠٤

الباب الأول : فرنسا من سنة ١٨٠٠ — ١٨٠٢
« الثاني : « « سنة ١٨٠٢ — ١٨٠٤

الباب الأول

فرنسا من ١٨٠٠ – ١٨٠٢

الفصل الأول — نابليون فى التويلرى .

« الثانى — السياسة الداخلية .

ا — ثورة لاڤنديه .

ب — النظام المالى .

ح — النظام الأدارى .

ء — القانون .

ه — الكونكوردا .

و — وسام الشرف .

ز — نابليون والمعارضة

« الثالث — السياسة الخارجية .

ا — التحالف الدولى الثانى .

ب — الحملة الأيطالية .

ح — التحالف البحرى الشمالى .

ء — صلح أميان .

ه — نابليون قنصل مدة حياته .



بونابرت ــ القنصل الأول

الفصل الأول

نابليون فى التويلرى

تم الأمر لنابليون فى فرنسا . وأصبح بحكم الدستور الجديد صاحب الكلمة العليا فى كافه شئونها . ورأى أن ينقل إقامته من قصر اللوكسمبرج إلى قصر التويلرى — ذلك القصر الفخم العتيق الذى كان يسكنه لويس السادس عشر ومارى أنتوانت والذى اقتحمه غوغاء باريس غير مرة فى مدة الثورة وعبثوا بكل ما فيه . فأعدت أفخر المعدات لاستقباله فيه وازدان القصر بما لم يزدن به فى عهد ملوك البربون من التحف والزخارف والتماثيل . وخصص الجناح الملكى لسكنى « القنصل الأول » بينما أعدت أجنحة أخرى أقل روعة وفخامة للقنصلين الآخرين . غير أن كامبا سيريس أبى بتاتاً أن يدخل فى ذلك القصر وقد أوضح وجهة نظره فى ذلك إلى زميله ليبران إذ قال له وهو يحاوره :

« نكون مخطئين ياصاحبى إذا نحن قبلنا أن نقيم فى سراى التويلرى ! أنها لا تصلح لى ولا تصلح لك . ولقد أجمعت

رأى على أن لا أذهب شخصياً إلى هناك . فأن الجنرال بونابرت سوف لا يلبث أن يطلب الاقامة فيها وحده وعند ذلك يكون لا مفر لنا من الانسحاب . فخير لنا أن لا نذهب أصلا ! » .

ولكن نابليون لم يكن همه أن يصل إلى ما وصل اليه ليسعد بوجاهة المنصب وينعم بترف الاقامة فى التويلرى . ثم يلوى كشحه عن ذلك الشعب الفرنسى الفقير المضنى وعن أسواقه الكاسدة وخزائنه الخاوية . وأنظمته الفاسدة البالية بل كان كل همه أن يحقق آمال ذلك الشعب فيه فينتشله من تلك الأخطار الخارجية التى كانت تحدق به .

وسنخصص الفصل التالى للكلام على إصلاحات نابليون وسياسته الداخلية . ثم نعقب عليه بفصل آخر للكلام على حروب القنصلية وسياسة القنصل الأول الخارجية .

الفصل الثانى

السياسة الداخلية

١٠ – ثورة لافنده :

لم تكن قد انتهت قلاقل الحزب الملكى بعد عند ما آلت إلى نابليون رياسة القنصلية . بل كان زعماؤه لايزالون منبثين فى أنحاء فرنسا يحاولون استنهاض الناس ضد هذا الحكم الجديد واعادة المياه إلى مجاريها الأولى . وكانت مقاطعة « لافنده » فى غرب فرنسا مهد هذه القلاقل ومعقل هؤلاء الزعماء . وكانت حكومة الادارة قد أفلست فى التفاهم معهم أو فى التغلب عليهم .

فلما آلت الأمور إلى نابليون أرسل إلى زعماء الملكيين فى تلك المقاطعة يدعوهم إلى زيارته بباريس بعد أن أمنهم على أرواحهم فقبلوا الدعوة وسافروا اليه فلما اجتمع بهم أكد لهم نواياه فى العمل على إنقاذ فرنسا من وهدة الفوضى التى سقطت فيها وأنه جعل فرضاً على نفسه إعادة النظام اليها

وتوفير أسباب السعادة لأهلها ثم قال لهم بلهجته الفعالة المعهودة :

« فان كنتم تحاربون دفاعا عن أنفسكم فقد انتفى السبب الذى من أجله تحاربون لأنى سأتولى بنفسى الدفاع عنكم والمحافظة على حقوقكم . وان كنتم تحاربون لاستعادة العهد القديم فهذا اجماع الأمة أمامكم يحول دون التفكير فى سلوك هذا الطريق العقيم . وهل مما يشرف أقلية محدودة العدد أن تحاول إملاء إرادتها بقوة السلاح على أغلبية الأمة ؟ » .

وقد استطاع نابليون بهذه الكيفية أن يحمل هؤلاء الزعماء على أن يلقوا سلاحهم ويخلدوا إلى السكينة والهدوء . ففعلوا كلهم إلا واحداً منهم هو « جورج كادودال » . فانه كان رجلا عنيداً صلب الرأى لم يقبل أن يضع يده فى يد نابليون . بل طلب السفر من باريس إلى لندن . وهناك اتصل بأقطاب الملكية ودبر معهم تلك المؤامرة الجريئة التى حاول فيها اغتيال حياة نابليون فانتهت بالقبض عليه واعدامه كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد .

ب — النظام المالى :

كان أول ما وجه اليه نابليون التفاته تنظيم جباية الضرائب

حتى لا يبقى مجال النهب القديم مفتوحا للجباة . وحتى يضبط الحساب فلا يدفع الأهالى أكثر مما هو مطلوب منهم ولا يصل إلى خزينة الدولة أقل مما يجمع من الأهالى . وكانت نتيجة ضبط الحساب بهذه الصورة أن زادت الايرادات ١٨٥ مليون فرنكا عما كانت عليه منذ عشر سنوات وعادت الثقة المالية إلى الأسواق فساعد ذلك على تحسن الحالة الاقتصادية وانتعشت بخاصة أسعار الأوراق المالية التى كادت تفقد قيمتها بحكم تزعزع الثقة المالية فى البلاد . وأنشىء « بنك فرنسا » فى أوائل سنة ١٨٠٠ — وهو المصرف الحكومى الذى لا يزال إلى اليوم صاحب الامتياز الوحيد فى إصدار الأوراق المالية وفى حفظ ودائع الدولة وأموالها .

ح — النظام الادارى :

وكان نظام الادارة فى عهد الملوك السابقين نظاما مركزيا مرجعه حكومة باريس . بمعنى أن رجال الأدارة فى الأقاليم لم يكونوا يتصرفون إلا بما توحى به اليهم الادارة المركزية فى باريس . فلما قامت الثورة وسقطت تلك الحكومة وكل أمر الادارة فى الأقاليم الى مجالس محلية تكون لها كل السلطة فى ادارة تلك الأقاليم . وكانت هذه المجالس سر الفوضى التى

استحكمت فى فرنسا خلال الثورة لعدم وجود الرقابة المركزية الكافية عليها . ولفقـــد روح التجانس فى تصرفاتها تبعاً لاختلاف القوانين فى الأقاليم المختلفة .

فلما آلت السلطة إلى المؤتمر الوطنى كان النظام الأدارى الفرنسى يكاد يكون معدوما وكان المؤتمر يستعين بمندوبين يبعثهم من قبله لتنفيذ طلباته فى الأقاليم كلما دعت الحالة إلى ذلك . وأخيراً جاء نابليون فركز السلطة الأدارية كلها فى يده فكان هو الذى يعين العمدة كما كان يعين المدير . وكان المدير على رأس المقاطعة هو المنفذ الأعلى لأدارة الوزير المختص والقنصل الأول . وبذلك سرت روح الحكومة المركزية فى الأقاليم وأحس الناس للمرة الأولى بعـد عهد ملوك فرنسا العظام بنعمة السكينة والأمن وحسن النظام .

د — القانون

وكان لا بد لضمان النظـام فى فرنسا من قانون شامل ينطبق فى كافة أنحائها بدل مجموعة القوانين المختلفة الناقصة التى ظل يشكو منها أهل فرنسا عشرات السنين . وقد حدثت فى عهد الثورة الفرنسية محاولات كثيرة فى هذا السبيل . وتألفت

لجان من مشاهير رجال القانون لتحقيق هذه الغاية ولكنها انتهت كلها بوضع بحوث فى القانون . وجمع بعض الأحوال والعادات المرعية التى كانت نافذة فى معظم جهات فرنسا فى ذلك العهد .

فلما ولى الأمر نابليون شكل لجنتين من كبار المشرعين وعهد إليهما وضع القانون الذى اشتهر فيما بعد باسم « قانون نابليون » : وقد روجع هذا القانون بعـــد ذلك ثم عرض مشروعه على « مجلس الدولة » وتم إصداره والعمل به فى سنة ١٨٠٤ — وكان نابليون يشرف بنفسه على اجتماعات المجلس عند البحث فيه وعلى الرغم من بساطة معلوماته فى القانون فأنه كان يبدى من الملاحظات العملية ما رفع قيمة هذا القانون حتى أنه عاش إلى يومنا هذا فى فرنسا وفى غيرها من الدول الكثيرة التى أخذته بنصه أو التى نسجت على منواله فى صياغة قوانينها . وذلك بالنسبة لما امتاز به من الوضوح وما يسود نصوصه وأحكامه من روح العدل والأنصاف . ففى بلچيكا مثلا اقتبست الحكومة هذا القانون بنصه وما تزال تتعامل بمقتضاه . أما فى هولندا وايطاليا والبرتقال واسبانيا وجمهوريات جنوب أمريكا — وفى مصر نفسها — فقد كان

هذا القانون مرجع الفقهاء الذين كلفوا بالتشريع لتلك البلاد (١) . وقد جاء بعد هذا القانون المدنى — قانون المرافعات (الصادر فى سنة ١٨٠٦) — ثم القانون التجارى (سنة ١٨٠٧)

---

(١) وقد ذكر المتحاملون على نابليون أنه لم يكن صاحب فكرة وضع هذا القانون فلا فضل له فيه . وأن القانون نفسه ليس فيه ما يدعو إلى كل هذا التفاخر به فهو ناقص فى عدة مواضع إذ لم يذكر مثلا أى شىء عن نظام شركات التأمين ولم يحتو على شىء من التشريع الخاص بالعمال وغير ذلك . ويعجب الأنسان عند ما يسمع هذا الكلام من أناس محترمين لهم مكانتهم العلمية إذ أن نابليون لم يكن يستطيع أن يخترق حجب الغيب ليرى من ورائها ما سيستحدث من النظم فيعالجه فى قانونه مقدما . ثم إنه على الرغم من كونه لم يبتكر فكرة عمل القانون فهو على الأقل صاحب الفضل فى إنجازه وفى انتهاز الفرصة المناسبة لأخراجه واقامته على مبدأ التسامح والأنصاف واغفال كل ما أحدثته الثورة من النظم المتطرفة العارضة التى كان يراد إدماجها فيه فخرج القانون لذلك وهو أوضح وأنجح محاولة تشريعية تكفل للملكية الفردية كل قوتها . وللرابطة العائلية كل قدسيتها . ويحسبك أن تعلم أن مشرعى الثورة كانوا باسم الحرية يرون أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير الثوب فقضى نابليون على أمثال هذا المذهب واكتفى بتقرير حق الطلاق المدنى للزوج والزوجة على حد سواء . وبث فى قانونه عدة مبادىء أخرى كمبدأ إطاعة المرأة للرجل ومبدأ سلطة الوالد على أولاده وغير ذلك مما كان له أحسن الأثر فى ضبط المجتمع الفرنسى وتقوية مركز الأسرة فيه بعد أن كادت مبادىء الثورة تجمح به إلى نوع من الفوضى الاجتماعية لم تكن تجدى معها سعة الفتوح ولا كثرة الانتصارات .

ثم قانون تحقيق الجنايات (١٨٠٩) — وأخيراً قانون العقوبات (١٨١٠) .

هـ — الكونكوردا «Le Concordat» أو « الاتفاقية الدينية » :

وكان الناس منذ أيام الثورة الأولى قد قاموا على أشراف فرنسا ورجال الدين فيها فقتلوهم حيث وجدوهم بسبب ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات التى أثقلت كاهل الشعب وملأت قلبه كراهية لهم وحقدا عليهم . واكتسحوا فى غضبهم على رجال الدين نفس الديانة المسيحية فهدموا معظم الكنائس وأذابوا أجراسها وصبوا نحاسها وحديدها مدافع تنفعهم فى ميدان القتال . وأغراهم بهدم الدين ورجاله ما وراء ذلك من مغانم الكنيسة وأموالها . ولم يبق على عهد الله فى كل فرنسا إلا أسر قليلة حافظت على ايمانها وصمدت لتلك المحن التى طمست على بصائر اخوانهم حتى قيض الله لهم نابليون وجعل على يديه انقاذهم مما كانوا فيه من فوضى الأخلاق والعقائد — أما نابليون فانه كان يرى أن الدين للدولة بمثابة الروح للجسد وكان كثيرا ما يقول :

« كيف يتوفر النظام فى الدولة من غير الدين — ان المجتمع لا يكون من غير تلك الفوارق البينة فى حظوظ الناس . وهذه الفوارق لا بقاء لها إلا فى ظل الدين . إن المعدم الفقير الذى يموت جوعا بجوار من أتخمته كثرة الطعام لا يمكنه الرضا بهذه الحال والسكوت عليها إلا فى ظل سلطة تقول له — « هكذا أراد الله ! » — ولا بد من وجود الغنى والفقير فى هذه الدنيا أما فى الآخرة فسيكون توزيع الحظوظ على أساس آخر يحقق عدل الله ويعوض البائس والمحروم . »

وكان نابليون من جانب آخر يحب أن تعود الى فرنسا تلك العناصر المحافظة التى فرت منها فى خلال الثورة ليحارب بها العناصر المتطرفة اليعقوبية التى كان يمقتها ويسخط عليها بسبب نزعاتها الهدامة ففتح الباب على مصراعيه أمام المهاجرين الذين يريدون العودة الى بلادهم على شريطة أن يقسموا يمين الولاء للدستور الجديد . فأقبل هؤلاء المهاجرون من أطراف أوربا زرافات يتلهفون شوقا إلى أوطانهم ونسوا فى نشوتهم كل ما كان بينهم وبين رجال الثورة من أحقاد . وانخرطوا فى سلك ذلك المجتمع الجديد الذى كان يدأب نابليون فى خلقه خلقا مكينا على تلك الانقاض الفاسدة التى

خلفتها الثورة . وشرع إلى جانب ذلك يفاوض البابا على إعادة المسيحية لفرنسا . وتم الاتفاق أخيراً (فى سنة ١٨٠١) على اعلان الكاثوليكية « دينا للغالبية فى فرنسا » . وأصبح القنصل الأول صاحب الحق فى تعيين القسس على أن يكون للبابا حق تقليدهم وظائفهم الدينية وتولت الدولة دفع مرتبات ضخمة لرجال الدين فى نظير أن يتنازل البابا عن كل حق يدعيه فى أملاك الكنيسة التى استولت عليها الأمة فى عهد الثورة .

على أنه لا بد من الأشارة هنا إلا أن نابليون لم يعمل على اعادة المسيحية إلى فرنسا ولاء منه للبابا أو حبا منه فى الكاثوليكية فأنه قد نفى ذلك بنفسه إذ قال لبعض رفاقه وقد خرج معه ذات ليلة للتنزه فى الهواء الطلق وسط الحدائق والحقول .

« كنت هنا فى يوم الأحد الماضى أسير وحدى والطبيعة ساكنة فقرعت أذنى فجأة صلصلة ناقوس كنيسة رويل Ruel[1] فحركت شجنى والانسان أسير عادته وتربيته الأولى

---

(١) كانت لاتزال بفرنسا بعض الكنائس عقب الثورة . وكان يدير هذه الكنائس قسس تدفع لهم انجلترا مرتباتهم إذ لم تعترف بهم حكومة

فقلت فى نفسى ما أروع هـذا الصوت فى نفوس المتدينين !
لعمرى كيف يعلل فلاسفتكم وذوو الرأى فيكم هذه الظاهرة . .
قد يقولون إنى كاثوليكى ولـكنى لست شيئاً من هـذا . فلقد
كنت مسلماً فى مصر وسأكون كاثوليكيا هنا جرياً وراء مصلحة
الأمة . فأنى لا أعتقد فى الأديان — ولـكنى أعتقد فى فكرة
وجود الله » . ثم أشار بيـده إلى السماء قائلا : « الذى خلق
كل هذه الأشياء ! »

و) وسام فرقة الشرف « Legion d'honneur »

كانت الثورة قد قضت على كافة الامتيازات . وجعلت
« المساواة » شعار أهل فرنسا جميعاً . إذ لا يجب أن يكون بين
سكانها شريف ووضيع . وأمير وحقير . وكونت ومسيو .
ولـكن يجب أن يقف الجميع فى صف واحد وأن يجمع بين
مختلف أفرادهم لقب واحد هو لقب «مواطن» : فالرئيس —
« حضرة المواطن الرئيس » — والمرءوس كذلك « حضرة
المواطن المرءوس ! »

فرنسا . وكان من غايات نابليون فى الاتفاق مع البابا القضاء على نفوذ هؤلاء
القسس حتى لا يكون لانجلترا إصبع فى شئون الفرنسيين تحركه فتثير به الشعب
فى أنحاء البلاد .

ولكن نابليون رأى أن ذلك سوف يقتل فى نفوس الشعب روح الحماسة التى تثيرها المنافسة ويزكيها التفاضل . فود لو أنشأ نظاما يكون من شأنه أن يميز المجيد المتفوق فى عمله على غيره من عامة الدهماء ليكون فى ذلك جزاء المجتهد على إجتهاده واستنهاض لهمم غيره من القاعدين . فابتكر لذلك فكرة وسام أسماه « وسام فرقة الشرف » .

ولكن هذه الفرقة لقيت فى بادىء الأمر معارضة عنيفة من أعضاء المجلس فحمل عليها بعضهم قائلا إنها تذهب بمبدأ المساواة الذى اتخذته الدولة شعاراً لها فقال نابليون :

« إن الدول المجاورة لنا تمنح ألقابها وأوسمتها لمن شرف مولده فتعتدى بذلك على مبدأ المساواة ولكنى سوف لا أمنح هذا الوسام إلا لمن شرف عمله فأكون بذلك قد وضعت الحق فى نصابه . وسيكون الوسام فوق ذلك شخصياً يحمله صاحبه حال حياته ولا يرثه أبناؤه بعد وفاته . »

واعترض آخرون قائلين أن الأوسمة ليست إلا صغائر لاقيمة لها ! فكان جواب نابليون : « نعم أنها صغائر . ولكن هذه الصغائر هى التى تسلس قياد الرجال . وتخلق الزعماء والأبطال ! إن هذه الشارات تستعمل فى كل البلاد . فلتستعمل

كذلك فى فرنسا حتى تكون على الأقل عاملا جديداً يقرب ما بين هذه البلاد وبقية دول أوربا ! »

واقترح آخرون أن يكون هذا الوسام مقصوراً على رجال الجيش فقال نابليون : « بل هذا هو الذى لا يجب أن يكون . فالكفايات كلها أخوة . وشجاعة رئيس المؤتمر فى مواجهته للغوغاء هى نفس شجاعة كليبر فى اقتحامه أسوار حصن عكا . على أن هؤلاء الجنود ليسوا إلا فرقة مقاتلة أما الجيش الحقيقى فهو الأمة ! فليكن تكريمنا للنبوغ فى ذاته ولنمجد كل من استحق التمجيد بعمله وحسن صفاته ! »

ز) نابليون والمعارضة :

بعد أن آلت السلطة إلى يد نابليون كان رأسه هو الأداة الوحيدة التى تفكر لكل فرنسا . وعن هذا الرأس وحده صدرت كل تلك الاصلاحات الداخلية التى تناولناها فى الصفحات السابقة والتى جنت فرنسا من ورائها أطيب الثمرات . ولقد كان نابليون على جانب عظيم من الثقة برأسه هذا حتى أنه كان كلما اختلف مع أحد رجال حكومته فى رأى من الآراء قرع رأسه بكفه قائلا : إن هذا الرأس لأداة أنفع لى من

كل من يحيط بى ممن يدعون الدربة ووفرة التجارب ! »

وكان طبيعيا على من يحس من نفسه هذا الاحساس أن لا يطيق المعارضة أيا كانت صورتها . وعلى لسان أى كان من أهل فرنسا . وكانت سياسة نابليون الداخلية التى اعتزم أن يسير عليها هى أن يسلك بفرنسا طريقاً وسطاً لا هو طريق الملكية ولا هو طريق اليعقوبية . فكان طبيعياً أيضاً أن يعاديه الفريقان . إذ كان كل واحد منهما يمنى نفسه بأن يشايعه نابليون فتتحقق بمعاونته آماله وأحلامه . فلما رأوه يجانبهما معاً ويسير فى طريقه الخاصة اندفعوا يعترضون هذا الطريق واندفع هو يطارد الفريقين بطرقه المعهودة حتى لم يبق لواحد منهما على ظهر فرنسا ظل .

وكانت الصحافة أول ما التجأ اليه المعارضون . فكان أول ما أجاب به نابليون على هذه المعارضة أن أصدر فى ١٧ يناير سنة ١٨٠٠ أمراً قنصلياً بتعطيل جميع الصحف السياسية ما عدا ١٣ صحيفة كانت تنطق بلسان الحكومة وتدافع عن سياستها . وكان نابليون يحرر بعضها شخصياً . ولعل أروع نضال وقع فى هذا المضمار ذلك الذى حدث بين نابليون « ومدام دى ستايل » « Madame de Staël » — من أشهر وأنبغ من أنجبت

فرنسا من الكاتبات وزعيمة الداعين والداعيات إلى الحرية في عصر نابليون فأنها بعد أن قضت ردحا من الزمن تعجب ببسالة نابليون وعبقريته وتمجد نبوغه وبطولته انقلبت عليه فجأة بعد إعلان نظام القنصلية وبعد أن تبينت (أن «استبداد الحرية» الذى عم فرنسا فى عهد الأرهاب لم ينته على يد نابليون إلا ليحل محله استبداد آخر هو « استبداد النظام ») فأصبحت لذلك فى مقدمة المناوئين له والمعترضين على سياسته . وكان لمدام دى ستايل من المنزلة فى كل فرنسا ما جعل نابليون يهتم بها اهتماما خاصا دون معارضيه . وتصادف أن أخرجت مدام دى ستايل رواية ملأتها غمزاً وتلميحاً وتهكما على نابليون وعلى حكمه . فلم يطق نابليون بعد ذلك صبراً . وكانت مدام دى ستايل إذ ذاك فى سويسرا فأرسل اليها من يبلغها أن عودتها الى باريس أمراً غير مرغوب فيه . وكأنما استفزها هذا التصرف من جانب نابليون إلى تحديه بالعودة السريعة إلى فرنسا . فما هو أن حلت بمنزلها ونما علم ذلك إلى نابليون حتى صمم على إبعادها عن فرنسا . فبعث إليها رسولا ضابطاً لبقاً مهذباً أختير خاصة للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه ولمرافقتها إلى الحدود . وقام الضابط فعلا بمهمته خير قيام

فكان كثير المجاملة لها . وساعدها بكل لطف فى تحضير لوازم السفر ثم جلس معها فى العربة وكان من تلطفه معها أن ظل يحدثها عن مؤلفاتها ويبدى لها إعجابه بكتاباتها . فأجابته والدموع تترقرق من عينيها :

— « واأســـفاه ياسيدى ! أنظر إلى أين يؤدى بالمرأة ذكاؤها وأدبها ! »

ومنـذ تلك اللحظة بدأت الحرب عواناً بين مدام دى ستايل ونابليون حتى أصبح مقرها فى سويسرا ندوة النـاقمين عليه وعلى حكمه غير أن نابليون لم يضن عليها بأرصاده وعيونه حتى يحصر نارهم فى مكانها لتأكل نفسها دون أن تتصل بمـا يجاورها . ولقـد بلغ من تضييق نابليون على غريمته أنه كان يتصدى كل من يعلم أنه على أدنى اتصال بهـا . ومن ثم أخذ يهجرها أصحابها خوفا على أنفسهم . فلم تر المسكينة أمامها إلا أن تلجأ إلى الروسيا (سنة ١٨١٢) وهى إذ ذاك الدولة الوحيدة التى كانت غير خاضـعة لنفوذ نابليون فى القارة الأوربية . واتصلت هنـاك بالقيصر وبغيره من خصوم نابليون الذين لم يجدوا لأنفسهم منجاة من سطوته إلا فى ساحات بطرسبرج وأقامت بينهم حيناً من الدهر تتعزى بصحبتهم وتأتنس بميولهم

نحو خصمها غير أنها ما لبثت أن خامرها شىء من الندم بعد أن سقط نابليون ودخل الحلفاء باريس لأنها أنما كانت تحارب نابليون طلباً لحرية فرنسا ولكنها أدركت شيئاً فشيئاً أن أعداء نابليون الذين عاشت بينهم كانوا فى الوقت نفسه أعداء فرنسا وطنها العزيز وأنها بمساعدتهم فى مناوأة نابليون ومحاربته إنما كانت تسعى لاضعاف فرنسا وإذلالها .

ولم يكن أمام المعارضة بعد أن كمت أفواه الصحافة فى فرنسا إلا سلوك إحدى طريقين . فأما المعارضة بالطريق القانونى بمقاومة سلطة القنصل فى الهيئة التشريعية . وإما المعارضة بطريق المؤامرات .

غير أن عناصر المعارضة ما كادت تلوح لنابليون فى الهيئة التشريعية حتى عمل على التخلص منها فورا . وذلك أن جماعة من الأعضاء كان من المقرر سقوطهم كل عام واستبدال غيرهم بهم ولم يكن فى الدستور ما ينص على طريقة اخراج اؤلئك الأعضاء فأراد نابليون أن ينتفع من هذا النقص فى التشريع للتخلص من معارضيه وذلك بأن يجعل لمجلس الشيوخ الحق فى تعيين الأعضاء الذين تسقط عضويتهم كل عام وهكذا بدأت « عملية التطهير » ووقع فى الفخ القانونى رجال المعارضة

الذين أراد نابليون أن لا يقفوا باعتراضاتهم فى سبيل تنفيذ سياسته .

بقى من طرق المعارضة كلها طريق المؤامرات وكان ذلك أخطر الطرق بطبيعته لأنه لم يكن يعمل على ابداء رأى مخالف أو تفنيد خطة موضوعة ولكنه يعمل على اغتيال حياة نابليون والخلاص منه جملة واحدة . وقد واجه نابليون فى هذا السبيل أخطارا كثيرة كان ينجو فى كل واحد منها بأعجوبة تشهد بأن الأجل المكتوب لا يستطيع الناس أن يستقدموه ساعة أو يستأخروه . وكانت وسيلة نابليون فى مقاومة هذا الخطر المحدق به أن يستكثر حوله من الجواسيس لتسقط الأخبار ومراقبة المعارضين حتى لقد تضخمت فى عهد دكتاتوريته وزارة البوليس واصبح لها من بين وزاراته أعظم شأن ، وقد وفق إلى رجل داهية (هو الوزير فوشيه Fouché) بارع فى أساليب التلصص والتجسس فقلده هذه الوزارة ونجح هذا الرجل بفضل يقظته وسعة حيلته فى تصيد هؤلاء المتآمرين زُمَراً زُمَراً على حدود فرنسا الشرقية وشواطئها الشمالية حيث كان يبعث بهم المعسكر الدائم المقيم فى لندرة .

ولعل أخطر المؤامرات شأناً تلك التى قام بها الملكيون بزعامة « جورج كادودال » لأعادة « كونت دارتوا » إلى عرش فرنسا بعد قتل القنصل الأول . ولما كان تاريخ هذه المؤامرة يرجع الى سنة ١٨٠٤ فأننا سنعود للكلام عليها فى موضعها من الباب التالى .

الفصل الثالث

السياسة الخارجيــــة

١ — تمهيد : (التحالف الدولى الثانى)

ذكرنا فى الفصل الأول من الباب الرابع من الكتاب الثانى أن ثورة قامت فى روما ضد البابا . وأن بعض الضباط الفرنسيين قتل فى خلالها . وكان هذا سببا فى تدخل فرنسا . فسار جيشها إلى روما ولما امتنع البابا عن النزول عن عرشه ألقى القبض عليه وحمل إلى فرنسا حيث قضى نحبه فى العام التالى ثم أقيمت فى روما جمهورية على نسق الجمهورية الفرنسية عملا بمبدأ « الديركتوار » القاضى بنشر النظام الجمهورى والمبادىء الديمقراطية فى طول أوربا وعرضها .

وذكرنا أيضا أن ثورة أخرى قامت فى سويسرا انتهت بما انتهت إليه ثورة روما من تحويل حكومة سويسرا إلى جمهورية على طراز الجمهورية الفرنسية .

وذكرنا أن هذا التوسع من جانب حكومة فرنسا لم ترتح

إليه الدول الأوربية وكان سببا فى قيام انجلترا بتأليف حلف جديد من :

١) الروسيا — لتدخل فرنسا فى شئون الشرق وانتزاعها مالطة من يد الفرسان الذين كانوا فى حماية القيصر .

٢) تركيا — لدخول فرنسا فى مصر والشام .

٣) النمسا — لأنها كانت موتورة من فرنسا بسبب الحروب الماضية .

٤) ناپولى — لتدخل فرنسا فى ولايات البابا المتاخمة لها .

وكان على عرش ناپولى فى سنة ١٧٩٨ ملك يدعى فردناند الرابع وملكة تدعى كارولين . وكانت كارولين هذه أخت مارى أنتوانت التى قامت الثورة فى فرنسا بسببها إلى حد كبير والتى أكلتها الثورة فيما أكلت من ضحاياها العديدين . فما هو أن دخلت ناپولى فى الحلف الجديد حتى تحركت عاطفة الانتقام الكامنة فى صدر كارولين وأخذت تلح على زوجها فى أن يكون أول المهاجمين لفرنسا . وشجعها على ذلك وصول نلسون أميرال البحر الانجليزى إلى ناپولى فى ذلك الحين عائدا من مصر بعد انتصاره الباهر فى خليج أبى قير . وقد نجحت فعلا فى تسيير جيش من ناپولى إلى روما تراجعت أمامه

الحامية الفرنسية هناك فى بادىء الأمر ولكنها لم تلبث أن كرت على النابوليين فردتهم على أعقابهم وعم الفزع أهل نابولى عموما حتى أن الأسرة المالكة بما فيها كارولين وفردناند بادر أفرادها بالفرار إلى مراكب نلسون الراسية فى مياههم . ولم يحل شهر يناير من سنة ١٧٩٩ حتى كانت حكومة نابولى قد استحالت إلى جمهورية وحتى كانت الجيوش الفرنسية قد أفلحت فى اسقاط ملكى سردينيا وتسكانيا عن عرشيهما واحتلت بلادهما . واتسعت بذلك دائرة النفوذ الفرنسى فى إيطاليا .

بيد أن هذا النصر كان كل ما صادفته فرنسا من التوفيق فى هذه الحرب الواسعة التى شنتها عليها دول أوربا . بل قل إن هـذا النصر نفسه كان سبب نكبة فرنسا فى تلك الحرب إذ استطالت به حدودها فأصبحت تمتد من هولندا شمالا الى أقصى إيطاليا جنوبا واستهدفت بذلك الى هجمات العدو المؤتلف الذى كان يحشر جيوشه اليها من أطراف أوربا .

وأخيراً وصل الجيش النمسوى الى الميدان وأفلح قائده (الارشيدوق شارل) فى كسر بعض الجيوش الفرنسية وحمل بعضها على التقهقر (مارس سـنة ١٧٩٩) . ووصل الجيش

الروسى أيضاً وأبلى قائده سواروف Suwarow أحسن بلاء فى مطاردة الجيوش الفرنسية من شمال إيطاليا وفى ايقاع الهزيمة فى صفوفهم المرة بعد المرة (أبريل سنة ١٧٩٩) . فأخليت معظم قلاع لمبارديا وما بقى منها فى أيدى الفرنسيين كان تحت الحصار .

ونشطت حكومة (الديركتوار) فسيرت جيشا جديدا لتخليص ايطاليا من براثن أعدائها وعقدت لواء هذا الجيش لقائد نابه من قوادها الموفقين وهو القائد Joubert الذى لم تلوث سمعته الحربية بعد هزيمة واحدة . فسار جوبير للقاء سواروف والتقى به فى نوفى (أغسطس سنة ١٧٩٩) وأسفرت المعركة التى دامت ثلاثة أيام عن فلول الجيش الفرنسى تهيم على وجهها فى سهول ايطاليا بعد أن خلفت قائدها جثة هامدة فوق ميدان القتال .

وهكذا أفلتت إيطاليا من قبضة فرنسا وتسلل فرديناند وكارولين ومن معهما من مراكب نلسون عائدين إلى نابولى فدخلوها واستووا على عرشها وعلى الرغم من تصريحهم الرسمى بأصدار عفو شامل عن كل من مالأ الفرنسيين من رعاياهم فقد ألقى القبض على نحو ثلاثة آلاف وطنى من نجا منهم

من عقوبة الأعدام لم ينج من عقوبة النفى . وبذلك نهض الدليل على أن بعض الملوك فى ثورتهم ليسوا أكظم غيظا ولا أعف انتقاما من نظرائهم اليعقوبيين .

أصيبت فرنسا بكل تلك الضربات ونكل بأنصارها والمنتمين اليها كل هذا التنكيل ولم يجد الشعب الفرنسى أمامه من يحمله المسئولية فى كل ما حدث إلا رجال الديركتوار فعم الاستياء منهم واشتد السخط على حكومتهم . وتحت تأثير هذا الشعور العام دبر سيايس مشروعه لقلب نظام الحكم . وكان يطمع فى بادىء الأمر أن يستند إلى ذراع الجنرال جوبير فى إحداث ذلك الانقلاب . فلما قتل جوبير فى نوفى لم ير سيايس ندحة عن التربص ريثما يقع اختياره على رجل غيره من رجال السيف الذين لا بد من معاونتهم فى إحداث الانقلاب .

وأخيراً وصل نابليون من مصر على الصورة التى وصفناها (اكتوبر سنة ١٧٩٩) وكان ما كان من اتصاله بسيايس وتوليه هو قلب الحكومة (فى نوفبر سنة ١٧٩٩) واستيلائه بعد ذلك على مقاليدها .

وكانت ظروف فرنسا الحربية قد بدأت تتحسن قبيل

وصول نابليون فان جيوشها التى تراجعت (بقيادة جوردان) فى شمال سويسرا أمام الأرشيدوق شارل النمسوى — فى مارس سنة ١٧٩٩ .

والتى تقهقرت (بقيادة شيرو ثم مورو) فى شمال إيطاليا أمام سواروف الروسى — فى ابريل سنة ١٧٩٩ .

والتى انهزمت (وقتل قائدها جوبير) فى نوفى أمام سواروف أيضاً — فى أغسطس سنة ١٧٩٩ .

قد عادت فتقدمت (تحت قيادة ماسينا) فى زوريخ بسويسرا وانتصرت انتصاراً باهراً على كل من الجيوش النمسوية والروسية — فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ .

وكذلك وفقت جيوشها (بقيادة برون) إلى طرد الجيش الانجليزى والروسى من هولندا — فى اكتوبر سنة ١٧٩٩

وترتب على هزيمة الروسيا فى زوريخ وفى هولندا أنها سحبت جيوشها من كافة الميادين ثم انسحبت هى نفسها من التحالف .

فأنت ترى من هذا البيان كيف أن نابليون لم يجد أمامه من هذا التحالف فى الواقع عند عودته الى أوربا إلا النمسا

وانجلترا لأن بقية الحلفاء (تركيا والبرتغال) لم يكونوا قد اشتركوا فعليا فى هذه الحرب .

وكان هو يود لو أتيح له أن ينصرف بكليته لتنظيم فرنسا والنهوض بأعباء الشعب وحاجاته والسير به فى طريق الأصلاح الذى رسمه له . والذى كانت البلاد فى أشد الحاجة اليه بعد أن ضعضعتها سنى الثورة وقعدت بها ويلات الحروب الداخلية . فلم ير خيرا من أن يناشد هاتين الدولتين أن تضعا اسلحتهما وتعيدا إلى أوروبا عامة وإلى فرنسا خاصة عهد السلام والهدوء الذى حرمتاه منذ سنين . وكانت طريقة التفاهم التى ارتأى نابليون أن يسلكها مع الدولتين هى أن يتوجه بالدعوة رأسا الى عاهل كل واحدة منهما .

فألى ملك الانجليز كتبت الرسالة الآتية :

« أرى ياصاحب الجلالة وأنا مقبل على منصبى الجديد الذى رفعتنى اليه رغبة الشعب الفرنسى أن أتقدم بنفسى الى جلالتكم بهذه الدعوة . فهل يجب أن تظل دائرة الى الأبد رحى هذه الحرب التى طحنت أوربا هذه السنين الأربعة الأخيرة ؟ وهل انعدمت كل وسيلة فى سبيل التفاهم ؟ إنى لأعجب كيف أن أكبر دولتين مستنيرتين فى أوروبا تضحيان

فى سبيل مظاهر العظمة الجوفاء برخاء بلادهما ورفاهية شعبيهما وراحة العائلات فيهما وهنائها ! وكيف انهما لا تحسان بأن السلام هو أول ماتحتاج الشعوب اليه وأول ما يسعى الأبطال فى الحصول عليه . ان هـذه العواطف لا يمكن يا صاحب الجلالة أن تكون غريبة عن قلبكم الذى يحكم شعبا حرا ولا غاية له الا توفير أسباب السعادة له . . . »

وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه نابليون هذا الكتاب إلى ملك الانجليز بعث بكتاب آخر من نوعه إلى امبراطور النمسا قال له فيه :

« لقد عدت إلى أوربا بعد أن غبت عنها ١٨ شهرا فوجدت حربا قائمة بين الجمهورية الفرنسية وبين جلالتكم . ولما كانت مظاهر العظمة الباطلة لاوزن لها عندى فان أول ما أرغب فيه أن أحقن هـذه الدماء التى توشك أن تراق . ولست أرى فيما حولى الا جيوشا جرارة ستضاعف عدد الضحايا الذين سقطوا فى الميدان بعد استئناف القتال على أن ما أعلمه علم اليقين عن خلق جلالتكم ليدلنى على ماهو مستتر فى قلبكم من الميول والرغبات . فلو انكم لبيتم نداء هذه الميول فانى أرى الطريق فسيحا أمام إمكان التوفيق بين الأمتين ».

ولم تجب النمسا على هذه الدعوة بأكثر من أنها لا تستطيع أن تتفاوض فى شأن الصلح الا بالاشتراك مع حليفتها انجلترا أما انجلترا فكان ردها أن الطريق الوحيد الذى تستطيع فرنسا أن تثبت به صدق رغبتها فى الصلح إنما هو إعادة أسرة بوربون إلى عرشها .

ولم يكن أبلغ ايلاما لنفوس الفرنسيين من ذلك الذى عرضته عليهم انجلترا لما ينطوى عليه ردها من روح التحكم فى شئونهم الداخلية وأراد نابليون أن يستغل هذا الرد لتقوية دعوته فى وجوب القضاء على انجلترا حتى تستقر الجمهورية فى فرنسا فنشر على النـــاس صور هذه المكاتبات ليفضح بها نوايا خصومه ثم أخذ يعد عدته للنزول إلى ميدان القتال من جديد .

ب — الحملة الايطالية الثانية :

كانت الروسيا قد دخلت فى « التحالف الثانى » على أساس العمل المشترك لكسر فرنسا . ولكن تبين لها أثناء القتال أن النمسا تريد أن تسير الحرب لحسابها الخاص فكل ما كان يؤدى إلى اعادة نفوذها فى ايطاليا فهى توافق عليه ..

وكل ما تجاوز ذلك تعترضه وتقف فى سبيله . فلما انقض سواروف الروسى على الجيوش الفرنسية فى شمالى ايطاليا وأجلاهم عنها تركته النمسا يتصرف بملء حريته حتى إذا ما انتهى من هذا العمل وأراد أن يتجاوز حدود ايطاليا لغزو فرنسا نفسها دفعت النمسا غيرتها منه الى أن تعترض طريقه وتصدر تعليماتها إليه بأن يرتد إلى سويسرا لنجدة زميله الذى كان يتقهقر أمام ماسينا الفرنسى بجوار زوريخ .

وعبر الرجل جبال الألب عند أشق مرتفعاتها وأوعرها حتى إذا بلغ سويسرا وجد أن ماسينا قد قضى بالفعل على جيش زميله (كورساكوف) ولم يعد فى ذلك الميدان مجال للقتال فعاد خائبا ولاقى فى اجتياز جبال الألب عند عودته أهول وأقسى مما لاقى فى عبورها عند ذهابه وداخله الشك فى حسن نوايا النمسويين واخلاصهم فى التعاون معه فتخلى عن جيشه . وعاد إلى بلاده ممتعضا من تصرف حلفائه . وكان انسحابه من القتال سببا فى انسحاب القيصر نفسه من التحالف كما سبق لنا البيان .

وخلا الجو للنمسا — فجهزت جيشين عظيمين سيرت أحدهما بقيادة ميلاس Melas إلى جنوا حيث كان ماسينا

Massèna (الفرنسى) ودفعت الآخر بقيادة كراى Kray إلى حدود نهر الرين لملاقاة جيش مورو .

أما نابليون فانه قد رسم خطته كما يأتى :

— يسير مورو من فرنسا فيعبر نهر الرين ثم يواجه جيش كراى ويضطره إلى التراجع على أن لا يتجاوز فى مطاردته ألم Ulm .

— ويبقى ماسينا عنـــد جنوا يدافع عنها النمساويين ما استطاع ليشغل جيشهم عن التفكير فى الانضمام إلى جيش كراى .

— وقرر نابليون أن ينقض هو (على رأس جيش ثالث) على مؤخرة جيش كراى وجناحه الأيسر ريثما يكون هـذا مشغولا بمواجهة مورو وبذلك ينقطع خط الرجعـة على النمساويين وينفتح الطريق إلى فينا فيملى على أمبراطورها شروط الصلح .

غير أن عوامل شخصية[١] بين مورو ونابليون جعلت

---

(١) كانت مدام مورو تغار من جوزفين غيرة قاتلة لأن جوزفين كانت السيدة الأولى فى فرنسا بحكم اتصالها بنابليون فى حين أن مورو لم يكن يقل كفاءة فى نظر زوجته على الأقل عن نابليون وكان الواجب فى نظرها أيضا

نابليون يعدل عن هذه الخطة فى آخر لحظة وينقل ميدان القتال من النمسا إلى إيطاليا .

وكان سر نجاح هذه الخطة فى أن النمسا لم تكن تعرف هى ولا غيرها أكثر من أن فرنسا أعدت جيشين اثنين أحدهما يسير لمقابلة كراى فى المانيا والآخر يسير لمقابلة ميلاس فى إيطاليا . أما جيش نابليون الثالث فقد احتفظ هو بسرية معداته حتى يفاجىء به العدو وتأتى الضربة الأخيرة فى هذه الحملة على يديه . على أن أخباراً تسربت إلى الخارج عن وجود هذا الجيش وكونه بجوار حدود فرنسا الشرقية فلم يهتم بهذه الأخبار أحد وحملها الجميع على محمل الاشاعات الكثيرة التى تتواتر فى مثل تلك الأوقات العصيبة .

وساعد ذلك نابليون على تنفيذ خطته بحذافيرها فتقدم مورو (٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠) وطارد كراى حتى بلغ مدينة أولم Ulm وهنا انتظر حتى تأتيه تعليمات جديدة .

وبقى ماسنيا يدافع النمساويين فى شمال إيطاليا زمانا ولكنه

أن يكون المكان الأول فى فرنسا لزوجها ولها بدلا من أن تكون لنابليون وجوزفين . وكانت هذه التيارات التحتانيه الخطرة سببا فى المناقشة الحادة التى قامت بين الرجلين والتى أدت فى آخر الأمر الى خروج مورو على نابليون واشتراكه مع المتآمرين على حياته .

اضطر أخيرا إلى الاحتماء فى مدينة جنوا (٦ ابريل سنة ١٨٠٠) حيث حوصر وشدد عليه النمسايون الحصار شهرين متتابعين (أبريل — يونيه) حتى نفدت مئونته ومئونة الأهالى معه فكانوا فى آخر الأمر لا يعفون عن أكل الكلاب بل كانوا يتقاتلون فيما بينهم على دود الأرض والجراد.

وأخيراً تحرك نابليون فبلغ مدينة جنيف فى ٩ مايو ثم سار حتى بلغ ممر سانت برنار العظيم فى جبال الألب (فى ١٥ مايو) فعبره بجيشه فى سبعة أيام وانقض منه على سهول ايطاليا الشمالية فقطع الطريق على ميلاس ثم تقدم نحوه ولكنه بلغ من استهتاره بقوة خصمه أنه وزع جيشه ذات اليمين وذات الشمال ليملك الطريق على النمساويين إذا ما شرعوا فى الفرار. فكان هذا سبباً فى أنه لقى ميلاس بجيش لا يبلغ ٢٥ ألف مقاتل فى حين كان يربو تعداد الجيوش النمساوية هناك على ثمانين ألف. والتحم الجيشان فى سهول مارنجو عند مطلع فجر ١٤ يونيه وانهزم الفرنسيون بسرعة تحت ضغط أعدائهم الكثيف حتى أن ميلاس ارتد إلى خيمته حوالى الظهر ليملى نشرة اليوم يعلن فيها انتصاره على الفرنسيين. ولكن فرقة من الفرق الفرنسية التى كانت بعيدة عنه عادت فى هذه اللحظة

بقيادة ديزيه على صوت القنابل القريبة وانضمت إلى القوة الفرنسية فعززت موقعها . وفوجىء بها النمسويون فدب الرعب فى قلوبهم وحسبوا أنهم وقعوا فى فخ نصبه لهم نابليون . وهكذا انقلبت الهزيمة إلى صفوفهم ووقع منهم فى هذه المعركة ستة آلاف قتيل وثمانية الآف أسير وغنم الفرنسيون غنائم كثيرة لم ير ميلاس بعدها بدآ من إخلاء شمال إيطاليا كله والارتداد بما بقى معه من فلول جيشه إلى النمسا ليشير على حكومته بعقد الهدنة والمفاوضة فى شروط الصلح .

أما نابليون فأنه بادر بالعودة إلى باريس يحمل معه أنباء معركة مارنجو ليقضى بها على آمال الجمهوريين الذين بدأت تقوى معارضتهم له بسبب استئثاره بالسلطة ولم يكن بالفعل أجدى على نابليون ولا أنفع له من نصر باهر كنصر مارنجو يثبت به أقدام قنصليته ويلقم به خصوم حكومته حجرا كبيرا يمنعهم بعده من الكلام .

على أن النمسا وإن كانت قد تخلت عن شمال إيطاليا بعد مارنجو فأنها رأت جيوشها الألمانية بقيادة كراى ماتزال قوية عزيزة فى بادن . وأن حليفتها انجلترا ما زالت الى جانبها تغريها باستمرار القتال . وأن معركة مارنجو على مالها من الأهمية

لا ينبغي أن تعتبر معركة حاسمة في هذا النزاع الحيوي. فاستانفت جهادها ضد مورو في أعالي نهر الطونة لعلها تغطي بانتصاراتها الألمانيـة هزيمتها الايطالية. ولكن مورو لم يكد يطلق يده في خصومه ويؤذن له بنزالهم ومتابعة بلائه فيهم حتى اشتبك معهم في هوهنلدن (٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠) وضربهم الضربة القاضية التي كانت بمثـابة صدى قوي لصدمة مارنجو — عند ذلك علمت النمسا أن لا سبيل لها إلى المقاومة وأن لا مفر لها من الاستلام. فقبلت شروط صلح لونفيل (٩ فبراير سـنة ١٨٠١) الذي جاء مؤيداً لأحكام معاهدة كامبوفورميو والذي كررت فيه النمسا اعترافها بجمهوريات شمال ايطاليا والتزامها بالتخلي عن بعض الأراضي الألمانية لفرنسا.

م — التحالف البحري الشمالي

والآن لم يبق من دول التحالف الدولي إلا انجلترا وحدها[1].

---

(١) ولكن لم يكن معنى ذلك أن العبء خف قليلا عن عاتق نابليون فأن انجلترا لم تكن تكتفي بوجه أكشف وعمل صريح تلقاه بهم في ساحات الحروب. بل ذهبت في عدائها معـه إلى أبعد حد فلم تترك وسيلة للقضاء

ورأى نابليون أنه على الرغم من انفراده بهـا فهو ما يزال عاجزا عن منازلتها لاحتمائها وراء الماء وأنه لا بد له قبل

عليه إلا اتبعتها وتجلت قدرتها فى تطبيق مبدئها المشهور وهو : « الغاية تبرر الواسطة » على تلك السياسة العنيدة التى سلكتها مع نابليون . فكانت مدينة لندن مهد الدسائس التى تدبر لاغتيال حياة هذا المنافس الخطر والعدو اللدود . وكانت باريس مسرح تلك الدسائس وقد تمكن البوليس من ضبط المتآمرين فى عدة حوادث ولـكن ذلك لم يكن ليحول دون مضى المدبرين فى تدبيراتهم الشريرة وحدث فى (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠) أن خرج نابليون إلى دار الأوبرا . وما كاد يقترب موكبه من ميدانها حتى وقع دوى عنيف سمعته كل باريس وزلزلت له جدران بيوتها وانخلعت منه قلوب سامعيه . فعم الذعر وانقلب ذلك النظام البديع الذى كان يسير فيه موكب القنصل الأول إلى فوضى شنيعة اختلط فيها الحابل بالنابل . ثم عاد السكون وانقشع ذلك الاضطراب عن ثمانية قتلى ونحو ستين جريحا مات منهم عشرون بعد قليل . . . . أما نابليون فلعل طول ممارسته للقنابل والمفرقعات قد اكسب قلبه نوعا من الصمم يجعله فى مأمن من التأثر بأصواتها وأهوالها . فأنه سار رأسا الى الأوبرا ودخل فى مقصورته آمنا هادئا ووافته فيها بعد قليل من الزمن زوجته جوزفين لأنها كانت قادمة فى عربة أخرى غير عربته فما هو أن رآها حتى قال : « لقد حاول الأغبياء نسفى — أين بروجرام الحفلة ؟ » ولن يفوتك ما بين هاتين العبارتين من « شبه كمال الانفصال ! » الذى يدلك على مبلغ وقع هذا الحادث فى نفسه وتأثيره على أعصابه .

وحامت الشبهات عند التحقيق حول اليعقوبيين الذين كانوا قد راجت عن ناديهم اشاعات كثيرة مؤداها أنهم يعملون ليل نهار على قلب نظام الحكومة واغتيال حيـاة القنصل الأول لتعود السلطة الى أيديهم كما كانت فى عهد

أن يفكر فى تصفية حسابه معها من جمع دول أوربا البحرية فى حلف عليها . وكان على الروسيا ملك اسمه بولس الأول وهو الذى كان فى التحالف الدولى الثانى ثم انسحب منه بسبب سوء تصرف النمسا معه ومع جيوشه . وكانت انجلترا تدعى لنفسها حق تفتيش كافة المراكب التى تقصد فرنسا لتمنع وصول السلاح اليها فكان هذا موضع احتجاج مستمر من دول أوربا البحرية ولا سيما الروسيا وانتهز نابليون فرصة خروج القيصر على التحالف الثانى وأراد أن يكسبه الى صفه فزين له فكرة تكوين تحالف بحرى من بروسيا والدنمرك والسويد على أن تتولى الروسيا رياسته وتكون الغاية من تكوينه مقاومة هذا الحق الغريب الذى تدعيه انجلترا لنفسها . فراقت هذه الفكرة لدى القيصر وعمل على تنفيذها فعلا (ديسمبر سنة ١٨٠٠) وزاد نابليون على هذا

الارهاب . فاستغل نابليون هذا الاعتداء للتخلص دفعة واحدة من هؤلاء الغرماء الدمويين فأوحى الى مجلس الدولة بأن يصدر قراراً « بوجوب اتخاذ اجراءات خاصة ضد المتآمرين » وكانت هذه الاجراءات هى نفى زعماء اليعاقبة كلهم من فرنسا (وكان عددهم نحو ١٣٠ زعيم) فسيق بعضهم الى المستعمرات الاستوائية ونقل آخرون الى جزائر خليج بسكاى . وتعرف هذه المؤامرة « بمؤامرة نيفوز » ونيفوز يقابل شهر ديسمبر فى التقويم الذى أنشأه رجال الثورة .

التحالف أن دخل فى مفاوضات مع نابلى واسبانيا أساسها منع البضائع الانجليزية من دخول بلادهما ووقعت معاهدات فى هذا المعنى بين الفريقين . وبدأت جهود التحالف باستيلاء الدانمرقة على البضائع الانجليزية فى موانى بحر بلطيق واحتلال بروسيا لمقاطعة هانوفر التى كانت تابعة للتاج البريطانى (أبريل سنة ١٨٠١) — وهكذا خيل إلى نابليون أنه ائتمر أحسن ائتمار بعدوته الباقية . وأنها لا شك متردية فى تلك الشبكة الواسعة التى نصبها لها .

على أن خيطاً واحداً تصرم من هذه الشبكة فتفككت بسببه بقية الخيوط وبرزت انجلترا مرة أخرى فى وجهه حرة طليقة اليدين . وذلك أن بولس الأول وجد مقتولا فى قصره (مارس سنة ١٨٠١) فولى عرش الروسيا من بعده ولده اسكندر الأول الذى نقض سياسة أبيه وتخلى عن هذا التحالف البحرى الذى كانت دعامته روسيا فانهار بتخليه ذلك البنيان الفخم وانهارت آمال نابليون فى القضاء على انجلترا عن هذا الطريق حتى لقد قال وهو يشير إلى مبلغ تشككه فى الصلة بين مقتل القيصر ومكائد الانجليز :

« لئن أخطأنى الانجليز فى نيڤوز فقد أصابونى فى بطرسبرج » !

ء — صلح اميان [٢٧ مارس سنة ١٨٠٢]

فشل إذن هذا التحالف البحرى . ولكن انجلترا كانت لا تزال تشعر بأنها فى حاجة ماسة إلى الصلح لأن أهلها كانت قد ساءت أحوالهم وفدحتهم كثرة الضرائب حتى أصبح ١٤ ٪ منهم لا مرتزق لهم غير الاستجداء . ولم يكن يحول دون توقيع الصلح فى ذلك الوقت بين الفريقين إلا القتال على مصر .

وكانت الجيوش الفرنسية ما تزال مقيمة فى وادى النيل منذ سنة ١٧٩٩ — ولكن الجنرال كليبر الذى عهد اليه أمر الحملة المصرية بعد رحيل نابليون قتل غيلة فى حديقة منزله بجوار بركة الأزبكية . وقام من بعده الجنرال مينو الذى كان أخيب من أنجبت الثورة من القواد .

وكانت انجلترا لا يقر لها قرار وهى ترى الجنود الفرنسية فى مصر تهدد سلامة امبراطوريتها فى الشرق فكانت دائبة فى العمل على إخراجهم منها بأى ثمن .

وفى أوائل سنة ١٨٠١ سارت حملة جديدة بقيادة سير رالف أبز كرومبى « Sir Ralph Abercromby » انهزم أمامها مينو عند الاسكندرية ثم اضطر إلى التسليم .

وسقطت وزارة پت « Pitt » فى انجلترا (فبراير سنة ١٨٠١) وجاءت بعدها وزارة « أدنجتون » وهو فى ضعفه واستسلامه على نقيض پت فى ثباته وعناده . ورأى نابليون فى هذا التغيير الجوهرى ما يغرى بطرق باب الصلح من جديد . واستجابت الحكومة الانجليزية فى هذه المرة لدعوته بل إنها اندفعت نحو الصلح فى لهفة وعجلة ما زال يذكرهما إلى اليوم مؤرخو الانجليز مع الأسف الشديد . إذ قد ضاع عليها بسبب هذا التلهف وبسبب رغبتها الشديدة فى خروج الفرنسيين من مصر شىء كثير من الجهود الجبارة التى بذلتها البحرية الانجليزية طول مدة هذه الحرب وانتهت مفاوضات الصلح التى بدأت فى أكتوبر سنة ١٨٠١ بمعاهدة أميان التى وقعت فى سنة ١٨٠٢ (٢٧ مارس) وبمقتضاها تقرر أن :

١) تغادر الجيوش الفرنسية بلاد مصر .

٢) ترد بريطانيا لفرنسا مستعمراتها التى استولت عليها خلال الحرب .

٣) ترد إلى هولاندا كافة مستعمراتها التى استولت عليها (ما عدا جزيرة سيلان)

٤) ترد جزيرة مالطا إلى فرسانها الذين كانوا يحكمونها قبل مسير الحملة الفرنسية على مصر .

٥) ينزل ملك انجلترا عن لقب « ملك فرنسا » الذى كان يتلقب به ملوك الأنجليز منذ عهد ادوارد الثالث .

٦) تحتفظ انجلترا من كل فتوحاتها بجزيرة ترنداد (الاسبانية) فى جنوب أمريكا وجزيرة سيلان (الهولندية) فى جنوب الهند .

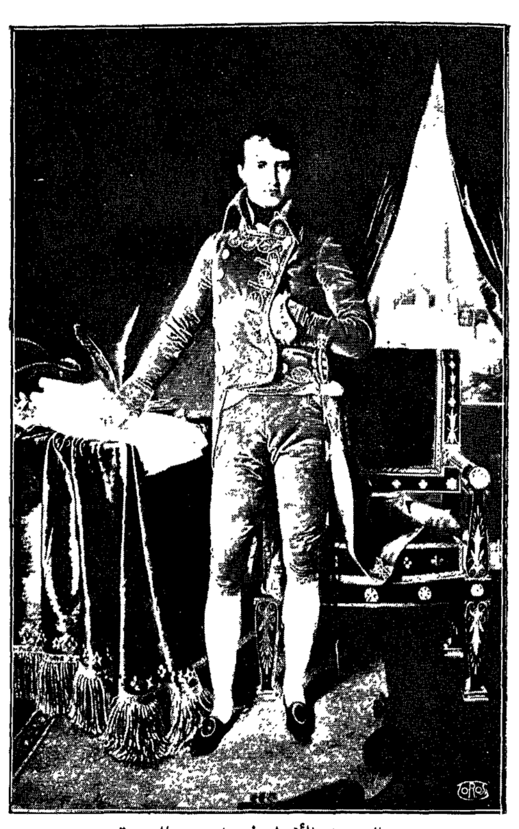
وعلى قدر سخط الناس فى انجلترا على المفاوض الانجليزى الذى سلم فى كل هذه الشئون كان رضا الفرنسيين عن المفاوض الفرنسى وكان تمجيدهم على الأخص لنابليون الذى عاد إلى فرنسا قبل ذلك بعامين اثنين وهى فقيرة طاوية مهددة خائفة يحيط بها أعداؤها كما تحيط الذئاب الكاسرة بالفريسة الضعيفة الخائرة . فدفع عنها غائلة الفقر والحيف وأطعمها من جوع وآمنها من خوف .

هـ) نابليون قنصل لمدة حياته :

ازاء ما لقيته فرنسا على يد نابليون من الخير العميم . وأزاء ما أصبحت تتقلب فيه من نعمة السلام الشامل بعد معاهدة لونفيل (سنة ١٨٠١) والكونكوردا (سنة ١٨٠١ أيضاً) وصلح أميان (سنة ١٨٠٢) . وأزاء ما حصلت عليه من المفاخر والمغانم بفضل سلسلة هذه المعاهدات الميمونة . رأى مجلس الشيوخ فى فرنسا أن يعبر باسم الأمة عن اعترافه بجميل نابليون على الشعب الفرنسى بأن اقترح إطالة مدة بقائه فى مركزه عشر سنوات أخرى خلاف العشرة التى قدرها دستور القنصلية .

ولكن نابليون كان فى الواقع أوسع اطماعا من أن يقبل هذا الغرض الضيق الضئيل الذى تقدم به اليه مجلس الشيوخ وطلب إحالة الموضوع على الأمة لابداء رأيها فيه بطريق الاستفتاء العام . غير أنه جعل موضوع الاستفتاء فى صورة أخرى وهى :

« هل يكون نابليون بونابرت قنصلاً أولا طول حياته » ؟ فجرى التصويت على ذلك وأسفرت النتيجة عن الموافقة عليه



القنصل الأول فى ملابسه الرسمية

بأغلبية ساحقة تشبه فى قوتها تلك الأغلبية التى تقرر بها نظام القنصلية نفسه . ومنذ تلك اللحظة جد نابليون فى إدخال بعض تعديلات جوهرية على دستور القنصلية يوطد بها مركزه الجديد فراح يستصدر القرار بعد القرار بتوسيع دائرة اختصاصه حتى انتهى به الأمر إلى أن حصل على قرار يخوله حق تعيين خلف له على فرنسا (أغسطس سنة ١٨٠٢)

ولقد حدث بعد ذلك بسنتين أن حصل نابليون على لقب « امبراطور » (ديسمبر سنة ١٨٠٤) ولكنه فى الواقع استحق هذا اللقب بالفعل منذ أغسطس سنة ١٨٠٢ .

الباب الثانى

فرنسا من سنة ١٨٠٢ — ١٨٠٤

الفصل الأول : انجلترا تعلن الحرب من جديد

» الثانى : التعبئة

» الثالث : المؤامرة الكبرى

» الرابع : نابليون الأول — امبراطور فرنسا وملك ايطاليا .

الفصل الأول

انجلترا تعلن الحرب من جديد

بعد صلح أميان كان نابليون قد بلغ بفرنسا منزلة تجعل من مصلحته أن يعيش فى سلام مع جيرانه. فقد كان ما يزال فى الثلاثين من عمره تقريبا وتحت قدميه من الملك ما لم يتفق للويس الرابع عشر نفسه فى أوج عظمته. فى الشمال كانت فرنسا تطوى تحت أحد جناحيها هولندا وبلجيكا. وفى الجنوب كانت تبسط جناحها الآخر على كل إيطاليا تقريبا وكان أعيان الأيطاليين قد تقدموا اليه فى يناير سنة ١٨٠٢ يلتمسون منه قبول رياسة الجمهورية الألبية فقبلها منهم وأطلق على تلك الجمهورية منذ ذلك التاريخ اسم « الجمهورية الأيطالية ».

وفى أغسطس سنة ١٨٠٢ استولى على جزيرة البا. إذ رأى أن انجلترا ما تزال محتفظة بجزيرة مالطا على الرغم مما ورد فى شروط صلح أميان من وجوب إخلائها والجلاء عنها.

وفى فبراير سنة ١٨٠٣ حدث نزاع خطير فى سويسرا

تدخل من أجله نابليون . وانتهى تدخله بأن غير نظام حكومتها الداخلية فترك لأعيان البلاد حكومة الأقاليم واحتفظ لنفسه برياسة الحكومة المركزية .

حدث هذا وانجلترا بالمرصاد تنظر وتصر على أسنانها كيف أن هذا الرجل يعمل على توسيع ملكه فى الحرب وفى السلم على السواء . والى أين ينتهى بهذا المنافس توسعه . وماذا يكون من أمر الأمبراطورية البريطانية إذا تركت هذا السرطان ينتشر فى أوربا كما يفعل الآن رويدا رويدا ولكن بكل ثبات واضطراد . أفلا يخشى على نفس الجزائر البريطانية من سريانه الذريع ؟ بلى ! والحكمة السياسية السكسونية تقضى بوجوب اجراء العملية حالا لاجتناب هذا التضخم الخبيث من أصوله قبل أن يمتد إليها هى نفسها فيزدردها لقمة واحدة فى فمه الواسع المنهوم !

وكانت انجلترا قد عينت لها سفيرا فى باريس عقب صلح أميان هو لورد وتورث « Lord Whitworth » فبالغ نابليون فى الحفاوة به وأوعز إلى حكومته بتكريمه ورعايته حيثما حل أو رحل وهو يبغى من وراء ذلك إلى « نيل الحظوة لدى السيدة بملاطفة هرتها » فكانت تقام له الولائم وتوضع اللادى

قرينته موضع التعزيز والاحترام فى كل حفل فوق سائر زميلاتها السفيرات — على أن كل هذا الترتيب لم يكبح من جماح « بلاط سانت جيمس » الذى أصر على وجوب الاحتفاظ بجزيرة مالطا . وغالى إلى حد أن طلب من نابليون إخلاء هولندا . لأن الأنجليز لم يكونوا يفهمون إلا شيئاً واحدا وهو أن « نابليون خطر » . ولا بد لدفع هذا الخطر من اخلاء الفرنسيين لهولندا المواجهة للشواطىء الأنجليزية كما أنه لا بد للتحصن من هذا الخطر أن تبقى مالطا فى يد الاسطول الانجليزى لتكون قاعدة حربية له يستخدمها فى دفع كل ما يتهدد سلامة الامبراطورية فى الشرق .

ولقد ذهلت انجلترا أيضاً فى خوفها من نابليون وعدائها له عما كان يقوم به أنصار البربون من الدعاية الخطرة التى كانت تقوم بها صحائفهم ضد نابليون . وبخاصة ما كان ينشره صحفى بربونى اسمه بلتيه (Peltier) فان هذا الرجل كان نهاش أعراض بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الصحافة فملأ الدنيا بمفترياته على نابليون وعلى زوجة نابليون وعلى أخوات نابليون ولم يترك نقيصة إلا رماهم بها . ولا رذيلة إلا ألصقها بصفاتهم . وكان ذلك يؤلم نابليون إيلاماً شديداً وهو العليم

بأثر هـذه المطاعن فى تلويث شخصه وتشويه سمعته على ما هو عليه من الحاجة الشديدة إلى الاحتفاظ بنقاء اسمه وطهر سيرته . وذلك طبعاً بحكم عصاميته وحكم مركزه الاستثنائى بين كافة ملوك أوربا — فكان يلحف فى طلب وقف أمثال هذا الصحفى عند حدهم ولـكن الحكومة الانجليزية لم تكن تجيبه فى كل مرة إلا جواباً واحداً وهو : « أن الصحافة فى انجلترا حرة » . فتضيف بذلك تعريضاً جديداً به وبسياسته الداخلية فوق ما كان يشكوه من التعريضات الأخرى .

وأخيراً رأى نابليون أن لا بد له من استدعاء اللورد وتورث والافضاء اليـــه بحديث حاسم قاطع مانع فى شأن العلاقات الفرنسية الانجليزية لأنه لم يعـد يطيق الصبر على مسلك انجلترا معه .

وفى مساء ١٨ فبراير سـنة ١٨٠٣ دخل عليه اللورد فى غرفته الخاصة بسراى التويلرى وكان فى وسط الغرفة مائدة طويلة فأشار عليه بالجلوس فى أحد طرفيها . وجلس هو تجاهه فى الطرف الآخر ثم شرع يحدثه عن اهتمامه بما سيبسط له من الآراء والأفكار مما حدا به إلى تحديد هـذا الموعد الشخصى دون الالتجاء فى ذلك الى وزير خارجيتـه أو إلى

سفيره فى لندن حتى يكون المجال أفسح وأرحب لعرض تلك الآراء وحتى يضمن تبليغها على صورتها الحية الحارة إلى مسامع الحكومة البريطانية فى لندن .

وبعد أن سرد عليه كل ما جرى بينه وبين الحكومة البريطانية منذ البداية إلى تلك اللحظة من عرض الصلح عليها عقب انتخابه لرياسة الحكومة القنصلية مباشرة ورفض بريطانيا له — إلى دخوله فى مفاوضات للصلح عقب كل نصر يحرزه فى ميدان القتال — الى تساهله مع المفاوض الانجليزى الذى كان يفاوضه على شروط صلح أميان الى غير ذلك — قال له :

« ولكنى أرى جهودى فى سبيل التصافى مع انجلترا غير شافعة ولا نافعة . فان الصحافة البريطانية تنفث السم فى وجهى وصحافة المهاجرين الفرنسيين يسمح لها بمهاجمتى فى حدود لا يبيحها الدستور البريطانى . وهذه المرتبات والاعانات تصرف للمتآمرين على حياتى . وبالجملة لا تهب علينا ريح من انجلترا الا سموم قوامها البغى والعدوان وأصبحنا الآن فى موقف لا بد لنا فيه من تحديد موقفنا . فهل تنوون تنفيذ معاهدة أميان أم لا تنوون ؟ — أما عن نفسى فقد نفذت

شروطها بكل أمانة ودقة وإخلاص . لقد حتمت على هـذه المعاهدة أن أخلى ناپولى وولايات البابا فى مدى ثلاثة شهور . فأخليتها وجلوت عنهـا ولما تنقضى الشهور الثلاثة المحددة . وها قد مرت عشرة شهور على الأجل الذى حددته المعاهدة والجنود البريطانية ما تزال تحتل مالطا ومدينة الاسكندرية . ولست أرى أية فائدة من محاولة خداعى فى هذا الموضوع فخبرونى أى الأمرين تريدون : الصلح أم الحرب ؟ أما إن كنتم ترغبون فى الحرب فلا أتطلب منكم أكثر من التصريح بذلك . وعنـد ذلك أشب عليكم نارها غير آسف ولا نادم . وأما إن كنتم تسعون إلى السـلام فلا بد من إخلاء مالطة والاسكندرية .

وان كنتم فى ريب من حسن نيتى فى طلب الصلح فاستمعوا واحكموا لأنفسكم عن مبلغ إخلاصى فى هـذا العرض . إننى على الرغم من حداثة سنى قد بلغت من القوة وبعد الصيت ما لا مطمع معه فى المزيد . فهل تتصورون أننى أميل الى المجازفة بهذه القوة وبهذا الصيت فى مثل تلك المعركة الهادمة التى لا بد منهـا إذا ما اشتبكت معكم فى قتال — إننى اذا أردت قتالكم فلا بد لى من عبور هذا المضيق القائم بينى

وبينكم . وربما دفنت فى أعماقه مستقبلى ومجدى وحياتى وأنا أحاول اجتيازه . إن غزو انجلترا يا سيدى اللورد لمجازفة هائلة وشىء عظيم ! فانظر إن كنت وأنا الهانئ القوى الوادع أميل إلى المقامرة بهناءتى وقوتى وسلامى فى سبيل هذه الغزوة واحكم لنفسك إن كنت صادقاً حين أقول إنى أرغب فى الصلح والسلام أم أنا مراوغ غير صادق .

إنه لخير لكم . وخير لى أن نعيش فى حدود معاهداتنا . فيجب أن تخلوا جزيرة مالطا وأن لا تأووا فى بلادكم طالبو حياتى وكونوا إلى مخلصين أضمر لكم فى قلبى كل إخلاص . واذكروا أن أسطولكم إن كان سيد البحر غير منازع فان جيشى سيد البر غير مدافع . وأحرى بنا بدل أن نصطدم فى الحرب أن نوحد جهودنا فى السلم لخير الانسانية ! »

وعلى الرغم من كل هذا الحديث فان انجلترا بقيت على اصرارها فى وجوب الاحتفاظ بمالطا . وعند ذلك اقترح نابليون أن تضع انجلترا الجزيرة فى عهدة قيصر الروسيا ريثما ينتهى الجدل بينهما عليها . فأبت انجلترا أيضاً قبول هذا الاقتراح وأجابت بأنها لا ترى بأسا من الاعتراف بجمهورية إيطاليا التى آلت رياستها إلى نابليون أخيراً إذا هو قبل بقاء

الانجليز فى مالطا عشر سنين ولكن نابليون لم يكن فى سبيل المساومة على رياسة جمهورية ايطاليا فرفض بدوره هذا العرض وسحبت انجلترا سفيرها من باريس وشرعت تستولى على المراكب الفرنسية التى تصادفها فى عرض البحر .

وليس أبدع فى هذا المقام من إيراد ذلك الحوار التصويرى الذى عرضه المؤرخ الانجليزى « يوسف أبوت » فى كتابه نابليون بونابرت ليصور به هـــذا النزاع القائم بين انجلترا ونابليون .

إذ تقول انجلترا : إنك اغتصبت لنفسك عرش البربون

فيجيب نابليون : وقد اغتصب مليككم عرش أسرة ستيوارت

: ولكن القنصل الأول هو رئيس الجمهورية الايطالية .

: وإن ملك الانجليز أيضاً هو رئيس مقاطعة هانوفر .

: لكن جيوشك مرابطة فى سويسرا

: وجنودكم رابضة فوق صخور جبل طارق

: ولكنك رجل بعيد المطامع ترمى إلى إنشاء مستعمرات فى الخارج .

: وإن لكم لعشر مستعمرات فى مقابل كل مستعمرة واحدة لنا .

فتقول انجلترا : نحن نعتقد أنك تريد الاستيلاء على مصر .

ويجيب نابليون : أما أنتم فقد استوليتم فعلا على الهند .

فتثور لهذا الكلام ثائرة انجلترا وتنادى :

« يانلسون ! هات الأسطول . وأنت ياولنجتون ! احمل لواء الجيش . هذا الرجل ينبغى هدمه ! إن أطماعه تهدد حريات العالم . وأنتم أيها المؤرخون الانجليز ! أبلغوا شعوب الأرض إن نابليون الغاصب يسوقه شيطان كبريائه واعتدائه إلى أن يغمر هذه الأرض بالدماء ! »

وهكذا تعلن انجلترا الحرب فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٣ على نابليون الغاصب المتكبر ! وهكذا تبدأ هذه الحرب الشعواء التى استمرت من غير انقطاع مدة عشر سنوات كان نابليون فى خلالها واقفا موقف الدفاع عن نفسه وعن بلاده .

الفصل الثانى

التعبئة

وقعت الحرب ولم يبق أمام نابليون إلا أن يغامر بمستقبله ومجده وحياته فى عبور بحر المانش ومنازلة انجلترا فى عقر دارها بعد أن كانت كل مهاجماته لها فى أشخاص حلفائها .

وكان ينقصه فى ذلك المال — وكانت لفرنسا مستعمرة فى قلب الولايات المتحدة هى مقاطعة لويزيانا فباعها اليها بستين مليون فرنكا وبذلك أنقذها من الضياع المحقق الذى يهددها به الأسطول البريطانى وفى الوقت نفسه استولى على ثمنها ليستعد به للقتال .

ولم يكن أمام انجلترا إلا البحر . فأمعنت فى تضيد المراكب الفرنسية حتى زوارق الصيد لم تعف عن مهاجمتها وأسر رجالها ، واستولت كذلك على كثير من مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار

فأجاب نابليون على هذا التصرف بأن ألقى القبض على كل الانجليز النازلين فى الأراضى الفرنسية

وأمر بأن تغلق الموانى الأوربية الواقعة فى دائرة نفوذه فى وجه المراكب الانجليزية فلا تسمح بتموينها ولا تقبل شيئا من متاجرها ولا تبيح لها بحال من الأحوال الدخول فى مياهها

ثم احتل هانوفر ، ووضع يده على الموانى الشمالية واستولى على أموال التجار الأنجليز

ولكن شيئا من كل هذه الأجراءات لم يكن يعدل ما يحدثه الأسطول البريطانى من الأضرار الجسيمة بالمصالح الفرنسية حيثما سار . فان هذا الأسطول بحكم سيادته فى البحار كان يكيل الضربات المتتالية للموانى الفرنسية المكشوفة له وللمستعمرات الفرنسية البعيدة عن حماية فرنسا وللتجارة الفرنسيه المعرضة لمطاردته ومصادرته .

لذلك لم يكن بد لنابليون من أن يضاعف جهوده فى اتمام معدات الحملة المعدة لغزو انجلترا حتى تقع ضرباته على قلب خصمه مباشرة بدل هذه المناوشات التافهة البعيدة التى لا تؤثر ولا تقدم ولا تؤخر .

وسرعان ما اجتمع له جيش قوامه ثلثمائة الف مقاتل وازدحمت مياه ثغر بولونى Boulogne بألفى نقالة أعدت

لحمل خمسين ومائة الف جندى الى انجلترا مزودين بعشرة آلاف حصان وأربعة آلاف مدفع . وقد تمت كل هـذه المعدات بدقة مدهشة وسرعة هائلة القت الرعب فى قلب الانجليز وهم ما هم من الثبات والصبر على المفاجآت . ولـكن مجرد فـكرة جيش قوامه مائة وخمسين الف جندى مدرب يتولى قيادته نابليون بونابرت على بعد ثلاثين ميلا من شواطىء انجلترا كانت كفيلة بأن ترتعد لهـا فرائص الجبال . ولذلك كنت ترى البرلمان البريطانى فى ذلك الحين على رغم ما اشتهر به من الرزانة والهدوء — يعقد الجلسات العاصفة الهائجة يفتتحها بصيحات الاستغاثة ويختتمها بطلب النجدة من كل قادر على أدائها وأخيراً صدر قرار المجلس بدعوة كل من كانت سنه بين السابعة عشرة والخامسة والخمسين إلى حمل السلاح . فازدحمت بالمجندين ساحات البلاد . وكان الجدد منهم يمارسون تمريناتهم العسكرية كل صباح تحت اشراف المدربين . وكان ملـكهم المسن الهرم جورج الثالث يسير بنفسه ليستعرض هـذه الصفوف وينشر بينها روح الثقة والحماس .

ولم ترالحـكومة البريطانية ازاء هذا الخطر الداهم إلا أن تضاعف جهودها فى معاونة المتآمرين على نابليون عسى أن

يتم الأمر على أيديهم فيكفوها مؤنة القتـال فوضعت تحت تصرفهم أموالهـا ومراكبها . لا تسألهم كيف ينفقون المال ولا أين يذهبون بالسفن . واستعانت بمندوبين من قبلها بثتهم فى هامبورج وفى مونيخ وفى ستتجارت وفى برن وفى غيرها من البلاد المتاخمة لفرنسا وزودتهم بالمال اللازم ليغروا من شاء من المهاجرين الذين كانوا يقيمون فى تلك الجهات ويحومون حول الحدود الفرنسية كيما ينقض على القنصل الأول عند أول فرصة تسنح له ويخلصهم من شره .

ووفق البوليس إلى اكتشاف أكثر من ثلاثين مؤامرة مدبرة لاغتيال « القنصل الأول » فى تلك الناحية . ولـكن نابليون ضاق ذرعا فى آخر الأمر بالتربص لهؤلاء الاشقياء وتصيدهم واحدا بعد واحد واعتزم أن يصدمهم الصدمة القاضية وأن يلقى عليهم كما قال : « درساً قاسياً لا يزول أثره من أذهانهم قبل قليل . »

الفصل الثالث

المؤامرة الكبرى

مهما بلغت أريحية نابليون بالنسبة لجنوده وقواده ومهما بلغت ميوله الحسنة بالنسبة لعامة الشعب . فان عوامل الغيرة وحزازات الصدور كانت تخرج ببعض رجاله عليه . وقد كان نابليون بسبب تلك العوامل وهذه الحزازات هدفا لعدة مؤامرات خطيرة تدبر لاغتياله. فالبربون والأنجليز يرسمون الخطط ثم يستخدمون هؤلاء الساخطين للتنفيذ . ولكنه كان فى كل مرة ينجو من الخطر بل إنه كان يخرج من هذا الخطر أكثر اعتداداً بنفسه وأبلغ ثقة فى حسن طالعه حتى لقد كان كثيراً ما يتمثل بما قاله قيصر لمن معه حينما أشرفت مركبه على الغرق فى عرض البحر : « لا تخافوا فان هذه المركب تحمل قيصراً وتحمل معه طالعه ! »

ولكن الملكيين من أسرة بوربون وأنصارهم الرابضين فى بلاد الانجليز ما كادوا يسمعون بنبأ هذه الحرب الجديدة

التى شنتها عليه انجلترا حتى تضاموا وجمعوا أمرهم من جديد وقرروا فيما بينهم أن يرموه بآخر سهم فى كنانتهم منتهزين فرصة انشغاله بأعداد معدات القتال للقاء الانجليز

وكان فى خدمة الأمراء الملكيين الفرنسيين فى مدينة لندن رجل غليظ مارد هو جورج كادودال الذى سبقت لنا الأشارة إليه فولوه زعامةعصابة قوية أثقلوها بأنواع السلاح المختلفة وزودوا زعيمها بمال وافر كثير واطلقوه على نابليون بغية اقتناصه حيا أو ميتا

وكان برنامج المتآمرين أن يبدأوا عملهم ببث الدعوة فى فرنسا ضد نابليون . وجمع من استطاعوا من الساخطين عليه . والموالين للحزب الملكى حتى إذا تم لهم ذلك انقض كادودال على القنصل الأول فقتله أو اختطفه فى إحدى غدواته أو روحاته . وعند ذلك يقوم أنصار الملكية بثورة فى الداخل بينما يجتاز المهاجرون حدود فرنسا من الخارج . يساعدهم فى ذلك أمثـال بشيجرو Pichegru من القواد المعارضين لنابليون . واتجهت أنظار المتآمرين بهذه المناسبة إلى مورو بطل هوهنلدن ومعبود الشعب الفرنسى بعد نابليون وذلك لما كان بين البطلين من الجفوة والفتور . وقد

بعثوا برسولهم إلى مورو قبل سفر كادودال الى فرنسا يجسون نبضه فصرح مورو بأنه لا يتردد لحظة فى الاشتراك فى أية حركة ترمى الى اسقاط القنصلية ففرح الملكيون وتضاعف اهتمامهم بما كانوا آخذين فيه من الكيد والتآمر وأخيراً تمت الأهبة ولم يبق الا أن يرحل كادودال وعصابته الى فرنسا للتنفيذ .

وفى ليلة مظلمة من ليالى شتاء سنة ١٨٠٤ كان الكابتن (رايت) أحد ضباط البحرية الانجليزية يعبر المانش بمركبه وعلى ظهرها جماعة كادودال حتى إذا بلغ شاطىء نورماندى ألقى بحمولته الخبيثة على صخورها وتركهم يشقون طريقهم إلى باريس . وكان فى وسط ذلك الشاطىء الصخرى فجوة عميقة كان يستعملها المهربون فى إدخال بضائعهم إلى فرنسا . فاتفق كادودال مع أصحابها على أن يمكنوه من دخول فرنسا عن طريقها فى نظير جعل عرضه عليهم . فما هو ان لفظتهم مركب هذا الكابتن رايت حتى تسلقوا الصخر على حبل أعد لهذه الغاية من قبل . وقد بلغ من دقة كادودال واحكام تدبيره انه كان قد أعد جملة أكواخ فى الطريق ما بين تلك البقعة من نورماندى وبين باريس ليأوى اليها كلما دعت

الحال حتى لا يستلفت أنظار أحد اليه ولذلك وصل المتآمرون إلى مدينة النور ودخلوها تحت طي الخفاء بسلام !

وبقى كادودال بعد ذلك شهرين طويلين ينفق المال عن سعة فى نشر الدعوة ضد نابليون وفى اجتذاب الانصار لمشروعه العقيم . فلم يوفق إلى جمع أكثر من ثلاثين شخصاً أغراهم بالانضمام اليه حب ما عنده من المال أكثر مما أغرتهم بذلك كراهتهم لنابليون . ولما ظن الزعماء فى لندن أن قد مر على كادودال الوقت الكافى لجمع الموالين والأنصار أذنوا لبشيجرو وغيره من كبار القواد بالسفر للحاق به حتى تسير المؤامرة خطوتها الثانية وركب بشيجرو وزملاءه العظام حبل المهربين كما ركبه رجال الدفعة الأولى وما زالوا ينسلون من مخبأ لمخبأ حتى اتصلوا بكادودال فى ضواحى باريس.

وفى « البوليفار دى لامادلين » فى احدى الليالى الباردة من شهر يناير سنة ١٨٠٤ كنت ترى فى الظلام شبحين يقترب أحدهما من الآخر فى حذر وتحفظ . وقد ظهرت على كل منهما علائم القلق والاضطراب لأنه لم يسبق لواحد منهما العمل فى الظلام . فقد كان أحدهما « مورو » بطل هوهنلندن الذى مكن فرنسا بانتصاره فى تلك المعركة من إملاء شروط

صلح لونفيل على امبراطور النمسا . وكان الآخر بشيجرو فاتح هولندا فى عهد الثورة الفرنسية وصاحب اليد الطولى على الجمهورية الناشئة بتأبيده لها وتعزيزه لقوتها .

وما كاد يقترب الرجلان ويتبادلان التحية حتى ظهر بينهما كادودال كأنما انشقت عنه الأرض . وكان كادودال بطبيعة الحال مدبر هذا الاجتماع وكان يهمه الوقوف بنفسه على ما سيتفق عليه البطلان . ولكن مورو امتعض لرؤيته ولم يسترح الى أن يكون شريكا لمثله فى أى عمل من الأعمال فانسحب على أن يزوره بشيجرو بعد ذلك فى موعد آخر اتفقا عليه .

والواقع أن سوء تفاهم خطير قد وقع من أول الأمر بين مورو والمتآمرين إذ بينما كان مورو يظن أن رياسة الحكومة بعد سقوط نابلون ستسند اليه كان الملكيون يحسبون أن عداءه لنابليون قد دفع به الى أن يتخلى عن مبادئه الجمهورية لينصر الملكيين على خصمه ومنافسه . غير أن هذا اللبس لم يلبث أن تقشع عند مقابلة بشيجرو له فى منزله . وبذلك انهدم ركن من أكبر أركان المؤامرة وانصرف بشيجرو من عنده وهو ثقيل الروح مزعزع الثقة فى النجاح .

وأخذت أنباء المؤامرة منذ هـذه اللحظة تتسرب الى أسماع نابليون . وقد كان مستر دريك Mr. Drake وزير انجلترا فى بافاريا قد اتصل برجل فرنسى . وتوهم بينه وبين نفسه أنه قد أفلح فى شرائه بالمال ليعمل لحسابه فى التجسس على نابليون والائتمار به مع المؤتمرين . وكان هذا الرجل من جانبه يلعب بأوهام « دريك » ويمنيه الأمانى الحسان ويقوم فى الوقت نفسه بعرض مكاتباته على نابليون شخصياً ويتلقى من نابليون صيغة الردود التى يجب ان يرد بها عليه وتمكن البوليس الفرنسى فى ذلك الوقت أيضاً من القاء القبض على بعض الجواسيس فساقهم الى المحكمة وحكم عليهم بالأعدام فأفشى بعضهم سر مؤامرة كادودال قبل اعدامه وكشف عن كل ما يعلمه من تفصيلاتها فلم ير نابليون بدا من القاء القبض على مورو وهو يعلم أن ضجة ستقوم حول هـذا القبض . وأن أنصار مورو سوف ينسبون ذلك الى ما بينهما من الجفوة والعداء . وقد قام بالفعل فريق من أنصار مورو ينكرون وجود كادودال أصلا فى باريس . ويقولون انهى إلاأوهام القنصل الأول تخلق الدسائس وتصور المؤامرات لكى يستعين بها على التخلص من خصومه ونظرائه . فلم يلق نابليون

بالا لأقوالهم وأخذ يسخر كل ما أتاه الله من قوة فى سبيل كشف القناع عن هذه المكيدة والقاء القبض على بقية المتآمرين .

وظل نابليون بضعة أسابيع يخبط هو ورجاله فى سبيل الوقوف على آثار كادودال وعصابته . ولكن جهودهم كلها ذهبت أدراج الرياح . ومع ذلك فقد بقيت اعترافات المتآمرين الذين يقعون فى أيدى البوليس تترى بأن كادودال ورجاله فى قلب باريس غير أن مقرهم مجهول لا يعرفه منهم أحد لمبالغة ذلك الداهية فى التحفظ والاحتياط . فلم يكن من نابليون الا أن سن قانونا يعاقب بالأعدام كل من يأوى المتآمرين ويعاقب بالسجن ست سنوات كل من يعلم بمقرهم ولا يهدى البوليس اليهم . وأمر فى الوقت نفسه بتشديد المراقبة حول أسوار باريس حتى أن التوابيت كانت لا تتجاوز حدوذ المدينة قبل أن تفتش تفتيشاً دقيقاً خشية أن يكون فيها أحد المتآمرين

وأخيراً استدل البوليس على مقر بشيجرو فباغته ليلا فى مخدعه والى جانبه سيفه ومسدساته ووثب عليه الجنود قبل أن يتمكن من لمس شىء منها فعصبوا يديه وشدوا وثاقه ثم ساقوه الى سجن التامبل حيث اجتمع بمورو ... للمرة الثالثة.

ومنذ ذلك اليوم ساءت أحوال كادودال واضطربت تصرفاته وأخذ يكثر من التنقل ليلا من مكان الى مكان وهو لا يستقر له قرار

وجاءه رجاله فى آخر الأمر يبشرونه بأنهم اهتدوا الى بيت كثير المسارب والمسالك فعول على الانتقال اليه والاستقرار فيه حتى تخف حدة نابليون وجنوده ويأتيه الفرج هو ورجاله من عند الله . ولكن البوليس وقف على أثر بعض أصحابه فترصدوهم ليهتدوا بهم إليه . إلى أن كانت ليلة ٩ مارس سنة ١٨٠٤ إذ نما إلى علم البوليس أن كادودال قرر الخروج من مكمنه ليأوى الى جحره الجديد . ففى تلك الليلة وقفت العربة المعدة لنقله فى زاوية احدى الطرقات التى كان يرقبها البوليس بكل يقظة وانتباه فخرج من الظلام أربعة رجال اندفع أحدهم نحو العربة فصعد اليها وأطلق لجوادها العنان وأدرك البوليس أن ذلك هو جورج كادودال نفسه فاندفعوا فى أثره يصيحون ويصفرون وينادون : «امسكوه ! امسكوه!» وقد نجح أحدهم فى اللحاق بالعربة والتعلق بمؤخرها . وأخيراً أيقن كادودال بأن العربة لم تعد تنفعه فهم بالنزول منها وعند ذلك تقدم رجل البوليس المتعلق بها وأمسك بزمام الحصان

وأقبل زملاؤه من كل فج فأحاطوا بطريدتهم وألقوا القبض عليه بعد أن أطلق عليهم النار فقتل واحد وجرح آخر ولولا أن ابتدره ثالث بضربة هراوة على رأسه لكثرت ضحاياه فى ذلك الظرف العصيب .

ونجح البوليس بعد ذلك فى إلقاء القبض على كثير من أعوانه وتحدد لمحاكمة الجميع يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠٤ .

على أن نابليون لم يقنع بهذه النتيجة التى وصل اليها فى مطاردة غرمائه لأنه لم يكن يرضى أن يصب انتقامه على رأس الهرة ويترك القرد اللعين الذى كان يحرك يدها حراً طليقاً وراءها يعاود عبثه وفساده . ولم يكن همه وهو يتعقب المتآمرين أن يظفر بأمثال بشيجرو ومورو ممن غلبت عليهم عاطفة الغيرة ولا بأمثال كادودال ورجاله من المأجورين عباد المال وإنما كان كل قصده أن يظفر بواحد من أمراء البوربون المتآمرين — الذين يعتبرون بحق رأس هذه الأفعى الخطرة التى كانت تهدد حياته والتى لم يوفق الى القبض على غير ذنبها — ليقتص من الأسرة الملكية فى شخصه وليجعله عبرة يعتبر بها غيره ممن يفكرون فى النيل منه أو التعرض له .

فتحرى عن أمراء تلك الأسرة وعن محل اقامة كل واحد

منهم فعلم أن اثنين منهمـا يقيمان فى لندن وأن اثنين آخرين يقيمان فى وارسو وواحداً يقيم فى إيتنهيم « Ettenheim » بالقرب من استراسبورج على الحدود الفرنسية الشرقية ؛ فانتدب ضابطاً للذهاب سراً الى ايتنهيم ؛ وجمع كل ما يستطيع جمعه من المعلومات عن هذا الأمير ؛ وذهب الضابط وعاد بعد أن أدى مهته وقدم فى العاشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤ تقريراً بملاحظاته كلها الى نابليون وكان من بين الأوراق الموضوعة على مكتب القنصل الأول فى نفس ذلك الصباح اعتراف أفضى به الليلة السابقة أحد المتآمرين من رجال كادودال. فأما التقرير فقد أثبت فيه الضابط أن دوق دنجين Duc d'Enghien كثيراً ما يذهب متخفياً الى ستراسبورج حيث تقيم حبيبته البرنسس دى روهان وأنه يتناول مرتباً من الحكومة البريطانية وأنه على استعداد لحمل السلاح والاشتراك فى غزو فرنسا متى سنحت الفرصة الملائمة. وأما اعتراف السجين فكانت فحواه أن أميراً من أمراء أسرة بوربون كان المدبر الحقيقى لهذه المؤامرة وأنه إن لم يكن قد وصل الى فرنسا فعلا فى ذلك الوقت فأنه سيصل اليها عما قريب. فلم يشك نابليون لحظة فى أن الدوق دنجين لابد أن يكون هو نفس الأمير الذى يشير اليه هذا السجين.

فصدرت الأوامر سريعاً الى كوكبة من الفرسان لتسير الى ايتنهيم وتلقى القبض على الأمير قبل أن يستشعر أحد بقدومها . وقامت تلك الكوكبة فعلا من باريس فى ١٥ مارس سنة ١٨٠٤ وأحاطت بقرية ايتنهيم ليلا ودخل رجالها على الامير فأذا هو فى فراشه فاحتملوه بملابس نومه ووضعوه فى عربة أعدت لنقله وقفلوا به راجعين الى باريس . وذهب واحد منهم بكتاب من نابليون الى أمير مقاطعة بادن يعتذر اليه فيه عن دخول الجنود الفرنسية فى بلاده بغير استئذان سابق نظراً لطبيعة العمل الذى كلف به اؤلئك الجنود فى سبيل المحافظة على سلامة فرنسا وحياة القنصل الأول . ولم يجد الأمير أمامه إلا أن يقبل هذا الاعتذار .

وسيق الدوق إلى المحاكمة بمجرد وصوله إلى قلعة فانسين Vincennes بجوار باريس . وقد أنكر أمام الهيئة أن له أى مساس بالمؤامرة المنسوبة اليه ولكنه اعترف بكبرياء أنه بحكم مولده وأفكاره عدو الحكومة الفرنسية الحاضرة . وأنه كان على تمام الاستعداد لحمل السلاح فى وجهها متى أتيحت له الفرصة اللائقة . فحكم عليه فى تلك الليلة ذاتها بالأعدام رميا بالرصاص وسيق قبيل طلوع الفجر الى ساحة التنفيذ على ضوء المشاعل

فأذا به يرى أمامه صفاً من الأجناد فى انتظار قدومه. فوقف أزاءهم فى هدوء أدهش الحاضرين. وقطع خصلة من شعره ثم أخرج ساعة من جيبه وسلمهما لأحد الضباط بعد أن رجاه أن يلتمس من جوزفين تقديمهما إلى البرنسس دى روهان تذكاراً لحبه لها. ثم أدار وجهه إلى الجنود قائلا :

« أنى أموت فى سبيل ملكى وبلادى ! ».

وأعطيت الاشارة إلى الجنود فأطلقوا بنادقهم وخر الأمير على الارض جثة هامدة فيها سبعة ثقوب !

ويقول خصوم نابليون أن هذا كان أبشع جرم فى سلسلة الجرائم الكثيرة التى ارتكبها الطاغية الكورسيكى. وأن غريزته ونشأته الجبلية قد تكشفت فى هـذا الحادث عن أخبث ما تتكشف عنه الطبائع الشريرة الدموية. وأنه مرضاة لعواطفه السفاحة قد ضحى بأمير ملكى وادع آمن كان كل ذنبه أن أقام بجوار محبوبته فاختطفه اختطافا وقتله أغدر قتلة.

ويقول أنصاره أن مسئوليته فى هذا الحادث تقف عند حد اصدار الأمر بالقبض على الأمير وأن الانصاف يقضى بألقاء أية مسئولية أخرى على عاتق المجلس الذى تولى المحاكمة إذ لم يعلم نابليون بالحكم إلا بعد تنفيذه. لأنه كان

فى تلك الليلة قد أُوقظ مرتين لشئون تافهة فنـام فى آخر الأمر متعباً بعد أن منع حراسه من إيقاظه مرة أخرى . وأن رسولا أرسل اليه بعد ذلك يبلغه ما قضى به المجلس ولكنه اكتفى بتسليم رسالته الى الحراس دون أن يتأكد من اطلاع القنصل عليها فى وقتها وان اولئك الحراس عملا بالأوامر الصادرة اليهم لم يوقظوا نابليون واكتفوا بأن وضعوا له الرسالة بجوار سريره ليطلع عليها فى الصباح . وأنه لما اطلع عليها بعد هبوبه من النوم غضب على الرسول غضبة تليق بمن يهمل اهمالا لا يرجى معه التسامح أو العفو .

وأما ما يقوله نابليون فى هذا الصدد فنوعان من الكلام فهو اذا خلا بأخيه يوسف مثلا قال له : أنى أؤكد لك ياأخى أنى لم أكن أنوى لهذا الأمير المنكود الا كل خير . لقد كان عزمى بعد محاكمته أن أكسبه الى صفى بالعفو عنه . وياله من منظر جميل أن ترى بين ياوران أخيك أميرا من سلالة بيت كونديه العظيم ! »

أما اذا جلس ليحدث أحدا من رجال الدولة الرسميين وجرى ذكر هذا الحادث المشئوم فانه لم يكن يزيد على أن يضرب بيده فوق كتفه وهو يقول :

« إن على هـذا العاتق وحده تقع كل مسئولية فى مقتل الأمير . وأن صيحات البربون فى لندن لن تحملنى هنـا على الاعتذار عما كان . فانى أدين بالمثل القائل : « من اعتذر فقد اتهم نفسه ! »

* * *

واقترب أخيراً موعد الحكم على بقية المتآمرين . . .

وكان نابليون قد أرسل الى بشيجرو فى السجن من يبلغه عطفه عليه وأنه ينوى التسامح معه الى حد أنه مناه بأنه سيجعله حاكم مدينة كايين (Cayenne) فى غينيا الفرنسية (أمريكا الجنوبية) وقد أثرت هذه الشهامة من جانب نابليون فى نفس ذلك البائس الذى كان يتآمر على حياته حتى أنه لم يكد يسمع ذلك من الرسول الذى أبلغه له حتى أطرق برأسه الى الأرض ثم أجهش بالبكاء .

على أن المسكين طالت إقامته فى السجن الى ما بعد القبض على دوق دنجين وإعدامه فلما بلغه أخيرا أنبـاء هذا الأمير المنكود تملكه اليأس من النجاة وفتح عليه سجانه غرفته ذات يوم فاذا هو مشنوق برباط رقبته بجوار السرير !

أما مورو فقد أدرك المحاكمة وحكم عليه بالسجن سنتين

ولـكن نابليون عفا عنه وأذن له بالانسحاب الى أمريكا . وأمر بأن تشترى منه ضيعته بأكبر ثمن ممكن ثم دفع له نفقات سفره إلى برشلونة ليسافر منها الى العالم الجديد .

وأخيراً سيق جورج كادودال وعصابته الى المحكمة ليأخذوا نصيبهم من القصاص . وعبثاً حاول القضاة أن يظفروا من أحد منهم بجواب مريح . فقد سئل كادودال مثلا عن محل اقامته قبل القبض عليه فأجاب :

— كنت نازلا فى عربة !

ولما طلب اليه أن يدافع عن نفسه قال :

— اذا كان حضرات القضاة يضمنون لى ميتة أجمل من هذه دافعت عن نفسى وإلا فالسكوت أولى !

وبلغ عدم اكتراث واحد من زملائه بأمر هذه المحاكمة أنه استغرق فى النوم فعلا بينما كان المحامى عنه مسترسلا فى الدفاع وقد ضحك الجمهور لذلك كثيرا الا المحامى فانه غضب لما رآه من عدم تقدير موكله لجهوده !

وفى يوم الأحد ١٠ يونيه صدر الحكم بالاعدام على ١٢ من المتهمين وفى مقدمتهم كادودال فتلقوه جميعاً بكل سكينة ثم نقلوا الىالسجن انتظارا لتنفيذ الحكم . فلما كانوا هناك قال جورج لرفاقه :

« لقد انتهينا الآن من واجبنا نحو ملك الارض وبقى علينا أن نقوم بواجبنا نحو ملك السماء ! »

ثم شرع يصلى معهم

ومما يروى عن عناد كادودال أنهم أتوا اليه ذات يوم (بعد صدور الحكم عليه) برقعة فيها طلب العفو وأكدوا له بأن نابليون مستعد للعفو عنه اذا هو وقع تلك الرقعة . فنظر كادودال اليها فاذا فى أعلاها :

الى جلالة الامبراطور

— وكان نابليون قد توج امبراطورا على فرنسا — فرماها ورفض توقيعها قائلا لرفاقه :

— لنصل أيها الرفاق ! إن ذلك الشرير يريد أن يذلنا قبل أن يقتلنا !

وحدث فى الليلة السابقة على تنفيذ الحكم أن طلب كادودال الى سجانه أن يأتيه بزجاجة من النبيذ الجيد فلما جاءه بها لم يعجبه طعمها واعترض عليه بأنها ليست من الصنف الذى طلبه . فأجابه السجان بخشونة :

— انها مع ذلك لا بأس بها بالنسبة لقتلٍ مثلك !

فما كان من كادودال الا أن أمسك الزجاجة فى يده بكل هدوء وأحكم سدادتها فيها ثم القاها بذراعه العبل الهرقلى فى وجه سجانه فرماه الى الارض لاحراك به .

وفى ٢٥ يونيه نفذ الحكم فيه هو وأعوانه وكان هو اول الصاعدين الى الجيوتين — وكان يرقى درجها وهو يصيح :

ليحى الملك !

الفصل الرابع

نابليون الاول

أمبراطور فرنسا وملك ايطاليا

كانت هـذه المؤامرة الهائلة سبباً فى قلق الفرنسيين على حياة بطلهم الذى جمع شملهم وأعلى كلمتهم ومهد لهم السبيل نحو العظمة والسيادة على كل دول أوربا . ورأوا أن شخص نابليون وحده هو الضمانة الوحيدة التى تكفل لهم بقاء ما هم فيه من العزة والرفاهية وسعة الجاه فودوا لو ارتبط الحكم فى فرنسا بشخصه طول حياته وبذريته بعد وفاته ليطمئنوا بذلك على مستقبل بلادهم وليأمنوا بعد هذا التعديل تعرض الدول الاوروبية لشئونهم وتدخلها فى نظام حكومتهم .

وقد فاز فوشيه وزير البوليس بأسبقية التقدم إلى مجلس الشيوخ ليقترح عليه إحداث هذا التغيير فى شكل الحكومة الفرنسية فتقبله منه مجلس الشيوخ مع الترحيب والتحبيذ . وفى ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ صدر مرسوم من المجلس « يكل حكومة

الجمهورية الى الامبراطور نابليون . »

وقام موكب فخم طويل من العربات المقلة لأعضاء المجلس قاصدين ضاحية سان كلو « St Cloud » حيث يقيم نابليون ليبلغوه قرارهم ويهنئوه عليه . وهناك استقبلهم فى قصره وإلى جانبه جوزفين فتقدم اليه كامبسريس وألقى بين يديه كلمة وجيزة عدد فيها ما لقيته فرنسا على يديه من النصر والفوز العظيم . وأشار فى آخر حديثه الى أنه هو الذى أعاد اليها سمعتها وكرامتها . ونظامها . ودينها .

وما كاد ينتهى الى هذا الحد من خطبته حتى ضجت السراى بصيحة واحدة : هى صيحة « Vive l'Empereur ! » وأجاب نابليون على هذه الخطبة بقوله أنه يرجو أن يكون عند حسن ظن الامة بخدماته وأن يوفق الى عمل ما يستحق من أجله شرف هذا اللقب العظيم .

وعند ذلك تقدم كامبسرين لالقاء كلمة تهنئة بين يدى الامبراطورة جوزفين ، فغلب عليها تأثرها ولم تجد ما تجيب به على هذه التهنئة الا ما فاضت به عيناها من الدموع .

وكتب نابليون الى البابا بيوس السابع يدعوه الى حضور حفلة تتويجه ليتولى بنفسه مسحه وتبريكه وهو يعلم ماستسبغه

هذه الزيارة من القدسية على حفلة التتويج لا سيما فى نظر الشعب . وقد لبى البابا هذه الدعوة راضياً مسرورا وتمت مراسم الحفلة فى يوم الاحد ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ بكنيسة نتردام فى جو من العظمة والابهة لم تشهد مثله باريس فى عهد ملوكها الاكابر الغابرين .

وكانت جوزفين تعلم مع الحسرة الشديدة أن كل هذه المظاهرة لا يرجى من ورائها الا الاحتفاظ بملك فرنسا لسلالة نابليون وتعلم من جهة أخرى أنها قد أقامت مع نابليون كل هذه السنين دون أن تعقب منه نسلا . وسمعت الناس تهمس حولها بأن الحاجة سوف تدفع بنابليون إلى طلب الطلاق منها ليلتمس الولد عند غيرها . فهاجتها هذه الأقوال وفكرت فى الاحتياط لنفسها مما قد يخبئه المستقبل لها من المفاجآت . وكان زواجها من نابليون قد تم فى عهد الثورة بعقد عرفى مدنى لم يشهده القسيس ولم تباركه الكنيسة فلم تكد تجد البابا معها فى باريس حتى توسلت اليه أن يعيد عقد نابليون عليها وأن يباركهما بقداسته ولم ير نابليون أن يعترض على شىء من ذلك رغبة منه فى تطمين خاطر زوجته فتم العقد بينهما فى الليلة السابقة على ليلة تتويجه . ولم ترقأ



نابليون فى ملابس التتويج

لجوزفين دمعة طول ليلتها من فرط تأثرها وفرحها حتى لقد كادت تذهب حمرة جفنيها أثناء حفلة التتويج بذلك الرونق الذى كان ينتظره منها الجميع .

* * *

وكأنما أثارت هذه الحفلة خواطر الايطاليين فعولوا على أن لا يكونوا وراء الفرنسيين فى الاحتفال بنابليون وتكريمه والاعتراف بفضله وهو النابت فى أرضهم المنتسب إلى أسرتهم . ولذلك تقدم إليه رجال الجمهورية الأيطالية الشمالية يلتمسون منه أن يقبل تاج لمبارديا الحديدى المقدس الذى كان يزين مفرق شارلمان والذى يروى عن حديده أنه مصنوع من أحد المسامير التى خرقت كف السيد المسيح عليه السلام عند صلبه . فلم يتردد نابليون فى قبول هـذه الهدية الأخرى وسافر هو وجوزفين يصحبهما البابا من باريس إلى ايطاليا وتم تتويجه هناك فى كاتدرائية ميلان الشهيرة فى السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٤ وكانت الحفلة بحضور البابا أيضاً غير أنه لما جاء دور التاج ووضعه على رأس نابليون تقدم هو بنفسه قبل أن تمتد يد البابا إليه — كما صنع

فى كنيسة نتردام — فتنـــاوله وركز قواعده على رأسه وهو يقول :

« الله أعطانا هـذا التاج . فالويل لمن يلمســه ! »

انتهى

الكتاب الثالث

لجنة التأليف والترجمة والنشر



حياة نابليون

تأليف

حسن جلال

مؤلف كتاب الثورة الفرنسية

الجزء الثانى

سلسلة المعارف العامة

فهرست الجزء الثانى

ص

الكتاب الرابع — الامبراطورية ٣٤٩
١) الباب الاول — التحالف الدولى الثالث . . . ٣٥١
الفصل الاول ـ أسباب التحالف . . . ٣٥١
« الثانى ـ موقعتان فريدتان فى التاريخ ٣٥٥
« الثالث ـ توزيع التيجان . . . ٣٦٩
٢) الباب الثانى — التحالف الدولى الرابع . . . ٣٧٣
الفصل الاول ـ اسباب التحالف . . ٣٧٣
« الثانى ـ موقعتان أخريان . . . ٣٨١
« الثالث ـ قرارات برلين . . . ٣٨٧
« الرابع ـ القيصر ٣٩٠
« الخامس ـ مارى فاليسكا . . . ٣٩٣
« السادس ـ انقلات القيصر . . ٤٠٢
« السابع ـ معاهدة تلست . . . ٤٠٧
٣) الباب الثالث — النظام القارى ونتائجه ٤١٣
الفصل الاول ـ أثر النظام فى سياسة نابليون ٤١٣
« الثانى ـ أثره فى ولايات البابا . ٤١٥
« الثالث ـ أثره فى البرتغال (ب) ٤١٦
« الرابع ـ حكومة اسبانيا (ز) ٤١٦

صفحة

الفصل الخامس ـ رواية تاريخه . (ك) ٤١٦
» السادس ـ الحملة الاسبانية . . ٤١٧
٤) الباب الرابع — التحالف الدولى الخامس . . ٤٢٦
الفصل الأول ـ حرب النمسا ٤٢٦
» الثانى ـ طلاق جوزفين . . . ٤٢٨
٥) الباب الخامس — عوامل سقوط نابليون . . ٤٥٤
الفصل الاول ـ النظام القارى . . . ٤٥٤
» الثانى ـ نهضة بروسيا . . . ٤٥٩
» الثالث ـ القرحة الاسبانية . . . ٤٦٤
» الرابع ـ نكول القيصر واسبابه ٤٦٨
٦) الباب السادس — التحالف الدولى السادس . ٤٧٤
الفصل الاول ـ الحرب الروسية . . . ٤٧٤
» الثانى ـ بروسيا تنتقض على نابليون ٥٠٢
» الثالث ـ لوتزن وباوتزن . . . ٥٠٨
» الرابع ـ الهدنة المشئومة . . . ٥١٤
» الخامس ـ حرب الأمم . . . ٥١٧
» السادس ـ انهيار البناء . . . ٥٣٣
» السابع ـ الحلفاء فى باريس . ٥٣٥
» الثامن ـ النزول عن العرش . . ٥٤٢
» التاسع ـ وداع فونتنبلو ٥٥٠

ص

الكتاب الخامس — المنفى ٥٥٧

الباب الأول — إلبـــا ٥٥٩

الفصل الاول ـ ملك البا ٥٥٩

« الثانى ـ البربون فى فرنسا . . . ٥٦٦

« الثالث ـ عودة نابليون الى فرنسا ٥٧٣

٢) الباب الثانى — حكومة الأيام المائة (١٩ مارس ٥٨٣
سنة ١٨١٥ — ٢٢ يونيه سنة ١٨١٥)

الفصل الاول ـ تغير نابليون ٥٨٤

« الثانى ـ ووترلو ٥٨٩

« الثالث ـ نابليون بعد الهزيمة . ٦٠٢

٣) الباب الثالث — سنت هيلانة ٦٠٨

الفصل الاول ـ لنجوود. ٦٠٩

« الثانى ـ هدسون لو ٦١٢

« الثالث ـ وفاة نابليون ٦١٩

« الرابع ـ نابليون يرقد على . .
ضفاف السين ٦٢٨

الصحيفة	السطر	الخطا	الصواب
٣٥٣	٢	الفريقين	الفريقان
٣٦٩	٣	امبراطورية	امبراطوريته
٣٧٧	١٣	كال	كان
٣٨٢	١٧	كما	كيما
٣٨٥	١٢	ابرني	خبرني
٣٩٨	٦	غرفة	غرفته
٤٠١	١٤	تستطيع أن	تستطيع فيها أن
٤٠٣	١٢	وزملائهم	وزملاؤهم
٤٢٧	١٦	١٩٠٨	١٨٠٩
٤٢٨	١٦	١٩٠٨	١٨٠٩
٤٢٨	٢٠	ساعة	الساعة
٤٣٠	٢	جميع	جمع
٤٤٤	١٧	تقلتني	تقتلني
٤٦١	٧	الخطابات	خطاباته
٤٦٥	١٧	١٩٠٨	١٨٠٩
٤٦٧	١٦	وضيعة	ومضيعة
٤٦٨	١٠	عليه أثناء	عليه برياسة ستاين أثناء
٤٧٢	١١	البرتقال	البرتقال وأن

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٧٣	١	التآ لف	التحالف
٤٧٨	١٦	بحسبك	وبحسبك
٤٨٢	٣	والغازى والفاتح	والغازى الفاتح
٤٩٢	١٥	مثلا	مثيلا
٤٩٣	٢	وجد	وجدة
٤٩٨	١	نابليون	نابليون بقية حياته
٥٠٤	١٨	صنع	صنيع
٥٢٨	٥	فرارهم	قرارهم
٥٢٩	٣	١٩١٣	١٨١٣
٥٣٦	١	أعسطس	أكتوبر
٦٠٩	١٨	ناتنة	ناتئة
٦١٢	٣	يستقيط	يستيقظ

ملحوظة : سقطت عند طبع الكتاب الملزمة الواقعة بين الصحيفتين ٤١٦ و ٤١٧ فأعيدت تحت نمرة ٤١٦ — ولزم التنوية



الأمبراطور نابليون الأول

الكتاب الرابع

الامبراطور

الباب الأول — التحالف الدولى الثالث
الباب الثانى — » » الرابع
الباب الثالث — النظام القارى ونتائجه
الباب الرابع — التحالف الدولى الخامس
الباب الخامس — عوامل سقوط نابليون
الباب السادس — التحالف الدولى السادس

الباب الأول : التحالف الدولى الثالث

الفصل الأول — أسباب التحالف

« الثانى — موقعتان فريدتان فى التاريخ

« الثالث — توزيع التيجان

الباب الأول

التحالف الدولى الثالث

الفصل الأول

اسباب التحالف

كانت الجرثومة الحقيقية لهذا التحالف الجديد تلك الحرب التى أعلنتها انجلترا على نابليون (فى ١٨ مايو سنة ١٨٠٣) وهى مندفعة اليها بعامل الكراهة لشخصه والخوف من اتساع نفوذه .

وقد تركنا نابليون فى بعض الفصول السابقة عند بولونى يدرب جنده كل يوم على ركوب البحر والنزول منه الى الأرض توطئة للغزوة التى أزمع القيام بها على شواطىء انجلترا نفسها وأشرنا إلى ما استشعرته انجلترا من الخطر المحقق أمام هذه الاستعدادات التى يقوم بها نابليون على بعد ٣٠ ميلا من بلادهم .

والآن أصبح نابليون امبراطورا على فرنسا فزاد مركزه ثباتا وقوة وزادت فى الوقت نفسه أحقاد الانجليز عليه كما زاد توجسهم من شره . فلقد كانوا يرجون الخلاص منه على كل حال وهو زعيم عارض تولى حكم فرنسا لمدة عشر سنين أو لمدة حياته . أما وقد أصبح امبراطورا يحكمها هو ثم يحكمها من بعده أبناؤه وأحفاده على نفس طريقته فهذه هى النكبة المؤبدة التى لا تطيق انجلترا أن تفكر فى احتمالها والتى لا بد لها من محاربتها مهما ضحت فى سبيل ذلك من أنفس وأموال .

وتصادف أن عاد وليم پت إلى رياسة الوزارة الانجليزية فى مايو سنة ١٨٠٤ وكان تعيينه فى ذاته نذيرا كافيا لنابليون بما سيلاقيه فى عهده من المتاعب والمشاغبات . وذلك لما اشتهر عن پت من مقته الشخصى لنابليون وحقده الشديد عليه .

وكان دوق دنجين قد قتل قبل ذلك بشهر وأحدث قتله ضجة عظيمة فى الدوائر الملكية الأوربية حتى أن قيصر الروسيا أمر أن يلبس بلاطه عليه الحداد ثم لم يلبث أن قطع علاقاته السياسية بسببه مع فرنسا .

ولم يكن پت ممن تفوتهم أمثال هذه الفرص فأنه سارع

الى القيصر بمجرد أن اشتم منه ريح السخط على نابليون واتفق الفريقين فى ١١ أبريل سنة ١٨٠٥ على تكوين حلف أوربى جديد على طاغية فرنسا .

وعرض على النمسا أن تشترك فى هذا التحالف الجديد ولكنها كانت تخشى مطامع الروسيا بقدر ما كانت تخشى أطماع نابليون فبقيت مترددة زمنا طويلا واخيرا غلب عليها سخطها على نابليون بسبب تدخله فى إيطاليا وقضائه على نفوذها فيها بتعيين نفسه ملكا عليها فانضمت إلى الحلفاء .

أما بروسيا فأنها على قدر تضررها من احتلال الجيوش الفرنسية لمقاطعة هانوفر فى بدء حربهم مع الانجليز كانت لا تميل إلى الاشتراك فى حرب أوربية عامة تخسر فيها جيشها الفخم ولذلك اعتصمت بخطة الحيـــاد وبقيت عليها دهرا طويلا على الرغم من الحاح بريطانيا والروسيا عليها فى وجوب الاشتراك .

وكانت غاية المتحالفين إعادة التوازن الدولى الذى أفسده نابليون بتولِّيه مُلْكَ إيطاليا . وتدخله فى سويسرا . وهولندا . وهانوفر . وارتباطه بمعاهدات صداقة مع كثير من الولايات

الألمانية . واهتمامه المتجدد بشئون مصر والشرق عامة وجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية .

ولذلك اتفقت كلمتهم على مداومة القتال حتى يتم لهم إلغاء الحكم الفرنسى من إيطاليا — وهولندا — وسويسرا — وهانوفر — واعادة بيمون Piedmont إلى ملك سردانيا — وحماية نابولى — واقامة حاجز بين فرنسا وأوربا بضم هولندا إلى بلچيكا تحت حكم أسرة أورانج .

أما خطة القتال فكانت أن يسير جيشان نمسويان أحدهما يتجه جنوبا نحو إيطاليا والآخر يتجه غربا نحو فرنسا . وكان من المتفق عليه أن يتئد الجيش الأخير فى سيره حتى يلحق به جيش آخر تبعث به الروسيا لينضم إليه وتتوحد جهودهما فى مفاجأة نابليون وهو ما يزال على انهماكه فى شواطىء فرنسا الشمالية يشرف على معدات تلك الحملة الخطيرة التى كان ينوى الاغارة بها على الجزائر البريطانية .

الفصل الثانى

معركتان فريدتان فى التاريخ

أولم Ulm وأوسترلتز Austerlitz

كانت عادة نابليون التى جرى عليها فى كل خططه — « ان يعد لموضوعه مشروعين » «faire son thême en deux»— كما كان يقول — حتى إذا اتضح له فساد أحد المشروعين تحول عنه بسرعة البرق إلى المشروع الآخر .

وعلى الرغم من تكتم الدوائر الأوربية لهذا التحالف الجديد بغيةمفاجأة نابليون به وتماديهم فى ذلك إلى حد اشتراك النمسا فى الحرب من غير أن تسحب سفيرها من باريس . فأن نابليون لم تفت عينه الراصدة اليقظانة جزئية من جزئيات هذه العاصفة العنيفة التى عبأها له. وليم يت فى شرق أوربا لينسف بها ملكه . ولكنه رأى قبل أن يتوجه إلى أعضاء هذا التحالف (فى أوربا) أن يضرب رأسه (انجلترا) تلك الضربة التى طال تأهبه لها.

وكان نابليون يعلم أن الاسطول البريطانى كله قد احتشد فى المضيق ما بين فرنسا وانجلترا لما كان يعلم أنه لا يستطيع ركوب البحر ما دام نلسون مرابطا له على هذه الصورة فرأى أن لا بد له من الاحتيال لأقصائه عن بحر المنش حتى يتمكن فى غيبته من حمل جنوده إلى لندن وللوصول إلى هذه الغاية رسم الخطة التالية :

يسير فيلنيف « Villeneuve » أميرال الأسطول الفرنسى بسفنه إلى جهة الغرب موهما أنه ذاهب لمهاجمة مستعمرات انجلترا فى أمريكا . فأذا ما خرج وراءه نلسون فليضلله فى عرض البحر ثم يقفل راجعا إلى فرنسا ليسد المضيق فى وجه السفن الانجليزية ريثما يعبره نابليون وجنوده .

ولم يكن نابليون فى الواقع يحتاج إلى اكثر من ثمانى ساعات للوصول إلى الأراضى الانجليزية وكان يملؤه اليقين بأنه متى وضع قدمه فى تلك البلاد فأنه سوف يهيب بالشعب الانجليزى لحمله على الثورة على حكومته الغاشمة التى أرهقته بالضرائب والحرب المتواصلة فى سبيل الدفاع عن مصالح لاخوف عليها ولدفع مخاوف وهمية لا مبرر لها . وكان يقدر فى نفسه أن الشعب الانجليزى سوف يلتف حوله لذلك .

وبهذه الكيفية يتسنى له أن يقيم فى انجلترا نفسها نظاما حكوميا على طراز حكومة فرنسا.

وقد نجح النصف الأول من هذه الخطة أتم نجاح. فقد خرج فلنيف بأسطوله وخرج نلسون وراءه بمراكبه. وجدّت السفن الفرنسية فى سيرها حتى غاست عن أنظار الانجليز ثم ما لبثت أن حولت شراعها نحو فرنسا تاركة نلسون وراءها ينهب البحر نهبا ليدركها ..... فى أمريكا!

ولكن نلسون لم ين أن تنبه إلى ما حدث فبعث بأسرع زورق فى أسطوله لينذر الحكومة البريطانية بعودة الأسطول الفرنسى حتى تأخذ له أهبتها.

ووصل فيلنيف فعلا فوجد المراكب المتخلفة من الأسطول البريطانى قد وقفت فى وجهه خارج المضيق تمنعه من الوصول إلى الموانى الفرنسية نفسها. واشتبك الفريقان ولم ير فيلنيف بدا من أن ينسحب إلى قادس (فى اسبانيا) ليحتمى فى مينائها خشية تكاثر المراكب الانجليزية عليه.

معركة أولم Ulm

عند ذلك تحقق نابليون استحالة المضى فى هذا الطريق . وحول وجهه فورا نحو الشرق وبادر بنقل « الجيش الأعظم » وهو الأسم الذى أطلق على جيش بولونى — من بحر المانش إلى نهر الرين . وتم هذا الانتقال فى مدى عشرين يوما لم تكن تحلم النمسا فى خلالها بأن نابليون قد استطاع أن يجمع أمره ويستعد للرحيل .

وأدرك نابليون جيش النمسا الشمالى عند مدينة أولم (على نهر الطونة) وهو يزحف متلصصا تحت قيادة الجنرال ماك النمسوى ريثما يصل اليه جيش الروسيا الموعود ليقوم بغزو فرنسا فى غفلة من نابليون على ما كانوا يزعمون . فدار نابليون بجيشه الأعظم وانقض على مؤخرة ماك وقام بحركة تطويق باهرة قضى بها على جيش النمسا وهو ثمانون ألفا فوقع منهم فى يده ثلاثون الف أسير وارتد ماك بنحو ٣٦ الفا أخرى إلى مدينة أولم وتحصنوا فيها وهناك حاصرهم نابليون ولم ير ماك بدا بعد النكبة الأولى من تسليم قوته الباقية إذ لم يرى أى أمل فى الأفلات من ذلك النطاق الذى ضربه حوله نابليون .

*

وفى صبيحة اليوم التـالى (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٤) جلس نابليون وسط أركان حربه على ربوة تجاه المدينة وهو يشهد خروج ستة وثلاثين الف جندى يلقون سلاحهم بين يديه . وقد استمرت هـذه العملية خمس ساعات متواصلة كانت كل مالقى الأمبراطور من راحة منذ غادر ثغر بولونى ويقول المؤرخون أنه لم يسبق فى تاريخ العالم أن ضربة عاجلة قاضية مثل هذه الضربة قد تمت على يد أحد غير نابليون .

ولقد ثبت هـذا النصر الباهر أقدام الأمبراطورية كما ثبتت موقعة ما رنجو اقدام القنصلية من قبل (١)

وتوالت هزائم النمسا بعد أولم واستمر زحف نابليون نحو فينا حتى دخلها فى ١٩ نوفمبر بعد أن فر منها امبراطور النمسا فرنسيس الثـانى لينضم الى جيش الروسيا الذى كان يقوده القيصر بنفسه .

---

(١) ولكن حدث فى نفس اليوم التالى لنكبة أولم أن اشتبك نلسون بأسطول فيلنيف عند « الطرف الأغر » (فى ٢١ اكتوبر سنة ١٨١٥) ودمره تدميرا . وبذلك أنقذ انجلترا نهائيا من كل خطر كان ستطيع نابليون أن يهددها به ولم يخفف من دفع هذه الكارثة على الفرنسيين إلا أن نلسون نفسه قد مات فى المعركة . ولم يبق أمام نابليون بعد هذه النكبة البحرية الا مقاومة انجلترا من طريق تجارتهـا ومنع بضائعها وسفنها من الوصول الى أية دولة من دول أوربا .

معركة أوسترلتز Austerlitz

وعلى الرغم من انتصار نابليون ودخوله عاصمة بلاد أعدائه . فقد كان موقفه غاية فى الخطورة لأن توغله فى قلب أوربا جعله بعيداً عن باريس بمئات المراحل (نحو ١٥٠٠ ميل) وأصبح من المتعذر عليه الحصول على أى امداد منها لبعد المسافة واحاطة الحلفاء به من كل جانب . فأن الارشيدوق شارل لم يكد يسمع بضياع فينا حتى عاد من إيطاليا ومعه نحو ٧٠,٠٠٠ مقاتل كما أن الأمبراطور فرنسيس نفسه استطاع أن يجمع حوله من جديد نحو ٨٠,٠٠٠ جندى . أما جيش الروسيا المنتظر فقد كان يزحف حثيثا بقضه وقضيضه ليزيد الى قوة النمسا أكثر من مائة الف روسى كامل العدد وكانت بروسيا ما تزال على حيادها ولكن القيصر ما كادت تصل اليه أنباء أولم حتى أسرع الى برلين لعله يؤثر بشخصه فى تحويل ملك بروسيا عن هذا الحياد العقيم الذى كان يلزمه فيضيف بذلك مائتى الف جندى بروسى الى قوة الحلفاء . وكانت الملكة لويزا ملكة بروسيا أشد من زوجها حماسة لهذه الغاية وكانت تعلم من

زوجها تراخيه وضعفه وتقلبه . فاقترحت أن يقسم الملكان قسما عظيما على قبر « فردريك الأكبر » لا يدع مجالا بعده للترددو التقلب . وفى منتصف الليل نزل الثلاثة — القيصر وملك بروسيا وملكتها — الى مقبرة ذلك الملك العظيم وأقسم الملكان على « أن ينصرا قضية الحلفاء ضد تلك المبادىء الشعبية الخطيرة التى كان ينشرها نابليون ويهدد بها عروش أوربا قاطبة . »

وهكذا اجتمع حول نابليون فى وسط أوربا نحو خمسمائة الف جندى . وهو لا يملك للقائهم أكثر من سبعين الف . وظنت كل أوربا أن النسر الفرنسى طار بجناحيه ليرمى بعنقه فى هذا الفخ العظيم . وحسب الناس أن نابليون سوف لا يخرج من فينا ولكنه يبقى فيها ويتحصن داخل أسوارها لصد هجمات تلك الجيوش ريثما يأتيه إمداد من فرنسا أو يمن الله عليه بالخلاص بأى شكل من الأشكال .

ولكن نابليون كان أحرص من أن يستسلم فى مكانه إلى هذا الخطر المحدق وبقيت دعوته لجنوده كما كانت دائما « إلى الأمام ! إلى الأمام ! » وحاول هو من جانبه أن يفرق بين القيصر وامبراطور النمسا فعرض شروطا للصلح على كل واحد منهما ولكنهما لم يؤخذا بخدعته واستمرا فى جهادهما المشترك

لاسترداد فينا من قبضته إلى أن كان يوم أول ديسمبر سنة ١٨٠٥ حيث تبين نابليون جيوش الحلفاء فى معسكرها على مرتفعات براتزن Pratzen وفطن من حركاتهم إلى خطة القتال التى يريدون اتباعها معه وتنبه الى عيب فيها جعله لا يتمالك أن يصيح صيحة الفرح والاغتباط :

«غداً قبيل الغروب سيكون كل هذا الجيش فى قبضة يدى!»

وظل يومه على ظهر جواده ينظم صفوفه ويتهيأ للقاء اليوم التالى بل لقد ظل إلى منتصف الليل وهو يطوف بكتائبه ويعد معدات معركة الصباح بدقة تفوق الوصف حتى أنه قبل اشتباكه مع الأعداء سأل سولت : «كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات براتزن ؟ »

فأجاب سولت : يلزمنى أقل من عشرين دقيقة !

فرد عليه نابليون قائلا : إذن يمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر !

وتنبه فى تلك الليلة أحد الجنود إلى أن ليلتهم هذه كانت توافق ليلة عيد جلوس نابليون على عرش الأمبراطورية فما كان منه إلا أن أشعل حزمة من القش المعد لنومه ورفعها

على سنان رمحه هاتفا « ليحى الأمبراطور » فسرت عدوى فعلته سريان البرق فى زملائه وسرعان ما سطع الجو بضوء آلاف من هذه الشعل وكان الهتاف الحار بحياة نابليون يشق أجواز الفضاء .

وأغفى الجنود اغفاءة قصيرة قبيل الفجر . وعاد نابليون على ظهر جواده فى الساعة الرابعة صباحا وكان الضباب الكثيف يحجب عنه منظر أجناده وأجناد خصومه على السواء ولكن أذنه الفطنة تلمست من وراء أستار الضباب حركة العدو فأذا جلبة حافلة أشعرته بأن الروسيين يزحفون نحوه زحفا حثيثا بغية مفاجأته قبل أن ينتبه اليهم . فأمر بأن يضرب البورى « نوبة اليقظة » كما يسميها العسكريون . ونفخ فى الصور فأذا بجنوده إليه ينسلون . ولم تكن قد انقشعت بعد غياهب الظلام فى تلك الليلة الليلاء . وأسرع كل إلى مكانه المعد له . ولم تكد تشرق أضواء الفجر الأولى حتى كان كل جندى فى مكانه ينتظر أمر ضابطه ووقف الضباط بدورهم إلى جانب نابليون ينتظرون إشارته لبدء الهجوم . فلم تمض إلا لحظات قصيرة حتى دوى فى الفضاء صوت المدفعية الروسية وعند ذلك صاح نابليون :

« الآن حق الهجوم ! فهلموا أيها الأبطال ! »

فبادر كل إلى فرقته . والتحم الجيشان فى « معركة الأباطرة الثلاث » كما يسميها المؤرخون لاجتماع نابليون فيها بقيصر الروس وامبراطور النمسا الذى كان يصحبه . واستدرج نابليون جناح الجيش الروسى الأيسر من فوق الهضبة فأنزله الى الوادى وكان سولت فى هذه الأثناء يحل محله فيها . وألقى نابليون على قلب الروس جحيما مستعرا بناره وشياطينه ففنيت صفوفهم تحت هجماته كما يفنى الضباب تحت أشعة الشمس . ولم تستطع الفرار منهم إلا بضعة ألوف من الفرسان أطلقوا لخيلهم العنان هاربين يلتمسون العودة من حيث أتوا . على أن النكبة التى حلت بهم كانت أشنع من نكبة زملائهم . فقد مروا فى طريقهم فوق بحيرة من الثلج المتجمد وانتبه اليهم نابليون فوجه قذائفه إلى سطح البحيرة فانشقت قشرتها الجامدة عن قبر واسع من الماء المثلوج احتوى فى بطنه تلك البقية الباقية من جيش الأعداء . وانتهى بهذه النهاية الأليمة آخر دور من أدوار تلك المعركة الخالدة — معركة أوسترلتز — التى ظل يتغنى بها شعراء فرنسا ويمجدون بها ذكرى بطلهم عشرات السنين .

وقد كانت خسائر الحلفاء فى تلك المعركة خمسة عشر الف مقاتل بين قتيل وجريح وعشرين الف أسير وثمانين ومائة مدفع وخمس واربعين راية وكمية لا حصر لها من المؤن والذخائر . على أن أعجب ما فى هذه المعركة أن نصف قوة نابليون لم تتح لها فرصة الاشتراك فى القتال فكأنما تم له كل هذا النصر الشامل على نحو مائة الف جندى بجيش لا يتجاوز الأربعين الف .

وهكذا انسحب القيصر بفلوله إلى بلاده قانعاً من الغنيمة بالأياب ولم تر النمسا بعد نكبتى أولم وأوسترلتز واحتلال الفرنسيين لفينا إلا أن تقبل شروط الصلح التى يعرضها عليها نابليون .

أما وليم پت فانه كان مريضاً فى فراشه لما جاءته أنباء أوسترلتز فلم يقو على احتمال وقعها وفاضت روحه وهو فى شرخ شبابه بعد ذلك بقليل (٢٦ يناير سنة ١٨٠٦) .

وبذلك انحلت عناصر هذا التحالف الثالث ولم تتهيأ به لنابليون إلا فرصة جديدة ينكل فيها بخصومه ويعيد إلى أذهانهم ذكرى دروسه القديمة القاسية التى ألقاها عليهم فى سهول إيطاليا الشمالية .

وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وقعت معاهدة پرسبورج بين فرنسا والنمسا وكانت أهم شروطها :

ا — فى ايطاليا — ١) اعترف فرنسيس الثانى بالمملكة الايطالية

٢) نزل لهذه المملكة عن إستريا Istria ودلماسيا Dalmacia والبندقية Venice

ب — فى ألمانيا — ١) ضمت التيرول إلى ولاية بافاريا (حليفة نابليون)

٢) حصل كل من أمير بافاريا وأمير ورتمبرج على لقب ملك وبذلك قضِى على نفوذ النمسا فى ولايتهما

وخسرت النمسا بهذا الصلح نحو ثلاثة ملايين من رعاياها وانقطعت صلتها بايطاليا وانفتح الطريق أمام نابليون إلى تركيا والشرق .

ولم يخل هـذا التحالف من « الفصل المضحك » الذى تنتهى به عادة أدوار الرواية المحزنة فان بروسيا التى قضت كل وقتها فى التردد والأحجام أبى سوء حظها الا أن تنقاد أخيراً الى دعوة القيصر فتخرج من حيادها وتبعث بانذار الى نابليون (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٠٥) تطلب فيه أن يقوم فوراً باخلاء هولنـدا وسويسرا وبيمون وتهدده بالانضمام إلى التحالف اذا هو لم يجب هذه الطلبات . ووصل انذارها هذا الى نابليون قبل معركة أوسترلتز بأيام قليلة . وبذلك أدركت آخر فرصة ممكنة لـكسب غضبه عليها . فان هـذه المعركة قد بددت شمل التحالف كما وضحنا وانهارت به أركانه فانسحبت الروسيا واصطلحت النمسا ونظرت بروسـيا فاذا هى ماثلة وحدها وجها لوجه أمام قاهر الحلفاء فلم تر إلا أن تنصاع لأوامره وتقبل شروطه على علاتها .

ولـكن نابليون كان يعلم أن الروسيا مازالت أمامه وأن انجلترا سوف لا تفتأ تكيد له فاكتفى من بروسيا بأن تعاهده (١٥ فبراير سنة ١٨٠٦) على نفض يدها من صلاتها الروسية والاشتراك معه هو فى المحافظة على سلامة تركيا من اعتداء

القيصر وأن تتعهد بمقاومة التجارة البريطانية ومطاردة سفنها في مدائنها الشمالية .

ولكي يكفل نابليون نفاذ هذا الاتفاق الحيوي قدم هانوفر الى بروسيا بدعوى أنها ولاية ألمانية وحق بروسيا عليها أظهر من حق الانجليز .

الفصل الثالث

توزيع التيجان

اتسع نفوذ نابليون فى أوربا بعد « معاهدة پرسبورج » اتساعا لم يسبق له مثيل منذ عهد شارلمان العظيم فرأى أن يقيم بنيان سلطانه على أساس من المصاهرات يجعل امبراطورية بونابرتيه اسما ولحما ودما :

ففى المـــانيا : زوج بنت ملك بافاريا إلى ربيبه أوجين بوهارنيه (نائب ملك إيطاليا) .

وقدم مدموازيل ستيفانى ابنة أخت جوزفين إلى ابن غراندوق بادن فتزوجها .

وكان أخوه جيروم قد تزوج فى أمريكا بفتاة أمريكية حسناء فطلقها منه وزوجه إلى بنت ملك ورتمبرج .

(وبذلك ارتبطت بافاريا وبادن وورتمبرج بفرنسا) .

وفى إيطاليا : كان أوجين بن جوزفين نائب ملك على لمبارديا وأنشأ نابليون فى البندقية ١٢ دوقية وزعها على أنصاره وكبار رجال حاشيته : وأرسل ماسينا لطرد آل بوربون من نابلى (جزاء لهم على تحالفهم مع الانجليز) ففر منها ملكها وملكتها للمرة الثانية وعين نابليون أخاه يوسف ملكا عليها .

وفى هولندا : قلب نظام الحكم الجمهورى إلى نظام ملكى وعين لويس أخاه ملكا عليها .

وفى ولايات الرين : أقطع لمورا (زوج أخته كارولين) قطائع واسعة على حدود بروسيا الغربية .

وقرر ١٥ أمير من أمراء المانيا الجنوبية والغربية (وفى مقدمتهم أصهاره ملكى بافاريا وورتمبرج وغراندوق بادن) الانفصال من الأمبراطورية الألمانية (التابعة للنمسا) وألفوا « ولايات الرين المتحدة » وجعلوا عاصمتهم فرانكفورت ثم عقد الأمراء مع نابليون محالفة مستديمة

دفاعية هجومية ومنحوه حق السلم والحرب
وقيادة جيش الاتحاد وتحديد عدده
والأشراف على السياسية الخارجية .

وبذلك عقد سلطان نابليون المطلق من نهر الألب شمالا إلى جبال البرنيز جنوبا فضلا عن نفوذه الشامل على إيطاليا واسبانيا .

وازاء هذه العملية القاسية التى مثل فيها نابليون بامبراطورية النمسا فى المانيا وإيطاليا أشنع تمثيل لم ير فرنسيس الثانى بدا من النزول عن لقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة» التاريخى والاكتفاء بلقب « امبراطور النمسا » فقط .

الباب الثانى : إلتحالف الدولى الرابع

الفصل الأول : أسباب التحالف

الفصل الثانى : موقعتان أخريان (يينا وأورستاد)

الفصل الثالث : قرارات برلين

الفصل الرابع : القيصر

الفصل الخامس : مارى ـ كونتس فاليسكا

الفصل السادس : انقلاب القيصر

الفصل السابع : معاهدة تلست

الباب الثانى

التحالف الدولى الرابع

الفصل الأول

أسباب التحالف

ذكرنا فى خاتمة الفصل الثانى من الباب السالف أن بروسيا قدمت (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٠٥) إلى نابليون إنذارا تهدده فيه بالانضمام إلى التحالف الدولى الثالث اذا هو لم يخل هولندا وسويسرا وبيمون وان موقعة أوسترلتز وقعت بعد ذلك بأيام (ديسمبر سنة ١٨٠٥) وأن التحالف الثالث انهار بعد هذه الموقعة الحاسمة . وأن نابليون على الرغم من انتصاره الشامل لم يشأ أن يرهق بروسيا بمطالبه . فاكتفى باتفاقية ١٥ فبراير التى أشرنا اليها أيضا فى ذيل ذلك الفصل وبها تعهدت بروسيا بالاشتراك مع نابليون فى واجب الدفاع عن سلامة

تركيا من اعتداء القيصر . وبمقاطعة التجارة الانجليزية . وفى نظير ذلك سمح لها نابليون بالاستيلاء على مقاطعة هانوفر .

وكان وليم پت قد مات فى يناير سنة ١٨٠٦ كما ذكرنا . أما الذى ولى الوزارة البريطانية بعده فكان مستر فوكس Mr. Fox منافس پت Pitt وصديق نابليون . ورأى نابليون أن توليه الوزارة فى تلك الظروف ربما كان من دلائل إذن الله بعقد صلح مع الانجليز فدخل معه فى مفاوضات تمهد لابرام هذا الصلح .

ولم يبق بعد ذلك من ملوك التحالف الثالث غير القيصر . وقد نما إلى علمه (فى شهر مارس سنة ١٨٠٦) نبأ تلك الاتفاقية التى حنث فيها ملك بروسيا بقسمه الذى أقسمه معه على قبر جده الأعظم والتى اتفق فيها مع نابليون (فى ١٥ فبراير سنة ١٨٠٦) على تلك الشروط التى ذكرناها فى حينها فلم ير بدا من الاتفاق هو الآخر مع نابليون . وأنشأ يفاوضه (فى مايو سنة ١٨٠٦) على شروط الصلح الذى يعقد بينهما . وبذلك أوشك علم السلام أن يرفرف على أوربا بأكملها بعد كل هذه الحرب .

ولكن القيصر فى الحقيقة لم يكن يبغى من وراء هذه

المفاوضة اكثر من أن يخادع نابليون ريثما يتصل بزميله القديم ملك بروسيا . ويعيد إليه توازنه بالارتباط معه بعهد جديد ينقض به عهده مع نابليون ويتنحى به أيضا عن طريق مطامع الروسيا فى الشرق . وقد نجح القيصر (فى يوليه سنة ١٨٠٦) فى عقد « معاهدة بوتسدام السرية » Potsdam التى تعهد له فيها ملك بروسيا بعدم التدخل إذا قام هو بواجب الدفاع عن تركيا من اطماع نابليون وهكذا نصب القيصر نفسه حارسا على تركيا من كل معتد عليها وهو لا ينوى إلا أن يستخلصها لنفسه ويستأثر بأسلابها دون غيره .

وكانت بروسيا فى الواقع منقسمة على نفسها . ففريق يرى مسالمة نابليون ودفع شره بالاتفاق معه وكان الملك وبعض وزرائه على رأس هذا الفريق.

وفريق آخر على رأسه الملكة ووزراء آخرون كانوا يرون الاشتراك مع الدول المتحالفة فى قتاله وذلك لعدة أسباب :

أولها — أن نابليون انتهك حياد الأراضى البروسية عند ما مرت جيوشه فيهـــا وهى تحاول الوصول إلى ماك ومفاجأته عند أولم .

وثانيها — أنه أهملها وتغافل عن وجودها وقضى على

مستقبلها فى ألمانيا حينما جمع الولايات الألمانيـــة الجنوبية والغربية وأنشأ منها « اتحاد الرين » .

وثالثها — ان الجنود الفرنسية كانت ما تزال مرابطة فى جنوب وغرب ألمانيا منذ حروب التحالف الثالث .

ورابعها (وأهمها) — أنه بعد أن فرض عليها مقاطعة التجارة البريطانية — وكان بذلك سببا فى دخولها فى حرب مع انجلترا والسويد — عاد فأدخل هانوفر فى شروط الصلح التى كان يعرضها على فوكس عند مفاوضته له مع أن هانوفر هذه هى الغنم الوحيد الذى قبلت بروسيا من أجله أن تجر على نفسها كل تلك المشاكل .

ولقد نجح هذا الفريق أخيرا فى التغلب على الفريق الآخر ورأست الملكة بنفسها فرقة من الجيش البروسى فأذكى ذلك حماسة مواطنيها وهبت بروسيا كلها فى وجه نابليون . وتشجع الملك فبعث فى السابع من شهر اكتوبر (سنة ١٨٠٦) بأنذار آخر إلى نابليون يهدده فيـه بأعلان الحرب عليه إن لم يبدأ الجلاء عن ألمانيا فى اليوم الثامن من ذلك الشهر اى بعد الأنذار بأربع وعشرين ساعة .

وأبت الأقدار الا ان يموت فوكس فى هذه الظروف

وأن تنقطع بموته مفاوضات الصلح مع الانجليز. وكان القيصر من جهة أخرى قد اطمأن على بروسيا بعد معاهدة بوتسدام (يوليه سنة ١٨٠٦) وأخذ يستعد لاستئناف القتال. ونجحت جهود انجلترا والروسيا فى كسب اسبانيا إلى صف الحلفاء بعد تحطيم أسطولها مع الأسطول الفرنسى فى معركة الطرف الأغر. وسخطها على نابليون لهذا السبب. وبذلك تألف التحالف الدولى الرابع من هذه الدول الأربعة (انجلترا. والروسيا. وبروسيا. واسبانيا) غير أن بروسيا لم تتمهل ريثما يصلها المدد الروسى اعتدادا منها بقوة جيشها. وبذلك وقعت فى نفس الغلطة التى وقعت فيها النمسا حينما سيرت جيشها تحت قيادة ماك فتقدم بمفرده وكان ذلك سببا فى نكبته عند أولم.

على أن الجيش البروسى كان جديرا بالاعجاب حقا من حيث عدته وعدده ولكنه كان من حيث ضباطه وقواده لا يصلح لمواجهة نابليون أصلا فأن رياسته كانت من تخريج المدرسة القديمة وكانت تسير فى حركاتها العسكرية على نفس الخطط التى كان يتبعها فردريك الأكبر فى القرن السابع عشر. ويكفى أن نذكر أن قائده الأعلى كان الدوق برنسويك الذى

كان فى عهد الثورة الأولى يهدد الفرنسيين بتخريب باريس أذا هم مسوا أفراد الأسرة المالكة بأذى فكان سببا بأنذاره هذا فى جمع كلمة الثائرين وشحذ هممهم ونجاح حركتهم .

ولقد اتبع نابليون كعادته سياسة التفاهم تلافيا لويلات القتال فكتب رسالة خاصة وجهها إلى ملك بروسيا لعله يرجع عن انذاره ويكفى الأمتين شر الحروب . ولكن الأمر كان قد خرج من يد الملك واصبحت القضية قضية الشعب البروسى . والشعب نفسه هو الذى كان يطلب الحرب فى هذه المرة . واليك نص رسالة نابليون :

١٢ اكتوبر سنة ١٨٠٦

أخى

. . . . اكتب لكم من قلب سكسونيا . وصدقونى إن القوة التى معى لن تسمح لجيوشكم بترجيح كفة النصر إلى جانبكم طويلا — ولكن لم إراقة الدماء ؟ — ولأية غاية ؟ — أنى لأكتب لكم بنفس اللغة التى وجهتها إلى القيصر قبل معركة أوسترلتز بيومين . . .

. .

يا صاحب الجلالة

لقد كنت صديقكم مدة ست سنوات . ولو أن مذكرتكم لى طلبت الىّ أجابة شروط معقولة لما ترددت فى إجابتها . ولكنها تفرض علىّ العار . فى وسعكم أن تعرفوا ماذا يكون جوابى — إذ لن يكون بيننا إلا الحرب وستنفصم عرى صداقتنا إلى الأبد ! فهل من سبب ندفع برجالنا من أجله إلى المذبحة ؟ إنى لا أرى قيمة للنصر الذى أشتريه بدماء الكثيرين من أبنائى . ولو أننى فى مستهل حياتى الحربية وكنت أخشى بعدُ أهوال المعارك لما كان لهذه اللغة التى أخاطبكم بها أى معنى . . .

ياصاحب الجلالة

إن لجلالتكم الهزيمة المحققة فى هذه الحرب . وانكم لتجنون بذلك على حياة هادئة كنتم تحيونها وعلى وجود قوى كنتم تكفلونه لشعبكم . وما لكم فى كل ذلك من شبهة فى عذر . واليوم تستطيعون أن تتفاوضوا معى بما يتفق مع سمو مركزكم . ولكنكم لن ينقضى عليكم شهر واحد حتى تجرى بيننا مفاوضات على أساس آخر . وانى لأعلم بأن ما اكتبه اليكم الآن يثير فيكم تلك الحساسية التى هى من طبع

الملوك . ولكن الظروف تضطرنى أن اكون معكم صريحا . وأرجو أن لا تروا جلالتكم فى كلامى هذا الا رغبتى فى حقن الدماء .

وأنى أسأل الله يا صاحب الجلالة أن يحيطكم بحفظه ورعايته .

أخوكم الصادق

نابليون

الفصل الثانى

موقعتان أخريان — يينا واورستاد

Jena & Aurstadt

لم تثمر دعوة نابليون إلى الصلح والتفاهم . وكانت خطة الجيش البروسى أن يسير غربا ليطرد الجيوش الفرنسية المرابطة هناك . ولكن نابليون ما علم بموقف بروسيا الأخير حتى طار إلى لقائها . وبهت برنسويك إذ علم أن نابليون قد تسلم قيادة الجيش الفرنسى فعلا . وانه جاد للقائه . وبعد أن كان ينوى أن يبدأ بالهجوم استحسن أن يتقهقر إلى مجدبرج تاركا جناحه الأيسر تحت قيادة (هوهنلوه Hohinlohe) للمحافظة على (يينا Jena) . ولكن نابليون أرسل دافوت « Davoust » للحاق ببرنسويك وانقض هو على هوهنلوه فى يينا (١٤ اكتوبر سنة ١٨٠٦) . فوقف له الجيش البروسى وقفة عنيدة منذ الساعة السادسة صباحا حين بدأت المعركة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر . واستمرت

المعركة فى حلال تلك الساعات الطويلة سجالا عنيفا بين الفريقين . وأخيرا راى نابليون من كلال العدو واعيائه ما جعله يطمئن إلى اتخاذ الاجراءات الختامية لأنهاء المعركة فبعث بفرقة من الفرسان قوامها ١٢ الف فارس تحت قيادة (مورا) فقضت بسنابكها على البقية الباقية من جيش هوهنلوه وملكت عليها مسالك الهرب . وظلت تعمل السيف فى فلول البروسيين حتى خيم الظلام واضيف يوم يينا إلى سجل نابليون الحربى كمفخرة من أزهى مفاخرة .

وكان دافوت قد ادرك فى نفس ذلك اليوم جيش برنسويك عند اورستاد على بعد ١٢ ميلا من يينا وانتهى به إلى مثل ما انتهى إليه نابليون بجيش هوهنلوه وبلغت خسائر البروسيين فى ذلك اليوم العصيب نحو ٢٠ الف اسير غير عشرين الف اخرى ما بين قتيل وجريح .

وكان ملك بروسيا نفسه من بين الأفراد القلائل الذين كتبت لهم النجاة فى ليلة تلك الهزيمة النكراء فظل على جواده هائما بين الحقول والغابات حتى ادركه الصبح وهو فى مخبأ بعيد ثم واصل سيره منه إلى حدود پولندا كما يتصل هناك بجيش الروس الموعود .

ولقد وقعت انباء هاتين الموقعتين على بقية الحصون البروسية موقع الصواعق فأخذ قوادها يتنافسون فى التسليم لنابليون حتى لم تبق الا « لوبك » (Lubeck) وكان عليها قائد شهم اسمه (بلوخر) وهو الذى تمت على يده فيما بعد هزيمة نابليون فى معركة ووترلو الشهيرة . فظل يقاوم الفرنسيين حتى تغلبوا عليه ودخلوا حصنه عنوة ولم يبق امامه الا الرضوخ .

وعند ذلك عرض نابليون على ملك بروسيا شروطا للصلح رآها الملك مجحفة لا يستطيع إلى إجابتها سبيلا فرفضها ورحب الحلفاء بهذا الرفض لأنهم كانوا ينوون القيام بعمل مشترك قريب وكانوا يخشون خروج بروسيا عليهم من جديد فينفرد نابليون بالروسيا ويسهل عليه افتراسها وبذلك تضيع الفائدة من جهود الحلفاء .

وانفتح الطريق إلى برلين امام نابليون فبعث إليها بدافوت ليسبقه فى دخولها تكريما له على حسن بلائه فى اورستاد . وقضى هو ليلتين فى پوتسدام نزل خلالها فى قصر فردريك الأكبر واقام فى حجرته وعرض الحرس الامبراطورى ثم زار قبر فردريك واخذ سيفه ومنطقته وغير ذلك من آثاره

وجمع اعلام حرسه الخاص فى حرب السبع سنوات وارسلها كلها إلى باريس كغنائم حرب.

وفى ٢٧ اكتوبر وصل نابليون برلين بين قواده واركان حربه وكان فى طليعة الموكب ثمانون من الحرس الامبراطورى حاملين الأعلام التى غنمها الفرنسيون من الجيش البروسى وقد خرج للقائه وفد من الأعيان والحكام تحت رياسة الكونت (هاتزفلد) Conte Hatzfeld حاكم المدينة فرحبوا به وقدموا له مفاتيحها.

ووصل نابليون إلى القصر الامبراطورى فى الساعة الثالثة بعد الظهر فأخذ يهتم بتنظيم المدينة واستبقى الكونت هاتزفلد حاكما عليها كما كان وتولى الكونت أمر المفاوضة بين الحكومة البروسية وبين نابليون ولكنه بلغ به الطيش إلى حد أن يفشى إلى بعض القواد البروسيين ما علمه بحكم مركزه عن الجيش الفرنسى. وتطوع بالتجسس على نابليون فضبطت إحدى رسالاته وقرر نابليون إحالته إلى المحاكمة تمهيدا لأعدامه.

وكان للكونت زوجة طيبة سليمة القلب فما كاد يصل

إلى علمها ما حل بزوجها حتى ظنت أنها وشاية وشى بها فى حقه بعض القواد الفرنسيين فعقدت النية على تبرئته عند نابليون. وتقدمت إليه وهى تذرف الدمع وألقت بنفسها عند قدميه واخذت تدافع عن زوجها بكل حرارة. وكان نابليون لا يحب من النساء أشباه الملكة لويزا التى دفعت زوجها ووطنها فى أتون هذه الحرب وسببت كل هذه الخسائر فى الأموال والأرواح ولكنه كان يمتلىء عطفا وحبا نحو المرأة الصالحة الطيبة مثل الكونتس هاتزفلد. فما هو أن رأى تأثرها وانفعالها حتى رفعها عن الأرض ثم فكر قليلا — وقال:

— « لا شك يا سيدتى أنك تعرفين جيدا خط زوجك. فخذى هذه الرسالة واقرئيها ثم ابرينى عمن كتبها! ».

وناولها الرسالة. فعرفت خط زوجها. ولم يسعها إنكاره. وعلمت أنه لم يعد لها حجة لطلب العفو. فلملمت نفسها ونهضت.. ثم انفجرت مرة أخرى بالبكاء وهى تهم بالخروج مستسلمة إلى قضاء الله. وعند ذلك استوقفها نابليون ومد إليها يده بالرسالة قائلا:

— « خذى هذه الرسالة يا سيدتى وألقها فى النار ينعدم

الدليل الوحيد الذى لدينا على خيانة زوجك وبذلك ينجو من القصاص ! » .

فبهتت المرأة لسماع هذا الكلام وتناولت الرسالة وألقتها فى النار ووقفت تنظر إلى ما يتصاعد من لهبها ودخانها وهى لا تكاد تصدق ما تسمع وما ترى .

الفصل الثالث

قرارات برلين

دخل نابليون برلين فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٠٦ كما اسلفنا. ودانت له بذلك ألمانيا الشمالية. كما دانت له من قبل ألمانيا الجنوبية فضم مقاطعتى هس — كاسل Hesse - Cassel وبرنزويك Brunswisk بعضها إلى بعض بعد أن عزل أميريهما لاشتراكهما مع بروسيا فى حربها الأخيرة وأنشأ منهما مملكة « وستفاليا » «Westfalia» وعين أخاه الأصغر جيروم ملكا عليها.

أما أمير ساكسونى فأنه بادر من تلقاء نفسه فطلب الانضمام إلى « اتحاد الرين » ليكسب بذلك عطف نابليون عليه. وقد صدقت فراسته وانعم عليه نابليون بلقب « ملك ساكسونيا » فشجع كثيرا من ولايات المانيا الشمالية الصغرى التى كانت تخشى غضب نابليون عليها فتفادته بانضمامها هى الأخرى إلى « الاتحاد ».

على أن نابليون اصبح لا ينظر إلى هذه الانتصارات والفتوح كغاية فى ذاتها يصح الاغتباط بها والتعويل عليها بعد أن رأى ما رأى من تصميم انجلترا على هدمه فبات هو الآخر لا يقر له قرار حتى يتخلص منها أو يتغلب عليها واصبحت حروبه كلها بعد تحطيم أسطوله وأسطول حلفائه الاسبان فى موقعة الطرف الأغر وبعد وفاة صديقه فوكس لا تعدو أن تكون وسيلة لبسط نفوذه على جهات جديدة من أوربا ليحملها بقوة سيفه على أن تتعاون معه فى القضاء على انجلترا بمقاطعة تجارتها وحصرها فى جزائرها حتى تضمحل وتهلك.

ففى ٢١ نوفمبر أصدر من برلين أول حلقة من سلسلة المرسومات الشهيرة « بمرسومات برلين » أو « قرارات برلين » وهى التى أعلن فيها أن الجزائر البريطانية فى حالة حصر — وأنه من المحرم الاتصال بها أو الاتجار معها. فالمراكب الانجليزية التى تضبط فى المياه الفرنسية أو مياه حلفائها تكون غنيمة حربية للفرنسيين والرعايا البريطانيون الذين يضبطون على الأرض الفرنسية أو أرض حلفائها يلقى عليهم القبض ويعاملون كأسرى الحروب.

وكانت هذه المرسومات أساس تلك السياسة التى اشتهرت

فيما بعد باسم « النظام القارى » وهى تلك السياسة التى أراد بها نابليون أن يقضى على انجلترا بالقضاء على تجارتها فى القارة الأوربية . فكانت بدورها سببا فى القضاء على امبراطوريته . ثم على عظمته ومجده . ثم على آماله وعلى شخصه . وذلك لأن تنفيذ هذه السياسة لم يكن متعلقا بأشخاص الملوك الذين كان يحملهم نابليون على اتباعها . ولا بالحكومات التى كان يلزمها نابليون بوجوب السير عليها ولكنها كانت تمس افراد الشعوب المختلفة واحدا واحدا وتستدعى تضحيات شخصية يقوم بها كل إنسان فى حاجياته وادوات عيشه لأن المراكب الانجليزية كان يقع عليها عبء تموين أوربا كلها بما تحتاج إليه دولها المختلفة من مصنوعات العالم ومنتجاته فمنعها من أداء عملها معناه حرمان هذه الدول مما تحتاج إليه من المصنوعات وفى بعض الأحيان حرمانها مما هى فى حاجة إليه من الغذاء .

ولقد صادف نابليون بعد هذه القرارات فتوحا باهرة . واضاف إلى عظمة اسمه اسبابا جديدة ولكنه فى الواقع وهو يوقع هذه القرارات كان يوقع صك فشله وسقوطه .

الفصل الرابع

القيصر

تشكل التحالف الرابع فى أحرج الأوقات بالنسبة لنابليون وكانت الغاية كما أوضحنا تحويل نابليون عن الغزوة البريطانية ومفاجأته فى الوقت نفسه بنصف مليون جندى يزحفون على حدوده الشرقية فيملون عليه الشروط التى ترضاها انجلترا وحلفاؤها .

ولكن نابليون حطم النمسا تحطيما فى أولم وأوسترلتز . وقضى على جيش بروسيا قضاء مبرما فى يينا وأورستاد . ولم يبق من زعماء التحالف أمامه إلا القيصر — وقد عقدت أوربا عليه وعلى جيشه العظيم آمالها فى القضاء على نابليون !

وكان هذا القيصر الذى عقدت عليه الآمال فتى شاباً رقيقاً. خفيف الروح . أحمر الخدين . نسوى الملامح . عواطفه هى العنصر الغالب فى مزاجه . ولم يكن على أية حال ند نابليون فى تلك الوقفة التاريخية التى أوشكا أن يقفاها . وبحسبى أن أسوق لك وصف نابليون نفسه له ليتبين لك الفرق بين الغريمين

« إن القيصر اسكندر لأحد أولئك الناس الذين تجذبك اليهم صفاتهم والذين يفتنك سحرهم ويحملك على التعلق بأشخاصهم ولو أنني رجل أندفع وراء العواطف الشخصية لكانت له على قلبي السيطرة المطلقة . ولكنه إلى جانب ذلك ينقصه شيء لا أستطيع تحديده — شيء لا يستطيع الانسان أن يخصصه بظرف معين أو بحالة معينة لأن ذلك الذي ينقصه يختلف دائما باختلاف الظروف والأحوال . . . ،

وفى الجملة لو أن هذا القيصر امرأة فما أظن إلا أنى كنت اتخذته خليلة لى ! »

***

وقد كان نابليون يعلم من رجاله الذين دخلوا قصر پوتسدام (حيث كانت تقيم الملكة لويزا ملكة بروسيا) أن القيصر كانت له منزلة ممتازة فى قلب الملكة وأنه ترك لها صورته كتذكار وأن هذه الصورة قد وجدت كما قال نابليون « معطرة بأطيب العطور وقد اختلطت هى وأدوات الزينة برسائل الدولة الرسمية ووثائقها » ولذلك لم يفت نابليون ما فى الموقف من الخطر إذا ما اتحد ملك بروسيا تسوقه عوامل الوطنية والغيرة على سمعة بلاده بقيصر الروسيا وهو مدفوع بشهامته

وعهوده للملكة بأنه سيقف إلى جانبها حتى يتم لها النصر والفوز

ووافته الأنباء من بروسيا الشرقية بأن الروسيا قد بعثت بجيش عظيم تحت قيادة بنجسن Bennigsen لرفع الحصار عن بعض موانى ألمانيا الشمالية التى كان يحاول نابليون الآن الاستيلاء عليها توسعاً فى تنفيذ « نظامه القارى » فغادر برلين من فوره وسار قاصدا إلى نهر الفستولا حيث علم باجتماع ملك بروسيا بجيش القيصر وقد أوحت اليه فطنته أن يمهد للحملة القادمة بمنشور أذاعه على البولنديين يمنيهم فيه بالعمل على إعادة استقلالهم اليهم ليضمن ولاءهم له وليزيد بأثارة هذه الخواطر فيهم حرج مركز أعدائه .

ولكن هذا المنشور كان سبباً فى اتصال نابليون بالكونتس فاليسكا « Comtesse Waleska » ذلك الاتصال الذى لا نستطيع ان نمر بدون الاشارة اليه لما كان له من التأثير المباشر فى ما استجد بعد ذلك من الحوادث .

الفصل الخامس

ماری فاليسكا

ساجية الطرف . ساحرة النظرات فتانة الملامح . لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . من اسرة عريقة فى المجد ولكنها فقيرة ولذلك اغرتها امها بقبول الزواج من الكونت فاليسكا الشيخ البولندى العجوز طمعا فى غناه وتحسين حال الأسرة . وقبلته الفتاة راضية مع ان اصغر احفاده يكبرها بنحو عشر سنوات وكانت مارى قد تقدم اليها شاب روسى نبيل يطلب يدها فرفضته بأباء لالشىء إلا انه روسى والروسيا هى عدوة بلادها بولندا وسر نكبة اسرتها لأنها اشتركت مع النمسا وبروسيا فى القضاء على استقلال وطنها[1]. فكانت إذا اشتبكت دولتان من هذه الدول الثلاثة فى حرب فليس على المغلوب إلا ان يسترضى الغالب بالتنازل له عن شىء من حصته فى ارض

---

(١) تقع بولندا بين هذه الدول الثلاثة . فكانت بحكم موقعها موضع التجاذب بينها تسعى كل واحدة منها للاستيلاء عليها . ولكنها اتفقت أخيراً على تقسيم بولندا الى ثلاثة أقسام تختص كل دولة منها بقسم .

پولندا . وهكذا بقيت تلك البلاد التعسة نهبا مقسما بين هذه الدول .

واخيراً ظهر نابليون فى اوربا حاملا لواء الديمقراطية فى وجه الاستبداد الارستقراطى العتيق ورأته مارى يقضى على النمسا ثم على بروسيا فتوجهت ميولها إليه ثم رأته يتقدم الآن للقضاء على روسيا فرأت فيه الصديق الطبيعى لبلادها لأنه عدو أعدائها وتمثلت فيه قوة الله التى سخرها لانقاذ وطنها فما هو ان عرفت امر المنشور الذى اعلن فيه عن عزمه على إعادة استقلال پولندا حتى كانت فى طليعة مستقبليه . وبلغ بها الانفعال لدى رؤية موكبه الفخم ان القت بنفسها إلى جانب عربته قائلة :

« مرحباً بك يا مولاى ! إن ارض پولندا لتتشرف ان تطأها قدماك وان البولنديين مهما فعلوا لتحيتك لا يستطيعون ان يعبروا التعبير الصادق عما تكنه افئدتهم من الحب لشخصك العظيم . وان هذا الوطن المنكود ليضرع اليك ان تأخذ بيده لتنقذه من الاستعباد . »

وقد أُخذ نابليون بفتنة هذه الشابة وهى تتوسل اليه وتستجديه العطف على قضية بلادها فوعدها خيرا وناولها

باقة من الزهور كانت فى يده طالبا اليها ان تحتفظ بها كعربون على حسن نياته نحو پولندا . . .

دخل نابليون بعد ذلك مدينة وارسو واقيمت له حفلة استقبال باهرة جمعت وجوه القوم . واقيال پولندا . وازدانت الحفلة بعقائل كبار البولنديين — وكان الجمال البولندى ومازال مضرب الأمثال فى كل اوربا — فزاغت أبصار ضباط نابليون وقواده . وطفق كل منهم يتودد إلى إحدى المحتفلات يراقصها ويحادثها بينما جلس نابليون فى مكانه شارد الفكر قلق العينين حتى لقد استلفت امره انظار كل الحاضرين .

واخيرا استقرت عيناه على جهة معينة وأبرقت اساريره وادركته شبه نشوة فأكثر من ملاطفة جلسائه ومعابثتهم حتى لقد دهش الجميع من هذا الانقلاب وتتبعوا نظراته فاذا هى مصوبة نحو إحدى المدعوات فاشرأبت نحوها الأعناق وسرى اسمها سريان البرق فى كل صالونات القصر من فم إلى فم — « الكونتس فاليسكا ! »

وانتهت الحفلة . . .

وما كادت تدخل الكونتس مخدعها حتى سلمتها وصيفتها الرسالة التالية :

« لم ار غير وجهك . ولم اعجب إلا بك . ولست ارغب إلا فيك فهل من رد عاجل تطمئن له نفسى القلقة الثائرة. ن . »

ولكن الجنرال ديروك عاد دون ان يظفر برد على هذه الرسالة وكان وقع ذلك على نفس نابليون اليما . فانه اعتاد ان يرى النساء والأميرات يتهافتن عليه إذا ما القى بنظرة إلى إحداهن فما بال هذه الشابة تصد عنه وتهمل رسوله ؟ افينتقم منها هذا التصرف ويغضب عليها كما كان يغضب على كل من حاول ان يعصى له امرا ؟ حبذا لو استطاع — وحبذا لو فعل ! ولكنه لم يستطع إلا ان يرسل اليها رسالة اخرى :

« هل اغضبتك يا سيدتى ! كنت اطمع فى ان القى منك غير ما لقيت فهل اخطأت ؟ إن اندفاعك نحوى قد فتر بينما اندفاعى نحوك ينمو ويزيد حتى لقد سلبتنى الراحة فهلا تمنين بشيء من الفرح والسعادة على قلب لا يريد الا ان يجلك ويمجدك ؟ وهل يصعب عليك إلى هذا الحد أن تجيبى على رسائلى بكلمة ؟ أنك مدينة لى بردين ! ن. »

أما الرسالة الأولى فأن « مارى » قد كورتها فى يدها وألقتها إلى الأرض نافرة من جرأة أسلوبها . وأما هذه الرسالة فأنها ابت ان تفتحها اصلا وامرت الرسول بأن يعود بها إلى

سيده . ولكن الرسول لم يذكر إلا أنه لم يظفر برد .

وثقلت وطأة هذا الفشل المتكرر على نفس نابليون . ورأى أن يطرق باب الأيهام والتعليل مادام باب الاستعطاف والتوسل ظل موصدا فى وجهه .

وذهب « ديروك » للمرة الثالثة برسالة جديدة وفى هذه المرة دخل على الكونتس بنفسه وظل يعالج إصرارها وعنادها بكل ما أتاه الله من فنون القول وأساليب الكلام ثم ألقى على ركبتيها مظروفا جديداً فقرأت فيه :

« سيدتى إن العظمة لتثقل على النفس أحيانا . وهذا ما أحسه الآن ، وكيف أستطيع أن أجيب مطلب قلب يود لو يطير اليك فتقعده أثقال الاعتبارات العالية ؟ . . . إنك أنت التى تستطيعين أن تزيلى مابيننا من العوائق وهذا صديقى ديروك يعاونك ويمهد لك السبيل ! تعالى الى وكل رغباتك مُجَابةٌ . وسيكون وطنك اعز على نفسى متى اخذتك الرحمة بقلبى المعذب المسكين . . . »

وصدقت فراسة نابليون . . . . وكثرت المؤثرات حول رأس الكونتس الشابة حتى لم تعد تدرى ماذا تقول او ماذا تصنع . ولم يبق من كبار رجالات پولندا من لم يشجعها على

تلبية نداء الامبراطور خدمة لقضية بلادها . فاستسلمت المسكينة آخر الأمر . وانهمرت الدموع من مآقيها وقالت فى تنهد عميق :

« اصنعوا بى ما شئتم . وليكن ما يرى الله ان يكون ! »

وكان الموعد المضروب لذهابها اليه فى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم . ووقف نابليون فى غرفة قبيل الموعد وقد عقد كفيه وراء ظهره واستغرق فى افكار عميقة وهو يذرع أرض الغرفة مسرعا جيئة وذهابا مضطرب العقل سابح النظرات حتى لقد قال عنه خادمه كونستان فى مذكراته :

« كان نابليون قبيل تلك الساعة كتلميـــذ ضرب أول موعد لحبيبته . فأخذ قلبه يخفق وصبره ينفد وهو يسأل بحدة بين كل دقيقة وأخرى : كم الساعة الآن ؟ ولقد صرف نابليون فى تلك الساعة سكرتاريه وطلب أن لا يدخل عليــه قواد ولا غير قواد . وأمر بأن يحل جواده وينزع عنه سرجه . ولينتظر الآن كل رجال السراى — والجيش — وباريس ولتنتظر أوربا كلها أيضا . . . ! فأن هذا الرجل الذى أفنى من عمره سبعا وثلاثين سنة لم يعرف فيها طعم الحب الا مرة واحدة حين رأى جوزفين وهى تكبره بأكثر من ست

سنوات قد عاد الآن إلى حظيرة الحب وأسلم زمامه لصبية فاتنة رفضته مرتين ولم يصل اليها الا عن طريق المخادعة والتلويح بالوعود الخلابة.

وانقضت المقابلة الأولى بين النسر وفريسته بعد ثلاث ساعات طويلة قضتها الكونتس فى بكاء مستمر وقضاها نابليون فى ملاطفة متواصلة حتى لقد خرجت الكونتس من عنده فى الساعة الواحدة وهى تعجب لهذا الرجل الذى يقول الناس عنه انه « حديدى » والذى رأته هى بعينها يذوب رقة ويقطر حنانا . . .

وتكررت هذه الزيارة بعد ان اطمأنت فاليسكا إلى نابليون . واصبحت تأنس به وتسر بمجلسه . ووجد نابليون فيها بما أبدته من العفة والولاء ضالته التى ينشدها من بين نساء العالمين فحرص عليها وقضى كل أوقاته بين يديها ولعل شيئا من ذلك وصل إلى علم جوزفين فى باريس فاهتاجتها الغيرة وألحت على زوجها فى وجوب حضورها اليه فكان يعتذر لها ببعد الشقة وسوء حالة الجو . ولكن هذه المعاذير لم تكن تزيدها إلا رغبة فى السفر واضطربت نفسها وقلقت خواطرها وبلغت نابليون اخبار حزنها ويأسها وبكائها المستمر . . . فكتب اليها يقول

« إن ما بى يا عزيزتى لفوق الذى بك . ولكم كنت اتمنى ان تشاطرينى ليالى هذا الفصل الطويلة ولكننى اتطلب منك شيئا من الشجاعة والحزم . . ولقد اخبرونى انك دائما تبكين . فأف لهذا البكاء . ما اقبحه واثقله ! . . . . إن الأمبراطورة ينبغى ان تكون ذات قلب شديد ! فابقى إذن بباريس وكونى فيها مرحة سعيدة . وربما وافيتك فيها عن قريب . اما قولك انك اتخذت لك زوجا لتكونى معه فقد اضحكنى كثيرا . فانى اظن — على جهلى — ان المرأة لرجلها وان الرجل للوطن . وللأسرة . وللمجد ! »

وهكذا انعكست الآية بين نابليون وجوزفين فبينما كان هو يلح عليها فى ايطاليا متوسلا اليها ان تحضر اليه وهى غافلة عنه بأصحابها واصدقائها الكثيرين اصبحت هى اليوم تلح عليه فى پولندا متوسلة اليه ان يسمح لهـــا باللحاق به وهو يدافعها عن نفسه بنفس اعذارها المنتحلة . وينشغل عنها بكنزه الثمين — مارى !

ولم تكن اهمية مارى لنابليون فى أنها وهبته ولاءها بعد صدها وحبته برضائها بعد نفورها . ولكن فى أنها وضعت له

غلاما [١]. وكان ذلك سبباً فى إقناعه بأن عقم جوزفين ناشئ عن نقص فيها هى لا عن نقص فيه . فقويت عنده فكرة الطلاق منها ليتيح لفرنسا وارثاً يجلس على عرشه فيها من بعده

* * *

وأخيراً علم نابليون بتقدم القائد الروسى « Bennigsen » نحو شواطئ ألمانيا الشمالية ودعاه إلى اقـائه داع « المجد والوطن » كما كان يقول لجوزفين . فلم تقعد به صلاته بمارى ولم يضع احساسه بالواجب فى وسط تلك الدنيا التى انغمست فيها حواسه . ولكنه هب يودع رفيقته فأعطاها خاتما نقشت عليه هذه العبارة :

« Si tu cesse de m'aimer, n'oublie pas que je t'aime »

« إذا أمسكت عن حبى فلا تنسى أننى على حبك مقيم ! »

وهكذا انفصل الصديقان ولم يقدر لهما أن يجتمعا بعد ذلك إلا فى جزيرة البا حيث نفى نابليون بعد اعتزاله الملك ورأت مارى أن تلك ساعتها التى تستطيع أن تدخل السرور على قلب صاحبها القديم فرحلت اليه هى ووليدها وكانت بذلك كريمة معه فى محنته أشد مما كانت كريمة معه فى نعمته ! .

---

١ أصبح هذا المولود فيما بعد وزير خارجية فرنسا وذلك فى عهد الامبراطور نابليون الثالث .

الفصل السادس

انقلاب القيصر

سار بنجسن Bennigsen نحو ميناء دانتزج ولكن تقدم نابليون نحوه كان سبباً فى ارتداد الجيش الروسى إلى إيلاو حيث حضر القيصر بشخصه وهناك التحم الجيش الفرنسى وعلى رأسه نابليون بجيش القيصر (٨ فبراير سنة ١٨٠٧) وللمرة الأولى فى تاريخ الحروب النابوليونية تدوم المعركة ثلاثة أيام كاملة يخسر فيها الفرنسيون نحو ٢٥,٠٠٠ جندى ثم يرتدون وقد أخطأهم ذلك النصر الذى كان من نصيبهم دائماً فى كل المعارك السابقة.

ولم يشأ نابليون أن يعاود القتال مع الروسيين بعد الذى رآه من صلابتهم قبل أن يزود جيشه بكل ما يستطيع جمعه من الأدوات فلبث ثلاثة شهور يتلقى من حلفائه كل ما استطاعوا جمعه له ونجح فى الوقت نفسه مسعاه فى إثارة سلطان تركيا للقيام من جديد فى وجه القيصر « عدوهما المشترك » . وفى

تأكيد تمنيـــاته السلبية للنمسا حتى لا تفكر فى الانتصار لحليفها القديم . وفى حض البولنديين على انتهاز هذه الفرصة وحمل السلاح فى وجه شر أعدائهم والعامل الأساسى فى هدم استقلالهم وتمكن بهذه التعبئة العامة سلبيها وإيجابيها من تقوية مركزه وإحراج مركز خصمه .

وأخيراً (٥ يونيه سنة ١٨٠٧) اشتبك الفريقان ودارت بينهما عدة معارك صغيرة كان النصر فيهـا سجالا بينهما . وفى العاشر من ذلك الشهر دارت معركة دموية بلغت خسائرها نحو ١٨,٠٠٠ جندى فما كان أعجب إلقاء الفريقين لسلاحهما عند الصباح وقيامهما معاً . ومن غير اتفاق سابق باسعاف جرحاهم ودفن موتاهم وقد اختلط بعضهم ببعض فى نفس الميدان الذى هلك فيه بالأمس إخوانهم وزملائهم ! .

واستؤنف القتـال وارتد الروسيون شمالا نحو قرية فريدلند «Friedland» الواقعة على نهر الآل يلتمسون لنفسهم جنة يتقون بها هجمات نابليون ولـكنهم ظلوا يتقهقرون حتى بلغوا تلك القرية فى الرابع عشر من شهر يونيه وأشرف نابليون من فوق ربوة عالية يتبين مواقع أعدائه فما كاد يرى « Bennigsen » بجيشه وقد وقفوا عند تلك القرية والنهر

وراءهم حتى أمسك بذراع المارشال ناى « أشجع الشجعان » كما كان يسميه — مشيراً بأصبعه إلى القرية وإلى الجنود الروسيين الذين تموج بهم سهولها قائلا :

« ذلك هو الهدف . فاحمل عليه ولا تنظر إلى ما حولك وألق بجيشك على أكداس هذه الجنود مهما كلفك الهجوم ثم ادخل القرية واستول على جسورها ولا تهتم بما يجرى عن يمينك أو عن شمالك أو من خلفك فسأكون أنا وبقية الجيش فى أثرك ! » .

فانقض ناى كالقضاء المبرم ومعه أربعة عشر الف من رجاله على جيش « بنجسن » فما كاد يدخل القرية حتى أشعل النار فى مساكنها . ثم بادر إلى جسورها فحطمها ثم أعمل السلاح فى كتائب الروس فارتدت أمامه . ولم ير الفارون منها بدا من الالقاء بأنفسهم فى مياه النهر . فابتلع الماء أكثر مما أتلفت النار . وفنيت قوة الروس فى ذلك اليوم العصيب وتحطم آخر أمل لهم فى قتال نابليون .

وقد بلغت خسائر الروس بين الخامس والخامس عشر من شهر يونيه سنة ١٨٠٧ نحو ستين الف جندى ما بين قتيل وجريح وأسير غير ١٢٠ مدفع استولى عليها الفرنسيون و ٣٠٠



استنشاق السَّعوط
كان نابليون يستنشق سعوطا من التبغ
ويكثر منه فى ميدان القتال

مركب كانت راسية فى ميناء كونجزبرج وهى مثقلة بأنواع الذخيرة وأصناف السلاح .

ونشر نابليون على جنوده بعد تلك المعركة الحاسمة نشرة من نشراته التاريخية الخالدة مجد فيها أعمالهم وذكرهم بأنهم فى أوسترلتز أحيوا ذكر ارتقائه على عرش الامبراطورية وانهم فى فريدلند احيوا ذكرى معركة مارنجو التى حطموا بها التحالف الدولى الثانى . ثم قال لهم :

أيها الفرنسيون ! إنكم تعودون اليوم إلى فرنسا وعلى جبينكم اكليل من الغار لأنكم هيأتم الطريق لصلح شريف يحمل فى ثناياه كل ما يكفل بقاءه وقد آن الأوان لوطننا العزيز ان يعيش فى هدوء بعد ان وقيناه شر احقاد الانجليز . وستكون اعطيتى لكم عنواناً حياً لاعترافى بفضلكم . ورمزاً ناطقاً للمحبة التى احسها نحوكم ! » .

٭ ٭ ٭

أما القيصر الشاب فقد أخذته نوبة اعجاب بنابليون جعلته يطلب لقاءه عن شوق ليفضى إليه بتقديره لنبوغه وليتفق معه على أساس صالح يقيم فوقه بنيان عهد جديد يتفق مع حسن ميوله نحو الفرنسيين وزعيمهم العظيم . وتلقى نابليون هذه الدعوة

بالسرور والارتياح وحدد اليوم الخامس والعشرين من شهر يونية للقاء غريمه

ووقف على شاطيء نهر نيمن « Niemen » فى ذلك اليوم صفان طويلان من الجنود فى أحسن لباس وأفخر زينة ـ هذا حرس القيصر وهذا حرس نابليون . وفى تمام الساعة الواحدة أطلقت المدافع وأبحر زورقان واحد من كل جانب من جانبى النهر . والتقى العاهلان فى وسط النهر فوق رمث أعد لهذا اللقاء وأسرع نابليون فى النزول إلى هذا الرمث ثم استقبل القيصر عند ما وصل .... بالعناق !

وكان أول ماقاله القيصر لنابليون :

— انى اكره الانجليز بمقدار كراهتك لهم وأنى على استعداد لتأييد رأيك فى كل ماتقترح بشأنهم ! .

فأجابه نابليون :

— « لقد أصبح من السهل إذن يا صاحب الجلالة أن تسوى علاقاتنا وأن يتم اتفاقنا على الصلح »

ودام اللقاء ساعتين خرج القيصر بعدهما مأخوذا بما رآه من عظمة نابليون وتفرده فى السيطرة على النفوس والعقول .

الفصل السابع

معاهدة تلست [٧ يوليو سنة ١٨٠٧]

فى اليوم التالى ذهب القيصر للقاء نابليون مرة اخرى وفى صحبته ملك بروسيا التعس لعل حضوره يكون سببا فى عطف نابليون على بلاده . وحاول الرجل أن يعتذر بين يدى نابليون عن رفعه السلاح فى وجه فرنسا ولكن نابليون لم يشأ أن يؤذى إحساسه بالشماتة فيه بعد أن رفض نصحه وأصر على قتاله واكتفى فى الرد عليه بأن يندب سوء الحظ الذى قضى على بلاط برلين أن يستسلم لمكائد الانجليز ودسهم ويتسبب بذلك فى إشعال حرب جديدة فى أوربا

وقرر القيصر أن يجعل إقامته بعد ذلك اليوم فى مدينة تلست Tilsit التى يقيم فيها نابليون فكان العاهلان يخرجان كل يوم على جواديهما يتبعهما ملك بروسيا. فيقضيان الساعات الطويلة وهما يتحدثان فى شئون أوربا وفى السياسة التى ينويان السير عليها بعد ان استحكمت بينهما عرى هذه الصداقة .فكان لا هم للقيصر فى كل حديثه الا مصير الامبراطورية العثمانية . ونصيبه فى أسلابها

وكان نابليون هو الذى تسبب أخيراً فى أن تعلن تركيا الحرب على الروسيا فتعهد بالوساطة عند السلطان لصالح القيصر وتحقيق اطماعه فى الشرق ولكنه كان حريصا على ان يتقاضى ثمن هذه الوساطة من القيصر بطلب تدخله هو بين فرنسا وانجلترا وحسم النزاع القائم بينهما حتى اذا لم يفلح فى حمل انجلترا على الاتفاق مع نابليون انسلخ عنها وانضم الى نابليون عليها . وكان مما قاله نابليون لصاحبه يوما فى هذا الصدد :

« — ما هى الغايات التى ترمى اليها انجلترا ؟ إنها تريد أن تحكم البحار مع انها ملك شائع لجميع الأمم . وتريد ان تستبد بالمراكب المحايدة . وتحتكر التجارة لنفسها . وتثبت أقدامها فى كل مكان تصل اليه اقدامها من ارض القارة : فى البرتغال : فى الدنمرك . وفى السويد — وتريد ان تستولى على أهم محطات العالم البحرية : على رأس الرجاء الصالح. وعلى جبل طارق .وعلى مالطا . وهى الآن تستعد للاستيلاء على مصر وكانت حكومتها تريد ارسال بعثة الى الدردنيل والله وحده يعلم ماذا كان يؤول اليه مصير الشرق إذا هى استولت على هذا المضيق .

إنهم يتهمونني بانى اسعى الى الحرب وانني مغرم بها . وليس ابعد عن الحقيقة من هذا الاتهام وهانا على اتم اهبة لاثبات قولى فلتكن انت وسيطا بيني وبين وزارة لندن وان لك من الصلة

بانجلترا بحكم كونك حليفها ما يؤهلك للوقوف هذا الموقف بيني وبين الانجليز وانى مستعد للتخلي لهم عن مالطا فى نظير اعترافهم بفتوحى بعد صلح اميان . ولكن لا بد لهم من التخلي بدورهم عن مستعمرات حلفائى (اسبانيا وهولندا) التى استولوا عليها وراء البحار . وعندذلك انزل لهم عن هانوفر . فما رأيك فى هذه الشروط ؟ الست تراها عادلة منصفة ؟ وهل فى استطاعتى ان اقبل غيرها؟ وهل يحق لى ان اتخلى عن حلفائى ؟ واذا كنت انا اريد التخلي عن فتوحى فى قارة اوربا لأكفل لحلفائى عودة املاكهم اليهم ايكون هناك ادنى مجال للشك فى اعتدالى واستقامة نواياى ؟ !

فاذا رفضت انجلترا هذه الشروط فلا بد من حملها على قبولها إذ ليس من الصواب أن تظل ترمى على رأس العالم شواظ هذه الحروب . وان لدينا من الوسائل ما يمكننا من إرغامها على قبول الصلح . فاذا أبت الا رفض هذه الشروط فأعلن للعالم انضمامك إلى فرنسا . وصرح بأنك ستضم قواك إلى قواها حتى يتحقق السلام فى اوربا . ولتعلم انجلترا بذلك أنها فوق حربها مع فرنسا ستكون فى حرب مع قارة اوربا بأسرها : مع الروسيا وبروسيا والدنمرك والسويد والبرتغال وهى الدول التى تتحتم عليها الطاعة

إذا نحن أفضينا بأرادتنا اليها . ولن يكون أمام النمسا غير هذه السبيل اذا هى رأت أنها لابد لها من الانضمام إما الى انجلترا وإما إلى صفوفنا وعند ذلك لاترى انجلترا مفرا من إلقاء السلاح .

وسأكون أنا بدورى وسيطا بينك وبين السلطان . فأذا رفض قبول الشروط المعقولة التى أعرضها عليه فأنى أنضم معك على الأتراك وعند ذلك نقوم بتقسيم الأمبراطورية العثمانية التقسيم اللائق . »

وهكذا تم الاتفاق بين العاهلين على أن يكون أحدهما صاحب الكلمة فى الغرب ويكون الآخر صاحب الكلمة فى الشرق !

أما بروسيا فلم يبق لها بعد عملية التشذيب التى أجراها لها نابليون الا نصف أرضها فقد اقتطعت منها فى الغرب مملكة وستفاليا وفى الشرق غراندوقية وارسو التى اعطيت لملك ساكسونى . وذلك بخلاف مافرض عليها من الغرامات الفادحة التى ارهقت خزانتها وبخلاف تحديد عدد جيشها بأربعين الفا لاتجوز الزيادة عليها بحال من الأحوال .

وأحست الملكة لويزا ان وجود زوجها إلى جانب القيصر ونابليون لم يحول هذا الجبار عن عزمه بالنسبة لوطنها وكانت لها ثقة غير محدودة فى فتنة جمالها وسحر كلامها . فذهبت تجرب حظها



نابليون مع ملكة بروسيا فى تلست

هى الأخرى لعل مواهبها الخلابة تعوض على بلادها تلك النكبات التى أوشكت أن تتردى فيها بسببها . فقصدت إلى تلست ....

ولكن يظهر ان قدومها جاء متأخرا نوعا فان اساس الاتفاق كان قد ابرم بين القيصر ونابليون ورسمت خطته النهائية . ولم تعد الوساطة مجدية على احد نفعا على الرغم من تفنن الملكة فى التأثير على نابليون وفى كسب رضاه

ولقد كتب نابليون فى تلك الفترة إلى جوزفين يقول لها

« إن ملكة بروسيا لامراة فتانة حقا وهى ذات ولع بملاطفتى والتودد إلى ولكن إياك ان تغارى منها . فأنت تعرفينى كالقماش « المشمع » الذى تتزلق عليه امثال هذه الأشياء دون ان تبلله او تخترق نسيجه على انى اعرف ما اتكبده من الخسائر الفادحة لو انى رضيت ان ابادلها شيئا من مجونها ! »

وهكذا اخفقت « الأمازونة » حتى فى ميدان العواطف : وكانت الصدمة قاسية على اعصابها حتى انها لم تنج من تأثيرها . وماتت فى ميعة صباها دون ان تبلغ الخامسة والثلاثين .

الباب الثالث :   النظام القارى وآثاره

الفصل الأول — اثر النظام فى سياسة نابليون

الفصل الثانى — اثره فى ولايات البابا

الفصل الثالث — اثره فى البرتقال

الفصل الرابع — حكومة اسبانيا

الفصل الخامس — رواية تاريخية

الفصل السادس — الحملة الاسبانية

الباب الثالث

النظام القارى وآثاره

الفصل الأول

أثر النظام فى سياسة نابليون

يعتبر المؤرخون صلح تلست نقطة انقلاب فى تاريخ نابليون لأنه ظل منذ نشأته مضطرد الصعود والتقدم إلى أن بلغ تلك المنزلة التى بلغها حوالى سنة ١٨٠٧ وهو يوزع التيجان على أهله وأنصاره ويتحكم فى عروش أوربا وملوكها ولكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الأولى عقب هذا الصلح. وكان ذلك بسبب تلك السياسة الجبارة التى أراد اتباعها لاذلال انجلترا والقضاء على سطوتها بحصر موانيها واغلاق الموانى الأوربية فى وجهها.

ولقد كانت انجلترا فى الواقع خطراً حقيقياً على نابليون

فانها لم تذقه طعم الراحة منذ انبرت لصراعه وهدمه ومن الممكن الرجوع فى توقيت هذا الصراع إلى حصار مدينة تولون التى تعارف الغريمان حول أسوارها — ولقد حاول نابليون استرضاءها والعمل على التصافى معها عدة مرات فى كل مناسبة من المناسبات اللائقة ولكن ذهبت جهوده فى ذلك إدراج الرياح . ولم يكن يلقى منها إلا الاستهزاء به والسخرية من نواياه والاصرار على مناوأته وزعزعة بنيانه . فلم يعد أمامه إلا أن يساجلها هذا الكفاح وحاول أن يجمع لها كل ما يستطيع جمعه من القوى البحرية ولكن موقعة « الطرف الأغر » حطمت سفنه وآماله . فلم يبق له وقد وقف وقفة الدفاع الشرعى عن نفسه أمام عناد انجلترا وإصرارها على القضاء عليه إلا أن يتناول هذا السلاح المسموم ليضرب به ضربته الأخيرة .

ولكنه وهو يحاول ذلك اصطدم بأكبر قوتين فى المدنية الأوربيه وهما — الكنيسة الكاثوليكية — والروح القومى — وكان هذا الاصطدام فاتحة سقوطه وانهيار امبراطوريته .

الفصل الثانى

أثره فى ولايات البابا

كان تنفيذ النظام القارى يستتبع حتما نشر سلطان نابليون على شواطئ القارة الأوربية بأكملها لأن بقاء دولة واحدة على ولائها للانجليز يكفى لتسرب المتاجر الانجليزية عن طريق شواطئها إلى قلب القارة ويفسد تدبير نابليون . فحرص نابليون على أن لا يترك منفذاً واحداً فى كل أوربا أمام السفن البريطانية تستطيع الوصول منه إلى داخلية البلاد الأخرى ومن هنا يتبين لك اتساع نطاق هذا العمل والجهود الجبارة التى يستدعيها إحكام تنفيذه .

وقد تمكن نابليون فى بادئ الأمر من الاتفاق مع الروسيا والنمسا وبروسيا والدنمرك وإيطاليا وإسبانيا على اتباع نظامه واستبشر هو بهذه البداية . ولم يخرج على هذا الاجماع فى كل أوربا إلا السويد فى الشمال وولايات البابا ومملكة البرتقال فى الجنوب .

فأما السويد فانه جازاها على هذا العصيان باطلاق يد القيصر فيها ليفعل بها ما يشاء فلم يتردد القيصر فى انتهاز هذه الفرصة السعيدة وبادر باحتلال فنلندا التى كان يطمح إلى احتلالها منذ زمان لبسط نفوذه على بحر البلطيق .

وأما البابا فانه لم يشأ أن يشترك فى ذلك النزاع العنيف القائم بين انجلترا ونابليون ورفض أن يعرض مصالح شعبه ورفاهيته لتلك الأزمات القاسية التى تنجم حتما عن اتباع هذا النظام الذى أراد أن يفرضه عليه نابليون . ولم تكن للبابا فى نظر نابليون تلك القداسة التى يكنها لمقامه الدينى العالى سائر الناس لأنه لم يكن يعتبره إلا ككبير أساقفة روما ولم يكن يسيغ احتكار قسس إيطاليا لعضوية جمعية الكرادلة . وكان ينوى أن يجعل لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها . ولكنه رأى أن يبدأ بمهاجمة الحبر الأعظم باحتلال ولاياته فدخلتها الجيوش الفرنسية فى أوائل سنة ١٨٠٨. ولما وقعت الحرب فى العام التالى (سنة ١٨٠٩) بين النمسا ونابليون ودخل نابليون فينا للمرة الثانية أصدر قراراً منها بالغاء سلطة البابا الزمنية وضم ولاياته إلى فرنسا نهائياً . ثم أوحى إلى عماله بالقاء القبض على البابا نفسه فاعتقلوه وحملوه

إلى سجن فى بلدة سافونا بقرب جنوا . وعند ذلك أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية ودفع مرتب البابا وتأييد الأعمال الدينية فى الكنيسة الكاثوليكية بنفوذه السياسى . وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوى الى باريس.

ولم ير البابا من سلاح يجيب به على اعتداء نابليون عليه إلا أن يصدر مرسوماً بحرمانه من الرحمة . فأصبح القسس فى كل البلاد الأوربية يخصصون بعض أوقات تسبيحهم واستغفارهم لاستمطار اللعنات على رأس نابليون الأول « عدو الكنيسة » « وعدو الله ».

الفصل الثالث

أثره فى البرتقال

أما البرتقال فهى تلك السهول الزراعية الواقعة على مصبات أنهار أسبانيا وكان ينتشر فوق حقولها الخضراء ثلاثة ملايين فلاح فى الدرك الأسفل من المدنية والفهم لا يكادون يعرفون من أمر دنياهم أكثر مما يجب عليهم دفعه لحكومتهم الغاشمة من الضرائب . وكانت حكومتهم فى يد أسرة براجانزا القديمة صاحبة الأملاك الواسعة فى البرازيل (أمريكا الجنوبية) . وكانت السيطرة فى أسواق البرتقال للتجار الأنجليز بقدر ما كانت السيطرة فى حكومتها للنفوذ الانجليزى[1].

فأرسل نابليون إلى هذه الحكومة مذكرة يطلب اليها فيها أن تغلق موانيها فى وجه السفن الانجليزية وأن تصادر فى الحال كافة المتاجر البريطانية التى فى أسواقها . فلم يكن من

(١) وكان على حكومة البرتقال فى ذلك الوقت ملكة مختلة القوى العقلية اسمها ماريا فكان القائم بالامر عنها ابنها يوحنا .

البرتقال إلا أن حولت هذه المذكرة إلى وزارة انجلترا لتتولى الرد عليها بما تشاء .

وعاد الرد من لندن بأن البرتقال توافق على إعلان الحرب على انجلترا كما توافق على إقفال الموانى البرتقالية فى وجه المتاجر الانجليزية ولكنها ترفض مصادرة البضائع الانجليزية . وكان معنى ذلك فتح الباب لمفاوضات جديدة تستغرق وقتاً آخر تستفيد منه الوزارة الانجليزية فى تصريف شئونها حسب ما يستجد من الظروف .

وكأنما أدرك نابليون ما يدور بخلد الانجليز . فعول على غزو البرتقال من فوره وبغير انتظار ولكنه رأى أن لا سبيل له إلى ذلك دون اشتراك اسبانيا معه لأن جيوشه لا بد لها من اختراق الأراضى الاسبانية للوصول إلى غايتها ولأن اسبانيا لا ترضى بتقديم هذه المعونة لنابليون من غير أجر تتقاضاه .

وكانت اسبانيا قد أغضبت نابليون عليها لأن وزيرها الأول جودوا Godoy رأى أن ينتهز فرصة اشتباك نابليون بدول التحالف الدولى الرابع ليعمل على التخلص من نفوذه الذى كلف بلاده خسارة أموالها وأبنائها وأسطولها فاجتمع

فى مؤتمر سرى بسفير القيصر فى مدريد ومندوب مملكة البرتقال وقرروا فيما بينهم أن يقوم جودوا بتعبئة الجيش الأسبانى ثم يتربص لنابليون حتى إذا ما تلقى أول هزيمة على يد التحالف انطلق هو وجيوشه — تساعده جيوش انجلترا البرية — نحو حدود فرنسا الجنوبية لغزوها من هناك .

وقد أصدر جودوا تعليماته الخاصة بهذه التعبئة فعلا . ولكنه فوجىء بأخبار موقعة يينا وانتصار نابليون فيها ذلك النصر الخالد المبين . فبادر إلى الغاء أوامره وسرح الجيش وأخذ يستعد لاستقبال نابليون الاستقبال اللائق به عند عودته .

ولكن أخبار المؤتمر السرى كانت قد وصلت عنها تقارير مفصلة إلى نابليون وهو ما يزال فى بروسيا فعول على الاحتياط للمستقبل باتخاذ إجراءات حاسمة مع بلاط اسبانيا وذلك متى قدر له الفراغ من دول التحالف وكتبت له العودة ظافرا إلى باريس .

فلما عول فى تلك الظروف التى بسطناها على أن يقوم بغزو البرتقال كان فى الوقت نفسه يفكر فى الانتقام من حكومة اسبانيا الغادرة التى قامت تحاول أن تطعنه فى ظهره أثناء اشتغاله عنها بدول التحالف الرابع .

وكانت خطته التى أراد اتباعها أن يغرى إســـبانيا على الاشتراك معه فى غزو البرتقال واقتسامها وذلك ليكفل لنفسه أولا — إدخال جيوشه فى الأراضى الاسبانية وثانياً — ليمهد بهذه الشركة سبيل النزاع مع اسبانيا — وقديماً قيل : « الاشتراك أصل العراك » !

وفى معاهدة فونتنبلو السرية (٢٧ اكتوبر سنة ١٨٠٧) قبل جودوا مع السرور والغبطة أن يشترك مع فاتح أوربا العظيم فى تلك الحملة البرتقالية وقد ذهب نابليون فى التلاعب بعقل هذا الرجل الى أقصى حد من السخرية حين تعهد بأعطائه ولاية كبيرة من ولايات البرتقال الجنوبية لتكون ملكا خاصا لشخصه فى نظير قبوله الاشتراك فى تلك الحملة

وتقدم الجنرال جونو Junot الفرنسى فعبر جبال البرانس بخمسة وعشرين ألف جندى ولكنه جد فى الطريق حتى أنهك قوة رجاله ولما بلغوا حدود البرتقال لم يكن يقوى واحد منهم على رفع ذراعه . ولكن لحسن حظهم لم يعترض طريقهم من يدعوهم الى القتال . فأن يوحنا - قائم مقام الملكة - ما كاد يعلم بقدوم هذا الجيش حتى عقد مجلس الدولة وقرر مغادرة البلاد هو وأمه المجنونة وبقية أهله اكتفاءً

بأملاك الأسرة الواسعة فى البرازيل . ووقف لهم اسطول بريطانى عظيم ريثما جمعوا أموالهم وأهليهم فركبوا متن سفنه فى يوم عاصف ثم نشر الأسطول بهم قلوعه للرياح .

ودخل جونو عاصمة البلاد كأنه ضيف كريم دون أن يخسر طلقة واحدة من ذخيرته ولا يكاد يروى التاريخ مثلا آخر لهذا التطور العجيب الذى انتقلت فيه أمة بأكملها من يد الى يد وتعاقبت فيها سلطة بعد سـلطة بمثل تلك النعومة التى تتعاقب بها أشباح الأحلام !

الفصل الرابع

حكومة اسبانيا

خليق بنا قبل أن نمضى فى الحديث عن اسبانيا وما فعله بها نابليون أن نبين كيف آلت السلطة فيها إلى يد وزيرها الأول « Godoy » فأصبح يدبر شئونها باسمه ويقيدها بمعاهدات يمهرها بتوقيعه الخاص مع وجود ملك لها . وملكة . وولى عهد.

وتفصيل ذلك أن الملك شارل الرابع كان رجلا خليعاً فاجراً فى صباه فأصبح معتوها مخبولا فى شيخوخته . ولم يكن له عمل يقتل وقته به إلا الصيد . فكان يخرج له كل يوم فى الصباح شتاء وصيفا . ولا يعود قبل الظهر فأذا عاد تناول طعام الغداء ثم خرج للصيد من جديد وبقى فى طراده الى وقت الغروب . وعند ذلك يتقدم اليه جودوا بخلاصة ماتم فى سحابة النهار من شئون الدولة . ثم يأتى وقت الراحة فيذهب الملك لينام على أن يعود فى الغد الى ما كان فيه بالأمس وهكذا دواليك .

أما الملكة لويزا ماريا فكانت أميرة نابوليتانية يقول عنها بعض المؤرخين أنها لم تكن تمتاز فى شىء عن سكان

منازل الدعارة فى أى بلد من بلاد اسبانيا . وكان جودوا فى أول عهده جندياً من جنود الحرس الملكى ولكنه كان على جانب كبير من جمال الجسم والخلقة . وكان رجلا ذا نزعة شعرية خيالية يستهويه ضوء القمر . وسكون الليل . فكان يقضى وقته متنقلا تحت ظلال ابراج قصر (الاسكوريال) الملكى وهو يتغنى بصوته الجميل ويوقع على قيثارته أعذب الألحان. فتنبهت اليه الملكة واستدعته إلى حضرتها.فأعجبها. فاستبقته لنفسها . واتخذته أنيساً فى غيبة الملك المتواصلة يسليها بحديثه وغنائه ثم ما لبثت أن تطورت الصلة بينهما فوضعت الملكة بين يديه زوجها . وحكومتها . وشخصها . وبلغ من خيبة أمل الملك أنه فرح باكتشاف زوجته — « الملكة »— لهذا البطل الذى سيقوم عنه بحمل اعباء الملك ووضع بدوره هو الآخر كل ثقته فيه حتى أنه أطلق عليه اسم « أمير السلم » عند ما وقع معاهدة « بال » مع فرنسا . ونجح بذلك فى عقد صلح خرجت به اسبانيا من تلك الحرب التى كانت قد تورطت فيها مع رجال الثورة الفرنسية .

وكان لشارل من زوجته ثلاثة أولاد أكبرهم اسمه فردناند وقد جمعت الطبيعة فيه عته أبيه العجوز وتهتك أمه

الفاجرة. ولكنه كان على الرغم من ذلك طموحا يلتمس عرش اسبانيا لنفسه مادام لا بد لأبيه أن ينصرف عن شئون الملك وبذلك نشأت منافسة حادة بينه وبين جودوا ربما كان لعلاقة أمه بوزيرها دخل فيها . أما الشعب الأسبانى الذى لم يكن يرى فى الملك والملكة ووزيرهما الا عصابة من الفجار المبتذلين فقد عمى عن مساوىء الولد وولاه زعامة المعارضة التى أعلنها على حكومته . وبذلك انقسمت البلاد على نفسها فكانت الملكة تريد أن تفرض على الشعب واجب الطاعة لها ولوزيرها بينما كان الشعب يريد أن تنتقل الادارة الى يد فردناند وهو على ثقة من أن أى تغيير يطرا على الموقف لابد أن يكون تغييراً الى ما هو أحسن .

ولم يشأ جودوا أن يستسلم لما تجرى به المقادير . وأراد أن يسبق الحوادث حتى لا يمكن خصومه من نفسه فتقدم يوماً الى الملكة يتهم فردناند علنا بأنه يحاول دس السم لها وله . ولأبيه الشيخ . ليتخلص بذلك من الحكومة القائمة وليمهد الطريق بين نفسه وبين العرش ، وأحدثت التهمة أثرها المطلوب فأصدر الملك والملكة أمرهما بألقاء القبض على فردناند فاعتقل وأودع فى بعض السجون .

وكان فردناند قد نجح قبل ذلك فى الاتصال سرا بنابليون مستغيثاً به من عبث أبويه ووزيرهما بمصالح الأمة الاسبانية والتمس منه فى الوقت نفسه أن يشرفه بتزويجه باحدى أميرات أسرته لترتبط اسبانيا وفرنسا برابطة النسب فوق ما بينهما من روابط الصداقة .

واهتم نابليون بهذه الدعوة حتى أنه سعى فعلا فى البحث عن عروس يحكم بها اسبانيا عن طريق زوجها فردناند . وعلى قدر سخط الشعب الاسبانى على حكومته كان حبه الآن لأميره الشاب ولنصيره العظيم . فما كادت تصل الى علمه أنباء اعتقال فردناند حتى أعلن أنها مكيدة دنيئة أراد بها جودوا إيصال الأذى الى غريمه وقام أهل مدريد بثورة حامية هاجموا فيها قصر الوزير وحطموا كل ما وصلت اليه أيديهم من أثاثه وألقوا به من الأبواب والنوافذ ولم ينج جودوا نفسه من أيديهم فى أول الأمر إلا باعجوبة اذ فر الى غرفة حقيرة على السطح ولف نفسه فى حصير قديم كان فيها . وبذلك تفادى غضب الثوار عليه . ولقـــد بقى فى هذا الحصير ليلة كاملة ومرت به ساعات اليوم التـــالى الطويلة وهو يكاد يسقط من الجوع والعطش والاعياء . ولـكنه فضل كل هذه المحن

على أن يترك حصنه ويعرض نفسه للهلاك . غير أنه فى صباح اليوم التالى كان قد برح به العطش الى حد جازف معه بحياته وتسلل من تحت الحصير يلتمس جرعة من الماء .

وأبى القدر الا أن تذهب سدى كل هذه الجهود المضنية التى بذلها فى سبيل التستر . فأنه ما كاد يطل برأسه حتى تنبه اليه أحد الحاضرين فنم عليه . ووقعت الواقعة . وانهال عليه الناس سبا ولعنا وضربا وركلا حتى وصــــل إلى الطريق يدور على جنبيه ولا يسير على قدميه . وقد تمزقت ثيابه وانكشفت من تحتها جراحه الدامية . ولولا أن أدركته ثلة من الجند فاختطفته من أيدى جلاديه لكان ذلك اليوم آخر أيامه .

أما الملك والملكة فانهما ما أحسا بجنود نابليون تنسل الى بلادهم وبروح التمرد تسرى فى شعبهم حتى ذكرا خاتمة قريبهما لويس السادس عشر الذى مات على حد المقصلة وتناديا بوجوب الفرار فلم يقفا للتفكير فيما يأخذان وما يتركان وطفقا ينهبان الأرض نحو الشاطىء ليركبا أية سفينة تحملهما الى أمريكا . ولكن أمرهما لم يلبث أن انكشف كما انكشف من قبلهما أمر لويس ومارى انتوانت وأعيدا الى مدريد .

الفصل الخامس

رواية تاريخية

دخل (مورا) بجيشه الى اسبانيا تلبية لنداء فردناند . ولذلك رحب به الشعب ولم يعترض طريقه حتى وصل الى قلب مدريد .

وكان أول ما عمله الملك بعد ضبطه واعادته أن أصدر قرارا بعزل جودوا من الوزارة واعتزاله هو من الملك نزولا على ارادة الشعب الذى يريد أن يرفع فردناند الى العرش .

وكان موزا صهرا لنابليون كما أشرنا الى ذلك من قبل . وقد حسب أن نابليون انما اختاره للقيام بهذه الحملة توطئة لتسليمه تاج اسبانيا اسوة ببقية الاصهار والانصار . فلما نزل شارل عن الملك لابنه بلغ من احتياط مورا لأمره أنه لم يعترف بهذا النزول ولذلك بقى فردناند دون أن يحصل على تأييد حلفائه وبادر الملك فرجع فى اعتزاله مدعيا أنه انما أقدم على ذلك بعامل الرغبة فى ارضاء نابليون وتحت

تأثير الأكراه الواقع عليه من حزب المعارضة الذى يقوده ولده .

وهنا بدأت تلك الرواية التى كانت مبعث الحيرة والاندهاش فى كل أوربا والتى ستظل مبعث الحيرة والاندهاش لكل من يقرأ التاريخ .

وذلك أن نابليون قد رسم خطته على أن يحصل هو على عرش اسبانيا لأحد اخوته ولكنه كان يخفى نواياه حتى لا يعلم بها أحد وحتى يستعين بكتمانها على قضائها وتنفيذها . فلما سمع بتنازل الملك شارل الرابع عن عرشه لابنه أسرع إلى Bayonne — بايون — فى جنوب فرنسا وأوحى الى فردناند بأنه لا سبيل له إلى تثبيت أقدامه على عرشه إلا أن يقصد اليه ويقدم له بشخصه ولاءه وطاعته وأوعز فى الوقت نفسه الى الملك والملكة وجودوا بأنهم إن كانوا يريدون أن لا ينتصر عليهم غريمهم فردناند الطائش المغرور فليذهبوا للقائه فى بايون ليتم الاتفاق بينهم وبينه على ما يكون .

وسار الفريقان كل من طريق . وليس يعلم أحدهم من أمر الآخر شيئا — وفى الخامس من شهر مايو سنة ١٨٠٨ التقى نابليون بأفراد العصبة الثانية وعرض عليهم الأقامة

عنده فى فرنسا فى قصور فخمة يهيؤها لهم ويزودها بكافة وسائل الترف والنعيم وتعهد لهم بأن يقطعهم أرضا واسعة للصيد فيها كما تعهد بدفع مرتبات طائلة تكفل لهم القيام بكل طلباتهم — وذلك فى نظير أن ينزل الملك عن عرشه من جديد ولكن لا لفردناند بل لنابليون فلم يكد واحد من الثلاثة يصدق أذنيه لما انطوى عليه هذا العرض من الكرم والتسامح . والحقيقة أن واحدا منهم لم يكن يهمه من شئون الملك الا أمثــال هذه المزايا التى تطوع بتوفيرها لهم نابليون فقبلوا كلامه جذلين . وكتب الملك صك التنازل الجديد .

وعندذلك أدخل فردناند . فطلب اليه أبوه أن يتخلى عن كل حق له فى عرش اسبانيا مبينا له أن نزوله عن العرش له وقع باطلا لأنه صدر تحت تأثير الأكراه الذى تنتفى معه الأرادة وتبطل العقود . فسخر منه فردناند وهو يحسب أن نابليون سوف يشترك معه فى الاستهزاء بهراء هذا الشيخ ولكنه لم يلبث أن تبين انضمام نابليون الى صف أبيــه .. فقرر على الرغم من ذلك . الاستمساك بحقه الى النهاية مدعيا بأنه هو وارث عرش اسبانيا وأن الشعب قد اعترف به ملكا

عليها وأن ليس فى مقدور أحد أن يجعله يتحول عن حقه أو
يتهاون فيه . وهنا خشى الفريق الأول أن يكون عناد الولد
سبباً فى ضياع تلك الأمانى الذهبية التى أحدثها فى نفوسهم
عرض نابليون . فهجم الملك على ابنه بعصا كانت فى يده
بينما انفجرت فيه الملكة بأقبح السباب . وفوجىء نابليون
بهذه العاصفة المنزلية التى لم يكن يتوقع هبوبها بين يديه .
ووقف هنيهة لا يدرى ماذا يصنع بأفراد هذه الأسرة العجيبة
ثم ما لبث أن اقترب من فردنانذ منبها اياه الى أنه قد جاءته
أنباء ثورة تهدد جنوده فى مدريد وأنه لا يمكن أن يكون لهذه
الثورة من سبب غير جهود حزب المعارضة التى يتولى فردناند
رياسته . ورأى فردناند أن ليس لهذا الكلام الا معنى واحد
وهو اتهامه بمثل ما اتهم به دوق دنجين من قبل . ففترت
حدته .وخارت قواه . وفضل أن ينجو برأسه على أن يعترض
طريق نابليون فتنازل عن حقه فى الملك لابنه وبذلك خلا
الجو من الوالد وولده وخلص العرش لنابليون وفى هذا
الصدد تقول دائرة المعارف البريطانية :

ان استيلاء ابن أحد أعيان كورسيكا على عرش اسبانيا
وتخلصه من ملوكها البربون بهذه الطريقة السهلة الزرية

لأحدى عجائب التاريخ الرائعة . »

وقد عرض نابليون عرش اسبانيا بعد ذلك على أخيه « لويس » ملك هولندا ولكن لويس كان أبعد نظراً من أن يستبدل بعرشه الهولندى الثابت ذلك العرش القلق المزعزع فاعتذر عن قبوله . وعند ذلك عرضه نابليون على « يوسف » ملك نابولى وهو عظيم الثقة فى أن طيبة يوسف ودماثة أخلاقه سوف تكفل له عيشا رغدا بين الاسبانيين . ولما قبل يوسف أن يتخلى عن عرش « نابولى » جاء دور مورا فى الملك فوهبه له نابليون .

الفصل السادس

الحملة الاسبانية

أوضحنا فى بعض الفصول السابقة كيف أن نابليون فى سبيل تنفيذ نظامه القارى ارتطم بالكنيسة الكاثوليكية وخسر بذلك عطف العالم المسيحى عليه . وسنحاول فى هذا الفصل أن نوضح كيف أنه وهو يحاول الاستيلاء على اسبانيا قد ارتطم بالروح القومية وخسر بذلك كما سبقت لنا الاشارة نفوذه . وامبراطوريته . وشخصه .

وذلك أن الاسبانيين ما كادوا يفتحون أعينهم على عرش اسبانيا ويجدون فيه يوسف بونابرت حتى ثارت ثائرتهم عليه وعلى أخيه . وأحسوا بأن نابليون قد خدعهم وسخر منهم وامتهن كرامتهم — وانتشر القسس فى أنحاء البلاد يهيجون ساكنها و يثيرون خاملها حتى أصبحت اسبانيا كلها أتونا مستعرا لا يمكن أن يعيش فيه يوسف ولا تستطيع أن تبقى فيه جنوده .

ولم تكن الحركة التى قامت بها اسبانيا فى هذه الثورة حركة

منظمة لها زعماؤها وقوادها وأتباعها وأجنادها ولكنها كانت حركة قومية لها فى كل قرية مركز . وفى كل جماعة زعيم . وما دامت النهاية واحدة وهى مطاردة الفرنسيين حتى يجلوا عن البلاد فقد عرف كل فرد واجبه . ولا حاجة بعد ذلك لرسم الخطط أو تنظيم الصفوف .

وربما عيب لأول وهلة على هذه الحركة أنها كانت خلوا من النظام وأنها سارت فى حرب الفرنسيين على طريقة الكر والفر . ولكن الواقع أن هذا كان سر نجاحها . فلو أن جيوشا اجتمعت فى نظام حربى مألوف وحاولت بذلك طرد الفرنسيين لسهل على نابليون تشتيتهم والاحداق بهم . ولكنهم وهم مبثوثون فى كل مكان كانوا فوق متناول جيوشه وفى الوقت نفسه كانت جيوشه فى متناول ايديهم .

وكان الاسطول البريطانى فى تلك الاثناء واقفاً بشواطىء اسپانيا يرصد حوادثها فما هو أن رأى ريح الثورة تهب على أرجائها حتى انحاز الى جانب الثوار فأمدهم بالسلاح والذخيرة وأيدت الحكومة البريطانية تصرف أسطولها بان اخلت سبيل الأسرى الاسبانيين الذين كانوا فى قبضتها فكستهم وسلحتهم ثم أطلقتهم على يوسف ورجاله فزادوه ارتباكا فوق ارتباكه .

وبعث يوسف الى أخيه يستغيث به ويستنجده ولكن نابليون كان من جهته فى حيرة أشد من حيرة شقيقه . وذلك لأن امبراطور النمسا ما كاد يعلم بما حدث فى أسبانيا حتى ألقى فى روعه أن نابليون شرع ينفذ سياسته التى كانت تذيعها عنه انجلترا وهى أنه ينوى أن يسقط كل ملوك أوربا عن عروشهم ويولى عليها أقاربه حتى لا يعيره أحد بنشأته وحتى يكون بين ملوكها أعرقهم أصلا وأقدمهم تاريخا . فكان ذلك سبباً فى قيام الحكومة النمساوية بتعبئة عامة جندت فيها ما يقرب من سبعمائة ألف نفس حشدتها على حدودها . وعلم نابليون بذلك فراعه الأمر وحاول عبثاً أن يقنع النمسا بالعدول عن هذه الخطة فلجأ الى المفاوضة ثم الى الطلب ثم الى التهديد ولكن النمسا بقيت على رأيها فى وجوب الاحتفاظ بهذا الجيش العظيم « للدفاع عن نفسها اذا اقتضت الظروف » .

وفى هذه الظروف الحرجة كان يتلقى نابليون استغاثة أخيه فيكتفى بأن يعده بقرب إرسال المدد ويعود فيعالج موضوع انقاص السلاح مع النمسا لعله يستطيع بذلك أن يتفق معها فيتمكن من سحب جيش من جيوشه المرابطة عند « اتحاد الرين » ويبعث به الى اسبانيا .

. وأخيراً اضطر عشرون ألف جندى فرنسى كان يقودهم ديبون « Dupont » فى جنوب اسبانيا الى التسليم للثوار عند بايلن « Baylen » وبلغت أنباء هـذه النكبة . نابليون فكاد يصعق فى مكانه لانه كان يدرك مغزى هذا التسليم وماسيحدثه فى روح أعدائه المعنوية من التشجيع وكان الى جواره وهو يقرأ الخبر وزير خارجيته فلما رأى ماطرأ عليه من الانقباض والتخاذل خشى عليه وسأله :

ــ هل تحسون جلالتكم بشىء من التوعك ؟ فاجابه نابليون:

ــ لا !

ــ هل أعلنت النمسا الحرب ؟

ــ حبذا لو كان ذلك كل شىء !

ــ اذن ما الذى حدث ؟

فأفضى اليه نابليون بتسليم ديبون ثم قال :

ــ لا جناح على الجيش ان ينكسر ويدحر . فالحرب سجال يوم لك ويوم عليك . أما أن يستسلم الجيش فيلقى سلاحه طائعاً بين يدى عدوه فتلك هى الوصمة التى لا يمحوها الدهر إن الشرف لا يجبر كسره . وستكون آثار هذه النكبة أبعد مما تصل اليه الظنون ؟

وقد صحت فراسة نابليون فان يوسف لم يستطع البقاء بعد هذه الضربة فى مدريد فأخلاها وانسحب نحو الشمال ونزلت حملة بريطانية بقيادة السير أرثر ولسلى (دوق ولنجتون فيما بعد) إلى لشبونة . واشتبكت مع جونو فى معركة عند مدينة «فميرو» « Vimiero » فانهزم جونو وخلا الجو أمام الانجليز .

عند ذلك لم ير نابليون بداً من الظهور فى الميدان بشخصه لعله يصلح ما فسد على يد Dupont و Junot ويعيد يوسف الى مدريد ولكنه كان يعرف أن النمسا انما تنتظر مثل هذا الظرف لتفتح الطريق أمام تلك القوات الهائلة التى كانت تعدها وتدربها كل يوم على الحدود . فلم يشأ أن يبرح فرنسا قبل أن يتخذ لهذا الأمر عدته . ويحتاط لانقلاب خصومه عليه .

وانتهى به التفكير الى أن يعد فى قلب أوربا — عند مدينة أرفرت — لقاء آخر مع صديقه القيصر يعيد به الى الأذهان ذكرى لقاء تلست ويلقى به الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالقيام عليه فى أثناء غيبته .

***

واقترب اليوم السابع والعشرون من شهر اكتوبر سنة

١٨٠٨! — وهو اليوم المحدد للقاء ارفرت — وأعد له نابليون من مظاهر العظمة مايجعله كفيلا باحداث الأثر المطلوب منه. فدعا اليه كافة ملوك أوربا وأمرائها ونبلائها الخاضعين لنفوذه. وأمر بأن ينزل الجميع فى ضيافتـه حتى يتم له الظهور عليهم جميعاً بمظهر الزعيم المسيطر. وتم اللقاء بينه وبين حليفه فى جو ملىء بحسن التفاهم والصفاء. وجدد كل واحـد لصاحبه عهوده الاولى ومواثيقه القديمة. فكرر نابليون اعترافه بحق امتلاك القيصر لفنلندا من السويد. والبغدان والافلاق من تركيا. وزاد على ذلك أنه يفكر فى الزواج باحدى أميرات أسرة رومانوف الروسيـة. فرحب القيصر بهذه الفكرة. وأكد له بدوره أنه على استعـداد دائم للدفاع عن مصالح فرنسا وزاد على ذلك أنه يتعهد بمساعدته اذا ماأعلنت النمسا الحرب عليه.

وطابت نفس نابليون لهذه الوعود. واطمأن قلبه وطلب أن تنشر وتذاع فى كافة أوربا ليقف عليهـا الجميع. ثم طار الى اسبانيا قبل أن تفوته الفرصة. فعبر جبال البرانس. وكسر الاسبانيين عند نهر الابرو. ودخل مدريد. وتمكن فى بحر أسبوع واحد من اعادة أخيه يوسف فوق عرشه. ثم علم بنزول

جيش انجليزى جديد الى اسبانيا تحت قيادة سير جون مور .
فأسرع إلى لقائه. ولكن « Moore » كان أحرص من أن يشتبك
معه فى قتال وظل يتقهقر أمامه نحو الشاطىء الشمالى لاسبانيا
ليجتذبه خلفه ويخفف الضغط بذلك على الثوار فى جنوب
اسبانيا فينظموا صفوفهم ويستأنفوا الجهاد .

على أن نابليون لم يلبث أن بلغه أنه قد وقع ما كان يتوقعه .
وأعلنت النمسا الحرب عليه . فلم ير بدأ من ترك مور لقائده
سوات حتى يتمكن هو من العودة إلى فرنسا ليستعد لنزول
الميدان الشرقى ضد النمسا من جديد .

وكان نابليون فى تلك السنة قد بلغ التاسعة والثلاثين من
عمره وامتلأ جسمه النحيل نوعا ما وحسب الناس أن عناصر
الشيخوخة والضعف قد بدأت تدب فيه ولكن عبوره جبال
جواداراما « Guadarama » سعياً على قدميه وهو يتعقب السير
جون مور . وتمكنه من قطع ٢١٤ ميلا فى جو ديسمبر
العاصف المثلوج فى مدى اثنى عشر يوماً وعودته من بلد الوليد
إلى باريس فى أقل من ستة أيام — كل ذلك كان دليلا حياً
على أنه مازال يحتفظ بذلك النشاط العجيب الذى يرجع اليه
الفضل فى نجاح معظم خططه الحربية وتفرده فى تاريخ العالم

بتلك المفاجآت التى ماتزال موضع الدهشة عند الجميع .

٭٭٭

وسار سولت « Soult » يتعقب الانجليز حتى أدركهم عند « Corunna » وعنـد ذلك لم ير مور بداً من الالتحام بالفرنسيين فدارت معركة كان مور أول ضحاياها . وبذلك انسحب رجال الحملة البريطانية إلى سفنهم تاركين جثة قائدهم فى ميدان القتال .

غير أن شجاعة مور وما أبداه من البراعة الحربيـة فى تقهقره أمام الفرنسيين كان سبباً فى تقدير الضباط الفرنسيين لبطولته . فتولوا عن جيشـه وأمته الاحتفال بدفنه واقامة نصب تذكارى أيضاً فوق قبره !

الباب الرابع : التحالف الدولى الخامس

الفصل الأول : حرب النمسا .

الفصل الثانى : طلاق جوزفين .

الباب الرابع

التحالف الدولى الخامس

الفصل الأول

حرب النمسا

خرجت النمسا بعد توقيع معاهدة « كامبو فورميو » (سنة ١٧٩٦) وهى تفكر فى نقضها لما أصابها فيها من المهانة . فتسببت بذلك فى حروب التحالف الدولى الثانى الذى انتهى معها بصلح « لونفيل » (سنة ١٨٠١) — وفيه تأيدت كافة الشروط التى سبق لنابليون أنه أملاها فى كامبو فوريو — ولكنها عادت بعد لونفيل تفكر فى الانتقام لنفسها . وكانت بذلك عاملا مهما فى تكوين « التحالف الدولى الثالث » الذى انتهى بصلح « پرسبورج » وقد خسرت فيه أضعاف ما خسرته فى كامبو فورميو .

وبينما كان نابليون يعتقد أنه ألقى على رجالها المسئولين درساً

مقنعاً فى وجوب الامتثال كانت هى لا تفكر الا فى استعادة شرفها الضائع وكرامتها المسفوكة وظلت ثلاث سنوات طوال وهى لا يقر لها قرار حتى وقعت ثورة اسبانيا وارتبك لها نابليون أشد ارتباك . فأيقنت فى نفسها أن انهماكه فى ذلك الميدان ومناوأة الإنجليز له هناك لن يترك له مجالا لمقاومة جيوشها فى قلب أوربا كما أيقنت أن هزيمة واحدة تحل بجيوشه الأوربية سوف تكون سبباً فى تخلى حلفائه الألمان عنه ودخول بروسيا فى الحرب عليه . وأن اعتراض أم القيصر على سياسة ابنها وامتعاض أشراف الروسيا من اندفاع القيصر فى علاقاته الودية مع نابليون سوف تمحو كل أثر لمقابلتى تلست وإرفرت . فحسبت أن هذه ساعتها التى طال تربصها لها . وكان قد زاد مخاوفها من نابليون ما أشرنا إليه فى الفصل السابق من خلع ملك اسبانيا . فثبتت هذه الحادثة عزمها على القيام مرة أخرى لعلها تغسل العار الكثيف الذى تراكمت عليها طبقاته منذ ظهر نابليون فى أوربا .

وفى شهر مارس سنة ١٩٠٨ أبرم اتفاق جديد بين الحكومة الانجليزية وأمبراطور النمسا تعهدت فيه انجلترا بامداد النمسا بالمال للقيام بحملة جديدة ضد نابليون . وأرسل

مندوب الى الباب العالى على جناح السرعة لينبه السلطان الى ما اتفق عليه نابليون والقيصر من تقسيم الامبراطورية العثمانية فلم يتردد الخليفة لحظة فى الانضمام الى جانب النمسا ثم ما لبثت أن انضمت الحكومتان الثائرتان فى اسبانيا والبرتغال الى هذا الاتفاق أيضاً . وبذلك تألف (التحالف الدولى الخامس) من انجلترا . والنمسا . وتركيا . واسبانيا . والبرتغال .

وكان نابليون يطارد السير جون مور فى شمال أسبانيا عند ما علم بتحرك النمسا وتأهبها لحمل السلاح فى وجهه من جديد فترك قيادة الحملة الاسبانية للجنرال سولت . وهب كالعاصفة على ظهر جواده ينهب الأرض حتى بلغ بايون عند حدود فرنسا الجنوبية ومن هنـاك استقل عربة حملته الى باريس[١] .

وفى الساعة الثامنة مساء من يوم ١٢ ابريل سنة ١٩٠٨ علم نابليون باعلان النمسا الحرب عليه . فلم تطلع عليه شمس اليوم السابع عشر إلا وهو يشرف على ميدان القتال عند

---

(١) يقول بعض من رافق نابليون فى هذه الرحلة المدهشة أنه كان يقطع بجواده ١٧ ميلا فى ساعة .

مدينة (دونافرت) على نهر الطونة .

وكان الأرشيدوق شارل صاحب اليد الطولى فى إثارة النمسا لدخول هذه الحرب لأنه كان أول موتور بين مواطنيه من أعمال نابليون . ولأن ما حل ببلاده من الذل انما حل بها على يديه . فهو الذى كان يقود جيوشها فى الحروب الماضية وعلى رأسه كانت تنزل ضربات نابليون . فأعد هذه المرة ثلاثة جيوش جرارة وأوغل بها فى قلب المانيا حتى أشرف على حدود فرنسا نفسها . وكانت الجيوش الفرنسية بقيادة برتييه « Berthier » . ولكنه لم يكن نِدًّا للأرشيدوق فتقهقر أمامه فى كل مكان . وهكذا حققت هذه البداية آمال شارل وشجعته على متابعة ضغطه على الفرنسيين .

ولكن نابليون لم يلبث أن وصل فى الوقت المناسب . وما كاد يرى ما فعله برتييه بجنوده حتى أخذ ينفذ رسله إلى كافة الجهات التى كانت الجيوش الفرنسية مشتتة فيها لالغاء أوامر برتييه والتجمع فى نقطة واحدة ليتسنى مهاجمة كل جيش من جيوش العدو بمفرده بدل الانتشار فى خط طويل يكون من شأنه إضعاف جبهة الدفاع وتمكين العدو من اختراقه فى أية جهة يشاء .

وقد نجح نابليون — بمناورات تعد الوحيدة من نوعها في تاريخ الحروب — من جميع أشتات جيشه المبعثر ثم انقض على جنود النمسا وربح خمس معارك في خمسة أيام متتالية (من ١٨—٢٢ ابريل سنة ١٨٠٩) وكان ختامها ذلك العراك الهائل الذي نشب بالقرب من قرية إكمهل « Ekmuhl » ودارت الدائرة فيه على النمسويين .

ولم تر الجيوش النمسوية بعد إكمهل إلا أن تخلى الميدان لنابليون فارتد شارل بما بقي معه من جيوشه نحو الشمال . وما كاد يراه نابليون يسير في هذا الاتجاه حتى فطن إلى ما سيتعرض له من الخطر . فتألقت عيناه وظهرت على نظراته وإشاراته ونبرات صوته نشوة من الفرح ثم قال :

— « الآن وقعوا في يدي ! لقد ضاع جيشهم ! وسنكون في فينا مرة أخرى، في ظرف شهر واحد ! » .

على أن الحوادث أثبتت أن نابليون كان معتدلا غاية الاعتدال في تقديره لأنه لم تمض عليه ثلاثة أسابع إلا وهو نزيل قصر شونبرن « Schônbrunn » في العاصمة النمسوية !

ولقد حدث ونابليون يحاصر فينا . ويصب على رأس سكانها جام غضبه وحنقه أن انفتحت أبوابها المواجهة



الامبراطورة ماری لويز

لمعسكره وبرز منها جماعة يحملون علم الهدنة الأبيض . فجئ بهم إليه فاستوضحهم عن خبرهم فقالوا له إن السراى الامبراطورية تواجه مدفعيته مباشرة وقد فر منها الامبراطور وأهله إلا ابنته فقد تركوها على سرير مرضها إذ لم يكن من الممكن نقلها معهم . وانها تتوسل بكرم الفاتح العظيم فى أن يعفى مثواها من التدمير . فأصدر نابليون أمره فى الحال بتحويل أفواه المدافع عن تلك الوجهة وهو لا يدرى أن هذه الأميرة المريضة التى بعثت تتوسل بكرمه وشهامته انما هى ماريا لويزا التى كتبت له الأقدار أن يطلق جوزفين زوجة صباه ليتزوج بها ويستولدها وارثه الوحيد وولى عهده « ملك روما » ! .

وكانت النمسا فى هذه المرة تنوى أن تجعل هذه الحرب حرب الحياة او الموت بالنسبة لآمالها مقتدية فى ذلك بالمثل الذى ضربته لها اسبانيا . فلم يؤثر فيها احتلال نابليون لفينا . واكتفت باخلائها له بعد أن حطمت كل الجسور القائمة على النهر بجوارها حتى لا يستغلها نابليون فى متابعتهم واللحاق بهم . ولكنه على الرغم من ذلك عول على عبور النهر وادراك اعدائه قبل ان يتهيأ لهم الزمن الكافى للم شعثهم وتنظيم

صفوفهم . فحاول ذلك فى مكان يقع تحت فينا قليلا لأن النهر تعترضه فى هذه البقعة جزيرة طويلة من الممكن ان يستفيد بها الجيش عند عبوره .

فأقام مهندسو الجيش جسوراً متنقلة من الزوارق المصفوفة وتمكن نابليون بواسطتها من نقل نصف جيشه تقريباً إلى شاطئ نهر الطونة الأيسر ولكنه قبل ان يتم ما بدا فيه قام فى وجهه اهالى قريتى اسپرن واسلنج Aspern et Essling فلم يقو على مقاومتهم طويلا وارتد على اعقابه إلى الجزيرة حيث بقى فيها ريثما تتم معدات العبور .

وفى هذا الظرف الدقيق قامت الدعاية الانجليزية بواجبها خير قيام فأذاعت اخبار هذا الارتداد فى كل اوربا على انها هزيمة منكرة وان نابليون اصبح بعدها سجيناً هو وجيشه فوق تلك الجزيرة التى يحيط بها المـــاء وانه لم يبق لالقاء القبض عليه فيها واسر جنوده معه إلا ان تتآزر بقية دول اوربا المهضومة الحقوق وتقف إلى جانب الحلفاء .

وفى الحق كانت الساعة رهيبة لنابليون . وكان هو يحس بكل ما فى الموقف من حرج ويعلم بأن كل شىء اصبح موقوفا على نجاحه او فشله فى عبور النهر والخروج من ذلك المأزق

القبيح . فتنبهت فيه كل ما احتوته طبيعته الفذة من الخصائص الخارقة . وأصبحت الجزيرة بفضل جهوده الجبارة فى ظرف أيام قلائل مرتبطة بشاطىء النهر الايمن والايسر على السواء ارتباطا يجعل الجنود يعبرون من جانب الى جانب كأنهم يسيرون فوق اليابسة من غير أن يكون للماء الذى يجرى تحت أقدامهم دخل فى حركاتهم .

وفى ليلة واحدة هى ليلة الرابع من شهر يوليه عبر نابليون النهر بجيشه العظيم . وطلع على جيوش الارشيدوق شارل مع فجر ذلك اليوم المشهود . ونشبت بين الفريقين معركة « واجرام » Wagram الشهيرة التى كانت بدورها ركنا من أهم الاركان التى بنى عليها نابليون عظمته الحربية . فقد دارت رحاها يومين متواصلين لم ير الارشيدوق فى ختامهما بدا من أن ينسحب بعد أن خلف فى الميدان ٢٤ ألف جندى مابين قتيل وجريح غير اثنى عشر ألف أخرى وقعت كلها فى أسر الفرنسيين .

وهكذا انتهت هذه الحرب أيضاً ولم تزدد النمسا بها إلا أحقادا على نابليون . وكانت قد دخلتها لتسترد شرفها وكرامتها فخرجت منها وقد ضيعت ما بقى لها من شرف وكرامة ولم ير

الارشيدوق شارل بعد هذه الخيبة المتكررة إلا أن يعتزل الحياة العامة فنزل عن رياسة الجيس العليا وآوى الى بيته يقضى فيه بقية أيام حياته الألمية . وكذلك سقطت الوزارة القائمة وجاءت وزارة غيرها لم تكن قد قطعت على نفسها تلك العهود الغليظة التى قطعتها للأمة الوزارة السابقة وذلك كى يتسنى لها الاقتراب من نابليون والتفاوض معه على شروط الصلح الجديد . فاستدعى مترنيخ Metternich وزير النمسا المفوض فى باريس ليشكل الوزارة الجديدة . ولكنه رأى أن لا يبدأ المفاوضة إلا بعد أن ينظر ماذا سيكون من موقف حلفائه الانجليز فى اسبانيا . فان انتصارهم فى ذلك الميدان يكون من شأنه تقوية مركز المفاوض النمسوى . وكان نابليون على عكسه يخشى كل تأخير فى عقد الصلح لأنه كان يوجس من تأثير البلاط الروسى على القيصر كما كان يوجس من تأثير دعاية الحلفاء على ملك بروسيا — ولكن لحسن حظه مضى الزمن الكافى والقيصر باق على ولائه له . وملك بروسيا متمسك بحياده أزاء هذا التحالف . وأخيرا وردت أنباء اسبانيا وهى تعلن انتصار الجيوش الفرنسية فى معركة (تلافيرا) " Talavera " وارتداد سير أرثر ولسلى

بجنوده الى البرتغال — وهنالك ضاع آخر أمل للنمسا فى عقد صلح مشرف فاستسلمت لنابليون . ووقعت فى الرابع عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٠٩ معاهدة فينا وكانت بطبيعة الحال شر ما وقعت من المعاهدات مع نابليون . فأنها خسرت بها نحو خمسين ألف ميل مربع من أرضها ونحو أربعة ملايين من سكانها وانقطعت بعدها انقطاعا تاما عن البحر الابيض المتوسط وعن ألمانيا وبذلك قضى على وجودها السياسى ومركزها التجارى قضاء مبرما . فقد تقرر فى شروط هذه المعاهدة أن تنزل النمسا : —

اولا — عن تريستا وكرواتيا وماجاورهما من شواطىء بحر الأدرياتيك لتتألف من كل ذلك « الولايات الأليرية » وتكون خاضعة رأساً لنابليون

ثانياً — عن نصيبها الذى كانت قد حصلت عليه من بولندا — لينضم الى « دوقية وارسو »

ثالثاً — عن سالزبرج وما جاورها ليستولى عليها ملك بافاريا حليف نابليون

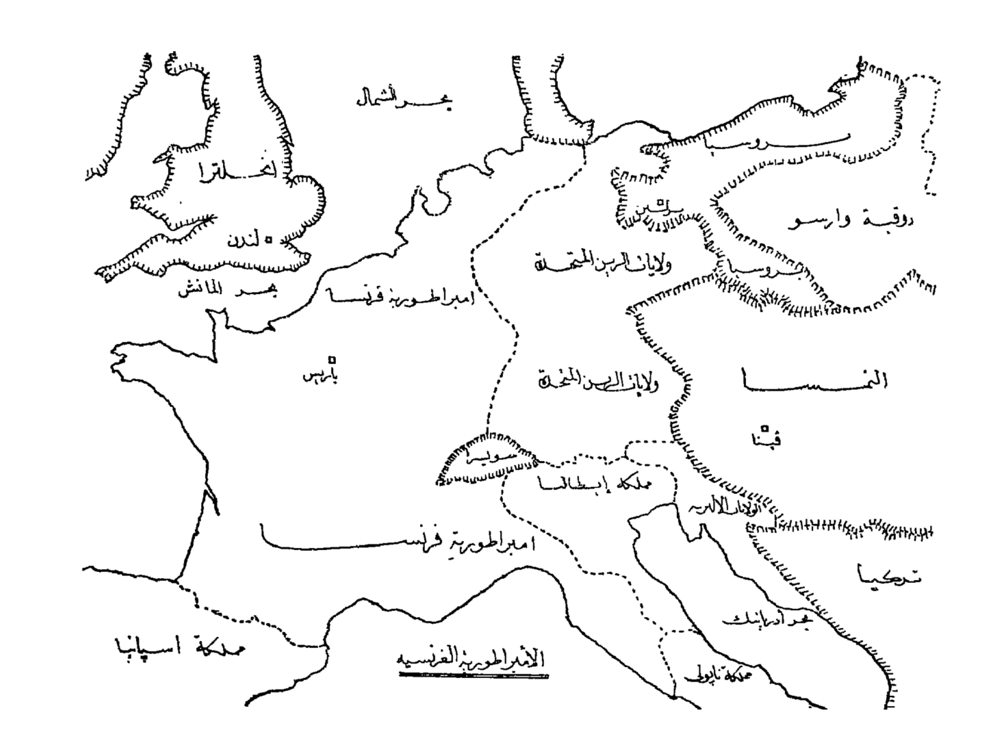
وكانت النمسا قد أفلحت فى إحداث ثورة فى مقاطعة التيرول (التى ضمتها معاهدة پرسبورج إلى ملك بافاريا) فقام

أهلها قومة رجل واحد تحت لواء زعيمهم البطل « أندرو هوفر » Andrew Hofer » وأبلوا أحسن بلاء فى هذه الحرب. ولكن النمسا لم تملك بعد ما حل بها من الهزائم أن تدفع عنهم غضب نابليون فأسلمتهم لانتقامه غنيمة باردة . فأعادهم الى حظيرة ملك بافاريا بعد أن نكل بزعمائهم وأعدم بطلهم هوفر رميا بالرصاص .

❊ ❊ ❊

ولعل معاهدة فيينا تحدد النهاية التى وصلت اليها امبراطورية نابليون من حيث اتساعها وانتشارها فقد كانت تمتد دولته بعدها «من مصب نهر الألب شمالا الى مصب التيرول جنوبا وتضم بين جناحيها العريضين نحو ١٣٠ مقاطعة فى ايطاليا وفرنسا وسويسرا ولوكسمبرج وبلجيكا وولايات الرين وبلاد ألمانيا الواقعة على بحر الشمال .

« وكان نابليون نفسه ملك إيطاليا ووسيط المحالفة السويسرية وحامى محالفة الرين التى كان ملوكها جميعا يدينون له بتيجانهم . وكان أخوه يوسف ملكا على اسبانيا وأخوه لويس ملكا على هولندا وأخوه جيروم ملكا على وستفاليا وصهره مورا ملكا على نابولى . وكان الملوك والقياصرة



بحر الشمال
انجلترا
لندن
بحر المانش
امبراطورية فرنسا
باريس
ولايات الرين المتحدة
ولايات الرين المتحدة
روسيا
برلين
دوقية وارسو
بروسيا
النمسا
فينا
سويسرا
مملكة إيطاليا
الولايات الإلليرية
امبراطورية فرنسا
تركيا
بحر ادرياتيك
مملكة اسبانيا
الامبراطورية الفرنسية
مملكة نابولي

الامبراطورية الفرنسية

حلفاؤه طوعا أو كرها لاينـازعه منهم فى الملك والسلطان منازع واستمرت الحال على ذلك مدة عامين (مابين ١٨٠٩— ١٨١١) كان فى أثنائهما يهيمن على كافة شئون أوربا » .

وقد كان هذا الملك الواسع سـببا فى إغرائه باحداث وارث من صلبه يرث عنه كل هذه العظمة . وأخذ منذ ذلك اليوم يفكر تفكيرا جديا فى طلاق جوزفين . وقد رأيناه فعلا يفاوض الاسكندر فى إرفرت على الزواج من أسرته . ولـكن أم القيصر ضنت بدماء بيت رومانوف العريقة أن تمتزج بأسرة المسـيو بونابرت المحامى الكورسـيكى فحول نابليون وجهه شطر أسرة هابسبرج النمسوية وتولى مترنيخ نفسه مهمة المفاوضة فى أمر هذا الزواج وكان نجاحه فيه أول نصر سياسى أحرزه فى حياته العامة لأن نابليون لم يلق خيرا من بعد هذا القران . إذ اشتبك بسببه فى حرب مع الروسيا كانت فاتحة سقوطه . واخذ نجمه بعدها فى الافول .

الفصل الثاني

طلاق جوزفين

كنا قد أثبتنا في بعض الفصول السابقة نص الرسالة التالية التي بعث بها نابليون إلى جوزفين .

« إن رجلا لا تحبينه ليس من حقه أن تكون سعادته أو شقاوته موضع اهتمامك . أما عن نفسي فقد جعلت غايتي من هذه الحياة أن أعيش لأحبك . فلا تهتمي بشئون رجل لا يستمد حياته إلا من حياتك . ولو أني تقاضيت منك أن تحبيني بقدر حبي لك إني إذن لفي ضلال مبين ! وهل أنا ان فعلت ذلك إلا كمن يتطلب أن تزن « الدنتلا » مثل وزن الذهب ؟ وان الذنب لذنبي إذا كانت الطبيعة لم تهبني من الجاذبية ما أجذب به فؤادك ! ولكن الذي استحقه من جوزفين إنما هو اعتبارها وتقديرها لأني أحببتها هذا الحب العنيف الفريد ! وأني في الساعة التي أعرف فيها أنها لم تعد تحبني سأطوي على هذا السهم الدامي جناحي وأرضى من هذه

الدنيا بأن أوفق الى تأدية خدمة نافعة لها فى أية ناحية من نواحى الحياة . . . . . .

هاءنا أعيد فتح كتابى لأقبلك ! آه — ياجوزفين ! ياجوزفين ! »

وذكرنا بعد ذلك أن أخبارا غير سارة وصلته وهو فى فى مصر عن سلوك زوجته جعلته يثور ويعلن فى حدة وغضب أنه سوف يطلقها بمجرد عودته من مصر الى باريس « طلاقاً فاضحا واضحا لأنه لا يريد أن يكون اضحوكة العاطلين من أهل باريس ! »

وذكرنا أيضا أنه كتب الى أخيه يوسف على أثر هذه الثورة فقال له :

« لقد ضاق صدرى بالطبيعة البشرية . وأصبحت أحس بالحاجة الى الانفراد والعزلة وسئمت مظاهر العظمة . وجف نبع عواطفى . وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى أعاف المجد وأراه فاترا لاطعم له . لقد سلبتنى يد الدهر كل أمل . فلم يبق لى إلا شخصى أحيا به حياة الأثرة والانانية التامة المطلقة ! »

وبيّنّا بعد ذلك كيف أن لئاماً واحدا تم بينه وبين زوجته

كان كافيا للعودة به الى حظيرة نفوذها فتجدد حبه لها وتأكد عطفه عليها . وعاش معها على ذلك زمانا طويلا الى أن عين قنصلا أولا لمدة حياته . وعند ذلك اتجهت أفكاره اتجاها جديدا وهو الحصول على وارث يرث عنه ملك فرنسا خشية ما يقع بين زعمائها من النزاع اذا ما جاء أجله ولفظ نفسه الأخير وخشية أن تعود البلاد الى ما كانت فيه من الفظائع الداخلية والأخطار الخارجية . وقدقويت عنده هذه الافكار وازدادت فى نفسه استقرارا عقب رفعه الى عرش الامبراطورية فقد أصبح « ولى العهد » حاجة من حاجات الدولة لا بد من تحصيلها . فتكاثر الناصحون حول نابليون وجلهم من أهله واخوته يشيرون عليه بالطلاق من جوزفين والتزوج بأحدى أميرات البيوت المالكة فى أوربا . وكان هو فى أول أمره يصد عن مشورتهم ولا يستمع لها لأنه كان يعلم أن لجوزفين ولدين من بوهارنيه زوجها الماضى وأنها لم تعقب منه نسلا مما قد يدل على أن العقم منه لا منها . ولكنه بعد صلته بالكونتس واليسكا وغيرها تحقق من أنه يستطيع انجاب « اولياء للعهد » إذا هو تزوج بغير جوزفين زواجا شرعيا رسميا . فبدأت تتخلخل عزيمته فى التمسك بزوجته وبدأت تميل أذنه لمقالة من

حوله من أنصار الطلاق .

ولم تكن جوزفين غافلة عن شيء من هذه التطورات. بل أنها كانت ترقبها بمزيد العناية والاهتمام وتعمل جهدها على الاحتفاظ بنابليونها القديم لاسيما بعد أن بلغت ما بلغته من المنزلة السامية بين الفرنسيين بفضل انتمائها اليه واقتران اسمها باسمه ولم تدخر وسعا فى التأثير على كل ما كانت تعلم أنه يدعو إلى فكرة الطلاق عند زوجها — وكان يوسف أخو نابليون أشد أهله انتصارا لهذه الفكرة . فكتبت إليه جوزفين يوما من الأيام :

« ان طلاق نابليون سيفسح الطريق لزواج آخر قد يثمر ولدا . فلا يبقى لك معه أمل فى الصعود الى العرش ! » .

على أن شيئاً من هذا الاغواء وأمثاله لم يؤثر فى دعوة يوسف أو غيره . وأخيراً بدأ نابليون يرى حيوية الفكرة بالنسبة لصالح فرنسا العام . وأخذت تتجلى له مزايا الاقتران بأحدى أميرات البيوت المالكة العتيقة وكيف أن هذا يكون سببا فى انتاج « ولى عهد » تجرى فيه الدماء الملكية العريقة . وبذلك يتوطد مركز الأسرة البونابرتيه فى الحكم وتنقطع حجة خصومه فى الطعن على نشأته والتذرع بهـــا لاسقاطه

وهدمه — وربما نشأت عن هذه المصاهرة مع الروسيا مثلا أو مع النمسا محالفة سياسيه يكون من شأنها أن تضع حدا لهذه الحروب التى أغرقت أوربا فى الدماء ما يزيد على عشرة اعوام — وهكذا تواترت هذه المغريات على خاطر نابليون حتى ألفى نفسه فى آخر الأمر يميل الى دعوة يوسف وأمثاله ممن كانوا يشيرون عليه بالطلاق . وانتهى الى الاقتناع بوجوبه فصحت عزيمته عليـــه ولم يبق الا الأفضاء بهذه العزيمة الى جوزفين لتستعد لها وتوطن نفسها عليها .

ورأى نابليون فى بادىء الأمر أن يكل إلى أحد أصهارها القيام بعمل التمهيد اللازم معها فقصد إلى الكونت لافاليت وقال له :

« أنى لا أؤمل أن أرزق من جوزفين ولدا . على أنى لم أبلغ بعد من العمر ما يحول دول حصولى على ولد . وان راحة فرنسا لتقتضى أن اتخذ لى زوجة أخرى . وأن لك من المنزلة عندها ما يجعلك محل اجلالها واحترامها فهل لك أن تعد فكرها لقبول الحالة الجديدة التى أوجبتها المقادير ؟ »

ولكن الكونت لم تخف عليه دقة الموقف فاعتذر والتمس من الامبراطور أن يسند هذه المهمة الى غيره وعبثا حاول

نابليون أن يظفر بمن يقبل حمل هذه الرسالة الى جوزفين فلم ير بدآ من أن يتولى بنفسه ابلاغها هذا الخبر الأليم .

* * *

وتحدد اليوم الأخير من شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩ للأفضاء بهذا النبأ العظيم الى جوزفين . ونما علم ذلك اليها فتضعضعت نفسها مقدما وتصدع كيانها . . . . . . وأخيرا حل ذلك اليوم بعد ان تم استعداد نابليون له . وكمل تأهب جوزفين . وعلى الرغم من ذلك كانت تظلل قصر فونتنبلو منذ الصباح كآبة قاتمة . كأنما أُلْـهِمَ كل شيء فيه بالغريزة أن صاعقة ستنقض على أهله فى المساء . فقضت جوزفين ساعات الصباح وحيدة فى مخدعها تنتحب وتبكى . وقضاها نابليون فريدا فى مكتبه يفكر ويتأمل . واجتمعا فى آخر اليوم على مائدة العشاء . فلم تجر بينهما كلمة ولم تسر بينهما نظرة . وكانت الصحاف ترفع كما توضع دون أن تمسسها يد واحد منهما . وأخيراً فرغ هذا الاستعراض الثقيل وانسحب الخدم وتقدم نابليون تعلوه صفرة الموت الى باب الغرفة فأقفله ثم خطا خطوات عصبية متلعثمة نحو جوزفين . وأمسك يدها بأطراف يده المتجمدة ووضعها على صدره وجسمه يختلج من رأسه الى قدمه ثم قال:

جوزفين ! ياعزيزتى جوزفين ! إنك تعلمين مبلغ حبى لك، وانى مدين لك بلحظات السعادة القصيرة التى تذوقتها فى حياتى. . . . . . ان مصيرى ياجوزفين أقوى من إرادتى . . . . وان أعز رغباتى لتطأطىء رأسها أمام صالح فرنسا . . . . . »

وكأنما كانت هذه الكلمات آخر ما تستطيع جوزفين احتماله من آلام ذلك اليوم الموعود . وكأنما كانت تغالب نفسها طول يومها لتبقى على صوابها حتى يتم تمثيل هذا الفصل الاخير من تلك الرواية الشاقة فلم يكد ينثر نابليون بين يديها هذه الكلمات المبعثرة حتى خارت قواها وضاع صوابها فانطرحت على الأرض فاقدة الرشد . . . .

وزاد ارتباك نابليون فأسرع الى الباب واستغاث بمن كان حاضرا خارجه . فدخل الكونت دى بومون «Comte de Beaumont» وأبصر الامبراطورة مطروحة على الأرض فاحتملها بين يديه يعاونه نابليون وصعد بها الى الطابق الخاص بها وهى تهذى بين يديهما قائلة :

« أبداً ! أبداً ! إنك لن تفعل هذا ! إنك لن ترضى أن تقلتنى ! ».

وظل نابليون يتردد على غرفتها طول الليل مستفسرا عن

صحتها . وكانت ابنتها هورتنس إلى جوارها تعنى بها — أما أوجين فقد استدعى من إيطاليا على عجل وألقت هورتنس رأسها بين ذراعيه وهى تروى له خاتمة أمهما المحزنة . فأسرع أوجين إلى مكتب الامبراطور يستفسر منه عن حقيقة نيته فى الطلاق من أمه . فلم يقو نابليون على الأجابة واكتفى بأن أمسك بيد ذلك الشاب المخلص وضغط على كفه . ولكن أوجين تراجع قائلا :

— إننى يا مولاى فى هذه الحالة لا يسعنى الا الانسحاب من خدمتكم !

فقال نابليون : — كيف ؟! أيرضى أوجين ولدى المتبنى بالتخلى عنى ؟

فأجابه : نعم يامولاى ! إن ابن السيدة التى لم تعد امبراطورة لا يستطيع أن يبقى نائب ملك ! وسوف أتبع أمى وأعيش معها فى عزلتها وأن من حقها اليوم أن تجد العزاء الكامل فى ولديها !

فامتلأت عينا نابليون بالدموع وقال :

— « إنك تعلم يا أوجين القوة القاهرة التى تملى على مثل هذا التصرف فهل بعد ذلك تصر على التخلى عنى . ولئن فعلت

فمن ذا الذى اتخذه ولدا من بعدك ليصون مصالحى ويحقق رغباتى ؟ ومن ذا الذى يشرف على « الطفل » عند غيابى . ولو أننى مت فمن ذا الذى يقوم مقام الوالد له ومن ذا الذى يتولى رعايته وتنشئته . . . » .

على أن جوزفين نفسها أبت فى تلك المحنة التى كانت تعانيها إلا أن تنصح ولدها بالبقاء على عهد نابليون قائلة له :

— إن الامبراطور يا ولدى هو ولى نعمتك . وهو لك أكثر من أبيك وأنك لمدين له بكل شىء فمن الواجب عليك أن تطيعه فى كل شىء ! » .

* * *

وأخيرا حل اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر وهو اليوم الذى حدد لأعلان هذا الطلاق . وقدر « للبهو الأكبر » فى سراى التويلرى أن يشهد هذا المنظر الرائع . منظر نابليون وجوزفين وقد أمسك كل منهما فى يده بورقة سطرت عليها كلمات كان عليه أن يتلوها على رجال الدولة الذين دعوا ليكونوا شهودا على إعلان كل من الزوجين رضاءه عن فراق الآخر .

وبدأ تمثيل تلك الرواية المحزنة فقام نابليون وأدى دوره بما هو أهله من الثبات والهدوء ثم جاء دور جوزفين فوقفت

والورقة فى يدها . وحاولت أن تقرأ ما فيها . ولكنها ما كادت تلق نظرها على سطورها حتى انفجرت بالبكاء فناولتها لجارها كى ينوب عنها فى تلاوتها وألقت بنفسها فى مقعدها وقد غطت وجهها بمنديلها لتتلقى به سكب دموعها . . .

وأقبل نابليون على جوزفين بعد الفراغ من تلاوة كلمتها فقبلها ثم أخذ بيدها وسار بها إلى مخدعها . وهناك تركها فى شبه غيبوبة بين أيدى ولديها .

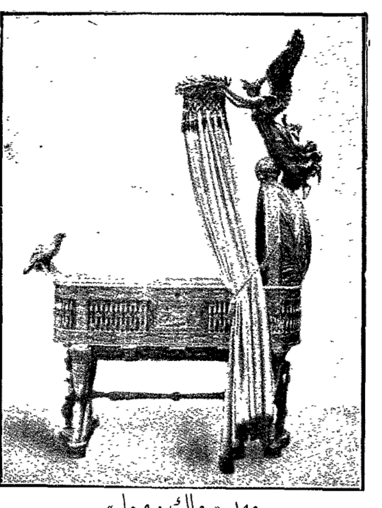
وقضى نابليون تلك الليلة فى قصر التويلرى . ولما حانت ساعة النوم أوى إلى فراشه — ذلك الفراش الذى أقصى عنه زوجته العزيزة المحبوبة . وكان الجهد والأعياء قد أخذا من جسمه كل مأخذ فاستلقى على سريره خائر القوى شارد الفكر — ولم تدم رقدته على هذه الحال طويلا فأنه أبصر باب غرفته الخاص ينفتح رويدا رويدا وقد بدت منه جوزفين . فاستوى جالسا . وأقبلت جوزفين نحوه فى خطوات سريعة متعثرة . ولكنها ما قطعت نصف المسافة حتى وقفت فجأة فى مكانها كأنما يحول بينها وبين زوجها السابق حائل . وكأنما أدركت أن لا حق لها الآن فى الاقتراب من فراشه على أنها ما عتمت أن اكتسحت خواطرها عاطفة واحدة قوية

فاندفعت تحت تأثيرها من جديد وطرحت نفسها على السرير . وطوقت رقبة نابليون بذراعيها وهي تهتف به : « زوجي ! يا زوجي ! ».

ولم يقو نابليون على مغالبة الموقف فامتزجت دموعه بدموعها وهو يضمها آخر ضمة إلى صدره وظل الزوجان على ذلك برهة طويلة ثم انسحبت جوزفين إلى مخدعها . ودخل الخادم على سيده فألفاه مغمورا بأغطيته حتى لا تكاد تبدو منه جارحة فأطفأ الأنوار وانصرف دون أن ينبس بكلمة . وقد علم في صباح اليوم التالي من وجه نابليون الباهت وعينيه الفاترتين أية ليلة أليمة قضاها سيده تحت الغطاء !

* * *

على أن الصلة لم تنقطع بعد ذلك بين نابليون وجوزفين — بل بقيت حية قوية حتى بعد زواجه الثاني من « ماري لويز » ابنة امبراطور النمسا . بيد أن هذا الزواج — على الرغم من توقع جوزفين له — كان سببا في القضاء على ما بقي فيها من ذماء . ولم يدخر نابليون وسعا في العمل على راحة جوزفين بعد الانفصال منها . فأنه كان دائم التفكير فيها ولم يترك سبيلا لتخفيف آلامها إلا سلكه . وعلى الرغم من غيرة زوجته



مهد « ملك روما »
ابن نابليون من مارى لويز



ملك روما
(النسر الصغير)

الجديدة من جوزفين غيرة جنونية فأنه لم يكن يبخل على زوجته الأولى بزيارات مختلسة يزيل بها وحشة نفسها ويدخل بها بصيصا من النور على قلبها المظلم . بل لقد تجاوز فى ذلك كل حد حينما طلبت إليه جوزفين أن ترى مولوده الذى وضعته له مارى لويز . فاحتال على ذلك رغم احتياط زوجته ومبالغتها فى التحرز من أن يقع هذا اللقاء .

أما حب جوزفين لنابليون فقد تجلى بصورة رائعة بعد هذا الانفصال وما تزال رسائلها إليه بعد الطلاق آية من الآيات التى تقع فى قرارة القلب لفرط ما أودع فيها من روح الوفاء والأخلاص . ولعل الذى أذكى كل هذا الحب فى نفسها ورفعه إلى تلك المنزلة القدسية البالغة ذلك الزواج الجديد الذى اقدم عليه نابليون . فأنه أثار عواطفها وهز أوتار قلبها .

وعلى قدرغيرة مارى لويز من جوزفين كان ميل جوزفين إليها والى ابنها « ملك روما » فأن الأولى لم تكن تفهم صلة زوجها بجوزفين بعد الطلاق إلا على أنها عنوان بقاء حبه لها واستمرار تعلقه بها . بينما كانت ترى الثانية فى بقاء هذه الصلة دليلا على أن هذا الزواج الثانى لم يكن إلا زواج ضرورة أوجبته الظروف السياسية ولم تكن مارى نفسها فى نظر

جوزفين إلا أداة لخدمة صالح فرنسا السياسى قبل أن تكون سكنا لنابليون وموضعا لعطفه أو حبه وبلغ من رعاية نابليون لجوزفين أنه عندما اقترب يوم زفافه إلى عروسه الجديدة . أشفق عليها أن تبقى فى قصر المالميزون فتشهد من مظاهر الابتهاج والسرور ما قد يؤلم نفسها ويجرح عواطفها فأشار عليها بالانتقال إلى قصر آخر بعيد عن باريس . فقدرت له جوزفين هذه العناية ونزلت على مشورته .

على أن جوزفين كانت فى الواقع تخفى اكثر مما تبدى تساميا منها أن يشمت بها الشامتون . وكانت تتكلف ذلك حتى لا تُنَغِّصَ بأحزانها هناء نابليون . وظلت هذه المعركة النفسية الدفينة تحتدم فى قلبها تحطم أركانه وتقوض بنيانه اكثر من أربعة أعوام وهى لا تجد ما تمسك به نفسها أن تفيض إلاّ ما يحبوها به نابليون من العطف ومظاهر الوفاء . فلما قلب الدهر لبطلها ظهر المجن . وأدبرت عنه الدنيا بعد إقبالها . وشاهدته يعتزل الملك ويودعها الوداع الأخير قبل رحيله إلى جزيرة إلبا لم يبق لها من الأمل ما تحيا به . وانطفأ سراج حياتها بعد سفر نابليون بنحو أربعة أسابيع .

وقد كان موتها نذيراً بأفول نجم نابليون كما كان زواجها

به فاتحة لأيام سعادته ومجده . فان نابليون وان كان قد أفلح في الفرار من إلبا بعد ذلك غير أنه لم يلبث بعد عودته منها الا ريثما يقضى عليه الحلفاء القضاء الأخير فى ووترلو ، فاعتزل الملك للمرة الثانيـة وعول على الرحيل عن فرنسا وهو يعلم أن لاعودة له إليها بعد هذه المرة . وكأنما محيت من ذهنه كل ذكريات ملكه ولم يبق فيه إلا شبح جوزفين . فوقف وسط قصره يتلفت حوله ويقول :

— « كل شيء هنا يهيج فى نفسى آلام الذكرى . إن هده الدار كانت أول ما ملكت . وقد اقتنيتها بكدي وجهدى . لقد كانت دار السعادة والهناء ! أين التى كانت نور هذا المكان وجوهرته . . . يا أسفا . . . لقد غلبنى الدهر عليها . وقتلتها المصائب التى نزلت بى ! »

وبقى خيال جوزفين ماثلا أمام نابليون طول مدة نفية الطويلة فى جزيرة سنت هيلانة (١٨١٥ — ١٨٢١) حتى أنه لما اشتد عليه مرضه الأخير كثرت هواجسه عنها وتكرر ذكره لها . وقام ذات يوم قبيل وفاته بقليل ينادى رفيقه مونثلون « Comte Montholon » وهو فى سكرات الموت قائلا له وهو يكاد يطير من الغبطة والسرور :

« لقد رأيت جوزفين يامونثلون ، فعانقتني ثم اختفت فجأة حين أردت أن أعانقها — كانت جالسة على ذلك المقعد وكأني رأيتها أمس مساء لم تتغير ، بل كانت كما هي شديدة الميل الى . قالت لي أنا على وشك أن نجتمع ويرى بعضنا بعضاً ثم لن نفترق بعد ذلك — ولقد أكدت لي ذلك — أفلم ترها أنت يامونثلون ؟ ! »

الباب الخامس : عوامل سقوط نابليون

الفصل الأول — النظام القارى .

« الثانى — نهضة بروسيا .

« الثالث — « القرحة الاسبانية » .

« الرابع — انقلاب القيصر وأسبابه .

الباب الخامس
عوامل سقوط نابليون

الفصل الأول
النظام القارى

مهما تشعب تاريخ نابليون وتنوعت حوادثه فهو مايزال قصة جهاد واحد طويل أساسه منازعة انجلترا والنمسا له فى شرعية سلطته على فرنسا .

فنابليون يقول انه لم يعتد على أحد ولم يغتصب السلطة من أحد ولكنها الظروف والحوادث دفعته دفعاً الى ذلك المركز الذى يشغله وأنه قبله نزولا على إرادة الأمة الفرنسية التى دفعته اليه .

وانجلترا والنمسا تقولان أنهما لا تستطيعان قبول الحالة التى أوجدتها فرنسا الثائرة ولا تعترفان بالنظم التى أحدثتها فى داخل حدودها وعملت على نشرها فى أوربا إضرارا

بمصالح الحكومات القائمة فيها . وأن مبدأ التوازن الدولى يتعارض مع فتوح الثورة الفرنسية وخطة التوسع التى يسير عليها نابليون .

ولم يشأ أحد الفريقين أن يسلم بوجهة نظر الآخر . فلا نابليون يقبل النزول عن شبر أرض واحد حصل عليه بحد سيفه وبحق الفتح ولا خصومه يقبلون حكم هذا السيف فيهم كلما شهره عليهم فكانوا لا يلبثون بعـــد الهزيمة إلا ريثما يتأهبون لقتال جديد — وهكذا تسلسلت بينهم تلك الحروب المهلكة التى راح ضحيتها مئات الألوف .

ومن البديهى الذى لا نزاع فيه أن نابليون كان كارها لمعظم تلك الحروب غير راغب فيها . وكانت كل أحلامه أن يعيش فى فرنسا عيشة سلام وهدوء منصرفا الى تنفيذ إصلاحاته التى بدت ثمراتها الأولى فى عهد القنصلية ولاغرو أن تكون هذه ميوله فان مركزه كان كمركز لاعب الورق الذى ربح وعمرت جيوبه فهو ضنين بأن ينغمس فى اللعب من جديد لكى يبقى له ما حصل عليه . ولكن هـــذا الحلم الجميل لم يكن ليتحقق له على كل حال والنمسا عن يمينه وانجلترا عن شماله ودويلات أوربا الأخرى محيطة بأمبراطوريته .

وكلها واقعة تحت تأثير الدعاية البريطانية الدائبة فى وصمه بصفات الظلم والاستبداد . والوحشية . والبعد عن الانسانية . إلى آخر تلك السلسلة التى لم يكن لها عندهم من آخر .

وخيل لنابليون يوما من الأيام أنه وفق أخيرا إلى حل لهذه المشكلة المعقدة ، وذلك حينما فكر فى الزواج النمسوى ليكسب به النمسا ، وفى النظام القارى ليقضى به على انجلترا

وقد كانت كل الدلائل بعد زواجه بمارى لويز تبشر بنجاح فكرته فان النمسا أصبحت حقيقة من بين حلفائه وأنصاره فى حين ان انجلترا بدأت تحس وطأة النظام القارى على مصالحها بشكل جدى أليم . على أن نابليون فى الواقع وهو يحاول تغطية مركزه فى الغرب بهذه الوسائل قد كشف نفسه للروسيا فى الشرق ، فقد كان زواجه من أسرة هابسبرج النمسوية طعنة أصابت كرامة بيت رومانوف الروسى الذي كان ما يزال سفراء نابليون يتفاوضون معه فى خطبة أخت القيصر له ، كما أن نظامه القارى الذى فرضه على أوربا ليقضى به على تجارة انجلترا كان قاضيا على كثير من دول أوربا وفى مقدمتها الروسيا قبل أن يكون قاضيا على الانجليز أنفسهم وذلك بسبب ما أحدثه فى تلك الدول من الضيق الاقتصادى .

وارتفاع أسعار الحاجيات .

ولقد بدأت تفتر بسبب هذه العوامل تلك المودة التى نشأت بين القيصر ونابليون فى «تلست» واشتدت أواصرها فى « إرفرت » وانتهى الأمر بين الحليفتين بحرب طاحنة كانت بداية النهاية فى تاريخ نابليون .

على أن عاملا سياسياً جديداً كان قد ظهر فى أوربا قبل ذلك وسرى فى أطراف الأمبراطورية الفرنسية . فألغم بنيانها على غفلة من نابليون . وما لبث أن نسفها نسفاً وأتى عليها من القواعد . ولم يكن ذلك العامل فى الواقع إلا أثراً من آثار النظام القارى أيضاً. ونعنى به ذلك « الروح القومى» الذى بدأ فى اسبانيا منذ فكر نابليون فى ضمها إلى أمبراطوريته ليكفل بها ميدانا جديدا يساعده على إحكام تنفيذ نظامه القارى . فأذا به يفتح فيها على نفسه ميدانا جديدا تتلق جيوشه فوق ساحته أول نكبة خدشت سمعته. وأطمعت فيه سائر دول أوربا . وأغرتها بالسير على مثال اسبانيا لتبلغ منه ومن جنوده مثل ما بلغه الاسبانيون .

فأن شئت أن ترجع بعوامل سقوط نابليون إلى أصلها فأنك لن تجد لها دائما إلا أصلا واحدا وهو ذلك النظام

القارى المشئوم : فهو الذى دفعه إلى التدخل فى شئون اسبانيا فكان سببا فى إثارة الروح القومى فيها . وهو الذى كان سببا فى الفتور الذى وقع بينه وبين القيصر وانتهى بالحملة الروسية . وهو الذى جمع حوله فى آخر الأمر دول أوربا كلها فى حرب عامة كان لا بد لها أن تنتهى بما انتهت به من إسقاطه ونفيه .

الفصل الثانى

نهضة بروسيا

كانت بروسيا فى مقدمة دول أوربا التى انتفعت بالثورة الاسبانية واتخذتها رائدا لهـــا فى الاستعداد لقتال نابليون والتخلص من نفوذه الذى فرضه عليها منذ معاهدة تلست . وقد تهيأ لها ذلك بفضل جماعة من كبار المصلحين أمثال ستاين Stein وشارنهورست Scharnhorst وغيرهما ممن كانوا أساس عظمتها وسر نجاحها فى نهضتها .

فأما ستاين فكان رئيسا للوزارة البروسية وقد تأثر بروح الملكة لويزا فى حماستها ووطنيتها ولم يفته ما كان يشكوه المجتمع البروسى من المساوىء الأقطاعية حيث يتمتع الأشراف بشتى الامتيازات . وينوء الفلاحون تحت مختلف الأعباء والتكاليف . فرأى أن كل عمل لا يقوم أساسه على إصلاح هذا المجتمع الضعيف انما هو عمل مقضى عليه بالفشل حتما . فلم يتردد فى طرح فكرة المقاومة العسكرية جانبا ريثما

يتيسر له النهوض بهـــذا المجتمع أولا واعداد الأمة نفسها للوقوف فى وجه نابليون .

وكان الشعب البروسى حقيقة وراء شعوب أوربا كلها فى نظمه الاجتماعية فأن الفلاحين فيه وهم جمهور الأمة كانوا ما يزالون تبعا للأشراف فى معيشتهم وكان هؤلاء يتوارثونهم فى خدمة مصالحهم وفلاحة أرضهم أبناء عن آباء وكان الفلاح السعيد الذى قدر له أن يمتلك شيئا من الأرض محروما من حق التصرف فى ملكه فبدأ ستاين سلسلة إصلاحاته بأن استصدر فى ٩ اكتوبر سنة ١٨٠٧ مرسوما ملكيا بألغاء تلك العلاقة العتيقة الوراثية التى كانت بين الفلاحين والأشراف وتحرير الملكية العقارية من جميع القيود القانونية التى كانت تحرم ملتزمها من حرية التصرف فيها .

وكان النظام الأدارى فى بروسيا نظاما عتيقا يجعل السلطة فى يد المديرين الذين يتصرفون فى أقاليمهم كيف يشاءون . فاستصدر ستاين فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ قانونا لتنظيم الأدارة وتركيز سلطانها فى يد هيئة مركزية تحل محل وزراء المقاطعات . ثم شرع يفكر فى إنشاء مجالس للمديريات لتعويد البلاد على الحكم الذاتى واشتراك السواد الاعظم من الشعب

فى الحياة العامة لعلمه بأن الشعب وحده سناد كل حركة قوية يراد بها الوصول إلى تحريره واسعاده .

أما الجيش فقد عهد ستاين أمر إصلاحه وتقويته إلى زميله شارنهورست وحدث أن انتصر الاسبان فى ذلك الوقت على جيوش نابليون . فود ستاين لو انتهز هذه الفرصة ليخلع عن بلاده نير (الطاغية) . ولكن عيون نابليون وارصاده ما لبثوا أن وقفوا على نواياه وضبطوا أحد الخطابات السرية وأطلعوا الامبراطور عليه . فوقع ذلك من نفسه أسوأ وقع وأصر على عزل ستاين من الوزارة البروسية فورا . فاعتزل الرجل مركزه وسافر إلى النمسا ثم رحل عنها إلى الروسيا حيث دخل فى خدمة القيصر . بيد أن نابليون لم يكتف بذلك بل فرض على البروسيين ضريبة فادحة مقدارها ١٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا وطلب أن لا يزيد جيشهم العامل على ٤٢ ألفا . ولكن الشرارة التى أوقدها ستاين كانت قد دبت فى روح الشعب وسرت فى عروقه فظلت تتزايد وتنمو فى الخلفاء بينما كان هو نفسه فى بلاط القيصر يحاول إيقاد نار جديدة تلتهم ملك نابليون . وكانت جهوده فى هذا المضمار من بين الأسباب التى باعدت بين القيصر ونابليون

وأدت الى وقوع الحرب الروسية الفرنسية التى كانت نذير انهيار الأمبراطورية .

وكان الجيش البروسى يتألف نصفه من الجنود المرتزقة الذين تعوزهم تلك الروح المعنوية التى كانت سببا فى انتصار جيوش لجيوش الثورة الفرنسية على الرغم من سوء نظامها وضعف سلاحها . وقد تنبه شارنهورست إلى هذه الحقيقة فعمل على تسليح أبنـــاء الأمة نفسها عوضا عن استئجار الأجانب للدفاع عنها . وقد كفل هذا الرجل لاسمه الخلود فى عالم البطولة بتلك الخطة التى انتهجها . واحتال بها على تكوين جيش ضخم على الرغم من معارضة مليكه وتحذير نابليون . وبيان ذلك أنه فى الوقت الذى تعهد فيه بأن لا يزيد الجيش البروسى على ٤٢,٠٠٠ كان يدمج فى كل فرقة عاملة نفراً معينا من الأقليم التابعة له تلك الفرقة ليقضوا شهرا فى خدمة الفرقة يتعلمون سرا فى خلاله اهم التمرينات العسكرية . فأذا انتهت مدتهم حل محلهم غيرهم فى الشهر التالى وهكذا . فكانت الفرقة الواحدة التى لا يزيد عددها الرسمى على ٥٥٠ جندى تحت السلاح تستطيع بهذا النظـام أن تضم إلى صفرفها فى بحر ثلاثة أعوام مالا يقل عن ٢٥٠٠ جندى جديد ممن تلقوا

مبادىء التعليم العسكرى خلسة بين رجالها .

وكان هذا العدد الأضافى المستتر هو الذى مكن بروسيا فى بداية سنة ١٨١٣ من مفاجأة نابليون بجيش لا يقل عن ٣٥٠,٠٠٠ مقاتل . وكان هذا الجيش بدوره عاملا من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط نابليون .

الفصل الثالث

القرحة الاسبانية

كانت الثورة الاسبانية الحلقة الاولى من سلسلة طويلة من الحركات القومية التى قضت أخر الامر على الامبراطورية النابليونية القضاء الاخير . وقد رأينا فى الفصل السابق كيف أن بروسيا كانت أول دول أوربا التى انتفعت بالمثل الاسبانى . ولكن اسبانيا نفسها لم تكن قد أتمت دورها بعد بألقاء هذا المثل على الدول الأوربية فأنها ظلت فى صراع متواصل مع جيوش نابليون ولم تنسحب من ميدان الجهاد لحظة واحدة حتى فى سنتى ١٨١٠ و ١٨١١ اللتين كانت تتمتع فيهما كافة دول أوربا بسلم نسبى لا عهد لهم بمثلة منذ ظهر بينهم نابليون وانبرت انجلترا لهدمه .

وفى الواقع لم يكن أمام نابليون بعد موقعة واجرام (سنة ١٨٠٩) ما يشغل باله الا حرب اسبانيا . وكان الميدان الأوربى قد خلا من جميع المتاعب الا من هذه « القرحة

الاسـبانية » التى ما فتئت تنخر فى ظهره وتستنفد موارده.
وقد تضافرت عدة عناصر قوية لاذكاء حماسة الاسبانيين وتقوية سواعدهم فان القسس الذين لم ينسوا ما فعله نابليون بالبابا كان لهم أقوى نفوذ فى نفسية الشعب الاسبانى الكاثوليكى . فلم يدخروا وسعاً فى نشر الدعوة بين أفراده ضد نابليون بينما كان الانجليز مستميتين فى مناصرة الاسبانيين وامدادهم بالمال والسلاح والرجال لعلمهم بأن الميدان الاسبانى هو الميدان الأوربى الوحيد الذى بقى لهم لقتال نابليون بعد انسحاب النمسا من الحرب .

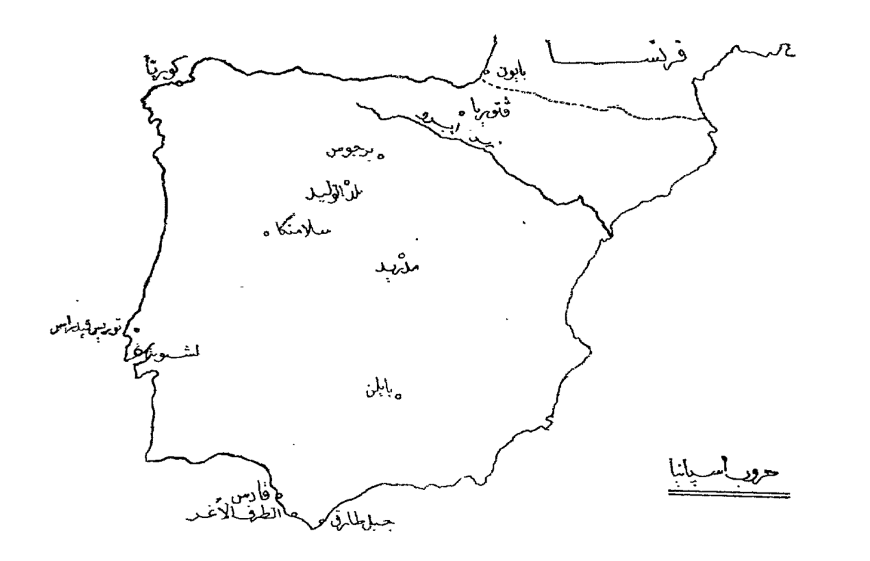
وكان السر ارثر ولسلى قائد الجيوش الانجليزية مرابطاً فى البرتغال وقد اتخذها كقاعدة حربية له يغير منها على جيوش نابليون فى اسبانيا من حين إلى اخر حتى لا تثبت لها فى تلك البلاد قدم ولا ترتفع لها بين أهلها كلمة . بينما كان الوطنيون من أهل اسبانيا قد نجحوا فى إقامة حكومة مؤقتة فى الجنوب عند « قادس » يتحدون بقيامها حكومة يوسف بونابرت .

فى سنة ١٩٠٨ سار جيشان فرنسيان أحدهما تحت قيادة (سولت) وكانت مهمته طرد الانجليز من البرتغال والآخر

تحت قيادة (فيكتور) وكانت غايته القضاء على الحكومة المؤقتة ورجالها فى الجنوب . لكن ولسلى تمكن من رد سولت ثم توجه نحو فيكتور فالتقى به فى تالافيرا وألحق بقوته خسائر فادحة وكان يستطيع أن يتابع انتصاراته لو أن الاسبانيين خفوا لمعونته وضموا جهودهم لجهوده . ولكنهم عجزوا عن تقديم أية مساعدة له . فاضطر إلى الارتداد مرة أخرى الى وكره فى البرتغال .

وفى سنة ١٨١٠ أخذ نابليون يعير هذا الميدان الاسبانى شيئاً من اهتمامه فبعث إليه بالقائد (ماسينا) ليدخل البرتغال . و« يلقى بالحامية الانجليزية فى البحر » . ووجه سولت نحو ثوار الجنوب لعله ينجح فى أداء المهمة التى عجز عنها فيكتور فى العام الماضى .

وكانت الأخبار الأولى التى وردت عن هذه الحملة (فى سنة ١٨١١) مشجعة لنابليون فان ماسينا دخل على ولسلى فى البرتغال والتحم به فى معركة كان النصر فيها حليف صفوفه .. لكنه لم يتمكن من تموين جيشه فى البرتغال . لذلك ارتد الى اسبانيا فتبعه ولسلى إليها وهزمه بالقرب من «كيوداد رودريجو» كذلك تقدم نحو قادس وهزم سولت فى بدايوز Badajoz



فرنسا
بايون
كورنا
فتوريا
ابرو
نهر
برجوس
بلد الوليد
سلامنكا
مدريد
توريس فيدراس
لشبونة
بايلن
قادس
الطرف الأغر
جبل طارق
حروب اسبانيا

وعندذلك رأى نابليون أن يوحد القيادة الفرنسيه فجعل (مارمونت Marmont) قائداً عاماً للجيوش المحاربة فى اسبانيا والبرتغال . وبذلك قوى مركز الفرنسيين فارتد ولسلى أمامهم ملتجئاً إلى خط دفاعه الذى أقامه فى البرتغال .

وفى سنة ١٨١٢ خرج ولسلى من مكمنه مبكراً وهو ينوى تشتيت القوات الفرنسية فبدأ بوضع يده على أهم معاقل البرتغال الشمالية ثم أسرع نحو الجنوب فاستولى على حصونها الجنوبية ثم انقض على مارمونت فى مدينة (سلامنكا) فأوقع الهزيمة فى صفوفه . وزحف بعد ذلك على مدريد ففر منها يوسف مرة أخرى وواصل ولسلى تقدمه شمالا حتى بلغ مدينة « Burgos » برجوس . ولكن الفرنسيين صمدوا له هناك ثم ما لبثوا أن ردوه على أعقابه وانتهت حملة ذلك العام بما كانت تنتهى به حملة كل عام . وهو ارتداد ولسلى إلى خطوط دفاعه فى البرتغال واستعداد الفريقين للقاء العام التالى .

وأنت ترى من هذا السجال كيف كانت هذه الحروب الاسبانية مثاراً للشغب وضيعة للأموال والرجال فى الوقت الذى كان نابليون فيه أحوج ما يكون الى الهدوء والتفرغ لتلك المشاكل الجديدة التى كان يخلقها له فى أوربا البلاط القيصرى على نحو ما سنفصله فى الصفحات التالية .

الفصل الرابع

نكول القيصر واسبابه

تكلمنا فى فصل سابق عن القيصر. وألممنا إلمامة قصيرة بنفسيته وعقليته وقلنا إنه اكتسب قلب نابليون بصفاته. وأنه كان موضع ثقته التامة منذ التقى به ولكن الأيام دارت دورتها بين العاهلين العظيمين ففرقت من ميولهما ما اتفق وشعبت من مصالحهما ما ائتلف. وأصبح القيصر يرى فى بعض تصرفات نابليون ما لا يرتاح هو إليه ولا يمكن أن يوافق عليه.

تحريض ستاين

فمن ذلك مثلا تشدد نابليون فى معاملة بروسيا بناء على ما اكتشفه من تآمر حكومتها عليه أثناء غيابه فى اسبانيا فان ذلك لم يكن يرضاه القيصر. أو قل بعبارة أخرى أن القيصر رجا نابليون أن يخفف من حدته على بروسيا حليفته القديمة

فلم يستطع نابليون اجابة طلبه لاعتبارات سياسية هامة لم يكن يستطيع معها أن يضحى بمصالح فرنسا العامة فى سبيل ارضاء ميول القيصر الخاصة

ضم غاليسيا الى وارسو

ومن ذلك أيضاً تقرير نابليون ضم غاليسيا الى وارسو . فان القيصر رأى فى هذا العمل تشجيعاً للآمال القومية فى بولندا واحياء لتلك المملكة القديمة التى دأبت سياسة دولته بالاشتراك مع النمسا وبروسيا فى القضاء عليها منذ نحو نصف قرن — ولقد طلب القيصر رسمياً هذه المرة الى نابليون أن يتعهد بعدم احياء هذه المملكة . وكان طبيعياً أن يرفض نابليون مثل هذا الطلب الذى لا يتفق مع مكانته فى أوربا بوصف كونه بطل الديمقراطية وزعيم شعوبها وعدو الارستقراطية وغريم حكوماتها .

خذلان القيصر فى سياسته الشرقية

ولقد عاد القيصر بعد ذلك يطالب الى نابليون أن يعترف له بحق الاستيلاء على مصبات نهر الطونة . وكان طبيعيا أيضاً

أن لا يتورط نابليون فى مثل هـذا الاعتراف الذى يجلب عليه على الأقل غضب تركيا . وكان القيصر كذلك يطمح فى الاستيلاء على الاستانة نفسها ولـكنه رأى من نابليون ما جعله يعتقد أنه سوف يعترضه إذا هو هم ببسط يده نحوها فأضافها الى سجل أحقاده .

مسألة الزواج

وكان من وراء القيصر أمه وحزبها الرجعى الارستقراطى الذى كان يعيب على سليل أسرة رومانوف أن يمد يده لمصاهرة زعيم فرنسا — بلد الثورة التى حررت الفلاحين وهدمت الامتيازات وخرجت بالعبيد عن طاعة مواليهم — وقد استغل هذا الحزب توجه نابليون الى بلاط النمسا لخطبة احدى اميراته بعد أن قصد سفراؤه بلاط القيصر فى ذلك . واعتبروا تصرفه هذا ماسا بكرامة الروسيا . فأوغروا صدر القيصر على صديقه القديم .

النظام القارى

وزاد الموقف حرجا ما جره النظام القارى على الروسيا من النتائج الوخيمة . فأنه فضلا عما سببه فى داخلها من المتاعب

وغلاء المعيشة كان سببا فى أن يستولى نابليون على بعض ولايات ألمانيا الشمالية ليضع يده على شواطئها ومن بينها مقاطعة أولدنبرج . وكان حاكم هذه المقاطعة صهر القيصر فاعتبر اسكندر هذا العمل اساءة موجهة الى شخصه بالذات .

الدعاية البريطانية

ولم تكن انجلترا غافلة عن كل هذه العوامل التى أضعفت ما بين الحليفين من صلات الولاء والصداقة شيئا فشيئا . بل أنها كانت تعمل فى الخفاء على أذكاء نار الخلاف والتهويل فى تصوير أعمال نابليون الى أن تيقنت من سريان دعايتها الخطرة فى عقل القيصر وعند ذلك برز له رجالها وعمالها يعرضون عليه كل ما فى خزائن بلاط سانت جيمس من المال وكل ما تملكه بريطانيا من الأساطيل والجيوش ليقوم القيصر بواجبه الدولى فى الاشتراك مع بقية أوربا للقضاء على نابليون وهكذا وضعت بريطانيا الدستورية يدها فى يد روسيا القيصرية لتتمكن من هدم « امبراطور الجمهورية الفرنسية »

ولقد كانت انجلترا موفقة غاية التوفيق فى سعيها فانها وهى تكسب حليفا جديدا تضمه الى عصبتها كانت فى الوقت

نفسه ترمى إلى تخفيف الضغط العنيف الذى بدأت تحسه جيوش اسبانيا وذلك بفتح ميدان آخر فى الشمال تتوزع بينه وبين ذلك الميدان الجنوبى جهود نابليون .

أما نابليون فقد أصبح يرى نفسه على أبواب حرب واسعة الفم توشك أن تلتهم ملكه ولم يكن يرغب فى المسير نحوها خطوة واحدة وهو يعلم أنه ان فعل فانما يولى ظهره لأسبانيا والبرتغال ودول أوربا الوسطى التى قد لا تتردد تحت تأثير الدعاية البريطانية أن تقوم فتقطع عليه خط رجعته الى بلاده . ولذلك آثر أن يتقدم إلى انجلترا نفسها فيعرض عليها الصلح من جديد لعلمه أنها سبب كل هذه المتاعب . فاقترح أن تعود أسرة براجانزا الى البرتغال . يسحب جنوده من اسبانيا . ويتخلى عنها هى وايطاليا .

وعلى الرغم من أن هذه المقترحات تنم عن نية نابليون فى العدول عن تنفيذ النظام القارى الا أن انجلترا لم تكن بسبيل التفاهم مع انسان أجمعت رأيها على تخصيص أهلها ومواردها لهدمه وإخلاء الطريق جملة واحدة من منافسته ولذلك رفضت مقترحاته فلم يبق أمام نابليون غير ذلك المركب الخشن — مركب الرماح والاسنة . بعد ان فشل سعيه فى الوصول الى التفاهم بكافة الطرق السلمية .

الباب السادس : التآلف الدولى السادس

الفصل الأول : الحرب الروسية
« الثانى : بروسيا تنتقض على نابليون
« الثالث : لوتزن وباوتزن
« الرابع : الهدنة المشئومة
« الخامس : حرب الأمم
« السادس : انهيار البناء
« السابع : الحلفاء فى باريس
« الثامن : النزول عن العرش
« التاسع : وداع فونتنبلو

الباب السادس

التحالف الدولى السادس

الفصل الأول

الحرب الروسية

رفضت انجلترا الصلح الذى عرضه عليها نابليون . فلم تبق إلا الحرب — الحرب الطاحنة الحاسمة التى تنبأ لها القيصر بأنها ستذهب بتاج أحد الغريمين ولم يبق أمام نابليون إلا أن يدعو اليه حلفاؤه لينصروه فى تلك الظروف العصيبة التى هبت فيها ريح الأرستقراطية الأقطاعية تهدد الاصلاح والمصلحين وتنذر بهدم الأنظمة الشعبية الحديثة التى نشرها نابليون فى وسط أوربا . فاذا كان التخصيص قد غلب على هذه الحرب فعرفت فى التاريخ باسم : « الحرب الروسية الفرنسية » فأن حقيقتها كانت غير ذلك . وكانت فى الواقع جديرة باسم آخر أوسع وأعم من ذلك . إذ لم يكن الصراع فيها قائما بين

الجيوش الروسية والجيوش الفرنسية . ولكنه كان ناشبا بين الارستقراطية والديمقراطية . بين الملوك والشعوب . بين الاستبداد والحرية . بين القيصرية الروسية تناصرها الارستقراطية البريطانية وبين الشعب الفرنسى تؤيده شعوب أوربا الوسطى — ايطاليا وألمانيا وولايات الرين وپولندا .

استعداد نابليون

وكان المتفق عليه أن يتم اللقاء بين نابليون وحلفائه فى مدينة درسدن عاصمة سكسونيا . فغادر فرنسافى التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٨١٢ تصحبه الأمبراطورة مارى لويز . وبدأ يسير موكبه الحافل الفخم بين قرع أجراس الكنائس وعزف الموسيقات . وفى وسط التصفيق والهتاف وتحت الأعلام وأقواس النصر الى أن بلغ درسدن حيث كان فى استقباله امبراطور النمسا وامبراطورتها وملك بروسيا وملوك ساكسونى ونابولى وبافاريا وورتمبرج وغيرهم . . .

وأقام نابليون فى درسدن نحو أسبوعين أتم فيها أهبته للحرب وحشد فى خلالها من الجند والسلاح والذخيرة والخيول والمئونة مالم يسبق لأوربا أن شهدت مثله . ولكنه
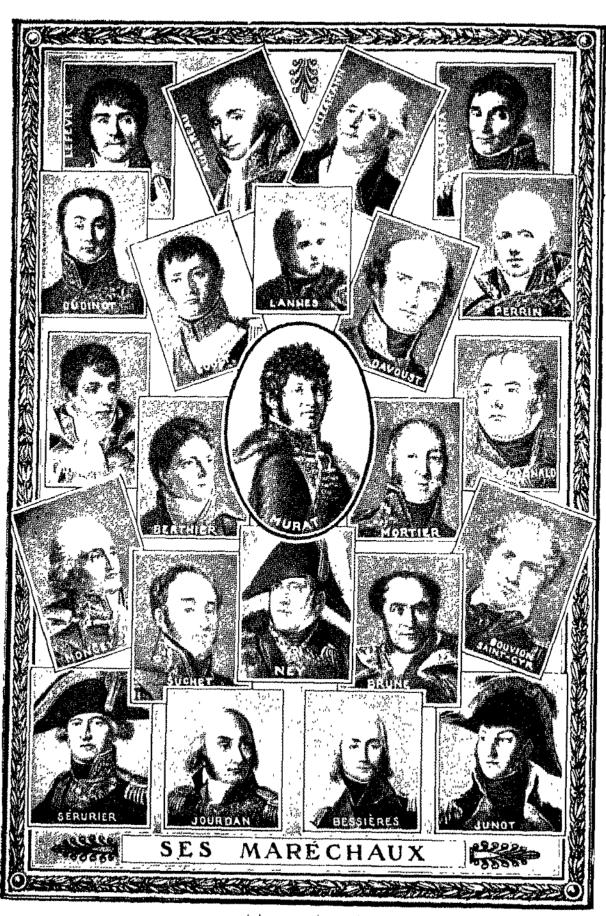
على الرغم من كل ذلك لم ير أن يبدأ عمله بالزحف على أعدائه واكتساحهم بتلك القوى الهائلة التى اجتمعت له . وفضل أن يبدأ كعادته بعرض الصلح على أعدائه . فبعث فى هذه المرة إلى القيصر رسولا هو الكونت ناربون Narbonne ليفاوضه فيما قد يؤدى إلى حقن الدماء التى توشك أن تسيل . وتحقيق السلام الذى يوشك أن يتصدع . ولكن الرسول حاول عبثا أن يظفر بمقابلة القيصر أو أحد من وزرائه . فأنهم أصروا جميعا على عدم لقائه . فلما علم بذلك نابليون لم يملك أن صاح :

« لقد تنمر الهر . واستنسر البغاث ! وهكذا يسحب القدر هؤلاء القوم على وجوههم لتحق كلمته عليهم » .

ثم أصدر أوامره للجيش أن تزحف وحداته على نهر نيمن Niemen حيث حشد القيصر جيوشه . ثم أذاع النشرة التالية على جنوده :

أيها الجنود :

نحن نبدأ اليوم الحرب البولندية الثانية . أما الحرب الأولى فقد انتهت عند فريدلند وفى تلست . هناك اقسمت الروسيا أن تحالف فرنسا محالفة دائمة وأن تحارب انجلترا . وها هى اليوم تحنث فى قسمها علنا . وكأنى بالقدر يسوقها إلى



ماريشالات ناپليون

حتفها . فأن خاتمتها قد أذنت بالحلول . فهل حسبت أن الوهن قد تسرب إلينا أم حسبت أننا لم نعد بعد أبطال أوسترلتز ؟ أنها تضعنا الآن بين منزلتين . فأما قبول العار وإما خوض ميدان القتال ! ولن يشك أحد لحظة واحدة فيما سنختار . فألى الأمام إذن أيها الشجعان ولنعبر حدود هذه الدولة المتغطرسة ونقضى عليها فى عقر دارها . »

وفى التاسع والعشرين من شهر مايو خرج نابليون من درسدن ثم ودع زوجته وأسرع الى مينا دانتزج . بينما كانت وحدات « الجيش الأعظم » تتحرك فى كل مكان لتلتقى فى أرض الروسيا حسبما رسم لها نابليون . وكان تعداد ذلك الجيش ٤٢٠,٠٠٠ نفس . وهو عدد لا عهد لأوربا بمثله من قبل . وكان مقسما إلى ١٣ قسم على كل واحد منها ضابط من ضباط نابليون العظام الذين اشتهروا بحسن بلائهم فى حروبه السابقة . فكان بينهم دافوت . وناى . وأوجين . وسان سير . وأوجيرو . ومورا . وكان يرافق هذا الجيش حرس نابليون الخاص وهو قوة فخمة منتقاة قوامها ٧٥,٠٠٠ من أقوى أبناء فرنسا وأحسنهم نظاما . وكانت هذه الحملة مزودة بنحو ١٨٧,٠٠٠ حصان و ١٣٦٢ مدفع وكلها أرقام هائلة يسجلها

التاريخ للمرة الأولى فى صفحات الحروب الأوربية .

ولك أن تتصور بعد ذلك ما ينبغى من الجهود الجبارة لتموين مثل هذا الجيش العظيم فى بلاد معادية . وفى عصر لم يعرف وسائل النقل الحديثة من طيارات وسيارات . بل لم يكن يعرف حتى السكة الحديدية . ولم يكن من الميسور أن تسلك كل هذه الجموع طريقا واحدا . وإلا حل البلاء بالمقدمة قبل أن تنتبه المؤخرة لما حدث . فكان من الضرورى أن تسير جموعها زرافات فى جبهة واحدة ولكن على مسافات متفاوتة تفصل بعضها عن بعض . فلما بلغوا نهر نيمن ألقى نابليون عليه ثلاثة جسور فى جهات مختلفة . وظلت جموع « الجيش الأعظم » تتدفق فوقها من جانب إلى جانب نحو ٤٨ ساعة متواصلة . ومن ثم سار الجيش إلى « فلنا — Vilna — فبلغها فى ٢٨ يونيه سنة ١٨١٢ .وهناك قضى نابليون نحو ثلاثة أسابيع يجمع شتات جيشه . ويهيء له ما هو فى حاجة إليه من المؤن لا سيما فى ذلك الفصل الذى يقل فيه العلف . بحسبك أن تعلم أنه لم ينتصف شهر يوليو حتى كان نابليون قد خسر ١٠,٠٠٠ حصان ماتت كلها جوعا . بينما اكتظت مستشفياته بنحو ٢٥ ألف جندى سقطوا كلهم إعياء ولما يشتبك

بالعدو فى معركة واحدة ـــ بحسبك أن تعلم هذا لتدرك فداحة العبء الذى كان يحمله فى تسيير هذه الحملة على الروسيين .

أما القيصر فأنه رأى أن لا مجال لمواجهة نابلبون وهو على رأس هذه القوة الهائلة . فأمر أن تنسحب جنوده أمامه على أن تدمر فى طريقها كل ما يستطيع أن ينتفع به الفرنسيون . فكانت تهدم المنازل وتخرب القرى وتحرق الغلال وتحمل الأهالى على هجر مساكنهم ومزارعهم حتى يسير الجيش الفرنسى فى بلقع قفر لتفعل فيه الطبيعة مالم يستطع فعله القيصر ورجاله .

على أن شيئا من ذلك لم يكن ليقف فى طريق نابليون فأنه واصل زحفه بدقة يحار فيها المفكرون وبلغ من نظام جيوشه أنها بعد أن عبرت نهر نيمن وتفرقت جموعها سلك كل فريق منها طريقا يختلف عن طريق الآخر طولا ووعورة . وبدأت كل جماعة زحفها فى موعد يختلف عن موعد الأخرى تبكيرا وتأخيرا . ومع ذلك اجتمعت كل هذه الوحدات على نهر « الدوينا » حيث قدر لها نابليون أن تلتقى بعد أن تقطع من رحلتها ٣٠٠ ميل . فأشرفت كلها على النهر

فى يوم واحد . بل وفى ساعة واحدة من النهار !

تقهقر الروس :

وكان القيصر قد حشد قواه على نهر الدوينا . واستحكم خلفه فحسب نابليون أنه سوف يظفر أخيرا بعدوه الفرّار على ضفاف هذا النهر . ولهذا جمع جيشه هنالك واستعد للفتك به . وظل سحابة نهاره يصدر أوامره وتعليماته وبقى هزيعا من الليل ينظم شئون الغد ويدرسها مع ضباطه . ثم دخل عند منتصف الليل إلى خيمته ليستجم نشاطه ويستعد للقاء الصباح . . . .

وعند الفجر هب مبكرا على عادته ثم ركب جواده وخرج إلى الميدان . ولكنه دهش إذ رأى أن الروسيين قد أخلوه فى ظلام الليل . وأنهم كانوا يجدون فى الأفلات منه بينما كان يجد هو فى التهيؤ للقائهم . . . وعلى ذلك تابع زحفه عليهم وتابعوا هم الانسحاب أمامه وهم لا يترددون فى إتلاف كل ما صادفهم فى طريقهم حتى أشرفوا على مدينة سمولنسك .

حريق سمولنسك

وللمرة الثانية ظن نابليون أن سمولنسك ستشهد الموقعة الأولى بين جيوشه وجيوش الروسيين. ووقف على ربوة عالية تواجه المدينة. وعلى عينيه منظاره يراقب به تجمع الجنود داخل المدينة وحول أسوارها فتملكته نشوة الفرح لقرب اشتباكه بغرمائه. وصاح فى جذل واغتباط: «أخيراً ملكتهم!».

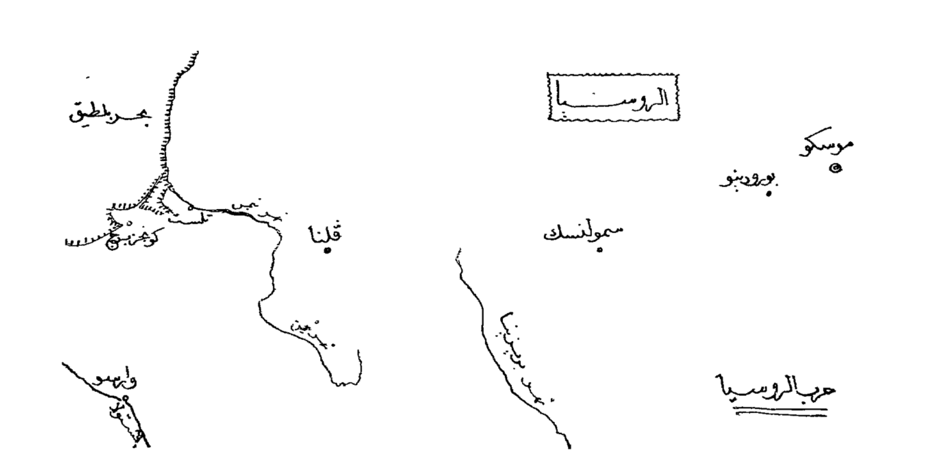
ودارت فى هذه المرة فعلا معركة دامية استمرت سحابة يوم ١٧ اغسطس سنة ١٨١٢ ولم تهدأ ثائرتها كالعادة بنزول الليل على المتقاتلين. ولكن الليل لم يكد ينتصف حتى ادلهم الجو بدخان كثيف لم يلبث أن انكشف عن ألسنة عالية من اللهب الساطع. وفى الساعة الثانية صباحا تمكنت طلائع الفرنسيين من دخول المدينة المحترقة فوجدوها خاوية على عروشها إلا من هذه النار التى اضرمها الروس فيها قبل مغادرتهم لها. وللمرة الأولى أحس نابليون وجنوده بشىء من الخيبة فى هذه الحرب العجيبة التى لا يكادون يجدون لهم فيها مغنما ما. فاذا وجدوه بعد الجهد أكلته النار منهم قبل أن

تمتد اليه أيديهم . !

وهكذا واصل زحفه تحف به كل ويلات الهزيمة ومتاعبها وهو الظافر المنتصر والغازى والفاتح ـ وكانت المرحلة الثانية مرحلة طويلة شاقة اذ لم يكن أمامه بعد سمولنسك الا موسكو . وهى تبعد عن سمولنسك بنحو ٥٠٠ ميل وقد علم أن القيصر ارتد اليها . فلم يجد بدا من الزحف عليها وهو يطمع فى أن يكون دخوله فى هذه المدينة آخر مرحلة من مراحل هـذه الحرب المشئومة التى كان يشاهد جيوشه تفنى فى ميدانها الشاسع الفسيح من الجوع والتعب لا من الطعن والضرب

أما القيصر فانه لم يلبث فى موسكو الا ريثما أعطى تعليماته بوجوب احراق المدينة اذا امتدت اليها يد نابليون ثم أسرع الى سنت بطرسبرج حيث أمر بان تقام صلوات الشكر فى كل الـكنائس على ذلك النصر المتوالى الذى تحرزه الجيوش الروسية . وبلغ نابليون أمر هذه الصلوات فلم يتمالك أن صاح :

« واها لهؤلاء القوم ! انهم لا يكتفون بالـكذب على الناس . لـكنهم يتوقحون بالـكذب على الله ! »


الروسيا
موسكو
بورودينو
سمولنسك
قلنا
بحر بلطيق
وارسو
حرب الروسيا

موقعة بورودونيو

وكأنما سئم الشعب الروسى سياسة التقهقر. وكأنما خشى أن تفضى هذه السياسة الى اخلاء موسكو امام العدو. واحراقها بين يديه كما حدث فى سمولنسك وكأنما أشفق على تراث الاجداد المركز فى تلك العاصمة القديمة أن تمتد اليه يد التدمير والتخريب. وأن يذهب طعمة للنهب واللهيب. فناشد حكومته أن تقلع عن تلك السياسة. وأن تقف لتدفع العدو عن موسكو. وأن لا تمكنه من الوصول اليها. وقويت هذه الدعوة فى البلاد وكثر أنصارها حتى لم يجد القيصر بدا من عزل قواده دعاة الانسحاب والتقهقر ليحل محلهم كوتوسوف Kutusow القائد الروسى الأشهر الذى عرف بحسن بلائه فى الميادين الاوربية ضد جنود نابليون. فاستحكم كوتوسوف عند قرية بورودونيو أقوى استحكام وجمع كل ما استطاع جمعه من الجنود والمدافع ليحول دون وصول الفرنسيين الى موسكو مهما كلفه ذلك من التضحيات. وأيقن نابليون بان يوم اللقاء الحق قد حان أخيرا. وأن شوقه الى الاشتباك باعدائه قد

أوشك أن ينطفئ في معركة حاسمة يصب فيها على الروس جام حنقه لما لاقى بسببهم من الخسائر والاهوال . فحرش بهم جنوده فى نشرة ملتهبة من نشراته المشهورة . ولم يبق بين الجيشين الا ذلك الليل المظلم الذى أسبل عليهما سدوله فحال بينهما بضع ساعات أخرى

وكانت تلك الليلة ليلة باردة على غير المعتاد وكان المطر يهطل فيها بغزارة وعنف . وبات نابليون ليلته يقظان لا يغمض له جفن إذ كان يخشى أن تعاود العدو نزعته الى الفرار فيفلت من قبضته من جديد . واحس بانقباض عجيب يستولى على نفسه كأنما وقع عليها شيء من ظل تلك السحابة القاتمة التى أوشكت أن تكسف نجمه الساطع . ومن عجائب المقادير أن نابليون كان فى تلك الفترة متعبا قضى أكثر من ليلة واحدة وهو لا ينام لانه كان يشكو نوبة برد قاسية وسعال شديد ووافته فى تلك الليلة نفسها أنباء هزيمة جنوده فى اسبانيا فى معركة (سلامنكا) وأنباء دخول ولسلى الى مدريد . وكذلك حمل اليه الرسل فى تلك الليلة أن الروسيا قد عقدت صلحا مع تركيا وأن جيشا روسيا قويا هو الآن فى طريقه شمالا ليتصل بجنود كوتوسوف وكأنما أراد القدر أن يتم سخريته فى تلك

الليلة فهيأ لنابليون أن يستلم فيها أيضا خطابا من ماريا لويز ومعه صورة كبيرة جميلة لصغيره العزيز «ملك روما» فغلبت عاطفة الابوة على قلبه وخرج والصورة فى يده ودعا اليه الضباط والجنود ليشاهدوها ولكنه ما لبث أن قال لسكرتيره . خذها بعيدا واحتفظ بها فأنه يشهد ميدان القتال قبل الأوان .

وأشرقت شمس اليوم التالى على نابليون وهو فوق جواده ومن حوله قواده وأركان حربه . وكان على الرغم من شدة مايقاسى لا ينبس قط بما ينم عن آلامه واوجاعه حتى لا يتسرب الوهن الى نفوس اجناده . واراد فى ذلك الصباح ان يكون على عادته من الثقة والاستبشار ، فما هو أن رأى قرص الشمس يرتفع أمامه فى الافق الشرقى حتى صاح فيمن معه :

« أنظروا ! تلك شمس اوسترلتز ! »

وسرت تلك الكلمات المتفائلة المشجعة سريان البرق فى كل الصفوف فشددت من عزائم الجنود . وملأتهم ثقة بالنصر . ونشبت تلك المعركة الخالدة الرهيبة التى عرف نابليون أن عليها يتوقف مستقبله . وادرك الروس ان عليها يتوقف مصيرهم . وظل ميزانها يترجح بين الفريقين طول النهار الى ان آذنت الشمس بالأفول . وعند ذلك شوهد الروسيون يفرون تحت جنح

الظلام متقهقرين . وهكذا كتب النصر للفرنسيين . ولكنه لم يكن نصر من ذلك النوع الذى تهتز له القــــلوب فرحا وتستبشر به النفوس . فان ضحايا الفريقين كانت بالغة منتهى القسوة . إذ خسر الفرنسيون نحو ثلاثين الف جندى بينما كانت خسائر الروس لا تقل عن خمسين الف .

وعلى الرغم مما قاسى نابليون على يد هؤلاء الروس فأنه لم يبخل على جرحاهم بما كان يحبو به الجرحى الفرنسيين انفسهم من العطف والاحسان وقد حدث اثناء مروره فى الميدان بعد المعركة ان مر جواد احد ضباطه على قدم جريح روسى فصرخ الرجل يستغيث فما كان من نابليون الا ان التفت الى ضابطه ووجه اليه قارس اللوم على فعلته وحسب الضابط ان جنسية الجريح قد تكون عذرا مقبولا يشفع له عند الامبراطور فقال: ان الجريح ليس الا احد رجال الروس اعداءنا يامولاى

فاجابه نابليون على الفور : « ليس بعد النصر اعداء »

موسكو :

أما كوتوسوف فانه تراجع الى موسكو بما بقى معه من الجند وهو يكتسح فى تراجعه كل من صادفه من الاهالى

التعساء ليخلو مساكنهم أمام الفاتحين ومضى ينسف الجسور ويحرق القرى . ولا يبقى على شيء يستطيع الفرنسيون أن ينتفعوا به فى ايوائهم أو تموينهم . وبينما كان هو يفعل ذلك خارج المدينة كان رستوبخن Rostopchin حاكمها يعد المعدات داخل أسوارها لاحراقها اذا ما دهمها الفرنسيون .

وفى ظهر يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢ بدت تحت منظار نابليون للمرة الاولى قباب المدينة وابراجها العالية فصاح فيمن معه . «ها كم يا رفاقى مدينة القياصرة الشهيرة ؟ » فأدركت رجاله نشوة طرب كتلك التى تدرك الجواد المكدود وهو يشرف على حظيرته بعد الشقة الطويلة والعمل الأليم . وطابت نفوسهم لقرب دخولهم تلك المدينة التى كانوا يعلمون انها على الأقل ستكون آخر محطة فى رحلتهم الطويلة الشاقة وتركوا لخيالهم العنان يصور لهم ما سوف يلقون فيها من نعيم الاقامة وطيب المأكل وأخذوا يتصايحون ويردد المتأخرون منهم هتاف المتقدمين « موسكو موسكو ! » واقتربوا من المدينة حتى باتوا على مرمى الهدف منها . ولكنهم فوجئوا بسكون مخيف ينبعث منها كسكون مدائن القبور . وجاء الرسل الى نابليون ينبئونه بان المدينة خالية خاوية على عروشها وقد هجرها كل سكانها

الاجماعة من المسجونين فتحت لهم أبواب السجن في آخر لحظة فهم في طرقاتها هائمون كأنهم أشباح الجن وأرواح الشياطين . وراجت إشاعة فحواها أن المدينة ستحترق في منتصف الليل . وأشفق نابليون في أول الأمر أن يواجه تلك المدينة المقفرة فلم يشأ أن يدخلها ونزل في إحدى ضواحيها وترك جنودة تضرب في أطرافها لعلها تجد ما يسد جوعها أو يطفيء ظمأها . وقضى ليلته قلقا لا يقر له قرار فكان لا يأوى إلى فراشه الا ليهب منه فزعا حانقا . فيقطع أرض الغرفة ذهابا وجيئة مرة أو مرتين ثم يعود إلى فراشه وهكذا إلى أن اصبح الصباح فأمر بأن ينتقل مقامه الى قصر الكرملين Kremlin مقر القياصرة العظام في قلب مدينة موسكو . وقضى سحابة النهار في الأشراف على راحة جنوده الذين نزلوا بعد طول المشقة افخم القصور .

وبرز من مخابيء المدينة نحو عشرين ألف روسي ما بين ذكور وأناث فاختلطوا بالفرنسيين . وكان « رستوبخين » قد ألغم الكرملين كما ألغم معظم القصور الأخرى التي كانت تموج الآن بالجنود الفرنسية ووكل إلى هؤلاء المخلفين أمر إشعال النار واحراق المدينة بعد أن قطع أنابيب الماء وأتلف

المساق وأفسد آلات المطافىء ولم يدع وسيلة من وسائل النجاة الا اعد العدة لاحباطها .

وانقضى ذلك النهار بسلام وخيم الليل وهبت فيه ريح عاصفة قوية وكانت معظم مساكن المدينة من الخشب وكان المطر قد طال احتباسه . فكانت تلك الأخشاب جافة صالحة للاشتعال كأنما كانت العناية السماوية هي التي تهيء الظروف للحريق .

حريق موسكو

وأوى نابليون تلك الليلة الى فراشه متأخرا متعباً . ولم يكن يستطيع أحد بعد ذلك أن يدخل عليه . وعند منتصف الليل صاح صائح فى المدينة « النار ! » — وشوهدت ألسنة النار تندلع فى أغنى أحياء المدينة وساعدتها الريح على الانتشار فى أحيائها الأخرى . وهب الجنود مذعورين من فراشهم يحاولون اطفاء النار ولكن لم يكن لهم الى ذلك من سبيل وغلبتهم عناصر الطبيعة الجبارة فلم يبق أمامهم الا الفرار أمام اللهب والانتقام من كل روسى يصادفونه فى الطريق

وفى الصباح قام نابليون وفوجىء بمنظر الحريق فملكته لأول وهلة نوبة من الغضب والهياج وأخذ يقطع أرض

غرفته بخطوات عصبية سريعة وهو ينظر بين آونة وأخرى من النافذة إلى خلال ألسنة اللهب صائحا : « يا له من منظر مخيف ! كل هذه القصور تحترق ! ما أفظع عنـــاد هؤلاء القوم ! »

وظلت النار تأكل المدينة طيلة اليوم ولا تجد لها من دافع حتى حل الليل . وكان نابليون قد وقف نشـاطه وهمته على مكافحة الحريق . ولـكن عند منتصف ليلة الثامن عشر من شهر سبتمبر شوهدت النار تندلع من قصر الـكرملين نفسه . فوقف نابليون لا يريد أن يبرح القصر كأنما عز عليه أن يسلم الى اللهب تلك الفريسة الغالية التى لم يحصل عليها الا بعـــد ان ذاق هو ورجاله الأمرين . ولـكن النار طوقت النوافذ وأكلت بعض الأبواب . وخرج الأمر من دور الشجاعة والثبات الى دور المكابرة والمجازفة . ولم يبق بد من اخلاء القصر فى طلب النجاة وكاد يكون التفكير فى ذلك قد جاء متأخراً بعد فوات الأوان . اذ لم يجد نابليون عند ما وافق رجاله على الانسحاب طريقاً واحدا آمنا يسلكونه ليصل منه الى ظاهر المدينة . وكان يشق طريقه اكثر من مرة وسط اللهب والدخان .

وبقيت النار ترعى المدينة بعد خروج نابليون منها يومين فلم تبق على شيء فيها . واستحالت أفخر قصورها وأثمن كنوزها في وسط اللهيب الى دخان ضائع وهباء منثور .

وعاد الجيش الفرنسي يبيت في العراء بغير طعام . يصطلى فريق منه بحطام الأخشاب الثمينة التي كانت يوما من الأيام آية من آيات الفن . ويتقي البرد فريق آخر بمزق من الحرير الموشى بالذهب . ويأكل آخرون شواء لحوم الخيل الميتة في صحاف من الفضة . ويموت غير هؤلاء وهؤلاء من الجوع والأرض مرصعة حولهم بأصناف الجواهر واللآلىء الثمينة .

على أن جناحا من الكرملين نجا من الحريق فعاد اليه نابليون وهو يريد أن يوهم الروسيين أنه ينوى قضاء الشتاء في موسكو ليستأنف الحرب معهم في الربيع القادم . وظل ينتظر في جناحه خمسة أسابيع طوال على أمل أن يقنع القيصر بالدخول معه في مفاوضات للصلح ولكن من ضحى بموسكو لم يكن من المنظور أن يبقى على شيء بعدها في سبيل الحصول على النصر الحاسم المبين . ولذلك فشلت كل جهود نابليون في الاتفاق وكان ابطاؤه في موسكو هذه الأسابيع الخمسة من مضاعفات النكبة التي حلت بجيشه في هذه الحملة المشئومة .

وعند ما أصدر أمره بالعودة الى پولندا لقضاء الشتاء فيها كانت العواصف الثلجية قد جاء موسمها . واستحالت برارى الروسيا وقفارها الى سهل قطبي واحد تغطى صفحته الثلوج .

الانسحاب

وبدأ الجيش ينسحب من موسكو فى التاسع عشر من شهر اكتوبر ليقطع طريقا طوله ٧٥٠ ميلا وليس به إلا محطتين اثنتين (منسك وسمولنسك Minsk & Smolensk) يستطيع أن يتزود فيهما بشيء من المدد والذخيرة وكان لم يبق لنابليون من « جيشه الأعظم » (وهو نحو ٥٠٠٫٠٠٠) الا ١٢٠٫٠٠٠ جندى . ورأى الروس أن واجبهم لم ينته بتراجع جيوش العدو عن بلادهم وبيتوا نيتهم على أن يشيعوا الفرنسيين فى انسحابهم كما استدرجوهم فى هجومهم بحيث يقضون على كل من تخلف منهم فى الطريق دون أن يتعرضوا للاشتباك معهم فى معركة نظامية يكون الفوز فيها على الأرجح لنابليون وهكذا بدأت سلسلة تلك النكبات التى لم يرو التاريخ لها مثلا . إذ تعاونت الطبيعة مع فرسان القوزاق على قص أجنحة هذه القوة المنكودة التى أصبح نابليون لا يطمع فى أكثر من أن ينجو بأنقاضها من فتك الروسيين !

الثلوج :

وجد نابليون فى سيره حتى يتفادى قسوة الشتاء الداهم ما استطاع . وقطع فى العشرة الايام الأولى نحو ثلثمائة ميل ولكن شهر نوفمبر كان قد حل وحلت معه رياحه الصرصر العاتيـة وأمطاره الثلجية المهلكة وكان النذير الأول فى مساء ٥ نوفمبر سنة ١٨١٢ حيث تلبد الجو بالسحب الدكناء واشتد هبوب الريح الشمالية بقسوة لا يعرفها أهل الجنوب . وعند منتصف الليل تفتحت أبواب السماء فوق معسكر الفرنسيين عن وابل من البرد والصقيع أخمدت تحته النيران وانطفأت المصابيح وتشتتت الجنود تحت تاثير العاصفة وهاموا على وجوههم يلتمسون ما يحتمون فيه فلا يجدون غير الثلوج . الثلوج التى تغوص فيها أقدامهم ... والثلوج التى تتجمد تحتها أطرافهم والثلوج التى تعشى بها أبصارهم ...

واخيراً تنفس الصبح . ولكن ألوفا ممن عانوا مرارة الزوبعة لم يتنفسوا معه . بل ظلوا حيث دهمتهم العاصفة لا تنم عن اماكنهم الا كومات عالية من الثلج كان يعرفها الأحياء أنها قباب الطبيعة أقامتها فى خلال الليل فوق الأموات .

ولم تطلع شمس ذلك اليوم على الفرنسيين . ولكن طلعت عليهم فصائل كثيرة من القوزاق المتوحشين الذين كانوا يتنافسون وعقبان الجو فى التمثيل بكل جريح وطريح من الفرنسيين الذين تخلفوا عن اخوانهم فى المسير . وسرعان ما انقضت ساعات النهار القصيرة ودخل الليل الطويل على الفرنسيين من جديد بويلاته وفجائعه . وجددت العاصفة حملاتها على جموعهم فكانوا ينشدون المعونة فى جذع شجرة مبتل يحاولون اشعاله ليصطلوا أو فى جلد حصان ميت ينزعونه عن جثته ليلتفعوا به . وكان الجنود فى يأسهم وبؤسهم يبقرون بطون الخيل السليمة ليفوزوا بشربة من دمها الساخن يدفئون به أجسامهم المتجمدة ويشغلون به معداتهم الخاوية .

وكرت عليهم أيام عدة وهم على هذه الحال من التعاسة والشقاء حتى اقتربوا من مدينة سمولنسك حيث كان نابليون قد ترك حامية قوية وأمر بأعداد ذخيرة وافرة . ولكنه ما أشرف على هذه المدينة حتى وافاه البريد من فرنسا وهو يحمل اليه أنباء مزعجة كانت تكفى وحدها لزعزعة نفسه وهد عزيمته . إذ قرأ فيه أن الجنرال (ماليه — Malet) أحد قواد باريس قد استغل الظروف القاسية التى كان يعانيها هو وجيشه

فى وسط الروسيا فروج اشاعة هناك مؤداها أنه قد قتل وأن جيشه قد فنى معظمه وأسر باقيه ونادى بنفسه حاكما على فرنسا ودعا الناس إلى الاعتراف بحكومته . فكان وقع هذه الاخبار أشد ايلاما فى نفس نابليون من كل ما لاقى من الويلات فى تلك الحملة المشئومة إذ رأى بنيان امبراطوريته ينهار لمجرد إشاعة فاسدة بعد أن ضحى براحته وبصحته وبزوجته فى سبيل تقويته وتدعيمه . ومنذ تلك اللحظة عول على الاسراع فى العودة الى باريس قبل أن يتفاقم الضرر ويشتد الخطر . ولكنه عز عليه أن يترك الجيش قبل أن يستخلصه من أيدى أولئك الروس العنيدين الذين أدركوا حرج مركز خصومهم وعزموا على أن يكفروا بأهلاكهم عما خربوا وأحرقوا من مدائنهم العامرة الزاخرة .

الماريشال ناى :

وكان نابليون يسير فى مقدمة الجيش يشق له الطريق . ويسير الماريشال ناى فى مؤخرته يحميه من غارات القوزاق . وقد لاقى هذا البطل المغوار فى سبيل ذلك من العقبات والصعاب ما لم يكن يستطيع مواجهته غيره من بقية

قواد الجيش الفرنسى.. فقد كان يضع مئات من الجنود الراجلين الذين لا يملكون غير البنادق يدافع عشرات الألوف من الروسيين المزودين بالخيل والمدافع وكانت له فى ذلك مواقف تكفى لتشريف جيش بأكمله على أن الفضل فيها كلها لا يرجع الا لشخصه وهمته وشجاعته النادرة وكان من آثار اعتراف نابليون بحسن خدماته أن أطلق عليه لقب « اشجع الشجعان »

وكان الجيش قد بلغ الآن فى انسحابه آخر مرحلة من مراحل الأمل فى النجاة إذ كان قد تخلى عن معظم مدفعيته فى الطريق لقلة الدواب التى تجرها ولوعورة السير بها فوق الثلوج . وكان يسير فى بلاد معادية بغير ذخيرة ولا زاد اللهم الا ما يحصله كل جندى لنفسه على قدر جهده واجتهاده واصبح ذلك الجيش المنظم المنسق يسير شراذم شراذم كما تسير قطعان الأوابد فى فلواتها بغير ضابط وعلى غير هدى



ناى ينسحب بفلول الجيش الأعظم من الروسيا

نابليون والقوزاق :

ولقد حدث لنابليون ذات يوم وهو يسير فى وسط جماعة من ضباطه أن انتبه على صوت صائح يصيح : « الى الوراء . القوزاق أمامكم ! » فالتفت فأذا هو منقطع عن بقية الجيش هو ومن معه . واذا بفصيلة من القوزاق لا يبعدون عنهم اكثر من أربعين خطوة . فثبت نابليون فى مكانه وخيل له عناده وكبرياؤه أن لا يفر أمام هؤلاء القوزاق . ولكن ياوره تقدم إليه وأخذ بزمام جواده قائلا :

— « لا بد لك أن تطيع ! »

وكانت محنة اليمة تلك التى وقف فيها نابليون يستمع إلى هذه الكلمات للمرة الأولى من فم غير فمه ! ولكنه على الرغم من كل ماكان يحيط به من الأخطار ظل فى مكانه ولم يطع نداء ذلك الياور الأمين بل استل سيفه ووقف يحيط به ضباطه شاهرى السيوف واقترب القوزاق وهم يجهلون من يهاجمون . وتكاثر الضباط حول الامبراطور يدافعون عنه حتى وصلت طلائع الحرس فتولت الدفاع وتراجع أمام ظهورها جماعة القوزاق .

ولكنها كانت ساعة رهيبة لم ينسها نابليون فقد رأى الموت فيها ماثلا بين يديه . وعرف بعدها أن الحكومة الروسية قد نشرت بين القوزاق صورته وأوصافه حتى إذا ظفر به جماعة منهم عرفوه ولم يتركوه يفلت من أيديهم . فلم ير بدآ من أن يحتاط للظروف وأمر أن يعد له طبيبه جرعة سامة يلجأ اليها عند الضرورة . ففعل الطبيب وكان نابليون بعد ذلك اليوم يحمل هذه الجرعة فى علاقة من الحرير الأسود مشدودة الى خيط يحيط بعنقه حتى إذا دهمه العدو ابتلع ما فيها ولم يمكنهم من نفسه وهو على قيد الحياة .

موقعة البريزينا :

ولقد يطول بنا الحديث إذا نحن أتينا على وصف كل ما وقع لهذه الحملة المنكودة فى طريق عودتها . فنحن نكتفى بما ذكرنا من أخبارها ليكون حاضرا فى ذهن القارىء يتصور وقوع مثله فى كل ميل من الأميال المائتين الباقية لها حتى تخرج من أرض الروسيا . ولكننا مهما تجاوزنا عن ذكر التفصيلات فلا بد لنا من الوقوف قليلا عند نهر البريزينا Beresina نشهد الفرنسيين وقد اعترضهم هذا النهر بعد أن

سبقهم الى ضفته الأخرى كوتوسوف وجيشه الجرار ونستمع إلى قواد نابليون وهم يشيرون عليه أن ينجو بشخصه حيث لا أمل البتة فى عبور النهر بقواهم المهزولة الجائعة العارية . وتلك جنود كوتوسوف لا يحصى لها عدد فى الشاطىء المقابل لهم تتربص بعدتها وذخائرها فى انتظار أية محاولة من الفرنسيين للعبور كى تكتسحهم بقذائفها وتلقى بهم فى جوف النهر .

ولقد تطوع فى تلك الساعة الرهيبة بعض الضباط البولنديين ليقتادوا الأمبراطور فى مسالك خفية يعرفونها فى تلك الجهات ليخرجوا به سالما من أرض الروسيا . ولكنه رفض كل اقتراح من هذا القبيل وأبى إلا أن يشاطر جنوده كل ما يصيبهم فى تلك المحنة التى يجتازونها .

ولجأ نابليون فى ذلك الظرف العصيب إلى مواهبه الخارقة فقام على جانب النهر بمناورات أوهمت العدو أنه يحاول اجتياز النهر فى مكان خاص فما هو أن رأى العدو قد انخدع بحركاته حتى أسرع بجنوده فعبروا النهر فى مكان آخر ولكن الروس لم يلبثوا أن تبينوا خطأهم وارتدوا إلى الفرنسيين سراعا فأدركوهم وهم مايزالون يتسللون فوق جسرين سقيمين أقامهما لهم من بقى معهم من المهندسين . وكان عدد المقاتلين من

جنود نابليون لا يتجاوزون عشرين ألفا يقابلهم أكثر من مائة ألف روسى . فليس أعجب بعد ذلك من أن يسمع الانسان أن الماريشال ناى يفجأ هذه القوة الهائلة بثمانية آلاف جندى فرنسى يقتحم بهم صفوفها ويستولى فى طريقه على ستة آلاف أسير !

على أن خسائر الفرنسيين فى تلك الموقعة كانت أليمة فادحة وعلى الرغم من عدم الوقوف حتى اليوم على حقيقة عدد الضحايا الذين زهقت أرواحهم فيها فأن جانبا من هذه الخسائر أمكن تقديره وضبطه عندما حل فصل الربيع وذابت ثلوج النهر وطفت فوق مياهه اثنتا عشرة ألف جثة فرنسية !

ولم يكد يجتاز نابليون هذه العقبة الأخيرة بمن بقى معه من جيشه ويرى أنه أصبح على حدود پولندا الشرقية حتى أسرع فى العودة الى باريس تاركا رياسة الجيش من بعده لمورا ملك ناپولى . وكانت قد وصلت إمدادات الى الفرنسيين رفعت عددهم إلى ثمانين ألف جندى غير أن البرد كان قد اشتد وازداد هوله حتى أصبحت درجته ٦٠ تحت الصفر بميزان فهرنهايت . ولذلك لم يعبر منهم نهر النيمن أكثر من ثلاثين ألفا أما الباقون من « فرقة الحرس » الضخمة

الفخمه فلم يكونوا يزيدون على ثلثمائة .

وكان « ناى » آخر من عبر النهر . وآخر من ترك الأرض الروسية من « الجيش الأعظم » . فى ذات يوم كان الجنرال دوماس يجلس فى بيت طبيب فرنسى على شاطىء النهر من جانب ألمانيا عند ما دخل عليه رجل ملتحف بعباءة واسعة له لحية طويلة كثة ووجه نحيل كادت تختفى ملامحه تحت دخان البارود الأسود الذى يغطيه . فألقى نفسه على مقعد قبالة الجنرال وهو يقول :

— « ها أنا أخيرا قد وصلت ! . . ولكن ما بالك يا جنرال دوماس . ألست تعرفنى ؟ » .

فحدق الجنرال فيه برهة وهو يعجب فى نفسه لأمر هذا الطارق الجرىء الذى يقتحم البيوت على أصحابها بغير إذن ثم قال :

— « بلى ! فمن أنت ؟ » .

قال — أنا « مؤخرة الجيش الأعظم » — أنا الماريشال ناى . أطلقت آخر رصاصة معى وأنا على جسر كونو ثم ألقيت بالبندقية الأخيرة فى النهر وحضرت إلى هنا كما ترانى سعيا على الأقدام . وأنا أسير بين الأحراش والغابات ! »

الفصل الثانى

بروسيا تنتقض على نابليون

يأبى بعض أقزام المؤرخين إلا أن يتحذلقوا وهم يتصدون للكتابة عن نابليون فبعد أن يتفضل الواحد منهم بالاعتراف له بالنبوغ فى الشئون الحربية يعود فيتطاول على مسند هذا البطل العظيم مستدركا بقوله : «أما فى الشئون السياسية والاقتصادية وغيرها فانه كان وراء غيره ممن جرى معه فى تلك الميادين» . . .

مع أن سياسة نابليون الاقتصادية كادت تكسف بنجاحها سياسته الحربية . وليس أصدق حكما فى مثل هذه الأحوال من الأرقام . فبحسبك أن تعلم أن هذه الحروب المدمرة التى أثارتها عليه أوربا قد كادت تذهب بما فى خزائنها وتغلق أسواقها وهى الدول المتحالفة المتكاتفة التى تتمتع بنعمة التعاون وتنعم بثمرة الائتلاف . فى حين أن نابليون قد أنفق وحده وفى وسط كل هذه الحروب أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

فرنك على تحسين حال فرنسا ما بين تشييد القصور الفخمة وإقامة الاستحكامات المنيعة وبناء الجسور وتمهيد الطرق وشق الترع وغير ذلك من وسائل الاصلاح التي كانت موضع الاعجاب عند الجميع . ومثار الدهشة في نظر من يحسنون تقدير الأمور حتى لقد ختم الكونت موليه Conte Molé (وزير مالية فرنسا) بعض تقريراته بهذه الكلمات الحية التالية التي تصور لك عظمة نابليون في الشئون الاقتصادية أصدق تصوير .

« لو أن رجلا من عصر المديشي أو عصر لويس الرابع عشر قدر له أن يعود إلى هذه الدنيا فبهرته رؤية كل هذه الأعاجيب فتساءل كم جيل من أجيال السلام وكم عصر من العصور الذهبية لا بد أن تكون قد تعاقبت على هذه البلاد لتنعم في ختامها بكل هذه الثمرات لما كان الجواب إلا أنها اثنتا عشرة سنة من سني الحرب المتواصلة وهمة رجل واحد ! »

والواقع ان هيبة نابليون وحكمته وحسن إدارته كانت تغطي دائما على ما كانت تجره تلك الحروب على فرنسا من الويلات حتى أنه بعد عودته من الروسيا خائبا خاسرا كان يتلقى من مظاهر الثقة به والولاء له ما لم يكن يلقاه إلا الفاتح المنتصر الذي عاد من بلاد الأعداء مثقلا بالغنائم والأسلاب

وكانت البلاد المندرجة تحت جناحى أمبراطوريته الواسعة تتنافس فى الأعراب عن تعلقها بشخصه والتفافها حول لوائه. وترى فى ذلك أداء منهـــا لبعض الدّين الذى تحس بفضل نابليون عليها فيه . ونحن نورد هنـا الخطاب الذى تلقاه الامبراطور من ميلان عقب عودته من الروسيا ليكون بين يدى القارىء نموذجا يطالع فيه صورة من عواطف تلك الدول التى تولى إنشاءها وتكوينها فعرفت له هذا الجميل .

« إن مملكتنا ياصاحب الجلالة ليست إلا صنع أيديكم . فهى مدينة لكم بقوانينها . وبمفاخرها . وبرفاهتها . وبطرقها . وبزراعتها . وبرفع شأن فنونها . والحياة الهادئة التى تنعم بها . وأن أهل إيطاليا ليعلنون فى وجه العالم أجمع أنه مامن تضحية إلا وهم على استعداد لبذلها فى سبيل تمكينكم من اتمام عملكم العظيم الذى ندبتكم العناية للقيام به . وأن الظروف غير العادية لتقتضى التضحيات غير العادية أيضاً وسوف لا تقف جهودنا فى التضحية عند حد . فأنتم يا صاحب الجلالة فى حاجة الى السلاح والجنود والمال والبقاء على العهد والثبات على المبدأ . ونحن نضع كل ما نملك تحت أقدام جلالتكم ! » .

ولكن هذا الروح الذى كان يثيره حسن صنع نابليون

فى بلاد أوربا كان يقابله روح آخر يثيره ذهب انجلترا ووعيد الحلفاء . فقد كان لانجلترا مندوبون فى أوربا كل مهمتهم نشر الدعاية ضد نابليون بكافة الطرق المشروع منها وغير المشروع. فكانت تتساقط النشرات المسممة بالأكاذيب والمفتريات ضد نابليون على رءوس الناس فى كل مكان كأوراق الخريف. وأسرفت انجلترا فى حسن الثقة بأقوالها حتى أنها كانت تساوم فى شراء أمم بأسرها بعد أن رأت أن عملية شراء الأفراد عملية بطيئة لا تحقق فى كثير من الأحوال غاياتها . ومترنيخ نفسه رئيس الوزارة النمساوية يعترف بأن انجلترا كانت تدفع للروسيا ١٧٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا وتعرض فى الوقت نفسه ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ على النمسا لتغير خطتها مع فرنسا. فلما أحجمت النمسا عن الاشتراك فى هذا الحلف الجديد الذى كان بلاط سانت جيمس يحاول جمعه ضد نابليون ولت انجلترا وجهها شطر بروسيا تدفعها دفعا وتثيرها إثارة وتذكرها بما كان بين نابليون وبينها فى الماضى القريب . وتحى فى أذهان أهلها صنوف المهانة التى أنزلها بهم نابليون عند ما احتل عاصمة بلادهم بجيوشه وأثقل كواهلهم بغراماته . واضطهد زعماءهم وتحكم فى مصائرهم . وكان الشعب البروسى من جهة أخرى قد تهيأ

لمثل هذه الدعاية أحسن تهيؤ على يد ستاين وشارنهورست كما بينا ذلك فى الفصل الثانى من الباب الخامس. وكان ستاين من جهة ثالثة فى بلاط[1] القيصر يثيره على غريمه الكورسيكى ويستعديه عليه. فاجتمعت كل هذه العوامل على فردريك وليم ملك بروسيا المسالم الوديع الذى كان يناصر نابليون يرجو رحمته ويخشى عذابه. فلم يجد معها بدا من مسايرة التيار والتمشى مع ميول الشعب الساخط الذى ينادى بأخذ الثأر فتورط فى عقد « معاهدة كاليش » مع قيصر الروسيا (٢٨ فبراير سنة ١٨١٣) حيث تعهد القيصر بتقديم ١٥٠,٠٠٠ جندى روسى لمعاونة الجيش البروسى فى الأجهاز على سلطان نابليون فى أوربا.

وفرحت انجلترا فرحا عظيما لما صادفته من النجاح فى سلخ أحد أنصار نابليون عن دائرة نفوذه ... وأبت إلا أن تعزز نصرها هذا بنصر جديد فبعثت بأساطيلها إلى شواطىء الدانمرك تهددها بالتدمير فى ظرف ٤٨ ساعة إذا لم « تتطوع »

---

١ يذكر القارىء أن ستاين غادر بروسيا عندما غضب عليه نابليون ودخل فى خدمة القيصر وكانت له اليد الطولى فى تدبير كل ماحل بنابليون فى الحملة الروسية من النكبات .

بالدخول فى هذا التحالف الجديد .

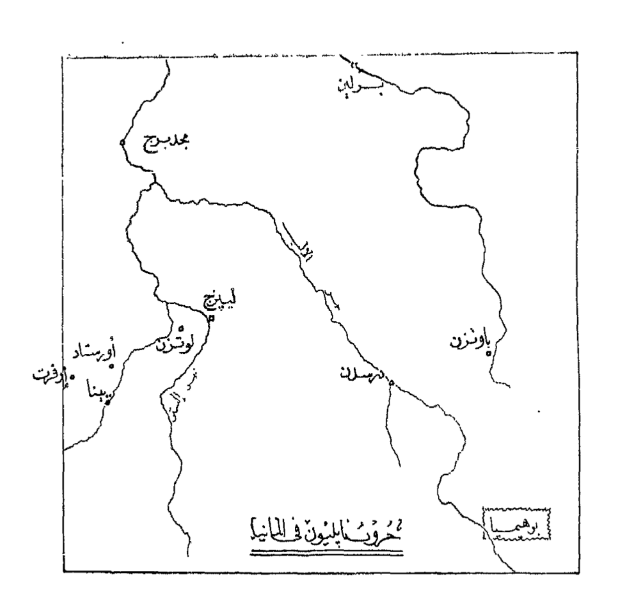
وبينما كانت انجلترا تقوم بهذا الدور لكسب حليف جديد كان زعماء هذا التحالف الآخرون يعقدون مؤتمرا فى مدينة برسلاو يعلنون فيه أن كل أمير من أمراء ألمانيا لا ينضم إلى التحالف لن يكون جزاؤه منهم بعد النصر إلا فقدان تاجه وخسران ملكه . وكان ملك سكسونيا أخلص نصراء نابليون فلم يسعه أزاء هذا التهديد إلا أن يسبق الحوادث فخرج من درسدن عاصمة بلاده حتى لا يقع فى يد هؤلاء الأبطال الأفذاذ الذين يخرجون الملوك من بلادهم باسم نصرة الحرية ومحاربة الطغيان ! .

الفصل الثالث

لوتزن وباوتزن

« Lutzen & Bautzen »

لم تقنع انجلترا باثارة بروسيا وألمانيا . ولا بمعاونة الروسيا والدانمرك فى هذه التعبئة الجديدة التى كانت تقوم بها للقضاء على نابليون قبل أن يفيق من أثر تلك النكبات التى حلت به فى الحملة الروسية ورأت، أن تجعل تعبئتها هذه المرة عامة جامعة لتضرب بها الضربة الحاسمة القاضية . فلم تتهيب أن تقتحم الباب على رجاله أنفسهم لتثيرهم عليه وتسلخهم عنه وتضمهم الى صفوفها . ويعجب الانسان أى عجب حين يراها تنجح فى الاتصال بمثل مورا « Murat » ملك نابولى وصهر نابليون الذى تزوج بأخته كارولين . وأصبح بفضل هذا الزواج صاحب عرش وصاحب جلالة . ولقد كان نابليون يرجو مورا وأمثاله من الأصهار والأنصار لمثل هذا اليوم العصيب الذى خانه فيه الحظ وتكاثر عليه الأعداء فاذاهو يراهم يتخلون عنه واحداً فى أثر واحد واذا هو يرى نفسه فى ساعة الضيق بين عدو محارب . وحليف خائن هارب .



حروب نابليون في ألمانيا

كان من بين قواد نابليون الذين رفعهم فى عهد الامبراطورية الى درجة الماريشـــالية قائد اسمه برنادوت Bernadotte ، وكان برنادوت هذا من رجال الثورة وأنصارها . وقد تزوج بالمدموازيل « دزيريه كلارى » أخت زوجة يوسف بونابرت التى كان يحسده على زواجها نابليون فى زمانه الأول . ولـكن برنادوت كان رجلا واسع الأطماع حقوداً فلم يرقه ماصادفه نابليون من النجاح العظيم . وكان يجهر ببعض عواطفه العدائية لنابليون غير أن الأمبراطور كان يداريه اكراما لخاطر أخيه الطيب يوسف وبقيت الحـال بينهما على ذلك الى أن كانت سنة ١٨١٠ حيث توفى ولى عهد السويد واتفق أهل هذه البلاد على أن يجاملوا نابليون ويكسبوا عطفه بترشيح برنادوت عديل أخيه ليكون ولى عهد لهم . وقد أبت على نابليون طيبة قلبه الا أن يسمح لبرنادوت بتقلد هذا الشرف لعل حزازته تشفى اذ يرى نفسه ملكا هو الآخر فلا يعود يحقد على نابليون . ولقد أوشك برنادوت أن يسافر هو وأهله الى بلاد السويد ليتولى الملك فيها وهو خاوى الوفاض لا يملك ما يمسك عليه كرامته لولا أن تدارك نابليون الأمر بحكمته وأريحيته فدفع له من ماله الخاص مليونى فرنك حتى يدخل

على شعبه الجديد مرفوع الرأس موفور الكرامة .

وتطورت الحوادث بعد ذلك وعاد نابليون من الروسيا تلك العودة المشئومة . واستأنفت انجلترا جهادها فى سبيل القضاء على غريمها القديم فانتهزت هذه الفرصة لكسب برنادوت وضمه الى التحالف الذى تجمعه . ففى ليلة راقصة أقامتها مدام دى ستايل ببرلين تم الاتفاق بين الطرفين وتعهد برنادوت بأن ينضم الى جانب الحلفاء فى حربهم القادمة ضد بلاده الأولى وقائده القديم .

أما نابليون فانه وقف ثابتاً فى وسط هذه العاصفة المدمرة التى كانت تتجمع تحت عينيه . وقد تمكن بقوة غزيمته وحسن تدبيره من جمع جيش جديد قوامه نحو ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل . ولكن جلهم من الغلمان حديثى السن الذين لم يكن قد حل موعد تجنيدهم بعد . ولم تكن حداثة سن هؤلاء الجنود هى كل ما يعيب هذه الحملة . فان قواتها كلها كادت تكون من المشاة بغير مدفعية ولا فرسان . اذ لم يبق لنابليون بعد الحرب الروسيه شىء من مدفعيته الفخمة التى كانت عماد حركاته . وكذلك كانت قد فنيت خيوله فى سهوب الروسيا ولم يستطع جمع غيرها . فكانت هذه الحملة الجديدة أشبه الأشياء بحملته

الايطاليـة الأولى التى سار فيها على رأس جنود حفاة عراة لاخيل معهم ولا ذخائر . ولعله لم يفته هذا التشابه بين الحملتين حين وقف يتأمل حال هذه الحملة وقصور أدواتها ثم هز رأسه قائلا :

«لا بأس ! فلنقم بأمر هذه الحملة على طريقة الجنرال بونابرت».
«Je Ferai cette campagne en Général Bonaparte!»

* * *

ولم تكن قد انقضت بعد أربعة شهور على عودة نابليون من الروسيا حين خرج فى الساعة الرابعة من صباح ١٥ مارس سنة ١٨١٣ من قصره بسان كلو ليرأس جيشه الذى أعده للقاء الحلفاء فى ألمـــانيا . وكان كولنكور Caulaincourt رفيقه فى هذه الرحلة المبكرة . فما كادت تسير بهما العربة قليلا حتى انفجر نابليون يبث شكواه وآلامه الى رفيقـه المخلص معرباً عما يخالج نفسه من الحسرة والأسى على فراقه لزوجته وولده وحرمانه من التمتع بهما على النحو الذى يتمتع به أحقر فرد من أفراد رعيته بأسرته .

ـــ « انى لأحسد أقل رجل فى امبراطوريتى على عيشـه فانه فى مثل سنى يكون قد وفى ديونه نحو وطنـه ويستطيع بعد ذلك أن يقيم فى كسر بيته متمتعاً بصحبة زوجه وأولاده.

أما أنا فان واجبي يدفعني الى ميادين القتال ويرمي بي في غمرات الحروب . تلك هي قسمتي في الحياة ! »

وواصل نابليون سيره حتى بلغ مدينة إرفرت في الخامس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٨١٣ حيث تولى قيادة الجيش وما كاد يتقدم به قليلا حتى دهمتهم جيوش الحلفاء عند مدينة لوتزن Lutzen فحملت بمدافعها وخيولها على غلمانه الراجلين فمزقتهم وشتتت شملهم وكادت تقضي هذه المباغتة على الجيش الفرنسي لولا اقدام نابليون وضربه المثل الأعلى لجنوده بتعريض نفسه لأشد المخاطر . وظهوره أمامهم في مقدمة الصفوف مستهدفاً لنيران العدو مما أعاد الى جنوده ثقتهم بأنفسهم فثبتوا نحو ثماني ساعات طوال تحت تهطال قذائف الحلفاء . وأخيراً ألقى نابليون بحرسه الامبراطوري على كتائب الحلفاء المتعبة فتراجعت أمامه وتبعها الحرس بكل ما كان مزوداً به من مدفعية قليلة واستمر يتعقبها هزيعاً من الليل حتى تم انتصاره عليها . أما نابليون فانه لفرط تعبه طول ذلك النهار كان قد استلقى في ميدان القتال وأغفى اغفاءة قصيرة فلما أيقظوه من نومه ليبلغوه خبر انتصار رجاله على الحلفاء غلب عليه السرور فابتسم لمحدثه قائلا :

— « لقد صدق فى المثل السائر — أن الخير يأتى لصاحبه وهو نائم ! »

وجاء انتصار لوتزن فى وقته بالنسبة لنابليون فان الحلفاء كانوا قد أكثروا من الكلام عن فشله وأفول نجمه وأسرفوا فى اتهامه بالضعف وعدم القدرة على مواجهة دولة واحدة من دول أوربا بله هذا التحالف الجرار . فلما تم له هذا النصر حسنت الحال المعنوية بين جنوده على قدر ما ساءت بين جنود الحلفاء . فظل يتقدم نحو مدينة درسدن وظلوا هم يتقهقرون أمامه حتى دخلها بعد أن أجلوا عنها وإلى جانبه ملك ساكسونى فكان ذلك يوم مشهود فى تاريخ تلك البلاد .

وأقام نابليون فى درسدن أسبوعا ثم تابع زحفه فالتقى مرة أخرى بجيوش الحلفاء عند مدينة باوتزن Bautzen واشتبك معهم فى معركة عنيفة كتب له النصر فيها أيضاً ولكنه كان نصراً فاتراً مريراً . فأما فتوره فلأن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتعقبوا العدو بعد انهزامه لنقص فرسانهم ولذلك لم يكن حاسما مبينا كما كان فى أولم وأوسترلتز أو فى يينا وأورستادت . وأما مرارته فلأن خسائر الفرنسيين المنتصرين كانت فى الواقع أكثر من خسائر الحلفاء المهزومين .

الفصل الرابع

الهدنة المشئومة

زادت معركة باوتزن فى ارتباك الحلفاء ورأوا أن الدائرة توشك أن تدور عليهم كعادتها . وكان الروسيون والبروسيون ينتظرون وصول إمدادات عظيمة اليهم ولكنهم كانوا يعلمون أنه لابد أن تمر بضعة أسابيع قبل أن تصلهم هذه الامدادات. ففكروا فى طلب الهدنة من نابليون .

وكانت النمسا فى مركز يجعل كلا من الفريقين المتحاربين يطمع فى معونتها فنابليون يرى فى امبراطورها أنه صهره الذى تهمه سلامة دولته ورجحان كفته . بينما الحلفاء يرون فى بلاد النمسا ضحية من الضحايا التى فتك بها نابليون وبنى فوق أنقاضها امبراطوريته . والتى يهمها التخلص منه والقضاء عليه إن كانت تطمع فى استعادة شىء من عزها الضائع وكرامتها المهينة .

ولم يكن يخفى شىء من ذلك على مترنخ داهية النمسا العظيم فرأى أن يستخدم هذه الظروف لصالح بلاده وأن يساوم الفريقين فمن دفع أكثر من صاحبه فهو حليفه

ومناصره[1] وأحس نابليون بمثل ما أحس به الحلفاء من الحاجة الى الامدادات وجمع الصفوف . فلما جاءته الرسل فى طلب الهدنة وافقهم عليها وشرع يفاوض النمسا فى الانضمام اليه فالتقى به مترنيخ وعرض عليه أن يحارب الى جانبه اذا هو قبل أن يرد لمبارديا والولايات الأليرية وأن ينزل عن هولندا وپولندا ومعاقل نهر الألب والرين وأن ينزل كذلك عن لقب « حامى ولايات الرين » . فثار عليه نابليون ثورة عاصفة ختمها بأن صاح فى وجهه :

— « ترى كم دفعت لك انجلترا لتعلن على هذه الحرب؟ »

على أن نابليون مالبث أن تبين أن فرنسا نفسها تميل الى قبول هذه الشروط حتى لقد نصح له تاليران وكامباسيريس وفوشيه وغيرهم من وزرائه بأن لامندوحة له عن التسليم بهذه المطالب وإلا كان الخطر جسيما بانضمام النمسا الى الحلفاء . فكان هذا الخور من جانب رجاله أشد إيلاما فى نفسه من اجتراء غرمائه على التغالى فيما يطلبون .

وكانت قد وصلت فى هذه الفترة تلك الامدادات التى

---

(١) عرض الحلفاء على مترنخ أن يطلقوا يد النمسا فى ايطاليا وألمانيا تفعل بهما كيف تشاء فى نظير انضمامها الى التحالف

كان يترقبها الحلفاء . وأدرك نابليون أن الهدنة قد أوشك أن ينتهى أجلها وأن مركزه يزداد سوءًا كل يوم فلم ير آخر الأمر بداً من النزول على إرادة مترنيخ فى كثير مما طلب . وعرض عليه قبوله لمعظم شروطه .

ولكن موقف الحلفاء فى ذلك الوقت كان قد تغير تغيرا تاما . إذ وردت الأنباء من اسبانيا بأن السير أرثر ولسلى قد انتصر على الجيوش الفرنسية انتصارا حاسما فى فتوريا Vittoria وأنه كان إذ ذاك سائرا فى طريقه نحو حدود فرنسا الجنوبية . فلم يتردد الحلفاء فى طلب قطع المفاوضات وإعلان انتهاء الهدنة واستئناف القتال .

ولقد اعترف نابليون فيما بعد بأن موافقته على هذه الهدنة كانت أشأم غلطة ارتكبها فى حياته فأنها كانت سبباً فى تقوية مركز أعدائه بشكل لم يسبق له مثيل حتى أصبح من المحقق لكل ذى بصيرة عند ما استؤنفت الحرب أن نابليون فى محاولته الوقوف فى وجهها لم يكن يحاول غير المستحيل .

الفصل الخامس

حرب الامم

النكبات تترى

رفضت النمسا قبول التسوية التى عرضها عليها نابليون فى سبيل الحصول على معاونتها ضد أعدائه وقررت الانضمام بمائتى ألف جندى إلى هؤلاء الأعداء فارتفع بذلك تعداد الجيوش المتحالفة إلى أكثر من نصف مليون مقاتل. ولم يكن يملك نابليون للقاء هؤلاء غير مابقى له من أولئك الشبان الأحداث الذين خاض بهم معركتى لوتزن وباوتزن.

وكان الحلفاء قد سعوا الى ضم برنادوت اليهم ونجحوا فى ذلك كما سبق لنا البيان فى الفصل الثانى من هذا الباب — وكانوا كذلك بناء على مشورة برنادوت قد استدعوا مورو من منفاه فى أمريكا ليقف الى جانب شريكه فى مقاتلة مواطنيه فلبى الرجل دعوتهم غير مستنكف ولا متردد لعله يتمكن أيضاً من الانتقام لنفسه من نابليون.

وفى تلك اللحظة الرهيبة التى كان يعلق فيها نابليون الآمال الكبار على كل رجل من رجاله فر الجنرال جوميني، الفرنسى Jomini الى صفوف الأعداء يحمل اليهم من المعلومات ما كان يعرفه عن خطط الأمبراطور .

ولقد تولى كولنكور ابلاغ خبر كل هذه النكبات إلى الأمبراطور وهو يروى فى مذكراته كيف تمت هذه المقابلة التاريخية . واليك ما يقول :

« سألنى الأمبراطور هل أعلنت النمسا الحرب رسمياً علينا ؟

قلت — اعتقد يا مولاى أنها انضمت للروسيا وبروسيا

فأجابنى بحدة — ذلك قد يكون رأيك ولكن إذن لم يصبح بعد حقيقة واقعة !

قلت — بل هو حقيقة واقعة يامولاى . ولجلالتكم أن تتأكدوا أنى لا أبنى رأيى فى مثل هذه الموضوعات الخطيرة على مجرد أوهام !

قال — علام إذن بنيت رأيك ؟

قلت — لقد دخل بلوخر البروسى مقاطعة سيليسيا واستولى على برسلاو قبل انتهاء الهدنة بيومين .

قال — ذلك أمر خطير حقيقة فهل أنت متأكد مما تقول ؟

قلت — لقد تناقشت يامولاى مع مترنيخ فى هذا الأمر مناقشة هامة قبل قيامى من پراج . وقد علمت أيضاً أن الجنرال جوميني قد فر من معسكرنا وهو الآن مع القيصر اسكندر .

فصاح نابليون : جومينى ؟ ذلك الرجل الذى غمرته بأحسانى ! ياللخائن ! يهجر معسكره فى ليلة المعركة ! ويحمل الى الأعداءأ خبار قوانا وأوصاف حركاتنا ! ذلك مالا يصدقه العقل ! » .

وقد كان هياج الأمبراطور عظيما وهو يقول هذه الكلمات حتى أنى أمسكت فلم أتم ما كنت أريد أن أقول . ولكنه ما لبث أن صاح بى قائلا :

— أهذا كل ما عندك ؟ تكلم ياكولنكور ! أخبرنى بكل شيء ! يجب أن أعرف كل شيء ! .

فقلت — إن دائرة التحالف قد اتسعت يامولاى — فقد انضمت اليها أيضاً السويد !

فأجابنى — ما ذا تقول ؟ برنادوت ! برنادوت يحمل السلاح فى وجه فرنسا ؟ حقا هذا هو جزاء سنمار !

قلت — ولم يكتف برنادوت باشهار سيفه فى وجه وطنه ولكنه سعى فى ضم أبناء فرنسا الخارجين عليها إلى صفوف

الأعداء كأنه أحس أنه لا يستطيع أن يتلقى بمفرده لعنات مواطنيه .

قال — ماذا تعنى ؟

قلت — لقد انضم الجنرال مورو إلى معسكر الحلفاء !

فصاح — مورو فى معسكر الحلفاء ؟ هذا لا يمكن ! لست أستطيع تصور هذا يا كولنكور ! أبدا . هذا كلام لا يحتمل الصدق ! وكيف عرفت أنت كل ذلك ؟ »

ويستطرد كولنكور على هذا النحو يسرد هذا الحوار العجيب الذى دار بينه وبين الأمبراطور مبيناً عن الظروف التى سار فيها نابليون على رأس شبانه الأحداث للقاء ما يربو عن نصف مليون من جنود أوربا المدربين .

درسدن — آخر نصر كبير

على أن الخطة التى رسمها برنادوت ومورو للحلفاء بناء على نصائح جومينى ومعلوماته كانت على الرغم من كل ذلك مهاجمة قواد نابليون وتحاشى الاشتباك معه هو شخصياً . حتى تفنى قوته شيئاً فشيئاً دون التصدى لمواجهته والتعرض لأخطاره .

وفطن نابليون إلى ما اعتزمه الحلفاء فعدل عن خطة الدفاع التى كان ينوى انتهاجها على غير عادته وقرر أن يكون جيشه البادىء بالهجوم .

فانقض هو والماريشال ناى على بلوخر فى برسلاو . فما كاد هذا يعلم بقدومه حتى ولى الأدبار هو وجيشه العظيم تطبيقا للمبدأ الذى وضعه الحلفاء وهو تحاشى الاشتباك مع نابليون .

ولكن خروج نابليون من درسدن لمهاجمة بلوخر أطمع بقية جيوش الحلفاء فى الاستيلاء عليها لأفساد خططه التى دبرها على أساس جعل هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية . فزحف عليها شوارتزنبورج Schwarzenberg من الجنوب على رأس جيش جرار قوامه مائتا ألف مقاتل فى حين لم يكن بالمدينة غير ثلاثين ألف فرنسى . فأرسل قائد هذه الحامية الضعيفة يستنجد بنابليون لعله يستطيع إدراكه قبل أن يصل اليه شوارتزنبرج وجنوده .

وفى صباح ٢٦ أغسطس سنة ١٨١٣ بدأت طلائع جيوش الحلفاء تطلق نيرانها على المدينة . فوقع أهلها فى حالة يأس شديد وطلبوا إلى قائد الحامية أن يحقن دماءهم بطلب التسليم . ولكنه كجندى لم يكن يستطيع أن يستمع إلى توسلاتهم وبقى

على رأس قوته يتلقى نار العدو حتى انتصف النهار . وعند ذلك سمع فى الجهة الشمالية من المدينة صياح يشق أطباق الجو . وهتاف حار بحياة الأمبراطور . فكان ذلك ايذاناً بوصول نابليون . ودبت الشجاعة والطمأنينة فى قلوب الأهالى وملك الفرح عقول الجند حتى تعذر على الضباط حفظ النظام بينهم إذ تدفقوا جميعاً نحو مبعث ذلك الهتاف ليلاقوا قائدهم الأعلى فما أن وقع بصرهم عليه حتى أخذوا يتصايحون :

— « هاهو ! هاهو ! انه هنا ! »

والتفوا حوله وانقلب فزع الناس واضطرابهم إلى فرح وصخب وتصفيق وهتاف كأنه لم يكن بينهم وبين الدمار المحقق الا بضع ساعات .

أما نابليون فانه أسرع الى أسوار المدينة الجنوبية يعاين منها موقع الأعداء وكان قد خرج وحده غير مصحوب الا بتابع واحد حتى لا يستلفت أنظار العدو الى نفسه . فلم يسر غير بعيد حتى أصابت تابعه هذا رصاصة أردته قتيلا . فقفل راجعاً وعول على مهاجمة جيش شوارتزنبرج فى الحال . وكانت بقية جيشه قد وصلت فى ذلك الوقت الى المدينة متعبة مجهودة بعد أن قطعت نحو ٩٠ ميلا فى نحو سبعين ساعة . ولكنهم

ما كادوا يدخلون المدينة و يقفون على حقيقة الموقف فيها حتى أبوا أن يضيعوا دقيقة واحدة يتزود فيها الجائع بما يسد رمقه و يتناول فيها الصادى ما يطفىء ظمأه . وأسرعوا يلبون نداء قائدهم لدرء الخطر قبل أن يستفحل و يضيع الأمل فى النجاة

وطال تبادل النيران فى ذلك اليوم العصيب بين الفريقين وأخيراً أطلق نابليون ثلاثة من قواده الأمجاد على العدو فاقتحموا صفوفه وأوقعوا فيها الرعب والفزع . وكان شوارتزنبرج فى تلك الساعة على ربوة عالية يشرف منها على ميدان القتال والى جانبه اسكندر قيصر الروسيا وفردريك وليم ملك بروسيا . وكانوا يحسبون جميعا أن نابليون ما زال مشغولا بمطاردة بلوخر فى سيليسيا فما هو أن رأوا تلك الهجمة العنيفة التى قام بها الفرنسيون حتى صاح شوارتزنبرج قائلا :

— « ان الأمبراطور لابد أن يكون فى درسدن . فخير ما نستطيع أن نفعله الآن هو أن نلم شملنا ونجمع صفوفنا . »

و كان الجو عاصفاً والسماء ممطرة ولم يكن نابليون قد برح سرج جواده منذ طلعة النهار . فتمكن المطر منه حتى بلل

قميصه . وأخيراً أقبل الليل فبدأ العدو يسترد المواقع التى أجلى عنها أثناء النهار . وهجع جنود نابليون يلتمسون قسطهم من الراحة بعد كل هذا العناء . أما نابليون فانه بقى الى ما بعد منتصف الليل يعد العدة للغد ويطوف بأنحاء المدينة حتى يبصره رجاله ويرون أنه لا يتركهم فى ذلك القر والعراء ليتقلب هو فى الفراش الدافى والمضجع الوثير .

واستؤنف القتال فى فجر اليوم التالى بعد أن تعززت قوى الفريقين بما استطاعا جمعه خلال الليل من الامدادات واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . وحدث بطريق المصادفة أن وقف نابليون وسط جماعة من الفرسان تتسلق مرتفعات الأرض قبالته بقصد الاستطلاع فأراد تفريقهم فبعث الى رئيس البطارية رسولا يقول له :

Jettez une douzaine de boulets à la fois, dans ce groupe lâ, peut être il y a quelques petits generaux.

« صوبوا بضع طلقات مرة واحدة على تلك الجماعه لعل فيها بعض القواد الصغار ! »

وتشاء المصادفة أن يكون مورو وسط تلك الجماعة وأن تصيبه احدى تلك الطلقات فى ساقيه فيكون ذلك سبباً فى

بترهما بعملية جراحية تزهق روحه بعدها بيومين فيحرم من التمتع بثمرة خيانته !

على أن هذه المعركة انتهت بارتداد الحلفاء عن أسوار درسدن وتقهقرهم نحو بوهيميا بعد أن خسروا نحو ٣٠ ألف أسير وأكثر من عشرة آلاف ما بين قتيل وجريح . ولكن هذا النصر كان آخر نصر عظيم أحرزه نابليون فى حياته إذ انعكست الآية بعد ذلك معه فتكاثر عليه أعداؤه وتخلى عنه أنصاره . وفر من معسكره كثير من رجاله . فلم تكن انتصاراته الفاترة التى أحرزها بعد ذلك الا بمثابة الخدوش التى يحدثها النمر الصريع فيمن يحاول الدنو منه وهو فى حشرجة الموت .

ولقد ظهرت على نابليون أيضاً عقب « درسدن » مباشرة أعراض ذلك المرض الشديد الذى ظل ينتابه ويفت فى عضده حتى انتهى آخر الأمر بهلاكه . وقد كنا ذكرنا فى بدء الكلام عن واقعة درسدن أن نابليون أجهد نفسه أياماً فى محاولة العودة الى تلك المدينة قبل وصول الحلفاء اليها ثم فى أثناء الواقعة التى دارت رحاها يومين طويلين لم يكد يذوق فى خلالهما طعم الراحة على الرغم من تأثره بالبرد والمطر . وكان من جراء ذلك كله أن انتابته نوبة برد حادة مصحوبة

بمغص أليم وقىء عنيف حتى خيل اليه أن بعض أعدائه لا بد أن يكون قد توصل الى دس السم له فى شىء من طعامه . ولقد كانت هذه النوبة نفسها ذات أثر عظيم فيما استجد بعدها من الحوادث فانها لم تمكنه من مطاردة أعدائه بعد ارتدادهم عن درسدن وكان ذلك سبباً فى استعادة قواهم بسرعة واستعدادهم للقائه مرة أخرى فى ليبزج . ولو أنه تعقبهم كما كان يفعل فى كل حروبه السابقة وحطم رأسهم بعد أن قطع ذنبهم لما قامت لهم قائمة ولتغير وجه هذه الصفحات الحزينة التى ينتهى بها تاريخ نابليون .

ليبزج — المذبحة الرهيبة :

ولكنه اضطر بسبب مرضه الى أن يوزع الجيش على قواده وأن يطلق كل قائد منهم فى أثر جيش من جيوش الأعداء بغية القضاء على تحالفهم « بالمفرق » ما دام قائد « الجملة » مريضاً لا يقوى على النهوض . غير أن الحظ السىء لازم هؤلاء القواد فى كل مكان فانتصر بلوخر (البروسى) على مكدونالد (الفرنسى) فى الشمال واضطر فندام Vandame فى الجنوب الى تسليم كل قوته للنمساويين بينما انهزم الماريشال

ناى هزيمة منكرة أمام القائد بيلوف (الروسى) وهو يحاول الهجوم على برلين.

عند ذلك تشجع الحلفـــاء واقترح عليهم برنادوت أن يقوموا بهجوم عام يسير هو فى طليعته ليطوق نابليون ويقطع عليه خط الرجعة إلى فرنسا — وعند ذلك أيضاً تنبه نابليون الى خطورة هذه الحركة ولم يجد علاجا لدفعها إلا أن يندفع مرة واحدة هو وكل من معه نحو الشمال لاحتلال كل البلاد الكبيرة التى يكون الحلفاء قد أخلوها وهم يحاولون الالتفاف حول جيشـه فيصبح فرضاً عليهم أن يرتدوا للدفاع عن مدنهم ومعاقلهم.

ولكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ هذه الخطة المسددة حتى علم بأن حليفه ملك بافاريا قد تخلى عنه وانضم للحلفاء. وأن ملك وورتمبرج أيضاً قد حذا حذوه. وأن جيشاً جراراً من جيوش الحلفاء يزحف نحو الحدود الفرنسية. وأن خمسمائة ألف جندى آخر يطبقون على مدينة درسدن.

فأما هو فلم تزده هذه الصدمات إلا تنبهاً ونشاطاً وقوة عزم وأما قواده — الذين رفع بعضهم بيـده من الصفوف وبلغ بهم قمة المجد — فقد سئم معظمهم هذا القتال المتواصل

وودوا لو تفاهموا مع دول أوربا على أى أساس صالح للتسوية حتى يعودوا إلى قصورهم وبلادهم ويقيموا بين زوجاتهم وأولادهم ويتمتعوا بثمرة نضالهم وجهادهم . وكان مسلكهم فى هذا الظرف العصيب أشق على نفس نابليون من مسلك أعدائه المكشوفين حتى لقد بقى على اثر فرارهم يومين كاملين وهو فى حالة عصبية أليمة وعذاب نفسانى شديد ، وأراد كولنكور أن يخفف من ألم مولاه بالتماس العذر للقواد فيما فعلوا . فقال :

— « ان كلام القواد يامولاى لا يمكن أن يحمل الا على أنه اقتراحات . والرأى الأعلى فيها لكم ! »

فكان جواب نابليون الحاضر :

— « ما أظنك تتوهم ذلك يا كولنكور . وسوف يكون لهذا الأمر عواقبه المخيفة المدمرة فان اليوم الذى تقوم فيه « الحراب » بمهمة التفكير هو اليوم الذى تفر السلطة فيه من « الصولجان » !

واضطر نابليون ازاء تخاذل قواده الى العدول عن خطته والرجوع الى « ليبزج » ليقف فيها لأعدائه وقفته اليائسة الأخيرة فقد كان جيشه حوالى مائة ألف يتناقص عددهم

يوماً بعد يوم بينما كانت قوة الحلفـــاء ٣٥٠ ألفاً تصلهم الامدادات من كل صوب فى كل يوم . .

وفى الساعة التاسعة من صباح ١٦ اكتوبر سنة ١٩١٣ بدأت معركة ليبزج الشهيرة التى لم تكن فى الواقع الا مذبحة رهيبة يظفر فيها جيش كبير بجيش صغير وتكون كل مهمته أن يجهز عليه .

ومما زاد الطين بلة فى هذه الظروف القاسية ان عاودت نابليون فى ليلة السابع عشر من هذا الشهر — أى بعد ابتداء المعركة بيوم واحد — أعراض ذلك الداء القاتل الذى أصيب به فى معدته فبينما هو فى خيمته يتحدث الى جلسائه عن شئون الغد وما سوف يأتيهم به إذ جاءته النوبة فامتقع لونه وثقلت أنفاسه وتقلص وجهه وارتمى فوق مقعد فى طرف المكان وقد وضع يده على معدته قائلا : . .

« أشعر بألم شديد . إن جسمى ينهار ولكن روحى لم يعتورها الضعف ! » .

فأسرع اليه كولنكور قائلا :

— « سأبعث فى طلب الطبيب يامولاى ! » .

فأجابه نابليون على الفور :

— كلا ! كلا ! أريد أن لا تفعل . إن خيمة الملك شفافة كالزجاج لا تحجب ماوراءها فيجب على أن أبقى على قدمى حتى يبقى كل انسان فى مركزه . .

وأمسك يد كولنكور وضغط عليها بلطف ثم رفع بصره اليه قائلا :

— سآخذ فى التحسين حالا يا كولنكور فلا تدع أحداً يدخل علينا الآن !

وفى الغد كان نابليون مرة أخرى على ظهر جواده يشرف على قوته الضئيلة وقد أحاط بها العدو من ثلاث جهات ثم مالبث أن جاءه من يبلغه أن برنادوت أغرى السكسونيين الذين كانوا فى خدمته على أن يتخلوا عنه أيضاً وينضموا بمدافعهم وذخيرتهم الى الحلفاء . فبهت نابليون فى سرجه لهذا الخبر . ووقف جامداً كأنه تمثال من الحجر الأصم . ثم رفع بصره الى السماء كأنما يريد أن يحتج لديها على هذه الخيانة الشنيعة ولم تنفرج شفتاه إلا عن كلمة واحدة أودعها كل ما كان يحس به من مرارة وألم وهى : « ياللعار ! » .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد وقف الفرنسيون يناضلون طول اليوم . ويدفعون عن مراكزهم تلك الجموع الجرارة

التى كانت تكر عليهم بقضها وقضيضها . ثم لا تلبث أن تتحطم على حرابهم العنيدة . فترتد لتستأنف الهجوم عليهم من جديد

وفى اليوم التالى بلغت خسائر الفرنسيين ستين ألفا . فلم يبق إلا التقهقر والانسحاب . وقد بدأ هذا الانسحاب فى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٩ اكتوبر وظل سحابة الليل فى غفلة من الحلفاء . ولم يكن بالمدينة غير جسر واحد يستطيع أن يعبر به الفرنسيون نهر Elster الواقع فى غرب المدينة . فتدافعوا فوقه ولكنه نسف قبل أن تدركه بقية الجيش . وظل منهم نحو ٢٥ ألف تحت رحمة أعدائهم الذين كانوا قد دخلوا الى المدينة مع طلوع شمس اليوم التالى . ولا حاجة بنا الى الافاضة فى وصف ما حل بهؤلاء التعساء فقد تنوعت ميتاتهم فى ذلك اليوم العصيب ولم ينج منهم الا قليل .

الفصل السادس

انهيار البناء

تتابعت الحوادث سراعا بعد معركة ليبزج . وهطلت سماء المحن مدرارا فوق راس نابليون . فاذا هو يرى بنيان امبراطوريته الفخم يتداعى أمام ناظريه كأنه أشباح الأحلام تزاحمت ساعة فى رأس مهموم لم يلبث أن يفيق .

وكان سر نكبته فى تلك الساعة الرهيبة سلسلة من الخيانات لم يكن يتوقعها أشد الناس يقظة وأكثرهم حذرا . فقد تخلى عنه حلفاؤه المخلصون . وخذلته فرنسا نفسها وطنه المحبوب . وأنكره أصهاره وأقاربه بل أنكره إخوته وأخواته الذين رضعوا معه من ثدى واحد . وربطتهم وإياه روابط النشأة والدم

فأما حلفاؤه فقد بادروا إلى الانضواء تحت لواء أعدائه ليجاروا التيـــار الجديد سالكين فى ذلك مسلك بافاريا وورتمبرج لاسيما بعد أن شاهدوا بأعينهم مصير ملك سكسونيا التعس (حليف نابليون المخلص) الذى أدركه الحلفاء فى ليبزج

فاسروه وبعثوا به سجينا إلى برلين . وبذلك أفلتت من قبضة الامبراطور دفعة واحدة كل المانيا وإيطاليا فضلا عن ضياع اسبانيا التى استولى عليها الانجليز . وهولندا التى أعلن أهلها ولاءهم لأسرة أورانج التى منها ملوكهم القدماء :

وأما فرنسا فقد شاهدت زهرة شبابها تفنى بين يدى نابليون ولا تكاد تدرك من ذلك إلا أنه هو الذى يخرج بينها صفوفاً إلى ميادين القتال ثم لا يلبث أن يعود من غيرهم ليجمع صفوفا أخرى . وقد كان ذلك محتملا عندها فى أول الأمر حين كانت تراه يعود اليها مثقل الوطاب بالغنائم والأسلاب . أما الآن وليس يسير فى ركابه غير البؤس والهزائم فهى لا ترى إلا أن تخذله وتقعد عن معونته . وتصدق فيه قول خصومه من أنه رجل سفاح مريض بداء العظمة الجوفاء . مصاب بآفة التعطش الى الدماء .

على أن المحنة الحقة التى فتت فى عضد نابليون وكانت أشد وقعاً فى نفسه من وقع كل هذه المحن هى فرار إخوته منه وهم عدته التى كان يدخرها لمثل هذا اليوم العبوس . فأخوه لويس كان أول من خرج عليه . أما جيروم ملك وستفاليا فأنه هجر مملكته وشعبه ليخلى السبيل بينهما وبين الخلفاء . كما

أن يوسف رفض أن يتولى القيادة العسكرية فى مدينة باريس حين عرضها عليه نابليون فى هذه المحنة الأخيرة . أما لوسيان فكان قد ضاع منذ زمان بعيد كل عمار بينه وبين أخيه [1] .

هذا من جهة إخوته . أما من جهة أخواته فأن كارولين — زوجة مورا (ملك نابولى) كانت أهم عامل فى إغراء زوجها بالانضمام الى جانب الحلفاء لعل ذلك يكون شفيعا لهما عندهم فيبقيان على عرش نابولى اذا ما دارت الدائرة على نابليون. واما إليزا Elisa فأنها كانت ترى مع « فوشيه » أن الحل الوحيد الذى ينقذ فرنسا من هذه الأزمة التى وقعت فيها هو . . . . . « أن يموت الامبراطور » !

وهكذا وقف نابليون وحده فى وسط هذه الملمات لايجد إلى جانبه من بين أهله من يسند ظهره أو يشد أزره اللهم إلا أمه الطيبة ليتيشيا التى حاولت عبثا أن تجمع أبناءها حول أخيهم العظيم والتى لم تكن تملك له بعد اليوم إلا دمعة أسى تذرفها بين يديه .

---

(١) كان لوسيان قد تزوج بسيدة من عامة الناس وأراد نابليون أن يعينه ملكا كما عين بقية إخوته . يوسف ولويس وجيروم . فطلب اليه أن يطلق زوجته حتى يصعد الى العرش والى جانبه أميرة من أميرات أوربا ولكن لوسيان رفض كل ما عرض عليه نابليون مضحيا بذلك فى سبيل الاحتفاظ بزوجته وأولاده .

الفصل السابع

الحلفاء فى باريس

يخال القارىء أن نابليون بعد معركة ليبزج وبعد كل هذه النكبات التى تبعتها سوف يتلقى ضربات الحلفاء فوق رأسه واحدة بعد واحدة ويظل يتقهقر أمامهم من بلد الى بلد حتى يلتجىء آخر الأمر الى باريس فيتحصن فيها ثم يقتحمها الحلفاء عليه فيأسرونه ويبعثون به الى منفاه . فهذا على ما يظهر هو منطق الحوادث المعقول .

ولكن الذى حدث فعلا كان من العجيب يناقض ما يقتضيه هذا المنطق على خط مستقيم . فأن نابليون ظل ينتصر فى تقهقره من بلد الى بلد واستمر يكيل الضربات للحلفاء وجيوشهم حتى دخلوا أمامه باريس . فاعتزل الملك بعد ذلك ثم تفاهم مع خصومه على أن يبرح فرنسا ويستعيض عن ملكه فيها بجزيرة إلبا المتواضعة ليقضى فيها أيامه الباقية .

أما تفصيل ذلك فهو أن نابليون خرج من ليبزج ليلة

التاسع عشر من شهر أغسطس متجها نحو إرفرت ولكن الجيوش الألمانية أصرت على اللحاق به وقطع خط الرجوع عليه ونجح الجنرال Wrede النمسوى فعلا فى الوقوف له عند قرية (هاناو) معترضا طريقه بنحو خمسين ألف جندى. وأكثر من مائة مدفع . عند ذلك رأى نابليون نفسه محصورا بين خصومه من الأمام ومن الخلف . فلم ير إلا أن يلقى ريد وجنوده ليزيحهم عن طريقه ويتابع سيره الى فرنسا . وقد جاء هذا اللقاء فى الواقع آية من روائع آيات نابليون الحربية فأنه جمع رجاله واستجم قوته ثم كر على خصومه فاقتحمهم ومر بجيشه فوق أجسامهم وخلفهم فى الميدان فلولا وأشلاء وواصل سيره حتى بلغ مدينة ماينز على نهر الرين .

ولقد كان الحلفاء حتى هذه اللحظة على اتفاق تام إذ لم يكونوا يفكرون إلا فى التغلب على نابليون وكسر جيوشه. ولكنهم بعد أن رأوا آخر جندى فرنسى يعبر حدود الرين القريبة . انقسموا فيما بينهم . فمنهم من رأى الاكتفاء بذلك وعدم مطاردة الفرنسيين داخل حدودهم لأن هذا سيكون حافزاً لهم على استئناف القتال بيأس واستبسال . ثم أنه سوف يبرر عمل نابليون إذا هو طلب إعداد جيش جديد . وفى هذا

أيضا من الخطر مافيه . وعلى ذلك اقترح هذا الفريق — وعلى رأسهم مترنيخ — أن يعرض على نابليون الصلح على أساس الحدود الطبيعية لفرنسا . (وهى من الشرق نهر الرين . ومن الجنوب جبال البرانس . ومن الشمال والغرب بحر المانش وخليج بسكاى) أما الفريق الآخر — وكان على رأسه بلوخر البروسى — فأن الأحقاد التى كانت تغلى فى صدره حالت دون الأستماع إلى هذه الدعوة ورأى فى تلك الظروف فرصة سانحة للقضاء على خصمه الجبار العنيد فأصر على أن يتابع خصمه فى سيره داخل الحدود الفرنسية وأن يواصل زحفه حتى باريس نفسها ليملى إرادته فيها على ذلك الجبار العنيد .

وأخيراً انتصر أهل هذا الرأى . واضطر أصحاب الرأى الأول الى سحب اقتراحهم على الرغم من أن نابليون كان قد بعث اليهم رسوله ليبلغهم قبوله الصلح على هذا الأساس . وتقدم بلوخر من الشرق وإلى جانبه النمسويون بينما كان ولنجتون يزحف من الجنوب . وجيوش برنادوت توالى سيرها لتدخل فرنسا من جهة الشمال ..

وقد بلغ تعداد جيوش الحلفاء بانضمام هذه العناصر بعضها الى بعض نحو ٣٠٠ ألف مقاتل . على أن الألمان ما كادوا

يتقـدمون قليلا فى داخل الحدود الفرنسـية حتى دهمهم الأمبراطور فى أربع مواقع وفتك بهم فتكا ذريعاً وذلك فى فى أربعة ايام متتالية .

أزاء ذلك لم ير بلوخر بدا من الارتداد نحو الشمال كى يتصل ببرنادوت لعله إذا أضاف قوته إلى جيوشه يتعزز مركزه وتثبت أقدامه فى اللقاء التالى . ولـكنه لسوء حظه ما كاد يضم إمدادات برنادوت إلى صفوفه حتى أصيب بمرض أقعده عن العمل وحرمه وقتاً ما ثمرة جهوده .

وهكذا بقى نابليون ستة أسابيع طوال يدافع الحلفاء فيها عن باريس بحفنة من الجنود يثب بهم ههنا وههنا ويرد بهم سيلا جارفا من جنود الأعداء إلى أن وهنت فى آخر الأمر قواه . وكان ولنجتون فى تلك اللحظة يزحف من مدينة تولوز فى جنوب فرنسا قاصدا إلى باريز بينما كان بقية الحلفاء فى الشمال قد وقفوا لنابليون وقفة الذئب الجائع العنيد أمام فريسته المحتضرة الثائرة — يخشاها وفى نفس الوقت يطمع فى اغتيالها .

على أن نابليون لم ير أن يستسلم حتى فى هذه الساعة الأخيرة التى لم يبق فيها بارقة من أمل فى النجاة . وعزم على أن

يترك الحلفاء يهاجمون باريس كيف يشاءون ويلتف هو حولهم ليأخذهم من خلفهم. وكانت باريس فى ذلك العهد عاصمة الأمبراطورية النابليونية الواسعة التى كانت تتزايد أطرافها مع كل مطلع شمس. فلم يلتفت أحد الى أمر تحصينها ولذلك أقبل الحلفاء عليها حين أقبلوا وليس يتولى الدفاع عنها إلا القائدان مارمون ومورتييه Marmont & Mortier ومع كل واحد منهما بضعة آلاف جندى. فجد نابليون فى أثر الحلفاء وكاد ينجح فى خطته لولا أن قيض الله لها من نقل تفصيلاتها إلى أعدائه وأوقفهم على سرها فأفسدها عليه.

وعلى الرغم من كل ذلك تقدم نابليون بالخمسين ألف الذين بقوا معه. وكان ذلك موضع الدهشة والقلق فى نظر من يحيط به من القواد. فلم يتمالك أحدهم أن نبهه إلى تفوق الحلفاء عليه فى العدد بشكل لا يدع مجالا لهذا القتال العقيم. فما كان من نابليون إلا أن صاح فيه:

— «ما ذا تقول؟ إن معى ٥٠ ألفا وباضافتى اليهم نصبح مائة وخمسين ألف! فهل هذا قليل؟».

وجد نابليون فى طريقه لا يلوى على شىء ولا يشغله إلا خاطر واحد وهو كيف يمكن الحصول على جيش جديد

فى هذه الضائقة التى خذله فيها رفاقه ولم يكد يبقى معه منهم أحد . وأخيرا صاح هاتفاً بنفسه :

« سأجند الفلاحين ! فهم الطبقة المخلصة الوحيدة التى تتبعنى الى حيث أسير . »

وضاعف سرعته عند ما لاح له هذا الخاطر لعله يصل الى باريس قبل الحلفاء فيقبض فيها على زمام الحكم من جديد

ولكنه لم يسر غير بعيد حتى لقى جماعة من الجند على رأسهم ضابط صغير . فتقدم الضابط نحو الأمبراطور وأبلغه أنه مكلف من قبل الجنرال مورتيه بالعمل على إيواء الجنود المتقهقرين . فحدق فيه نابليون تحديقة طويلة لعله يستشف بها معنى كلامه ثم قال مستفسرا :

الجنود المتقهقرين ؟ وأين إذن الأمبراطورة ؟ وأين الملك يوسف ؟ .

ـــ سافرت جلالتها أمس الى بلو Blois هى وملك روما أما الملك يوسف فقد غادر باريس اليوم .

ـــ ومارمون ؟ .

ـــ لا أدرى يامولاى ! .

عند ذلك أدرك نابليون أن باريس فى خطر محدق .

فتجمع العرق قطرات كبيرة على جبهته فى انفعال عميق ثم لم يلبث أن صاح :

— « إلى الأمام ! إن الحرس الوطنى والشعب سيقفان الى جانبي . ومتى احتوتنى أسوار باريس فأنى لن أخرج منها إلا على محفة النصر أو على عربة الموتى ! » .

ولكنه لم يكد يقترب من باريس ويشرف على نهر السين الذى يشق المدينة إلى نصفين حتى راى أنوارا تتلألأ فوق صفحته ولمح أضواء تنضنض على شاطئه المقابل . فتمعنها جيداً فاذا هى مصابيح معسكر الحلفاء وقد رابطوا فى قلب المدينة وأخذ جنودهم يحيون الليل بالهتاف والغناء وأنغام الأناشيد .

فوقف برهة يرسل نظراته الملتهبة فى ظلمات ذلك الليل ثم انكفأ قائلا :

— لنركب إذن إلى فونتنبلو Fontainbleau !

الفصل الثامن

النزول عن العرش

أشرق فجر يوم اول ابريل سنة ١٨١٤ على فارسين محزونين ظللتهما الكآبة وأثقلت قلبهما الهموم يسير أحدهما نحو باريس ويسير الآخر نحو فونتنبلو . فأما فارس باريس فكان كولنكور وزير خارجية نابليون . ورسوله الى القيصر بعث به اليه لعله يستطيع إقناعه بوجوب الاحتفاظ بعرش فرنسا لنابليون والاكتفاء باملاء شروط الصلح التى ترضى أوربا وأما فارس فونتنبلو فكان نابليون نفسه قصد إلى قصره فيها ليكون قريباً من جنوده الذين تراجعوا عن باريس ولينتظر ريثما يأتيه الرسول بما يستقر عليه رأى الحلفاء فى امره .

وقد استطاع كولنكور ان يصل الى باريس وان يتصل بالقيصر . بل لقد استطاع ان يكسب القيصر إلى صف مولاه على الرغم من كل ما كان بينهما . ولكن القيصر لم يخف عن كولنكور ما كان الحلفاء يضمرونه لنابليون فكاشفه بعزمه

على إعادة البربون . بل لقد كاشفه أيضاً بما كان يضمره الغلاة منهم له إذ كانوا يعتزمون القبض عليه اولا ثم نفيه الى اقصى الأرض . غير انه وعد بأنه سيعترض هذه الفكرة ما إمكنه الاعتراض . وطلب اليه ان يعجل فى العودة الى فونتنبلو ليقنع نابليون بالنزول عن العرش لولده ملك روما لعله يستطيع بذلك ان يحصل من الحلفاء على قبول هـــذا التنازل والاكتفاء به فسأل كولنكور :

— ولكن ما ذا سيكون مصير الأمبراطور نفسه فى هذه الحالة ؟ فأجابه القيصر :

«اطمئن فأنت تعرفنى تمام المعرفة . ولن اسمح بتقرير اى امر فيه مساس بالأمبراطور . فأسرع الى فونتنبلو وعد إلى بهذا التنازل» !

وعاد كولنكور والأسف يأكل فؤاده على ان سوء حظه جعل من نصيبه ان يقوم هو بهذا الواجب الخطير . واجب مطالبة نابليون بالنزول عن العرش . على ان كل ما كان يعانيه كولنكور بهذا السبب من الآلام النفسية القاسية لم يشفع له عند نابليون حينما وقف منه على فحوى رسالته فانفجر فيه كما كان دأبه ان يفعل حين يهتاج فما كان من

كولنكور ايضاً إلا ان صاح به :

« أنت يامولاى لاتعرف الرحمة فأن الصدمة التى يحسها قلبك الآن قد فطرت قلبى قبل أن تصل الى فؤادك . ولقد قضيت ثمانية وأربعين ساعة اتلوى تحت وقعها قبل أن أتقدم اليك ! »

فانهزم نابليون أمام هذه الكلمات ولكنه عاد يهدد بجنوده ومدافعه ويتكلم عن الزحف على باريس والانتصار على الحلفاء واثارة خواطر الشعب عليهم وطردهم من بلاده وكان يطمع فى مؤازرة مجلس الشيوخ له اذا ما خذلته بقية هيئات الحكومة لانه كان أطوع اداة فى يده طوال السنين الماضية كما كان عليه اعتماده فى كافة ما أحدثه من التشريعات الاستثنائية والانقلابات . غير أن رياسة هذا المجلس كانت قد آلت أخيراً الى « تاليران » داهية فرنسا الذى أقصاه نابليون من مركزه فى وزارة الخارجية لما آنس فيه من الاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأى . فكان ذلك سبباً فى نكبة جديدة نكب بها نابليون فى هذا الظرف الدقيق اذ استطاع تاليران أن يحمل المجلس على تقرير خلع الامبراطور. واقامة حكومة مؤقتة بدل حكومته ريثما يتم الصلح مع الحلفاء .

فلما فوجىء نابليون بهذا القرار عول على رد كيـــد هؤلاء المتخاذلين فى نحورهم فقام باستعراض جنوده الباقين . وعقد اجتماعاً عاماً فى فونتنبلو من سراتها وكبار القواد فيها ليضعوا من القرارات ما ينسخ أثر قرارات مجلس الشيوخ من أذهان الشعب بيد أن القرار الوحيد الذى قبل هؤلاء النـاس أن يعلنوه هو أن كل شىء قد ضـاع وأنه لم تبق أدنى فائدة فى المقاومة .

عند ذلك سقط فى يد نابليون وانسحب الى غرفته وقضى بضع ساعات اليمة وهو يقلب وجوه الرأى ويلتمس الهداية فى هذه الظلمـات التى أطبقت حواليه فلم ير بدا من الأخذ بنصيحة القيصر ولذلك أرسل يستدعى كولنكور وسلمه نص هذا التنازل :

(انه لما كان الحلفاء قد اعلنوا أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة فى سبيل عودة السلم الى أوربا فأن الامبراطور نابليون يعلن استعداده للنزول عن العرش وترك فرنســا ومفارقة الحياة نفسها نزولا على حكم القسم العظيم الذى أقسمه للعمل على ما فيه صالح الوطن . وذلك من غير مساس بحقوق

ولده ووصـــاية الامبراطورة عليه والاحتفاظ بقوانين الامبراطورية)

صدر عن سرانيا بفونتنبلو فى ٦ ابريل سنة ١٨١٤

* * *

على أن كأس النحس التى أبت المقادير إلا أن يكرعها نابليون حتى الثمالة كانت لا تزال فيهـــا بقية . فان القائد مارمونت الذى كان لا يزال على رأس أكبر قوة فرنسية سليمة والذى كان يطمع نابليون فى جيشه حين كان يتكلم عن مهاجمة باريس وطرد الحلفاء منهـا جاء فى هذه اللحظة الرهيبة وانضم بجنوده الى الحلفاء أنفسهم . فانقطع كل أمل لنابليون فى النجاة . ولم يفت الحلفاء تقدير هذا العامل الجديد وهم يتفاوضون فقضوا أن لا بد من نزول نابليون نزولا مطلقاً لاقيد فيه ولا شرط ولم يكن لهذا من معنى إلا التصميم على إعادة البربون إلى فرنسا .

فعاد نابليون فى بادىء الأمر الى هياجه وثورته . وعاد يهدد بأنه يستطيع أن يثير كل فرنسا على هؤلاء الذين جاءوا ينكرون على الفرنسيين حقهم فى اختيـــار مليكهم والذين يريدون اكراههم على قبول ملك خلع الشعب أسرته وبلغ

من سخطه على أفرادها أن قطع رأس آخر واحد منهم كان يلى شئونه وألقاه للغوغاء .

وكان ما يزال حول نابليون فى ذلك الوقت جماعة من القواد المخلصين الذين لم تفتنهم دعوة الحلفاء ولم يميلوا اليهم مع المائلين . فدعاهم نابليون اليه ثم قال لهم :

— « لقد قدمت للحلفاء إقرار نزولى عن العرش . ولكنهم اليوم يطالبوننى باقرار نزول أسرتى كلها . أنهم يريدوننى أن أخلع زوجتى وولدى وكل من ينتمى الى دمى . فهل تسمحون بذلك . ان لى من القوة ما يمكننى من اختراق الصفوف التى تحيط بى . انى أستطيع أن أصل الى أطراف فرنسا وأثيرها كلها . إنى أستطيع أن أزحف على ايطاليا وأقيم بكم هناك امبراطورية أخرى . فاذا طلبت اليكم ان تتبعونى أفلا تفعلون ! »

على ان احداً من اولئك القواد لم يفتح الله عليه بكلمة يقولها ردا على هذه الدعوة الحارة وتشجيعاً لتلك الروح النبيلة التى قادتهم عشرين عاما فى ميادين العزة والمجد بل بقى الجميع فى برود مطبق يقلبون عيونهم ولا يحركون لسانهم .

ولم يستطع كولنكور اخفاء عواطفه ازاء هذا الجمود

العجيب . فهم بالانصراف من الغرفة . ولكن نابليون أدرك مغزى حركته فاستوقفه ثم جلس فجأة إلى مكتبه فى الغرفة وخط عليه هذه الكلمات السريعة الملعثمة التى يرى القارىء صورتها على الصفحة المقابلة والتى ضمنها نزوله المطلق عن عرش فرنسا

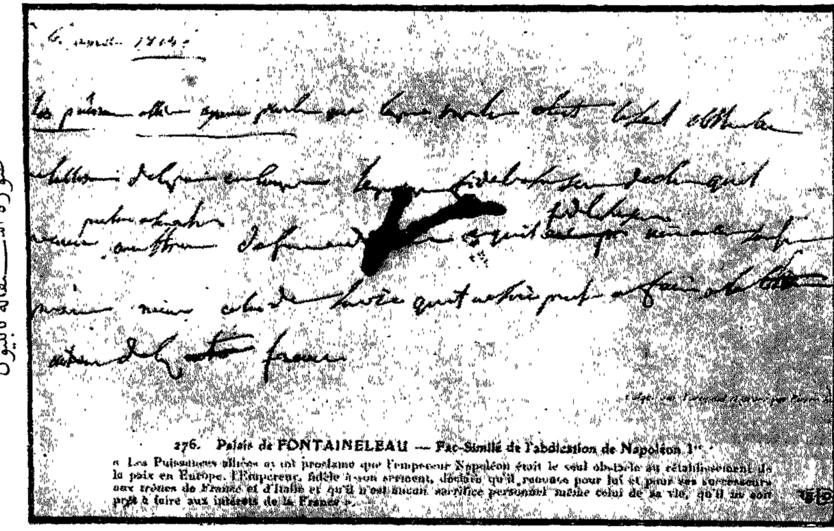
ثم سلمها الى كولنكور وبعد ذلك حول نظره الى جماعة القواد قائلا :

— « أيها السادة ! أريد أن أكون وحدى ! »

فلما خرجوا من حضرته نظر برهة الى كولنكور ثم قال :

— « ان هؤلاء الناس لا قلب لهم ولا ضمير . انى لم تهزمنى الحوادث بقدر ماهزمتنى أنانية هؤلاء الرفاق ونكرانهم للجميل . والآن قد انتهى كل شىء . فدعنى ياصديقى وانصرف أنت أيضا ؟ »

صورة اســـتقالة نابليون



276. Palais de FONTAINEBLEAU — Fac-Similé de l'abdication de Napoléon 1er.

« Les Puissances alliées ayant proclamé que l'empereur Napoléon était le seul obstacle au rétablissement de la paix en Europe, l'Empereur, fidèle à son serment, déclare qu'il renonce pour lui et pour ses successeurs aux trônes de France et d'Italie et qu'il n'est aucun sacrifice personnel même celui de sa vie, qu'il ne soit prêt à faire aux intérêts de la France ».

الفصل التاسع

وداع فونتنبلو

كان يوم اعتزال نابليون الملك يوماً عظيما فى تاريخ الملكية فان ملوك أوربا بعدأن حاربوا رجال الثورة ٢٢ عاماً تمكنوا فى آخر الأمر من دخول باريس. وردلويس الثامن عشر الى عرشه الذى استحقه بحكم مولده والذى استوى عليه نابليون حينا من الدهر بارادة الشعب .

وفى ١١ ابريل سنة ١٨١٤ انتهى هؤلاء الملوك من مفاوضاتهم ومناقشاتهم وفرغوا من وضع المعاهدة فى صيغتها الأخيرة فتقرر فى نظير قبول نابليون النزول عن عرش فرنسا بلاقيد ولا شرط :

١) أن يستبقى الامبراطور نابليون والامبراطورة مارى لويز لقبيهما

٢) ان تستبقى ام نابليون وأخوته وأخواته ألقابهم كأمراء واميرات فى اسرة بونابرت

٣) ان يمنح نابليون مُلكَ جزيرة إلبا وان تدفع له الخزانة الفرنسية فوق ذلك مرتبا سنوياً قدره مليونان ونصف مليون من الفرنكات

٤) وتمنح الامبراطورة دوقية پارما وولايتين أخريين تنتقل مِلكيتها جميعا الى ملك روما بعد وفاتها .

٥) رتبت مرتبات اخرى لأمراء الأسرة كلهم وخصصت مقاطعات فى فرنسا لتقوم ايراداتها بسداد هذه النفقات .

٦) خول لنابليون الحق فى ان يستصحب معه الى مملكته الجديدة حرسا قوامه ٤٠٠ رجل ممن يقبلون التطوع لمرافقته والسفر معه .

وأرسلت هذه الشروط الى نابليون ليصادق عليها فى ظرف يومين ويقول بعض المؤرخين ان نابليون ضاقت به الدنيا فى بحر هذين اليومين حتى انه فكر فى الانتحار ويروون فى ذلك روايات يعززونها بالشواهد ويقول بعضهم : « انه بلغت به خيبة الأمل الى حد عقد معه النية على امر حاسم فنام تلك الليلة قبل الساعة التى اعتادها وترك باب الغرفة مفتوحا قليلا . وقد نام الخادم « هوبر » على عتبته ونام « كونستان » فى غرفة مجاورة . فلما انتصف الليل نادى

الخادم وطلب اليه أن يشعل النار ثم أمره بالانصراف . فذهب هوبر ولكنه لم ينم لريبة فى نفسه بل أخذ يراقب مولاه من شق الباب فرآه يمشى طولا وعرضا ثم يجلس ويكتب على ورق ثم يمزق الورق ويلقيه فى النار وبعد حين رأى الامبراطور يتناول مسحوقاً من إحدى حقائبه ويذيبه فى الماء ويتجرعه فخاف وأسرع فأخبر كونستان وعاد معه ودخلا بلا استئذان على مولاهما فوجداه فى حالة تهيج شديد وسرعان ما انتشر الخبر فى القصر أن الامبراطور قد شرب السم فأنيرت الغرف وقطع سكوت ذلك الليل وقع أقدام الخدم جيئة وذهاباً . وأقبل الطبيب إيفان Evan ومعه كبار الضباط فوجدوا الامبراطور شاخص العينين جامد النظر . أما هو فالتفت الى إيفان وابتدره بهذه الكلمات .

— إيه إيفان ! لقد أعطيتنى سما لا يفعل !

فاضطرب إيفان وخاف أن يفهم من ذلك أنه أراد تسميمه . فترك الغرفة ونزل السلم مسرعاً وذهب الى الاسطبل فامتطى جواداً . وانطلق به الى باريس ! »

ويقول آخرون أنه تأثر كثيراً من خيانة زملائه له وزاد تأثيره عند ما عرضت عليه شروط الحلفاء . فاظلمت الدنيا

فى عينيه وأراد أن يسم نفسه فتناول علاقة السم التى كانت فى عنقه منذ سنوات ولكن الطبيب ما لبث أن جاء مسرعا عند ظهور أعراض السم عليه فأنقذه ولما أفاق قال لكولنكور:

« لم يشأ الله أن أموت ... وليس فقدى للعرش هو الذى جعل حياتى لا تطاق فأن أعمالى الحربية تكفى لمجدى . أتدرى ما حمله على النفس أثقل من تقلبات الحظوظ . أتدرى أى شىء يفطر القلب .. .ذلك هو دناءة الناس وفظاعة جحودهم ... وهذا الذى جعلنى أكره الحياة وأنفر منها ... ألا إنما الموت راحة ! »

هذا ما يقول بعض المؤرخين عن محاولة نابليون الانتحار تحت تأثير هذه الصدمة الأخيرة . والواقع الذى لا شك فيه أنه كان فى حالة ذهول عميق على رغم أعصابه وما اشتهر عنها من الصلابة . والمتانة . والقوة . والسلامة . وقد جعله هذا الذهول فى شبه غيبوبة حتى لقد كان يرسل فى طلب أحد الناس . فاذا أتى لبث نصف ساعة دون أن يوجه اليه الخطاب وذكر خادمه الخاص انه كان ساعة لبسه وزينته صامتا لا ينبس ببنت شفه .فاذا عرض عليه أن يشرب الدواء كعادته فى مثل ذلك الوقت لم يكن يجيب بل لم يكن يظهر على ملامحه

أنه سمع كلام الخادم . وكان كل يوم يزداد حزنا وميلا الى الوحدة . وكانت الرسائل التى ترد عليه من باريس تسبب له هياجا خاصا حتى انه أنشب يوما اظافره فى فخذه وأسال الدم منه دون ان ينتبه .

وليس يبعد ان يكون نابليون قد فكر حقاً فى الإنتحار وهو يعانى آلام هذه المحنة المنكرة وقديما قيل :

يقضى على المرء فى ايام محنته * حتى يرى حسناما ليس بالحسن

على ان بعض المعجبين به يصرون على نفى هذا الخبر ويؤكدون انه بقى على عادته ينفر من فكرة الانتحار حتى فى هذا الوقت العصيب وينسبون اليه انه قال فى هذا المقام :

« إن من الناس من ينتحر لأسباب غرامية فيالها من حماقة ! وان منهم من لا يستطيع العيش إذا لحقه العار. فياله من ضعف! أما من كان فى الناس ملكا ثم فقد عرشه وخسر تاجه وظل يحمل عبء الحياة وهو عرضة لشماتة نظرائه وطعن زملائه . فتلك هى الشجاعة الحقة وذلك هو الخلق العظيم ! »

* * *

ووقع نابليون المعاهدة فى موعدها . وتحدد ظهر يوم ٢٠ ابريل للسفر إلى إلبا . فلما حل ذلك اليوم ودنت ساعة

الرحيل . اصطف جنود الحرس الامبراطورى فى فناء قصر فونتنبلو ليرفعوا تحيتهم الأخيرة الى مولاهم قبل سفره الى منفاه . واجتمع أهل الجهات القريبة كلهم ليشتركوا فى هذا المشهد الرهيب . . .

وأخيراً خرج نابليون من غرفته وأخذ سمته نحو سلم القصر فلم ينزل منه بضع درجات حتى لمحت عينيه صفوف الحرس وقد اصطفوا لاستقباله الاستقبال الاخير . فوجم لمرآهم وثبت فى مكانه فوق السلم برهة كأنما خانته قواه ولكنه تشدد وجال ببصره فى تلك الصفوف وفى جموع الناس الذين احتشدوا من ورائهم خارج القصر ثم استأنف المسير وعند ذلك قرعت الطبول ونفخت الأبواق تحييه بسلامه الامبراطورى ولكنه أشار إليها بيده إشارة السكوت . فتعلقت الأنفاس وثبتت فوق شخصه الضئيل انظار المجتمعين وإذ ذاك تقدم اليهم وقال بصوت ثابت النبرات واضح المخارج:

« ايها القواد الأبطال . ويارجال الحرس الصناديد . أودعكم الوداع الأخير ! لقد انقضى عشرون عاماً لم أركم فيها الا فى طريق المجد والشرف ولقد ظللتم فى أيام محنتنا الأخيرة كما كنتم دائماً فى أيام اقبالنا الأولى من الشجاعة

والشهامة والولاء. وما كنا لنخسر قضيتنا ومعنا أمثالكم. ولكنا خشينا أن ينتهى بنا ذلك الى حرب أهلية تذهب بسعادة فرنسا ورفاهتها فلم نتردد فى تضحية مصالحنا أملا فى الاحتفاظ بصالح الوطن. والآن أفارقكم أيها الاصدقاء ونصيحتى الأخيرة لكم أن تكونوا مخلصين لمليككم الجديد الذى قبلته فرنسا.... فالوداع يا أبنائى.... ولكم كنت أود أن أضمكم جميعاً الى صدرى ولكنى اعانقكم فى شخص قائدكم هذا :...

وتقدم قائد الحرس نحو الامبراطور فطوقه بذراعيه وأجهش بالبكاء فسرت فى صفوف الحرس من خلفه عدوىّ تأثره وعلا ضجيج الجنود وزاد فى ألم الموقف أن دعا نابليون بحامل العلم قائلا.

— « هات هذا العلم حتى أقبله ! » فتقدم اليه الرجل بالعلم وعلى رأسه النسر — وهو الرمز المجيد الذى اختاره نابليون لجنوده — فقبله نابليون فى فمه الفضى ثم ضم العلم الى صدره قائلا:

— « أيها النسر العزيز ! لِتَدُمْ الى الابد هزة هذه العناقة الأخيرة فى قلب كل جندى من جنودى المخلصين.. الوداع مرة أخرى يارفاقى... الوداع ! »



وداع الجند فى فونتنبلو

الكتاب الخامس

المَنْفَى

الباب الأول : إلبـــا
« الثـانى : حكومة الأيام المائة
« الثالث : سنت هيلانة

ألباب الاول : إلبـــا

الفصل الأول ـ ملك إلبــا

« الثـانى ـ البربون فى فرنسا

« الثالث ـ عودة نابليون الى فرنسا

الباب الأول

إلبـــا

الفصل الأول

ملك إلبـــا

خرج نابليون من قصر فونتنبلو قاصداً مينا فريجو Frejus ليبحر منها الى مملكته الجديدة . وكان يصحبه فى رحلته بعض أعوانه.وأربعة من مندوبى الدول المتحالفة لحراسته فى الطريق ولكنه ماكاد يغادر رجاله فى القصر ويشق طريقه وسط الجماهير حتى أحس إحساساً عملياً بأنه انتقل من حال الى حال ذلك لأن شعور الناس نحوه كان قد بدأ يتحول تحت تأثير الدعاية القاسية التى كان يبثها الحلفاء ضده وتحت تأثير النكبات المتتالية التى من شأنها أبد الدهر أن تصرف الناس عن صاحب البأساء .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

فلم تكد تبرح عربته تلك المقاطعات الشمالية فى فرنسا حتى رأى من مظاهر العداء ما كان انكى لنفسه وأدمى لفؤاده من كل ما أصابه من الصدمات اذ اجتمع الغوغاء حول عربته وأخذوا يسبونه ويلقبونه بالغـــول الكورسيكى وبالجائر الغشوم . واندفع بعضهم الى المركبة فتشبث بدواليبها . أما الجبناء من القوم فكانوا لا يجسرون على الاقتراب منهـــا واكتفوا برجمها من بعيد

وكانت تتزايد شدة الناس عليه كلما أوغل الموكب فى طريقه . وذلك لسيادة الروح الملكية منذ القدم على أهـل الولايات الجنوبية . ويروى أن المرحلة الأخيرة من هذا السفر كانت من الخطر بحيث خشيت حاشية الإمبراطور عليه من الموت . فألح رجاله عليه بوجوب التنكر فى زى خادم ليتمكن من قطع بقية الطريق بسلام . ويزيد الرواة على ما تقدم أنه نزل على إرادتهم ولبس ملابس أحد الخـدم الذين كانوا يسيرون أمامه ثم أخذ يعدو أمام المركبة !

ومهما يكن من أمر هذه الرحلة وما صادفه فيهـا نابليون فأنه نجا منها على كل حال ووصـل سالما الى Frejus ـ ذلك

الثغر الذى لقيه باسما عند عودته من مصر. فأسلمه الى منصب القنصلية ثم الى عرش الامبراطورية . والذى قدر له أن يعود اليوم فيلفظه الى إلبا شهيد نبوغه وكفايته وطريد تلك الأمة التى لم تبلغ من المجد فى كل تاريخها مثل ما بلغته على يديه .

وفى ليلة التاسع عشر من شهر ابريل أقلعت به المركب البريطانية — « the Undaunted » وكانت قد أعدت لنقله مركب فرنسية ولكنه رفض أن يسافر عليها تحت علم البربون ومما يجدر ذكره انه لم تمض عليه ساعات على ظهر تلك المركب البريطانية حتى كان قد فتن ركابها بلطف حديثه واستولى على البابهم بجاذبيته بل ان البحارة أنفسهم الذين كانوا يتلقنون من حكومتهم كل القبائح الواجبة فى حق نابليون ما لبثوا أن غيروا رأيهم فيه فأنسوا اليه وأحبوه وأصبح من المألوف أن يميل أحدهم على صاحبه فيقول له :

"Bony" is a good fellow, after all !

أما جزيرة إلبا فلم تكن تبعد عن فرنسا اكثر من مائتى ميل. وقد وصلها نابليون بعد رحلة خفيفة استغرقت نحو خمسة أيام فاستقبلته حامية بورتو فراجو Porto Ferrajo عاصمة

ملكه الجديد باطلاق مائة مدفع تحية لقدومه. على أنه لم يتورط بتلك التحية الملكية ووقف يشرف على نقل (عفشه) الى الرصيف ويشترك بنفسه أحياناً فى انجاز تلك العملية كأنه سائح بسيط. وما كاد يفرغ من ذلك حتى أمر بجواده فامتطى صهوته. ومضى يعاين « امبراطوريته الجديدة » . فلم يسر غير بعيد حتى وجد نفسه فوق ربوة عالية تشرف على أطراف الجزيرة كلها. ولم تكن تزيد على ١٦ ميل طولا فى عرض تتراوح بين ميلين و ١٢ ميلا . أما عدد السكان فكان ١٣ ألف نسمة . فوقف نابليون برهة يقلب عينيه فى أطرافها ثم ما لبث أن قال باسماً:

« الواقع ان امبراطوريتى هذه يغلب عليها الصغر ! »

ولم يمض على نزول نابليون فى إلبا يومان حتى كان قد زار كل مكان فيها وحتى كان قد رسم مشروعاته الكثيرة لاصلاحاتها ورفع مستوى المعيشة فيها فبعد أن درس معادنها . وملاحاتها. وكرومها . وغاباتها . وموانيها . وحاميتها بدأ يشق الطرق فيها ويحفر القنوات . ثم أنشأ فيها مستوصفاً لعلاج المرضى وأخذ يعمل فى تنمية موارد الثروة فيها بتحسين حال الملاحات ومصايد الأسماك . وكان بجوار إلبا جزيرة أخرى صغيرة مهجورة لا حياة فيها كان يأوى اليها قرصان البحر . فقرر نابليون أن

يرسل اليها جماعة من رجاله ليستولوا عليها ويحصنوها فى وجه أولئك القرصان . ثم ابتسم لرفاقه قائلا :

« سوف تقول أوروبا أنى بدأت سلسلة فتوحاتى من جديد ! »

وبدأ يستشعر نابليون شيئاً من اللذة فى مقامه الجديد . وعول على أن يشغل وقته بكتابة مذكراته — «واعطاء صورة واضحة عن نفسه للعالم الذى لم ير منه قط الا صورة جانبية (Profile) » — كما كان يقول .

على أنه كان فى الواقع أبعد الناس عن أن يحقق مثل هذه الغاية . فان حركته الدائمة لم تكن تترك له سبيلا الى الجلوس والكتابة . اذ كان يخرج كل يوم قبل الفجر على ظهر جواده . ويسير فى انحاء الجزيرة مخترقا سهولها وحزونها مستطلعاً مخابئها وخوافيها حتى ضج منه المندوب الانجليزى القائم بمراقبته وكثيراً ما تململ شاكيا من أن « نابليون لا يجد لذة الا فى إنهاك قوى من يرافقه . »

اما الامبراطور فكان كل نشاطه منصباً على تحسين حال الجزيرة كما أسلفنا . فانقلبت بعد حلوله فيها كقفير النحل تعج بالحركة عجا ولم تكن تسمع فيها بعد ذلك اليوم الاقرع المطارق

بين هدم و بناء . «وقد صدرت أوامره الى كل جانب بتطهير البيوت والثكنات وتنظيف الطرق والشوارع والزام السكان بوضع الأقذار فى آنية خاصة تفرغ فى الليل. ومعاقبة من يطرح من بيته شيئاً فى الشارع . ومنع كل غريب من دخول الجزيرة قبل أن يكشف عليه طبيا للتحقق من سلامة جسمه من الامراض . وأمر بتجفيف المستنقعات وتنقية مياه الشرب وتشييد أحواض كبيرة يخزن فيها الماء لأيام الحاجة. فانتعشت الجزيرة بعد الموات وازدهرت فيها الحياة وذاق السكان للمرة الاولى طعم العيش الرغيد [١]»

وفى صيف ذلك العام (يونيه سنة ١٨١٤) سافرت الى إلبا والدة نابليون تصحبها اخته پولين Pauline وقد ملأت الغبطة قلب ليتشيا لما رأت ولدها يعيش هادئاً هانئا فى تلك الجزيرة الوادعة وشعرت بالسعادة الحقيقية لاطمئنانها عليه فى هذا الوسط البعيد عن مخاطر الحروب والمؤامرات .

وكان نابليون ينتظر وصول زوجه مارى لويز أيضاً وولده «ملك روما» من يوم الى يوم ولم يكن يهيج خواطره فى عزلته الهادئة الا شوقه اليهما وقلقه عليهما. وقد كتب عدة

---

(١) كتاب « حول سرير الامبراطور » لمؤلفه الدكتور كابانيس

رسائل الى زوجه يستقدمها فيها ويتوسل اليها أن لا يحرمه من ذلك الهناء الذى لم يعد يطمع فى اكثر منه . ولكنه فى الوقت الذى كان يبكى فيه أمام صورة ولده شوقاً وحنيناً كانت زوجه ترمى بنفسها فى أحضان ضابط نمسوى أعور هو الكونت نيبرج Neipperg وتنسى بين يديه زوجيتها لنابليون وامومتها لملك روما ـ وواجبها كأمبراطورة وسليلة بيت من أكبر بيوتات اوربا الملكية هو بيت هابسبورج .

ويأبى القدر الساخر إلا ان يسوق الكونتس واليسكا فى هذه الظروف لزيارة نابليون فى منفاه . فاستصحبت ولدها (وقد بلغ الرابعة من عمره) . وسافرت اليه وهى ترجو ان تقضى بقية ايامها معه . ولكنه لم يستطيع استبقائها طويلا الى جانبه وهو ينتظر قدوم زوجته الشرعية بين كل صباح ومساء . فرحلت عنه بعد يومين اثنين لم يفارقها نابليون فى خلالها ليلا ولا نهارا . وكان هذا آخر لقاء بين الرفيقين .

الفصل الثانى

البربون فى فرنسا

لما قرر الحلفاء ابعاد نابليون عن فرنسا لم يكن ذلك تحقيقاً لرغبة الشعب — الذى كان معظمه مايزال يحب نابليون ويحنو إليه — ولكنه كان تحقيقاً لرغبة ملوك أوربا الذين كانوا يحاربون الديموقراطية فى شخص نابليون ويطاردونه ليطردوا من أذهان العامة مبدأ سيادة الأمة وأنها هى مصدر السلطات فليس غريباً بعد ذلك أن يسمع الانسان برواج تلك الصورة الكاريكاتورية الشهيرة التى انتشرت فى فرنسا عقب سفر نابليون والتى لم يكن يخلو منها بيت هناك — تلك الصورة التى تمثل سراى التويلرى وقد خرج منها نسر فخم يحلق فى الفضاء بجناحيه العريضين بينما يتسلل إلى أبوابها قطيع من الخنازير البرية . (إشارة إلى دخول البربون وخروج نابليون) .

ولقد ذكرنا أن نابليون حين سافر إلى إلبا كان قد نفض يده من شئون فرنسا كلها . وعقد النية على أن يحيا حياة جديدة

لا صلة بينها وبين فرنسا الا ما كان قد اعتزم تدوينه من المذكرات فكانت الفرصة واسعة أمام لويس الثامن عشر ليثبت أصول عرشه على قواعد جديدة تكون أكفل لبقائه من تلك التى كان يقوم عليها عرش أخيه لويس السادس عشر . ولم يكن الملك الجديد يعوزه الناصحون فى هذا الشأن . فقد تقدم إليه القيصر غداة عودته إلى باريس مبيناً له عن روح العصر الحاضر فى فرنسا . واختلافها عن روح العصر القديم ونبهه إلى ما استجد من المبادئ والأفكار فى المجتمع الفرنسى ثم نصح له بأن يقلع عن التمسك بنظرية الحق الالهى فى الحكم التى مؤداها أن الملوك قوامون على رعاياهم من قبل الله وأشار عليه أن يطلب إلى مجلس الشيوخ أن يصدر قراراً بتوليته العرش خلفاً لنابليون ليكون بذلك أقرب إلى قلوب العامة وعقولها فأن ارتقاء العرش الآن باسم الأمة أدنى إلى الاحتفاظ به من ارتقائه باسم أية قوة أخرى . ولكن لويس لم يجد ما يرد به على هذا النصح الحكيم إلا أن يسب الأمة ومجلس الشيوخ والمبادئ الحديثة وأن يجيب صاحبه بكل أنفة واستكبار قائلا :

— « وأى حق لمجلس الشيوخ — الذى لم يَعْدُ أن يكون اداة وشريكا لذلك الغاصب المجنون — أى حق له فى تاج فرنسا

ليتصرف فيه كيف يشاء ؟ هل هذا التاج ملك لمجلس الشيوخ ؟ وهل لو كان التاج ملكا للمجلس كان يرضى بوضعه على رأس فرد من اسرة البربون ؟ انى اؤكد لك انه لم يكن يفعل ! ولكنى استحققت هذا التاج عن اخى وعن ابن اخى اللذين قتلا فى سبيله . وان اوربا حين اعادتنى الى العرش لم تكن تعيد شخصاً بعينه او اسرة بعينها ولكنها كانت تعيد فكرة وتقر مبدأ .. وانت نفسك — ياصاحب الجلالة — بأى حق تحكم فوق اولئك الملايين الذين جاءوا بى هنا واعادونى الى عرشى تحت إمرتك ؟ »

فلم ير القيصر ازاء هذه الثورة إلا ان يترك الرجل يسير فى سبيله ويقول لنفسه : « انى قد بلّغت اللهم فاشهد »

وكان اول ماتقدم به لويس الثامن عشر إلى الشعب الفرنسى ان سن له دستوراً جديداً . ولكنه اعلن هذا الدستور على انه منحة منه الى الشعب . فكانت تلك اول صدمة لعقول الفرنسيين الذين ظلوا ٢٥ عاماً يقولون ان الأمة هى التى تمنح رئيسها حقوق الرياسة وانها هى التى تأذنه بالاشتراك معها فى الحكم .

على ان لويس ما لبث ان ندم حتى على هذا الدستور .

وعادت فتملكته نزعة آبائه واجداده وتكاثرت حوله العناصر الرجعية من المهاجرين الساخطين والملكيين المتطرفين حتى اضطر فى النهاية إلى العدول عن اعتداله النسبي والى الأخذ بأساليب انصاره العنيفة التى كان من شأنها القضاء على كل ما تشتم منه رائحة امبراطورية نابليون . ولم تمض شهور الا وقد عادت الى فرنسا كل مساوىء العهد الماضى . فاستولى المهاجرون الذين عادوا مع الملك على كل مرافق الدولة الرئيسية وحُرِّمَ ذلك على عامة الفرنسيين واعيدت الى الأشراف امتيازاتهم فكانوا يتمتعون بايراد الدولة ولا يقومون بشىء من تكاليفها . واهمل انصار العهد الامبراطورى فى اول الأمر . ثم ابعدوا عن وظائفهم واحداً بعد واحد . وحل محلهم شبان من الأشراف لا فضل لهم الا كرم المحتد ورفعة النسب . وسرحت الحكومة الجديدة فرق الحرس الوطنى واحلت محلها فرقاً جديدة من المرتزقة السويسريين . وسقط علم الثورة المثلث الألوان وارتفع مكانه العلم الأبيض الملكى والغيت قوانين الامبراطورية واستبدلت بها قوانين جديدة جعل تاريخ اول واحد فيها «العام التاسع عشر من حكم ملك فرنسا لويس الثامن عشر »

ولم يكن لكل هذا من معنى إلا انكار وجود الامبراطورية

اصلا . واعتبار عهدها حلماً من الأحلام . وانتشر الجواسيس يترصدون رجال الدولة البائدة . ويوقعون بهم حتى أصبح الناس ينكبون فى أموالهم وأعمالهم بسبب انتمائهم الى هذه الدولة ونشأتهم فى عهدها الغابر

وكان من الطبيعى أن لا يستسلم الشعب الفرنسى لكل هذه المظالم التى ثار من أجلها ثورته الأولى . وزاد فى سخطه على هذه الحكومة الجديدة أن رآها تتخلى للحلفاء عن عشرات المعاقل والحصون التى كانت لا تزال فى يد الفرنسيين وعن شىء كثير من الذخيرة والسلاح ثم عن بلجيكا نفسها وعن كل ما كانت فرنسا قد ربحته منذ أيام الثورة الأولى . وكان من الطبيعى أيضاً أن يعود الحنين إلى نابليون فيحل فى تلك القلوب التى كانت فى أيامه الأخيرة قد بدأت تتذمر من دكتاتوريته . وكان من اهم العوامل التى ادت الى هذا الانقلاب انتشار جنود نابليون الذين سرحتهم الحكومة فى انحاء فرنسا وتنويههم بمحاسن العهد الماضى وتنديدهم بمساوىء العصر الحاضر . مما جعل الناس يترحمون على نابليون وايامه ويتمنون لو هيأت لهم العناية نابليوناً آخر ينقذهم من هذا الذى ألم بهم كما أنقذهم من مساوىء العهد الأول نابوليونهم القديم .

اما نابليون نفسه فقد كان كما اسلفنا يعيش هادئاً هانئاً في جزيرة إلبا منصرفاً الى مهامها وشئونها . ولكن اخبار الاستياء الذى عم الفرنسيين من حكومة البربون ما لبثت ان تسربت إليه . فلم يعرها فى اول الأمر جانباً عظيماً من اهتمامه . . ولكنها اخذت تتزايد . واصبحت تصله تلك الأخبار مصحوبة بحنين الناس الى عهده وحكومته فبدأ يلقى باله الى فرنسا ومصائر الأمور فيها . ثم قطعت عنه حكومة فرنسا مرتباته التى قررتها له معاهدة فونتنبلو فزاد ذلك فى سخطه عليها . ثم مالبث ان علم بأن الحلفاء قد دب الخلاف فيما بينهم بسبب تضارب مطامعهم وتصادم صوالحهم الشخصية . وأن بعضهم قد اقترح تلافياً لخطر الموقف استبعاد نابليون من إلبا الى سنت هيلانة لتكون أوربا فى مأمن منه لاسيما بعد ما تبين من اتجاه ميول العامة فى معظم الدول الأوربية اليه .

وكانت پولين Pauline أخت نابليون قد تمكنت من القيام بسياحة قصيرة فى أوربا اتصلت فيها بكثير من الأقطاب . ثم عادت تؤكد لأختها صحة كل ما كان يصله من التقارير السرية عن توتر الحالة فى فرنسا وتأهب الشعب للانقلاب على حكومته اذا ما عاد اليهم مليكهم وزعيمهم القديم .

فلم ير نابليون ازاء كل هذه الظروف الا أن يخرج من عزلته ليقوم بعمل حاسم قبل أن يدهمه الحلفاء على الأقل بمثل هذا الاقتراح الخطير الذى أرادوا به اسقاطه مرة أخرى واخراجه من ملكه الجديد .

الفصل الثالث

عودة نابليون إلى فرنسا

فى السادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨١٥ أولمت Pauline اخت نابليون وليمة فاخرة فى إلبا دعت بها ضباط الحرس الأمبراطورى وهيئة اعيان الجزيرة. وحضر نابليون هذه الوليمة وظل المدعوون فى قصف ولهو الى ساعة متأخرة من الليل.

وحوالى منتصف الليل انسحب نابليون ودعا اليه قائديه Bertrand ودرويه Drouet. فلما اختلى بهما قال لهما: — « سنرحل عن هذه الجزيرة غداً. فأريد ان تحجز السفن التى فى المينا كلها ولا ينبغى ان يسمح لمركب واحدة بمغادرة المينا قبل ان نغيب فى جوف البحر. ولست احب ان يقف احد غيركما على هذا البيان! ».

فانصرف الضابطان من حضرته وقضيا بقية ساعات الليل فى تنفيذ هذه التعليمات.

وفى الليلة التالية جلس نابليون كعادته يلعب الورق مع بعض رفاقه ثم ما لبث ان وقف فجأة ثم خرج الى حديقة المنزل ينشد العزلة ولكن امه لحقت به تحت شجرة تين هناك وقد رابها منه شيء من القلق الخفيف لم يكن يخفى على مثل عينها اليقظة — فتردد نابليون فى الكلام اولا ولكنه مالبث ان قال :

— «اجل يجب ان اخبرك ولا اخفى عنك . . . ولكنى احذرك من افشاء ما اقول لك الى كائن من كان . . . ولا الى پولين اختى نفسها ! » — وبعد ان حدق فيها برهة قال لها بلهجة حازمة كما لو كان يوجه الحديث الى بعض ضباطه :

— ليكن فى علمك انى سأرحل الليلة !

— ترحل الى اى مكان ؟

— الى باريس! . . . ولكنى اطلب رأيك قبل كل شيء

وكان خبر الرحيل صدمة قاسية لقلب امه التى كانت قد بدأت تشعر بنعيم الحياة فى ظل هذا العيش الهادئ الأمين . ولكنها كانت فى الوقت نفسه تعلم بفطنتها انها لن تفلح فى ثنى ولدها عما اعتزم — فتجردت من عواطف امومتها لحظة وتقدمت اليه قائلة :

— « دعنى أنسى أذن أننى أمك . ولقد شاءت الأقدار أن لا تموت مسموماً . وقضت أن لا تفيض روحك وأنت فى هذه العزلة التى لا تتفق مع همتك . وأبت إلا أن تموت وسيفك مشهور فى يمينك . فأسأل الله الذى كتب لك السلامة فى ماضيك ان يحوطك بحمايته فى حاضرك ! »

٭ ٭ ٭

وفى فجر اليوم التالى خرج نابليون فى الف من رجاله المخلصين فركبوا البحر . واخذت الريح تزجى سفنهم نحو الشواطئ الفرنسية حتى غابت عن انظارهم جزيرة إلبا . وعند ذلك برز نابليون لجنوده الذين كانوا حتى هذه اللحظة لا يعلمون من امر رحلتهم شيئاً . فلما قال لهم ان وجهتهم فرنسا وانهم قاصدون الى باريس أدركتهم نشوة أذهلتهم عن خطورة الغاية التى يسعون اليها . وأخذوا يصيحون « لتحيا فرنسا وليحيا الأمبراطور ! » ثم ما لبثوا ان انقلبوا الى سلاحهم يصقلونه والى ملابسهم يصلحونها حتى لا تراهم فرنسا بعد غيبة عشرة شهور إلا فى أتم زينة وأبهى منظر .

ولقد صادف نابليون من التوفيق فى هذه الرحلة مثل ما صادف فى رحلته وهو عائد من مصر . فلقد أبصرت به

البارجة Zephyr (وهى احدى السفن الحربية الفرنسية) فى اليوم التالى من رحلته . وكان ذلك عند الغروب . فاتجهت نحو أسطوله الضئيل ولما اقتربت من سفينته وأصبحت على مرمى الصوت منهـا وقف ربانها على ظهرها وبوقه فى يده — كما هى العادة فى البحار — فتبادل مع ربان مركب نابليون بضع كلمات ثم سأله : « وكيف حال الأمبراطور ؟ »

فاختطف نابليون البوق من يد ربانه وصاح فيه :

« على غاية ما يرام ! »

ثم استأنفت كل سفينة سيرها بين جرجرة الأمواج وقهقهة الأقدار !

وكان نابليون قد أعد منشورات كثيرة ليوزعها على اهل فرنسا . فما هو ان نزل إلى الشاطىء فى أول مارس سنة ١٨١٥ حتى بدأ بتوزيع هذه المنشورات داعياً الأمة الى القيام لنصرته مهيباً بالجنود ان يلتفوا حوله ويجتمعوا تحت لوائه — « ليطير النسر الأمبراطورى من قبة الى قبة حتى يحط على ابراج نتردام فى باريس ! »

وكانت اول بقعة من ارض فرنسا وطئتها أقدام نابليون وجنوده عند « خليج جوان » — وهو نفس المكان الذى

نزل فيه عند عودته من مصر فخرج اليهم جماعة من الفلاحين يستطلعون أمرهم . وهم مايزالون يجهلون حقيقة حالهم. وكان من بين هؤلاء رجل سبقت له الخدمة تحت قيادة نابليون . فما هو أن وقعت عينه عليه حتى صمم على الالتحاق بفرقته. فنظر نابليون الى رفاقه باسما وهو يقول:

— « هذه يارفاقى أول دفعة على الحساب من المدد الذى توقعنا الحصول عليه من فرنسا . »

وواصل نابليون سيره بعد ذلك وهو ينتقل من بلد الى بلد فلا يزيده ذلك إلا قوة على قوة وتأييدا فوق تأييد حتى بلغ مدينة جرينوبل وهناك وقفت امامه أول قوة استطاعت أن تحشدها له الحكومة لتعترض بها طريقه . وكان الموقف دقيقا . وخشى أنصار نابليون أن تتبدد أوهامهم فى إمكان الوصول بسلام الى باريس . ولكن نابليون ظل يتقدم نحو صفوف الحكومة حتى اقترب منها . ثم أوقف جنوده القلائل وانطلق هو على ظهر جواده حتى أصبح على بعد خطوات منها. وكان اذ ذاك يلبس قبعته العريضة وبذلته الرمادية التى لم يكن يجهلها أحد من أهل فرنسا . فنزل عن جواده وسار الخطوات الباقية على قدميه . ثم كشف عن صدره قائلا: « أيها الجنود ! إن

كان بينكم من يريد قتل امبراطوره فهذا صدرى مفتوح له! ».
وكانت جرأة عجيبة أذهلت الجنود عن واجبهم الذى سيرتهم الحكومة من أجله . فنكس أحدهم بندقيته فتبعه ثان وثالث. ثم ما لبث أن وقف الجميع أمامه مشدوهين . وصاح صائح من جانب رجال نابليون قائلا :

— « ليحيي الأمبراطور ! »

فكأنما فك الطلسم الذى ختم على أفواه القوم فاندفعوا يضجون بهتاف يشق اطباق الفضاء — « ليحيي الأمبراطور» — وأحاطوا بنابليون يقبلون يديه ورجليه ويعانقونه . وانعكست الآية على البربون وتعززت قوة الأمبراطور بمن انضم اليـــه فى ذلك اليوم من جند الحكومة . فوالى زحفه يتقدمه طالعه السعيد . ويعززه هذا الروح الحى الشديد .

أما لويس الثامن عشر فقد تخاذل عندما بلغته طلائع هذه الأخبار المزعجة ولم ير أمامه إلا شقيقه الكونت دارتوا Comte d'Artois فوكل اليه أمر الدفاع عن المملكة والوقوف فى وجه نابليون ولكنه فكر أيضاً فى الماريشال ناى الذى أقسم يمين الولاء حديثاً للحكومة الجديدة والذى لا يقل فى كفايته وشهرته ومكانته بين رجال الجيش عن نابليون فاستدعاه



العودة من جزيرة إلبا

وافضى اليه بثقته التى لاحد لها واستودعه آماله وملكه قائلا :

« إنى لا أعتمد فى هذه الضائقة إلا عليك ؟ »

وكأنما صادفت هذه الكلمات الوتر الحساس من نفس الماريشال فألهته عن حقيقة الموقف وأنسته مقدار تعلق الشعب بنابليون وسخطه على الحكومة . وجعلته يندفع مؤكدا للملك وثوقه من النصر وأنه « سيضع نابليون فى قفص من حديد يجره به الى باريس ! »

وسافر ناى فعلا وهو على هذا الرأى . ولكنه ما لبث أن تبين الحقيقة وخاب أمله فى النجاح إذ رأى روح التمرد والعصيان سائدة على الجنود الذين باتوا يحنون الى امبراطورهم العظيم . ورأى نابليون يثير الحماسة أينما سار وتلهب طلعته النفوس حيثما حل . وما هو إلا أن يلوح للجماهير بيده أو أن يخاطبهم بكلمة من الكلمات التى يعرف كيف يتخيرها حتى تنطلق الألسنة هاتفة باسمه والأكف مصفقة له والأقدام جارية فى ركابه . وهو يتنقل بأتباعه من بلد الى بلد فى سرعة لم تبق فى نفوس الملكيين على أمل . وزاد فى حرج موقفه ما وصل الى علمه بعد ذلك مباشرة من ان مدينة ليون استسلمت لنابليون من غير قتال وأن الكونت دارتوا انسحب بغير

مقاومة وأن جزءً كبيراً من جيشه هجر المعسكر لينضم الى جيش الامبراطور وراجت فى نفس الوقت اشاعة مؤداها أن الملك قد هرب من باريس ناجيا بنفسه هو ومن لحق به من أعضاء البيت المالك .

وكان رسل نابليون يسبقونه الى المدن فينبثون فيها مروجين له . داعين الى الالتفاف حوله . فوفد بعضهم على ناى وهو فى هذا الموقف العجيب الذى وضعته فيه الظروف. وسلمه رسالة كان يحملها اليه من الجنرال برتران . فقرأ فيها ناى :

« إن المقاومة جهد ضائع فخير لك أن لا تحاول المستحيل. وان الامبراطور قد غادر جزيرة البا باتفاقه مع حكومتى النمسا وانجلترا . وأن هاتين الحكومتين رضيتا أن يعود الى عرشه بعد أن وضعتا واياه تسوية شاملة لجميع أنواع الخلاف التى كانت تجر الى الحروب والى تعكير صفو السلام فلا مجال اذن للخوف من أن يعود الأمبراطور فيجر فرنسا وراءه الى حروب لا نهاية لها . وأن الملك مورا صهر نابليون يسير فى طليعة جيش كبير يشد به أزر الجيش الأمبراطورى . فمن العبث اذن أن تعمد الى مقاومة مقضى عليها بالفشل . بل ان

من الأجرام أن نسوق فرنسا الى حرب أهلية لا تسيل فيها غير دماء الفرنسيين . »

وأحدثت الرسالة أثرها فى نفس ناى فلم يعد يرهق نفسه بتلك الاعتبارات التى كان يريد أن يتقيد بها لاسيما بعد أن رأى لويس الثامن عشر نفسه يبادر بالفرار هو وأهله مع أن بينه وبين نابليون مسيرة يومين كاملين .

وســـار الماريشال بنفسه الى بلدة أوكسير حيث التقى بنابليون فلما دخل عليه لاقاه بالعناق كأن عهد الملكية لم يفصل حيناً من الدهر بين الرجلين أو كأن عودة الملكية الى فرنسا ـ كما يقول بعض الكتاب ـ كانت قوسا فتح ثم أقفل ولم يترتب عليه شىء .

ولم يبق بعـــد انضمام ناى الى نابليون الا مواكب الاستقبال وحفلات الترحيب . التى كان يتبارى الشعب فى اقامتها لزعيمه المحبوب وأخيراً أشرف الامبراطور على باريس فخرج للقائه الباريسيون وحملوه على أكتافهم وذهبوا به الى قصر التويلرى فدخله نابليون دخول من غاب عن بيته أياما فى رحلة قصيرة ثم لم يلبث أن عاد اليه من جديد .

وليس أفكه فى هذا المقام من تتبع عبارات الصحف

وهى تروى أنباء عودة نابليون الى باريس . ونحن نورد هنا كلمات مقتبسة منها ليرى القارىء فيهـا سرعة التطور الذى كانت تتأثر به الأذهان فى ذلك الحين :

ـــ فر « الشيطان » من معقله وغادر منفاه . . . . . .

ـــ نزل اليوم « الذئب الـكورسيكى » فى مدينة كانـــ « Cannes » . . .

ـــ شوهد « النمر أخيراً فى كاب « Cap » . وقدسيرت الجيوش للقائه وسوف ينتهى الى أتعس ما تنتهى اليه حياة قطاع الطرق ورواد الجبال . . . .

ـــ تمكن « الوحش » من الوصول الى جرينوبل بفضل خيانة الجنود . . .

ـــ مر «الطاغية » بمدينة ليون والرعب سائدعلى الجميع...

ـــ تقدم « الغاصب » حتى لم يبق بينه وبين العاصمة الا ستين ساعة . . . .

ـــ يسير «بونابرت» بخطوات ماردة ولـكنه لم يدخـل باريس . . . .

ـــ سيكون « نابليون » غداً على أبواب المدينة . . . .

ـــ وصل حضرة « صاحب الجلالة » إلى فونتنبلو ؟

الباب الثانى

حكومة الايام المائة

١٩ مارس — ٢٢ يونيه سنة ١٨١٥

الفصل الأول : تغير نابليون

» الثانى : ووترلو

» الثالث : نابليون بعد الهزيمة

الفصل الأول

تغير نابليون

لما دخل الحلفاء باريس فى شهر مارس سنة ١٨١٤ ونزل لهم نابليون عن الملك عقدوا صلحاً مع فرنسا يعرف فى التاريخ باسم « صلح باريس » وقد سويت فى هذا الصلح العلاقات بين فرنسا من جانب والحلفاء من جانب آخر .. وكان الحلفاء أسخياء الى حد ما مع فرنسا . فلم يفرضوا عليها غرامة ما . ولم يحتلوا شيئاً من أرضها . بل إنهم تجاوزوا لها عن بعض فتوحاتها التى تمت لها فى عهد الثورة فقرروا أن تتمتع بحدود سنة ١٧٩٢ وهى تفضل حدود سنة ١٧٨٩ باشتمالها على أفنيون وبعض بلاد أخرى . وكان السبب فى كل هذا التسامح من جانب الحلفاء أنهم اعتبروا الحرب التى كانت تشغلهم حربا مع شخص نابليون لا مع

فرنسا . فلما اعتزل نابليون الملك لم يكن ثمت ما يدعو الى التشدد مع فرنسا نفسها .

ولكن الأمور ما كادت تستقر فى فرنسا على هذا الأساس حتى واجه الحلفاء بعضهم بعضا يطلبون تسوية الشئون المعلقة بينهم . فتقرر عقد مؤتمر جامع فى مدينة فينا للنظر فى تلك الشئون والعمل على تسويتها وايجاد حل لمشاكلها . وكان برنامج هذا المؤتمر فى الواقع لا يبشر بشىء كثير من النجاح . فأن الدول ما كادت تتخلص من نابليون حتى أسرع كل منهم يدعى أنه صاحب الفضل الأول فى ذلك ويطالب أصحابه بأن يكون نصيبه من الغنائم متفقاً مع جهوده وتضحياته . متناسباً مع حسن بلائه . وبرز قيصر الروسيا يقول لزملائه انه هو الذى كسر شوكة نابليون . فينبغى أن يجامله الحلفاء فى تنفيذ سياسته الاستعمارية فى الشرق . فانبرت له انجلترا تقول : بل انها هى التى تحملت ويلات هذه الحرب أكثر من أية دولة أخرى . وضحت على مذبحها بالنفس والنفيس . فلا يجوز أن يتقدم على نصيبها فى الغنيمة نصيب آخر . وقالت النمسا انها هى الضحية الوحيدة التى يجب أن تتنحى لها كل دول أوربا عن كل ما من شأنه أن يعيد اليها كيانها وسلطانها

وتقدمت بروسيا أيضاً بمثـــل هذا الـكلام ـ وكانت مهمة المؤتمرين فى فينا أن يتفاهموا على هذه الدعاوى المتنافرة وأن يقربوا بين وجهات النظر المتقابلة . فكانت فى الحق مهمة شاقة لا تدعو الى التفاؤل والاستبشار .

على أن الحلفاء لم يكونوا يحسون أن هناك ما يدفعهم إلى الاستعجال . فتباطئوا فى عقد هذا المؤتمر . ولما تقرر افتتاحه انقضت الأسابيع الأولى على انعقاده فى اقامة حفلات التكريم. وفى تهيئة الجو الصالح لحسن التفاهم . بتبـــادل الزيارات وعمل الرحلات . وأخيراً (فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٤) بدأ أعضاء المؤتمر ينظرون فيما بين يديهم من المشاكل الجدية . وانقضت أسابيع أخرى فيما أشرنا اليه من التناجذ والتنابذ . ولما اشتد تنافس المندوبين. وازداد تغاليهم فى مطالبهم وتعقدت بينهم الأمور بحيث لم يعد لأحد أمل فى تفريجها فوجئوا بخبر فرار نابليون من البا ووصوله الى باريس . فـكان ذلك هو الحل الطبيعى الوحيد الذى أعاد اليهم وفاقهم . والذى جمعهم مرة أخرى حول غاية واحدة ـ هى الوقوف فى وجه نابليون من جديد !

✡ ✡ ✡

وكان نابليون منذ عاد من البا قد أدرك أن فرنسا التى جاء يواجهها كانت غير فرنسا التى خلفها قبل سفره . وأن العهد عهد دستور لا يسمح بدكتاتوريته الأولى فأسرف فى الوعد بالأصلاح ومنح الحريات الدستورية فى كل نواحى العمل . ولم يفته أن دول أوربا سوف تتألب عليه مرة أخرى مهما حسنت نيته لهم ومهما سعى الى التفاهم معهم . فكانت مهمته الأولى أن يستعد للقائهم ويتأهب لدفع عدوانهم.

بيد أن نابليون نفسه كان قد طرأ عليه من التحول والتغير مثل ما طرأ على فرنسا . فلم يعد هو نابليون الذى غادر فرنسا منذ عام واحد فقط : إذ كانت الحوادث الأخيرة قد أثرت فى أعصابه فأرختها وأجهدتها . وأصبح بفضل هدوئه النسبى فى إلبا بدينا ثقيل الحركة لا يقدر على المشى ولا يستطيع الركوب . ويقول أطباؤه إن تجافيه للركوب فى مدته الأخيرة كان بسبب اصابته بالبواسير من جهة وتشنج المثانة من جهة أخرى . وهكذا بدأ الانحطاط يظهر على كل قواه . وأصبح يميل كثيراً إلى النوم . وهو الذى لم يكن ينام أكثر من اربع أو خمس ساعات كل يوم . وكانت تعرض له أشباح حوادث المستقبل بصور مخيفة لضعف أعصابه . فيتخيل فرنسا

مقهورة مغلوبة على أمرها فيرتعش لذلك بدنه . ويتألم فكره .
ولا يجد سبيلاً الى ابعاد هذه التخيلات إلا بالنوم . ولحسن
حظه أن النوم كان يواتيه فى مثل هذه المواقف التى ينفر
منها عادة ويتجافى عن العيون .

الفصل الثانى

ووترلو

نابليون يريد السلم :

كان أول ما فعله نابليون بعد عودته الى باريس أن جلس الى مكتبه فى قصر التويلرى . ثم أمر بأن تبسط أمامه خريطة فرنسا . ولم يكد يستقر بصره على حدودها الجديدة حتى قال :

— « مسكينة يافرنسا ! »

ثم التفت الى كولنكور قائلا :

« لقد ظللت طول الطريق أعلن عن عزمى على الاستمساك بالسلم . وأعرب عن استعدادى للاعتراف بشروط معاهدة باريس . فأقبل بذلك ما لم أقبله قبل رحيلي إلى إلبا . وذلك لأن فرنسا كانت ملزمة فى ذلك العهد بأن تقوم بتضحيات كبيرة . وها هى قد قامت بها فعلا . فلم يبق لمثلى إلا أن يقبل الحالة على ما هى عليه . »

وهكذا كان يغالط نابليون نفسه فى مبدأ الأمر فيتحدث عن إمكان التفاهم مع أوزربا من غير الدخول فى حرب جديدة وكان ذلك منه طبيعياً فانه لم يكن فى حالة تسمح له بالتفكير فى الحرب أو التهيؤ لها .

غير أن الحلفاء كانوا أكثر منه صراحة فى التعبير عن خواطرهم أزاء عودته الى فرنسا . فأنهم لم يترددوا فى اصدار القرار التالى فى أول جلسة عقدها «مؤتمر فينا» بعد أن وصلته أخبار هذه العودة .

— « إن ملوك التحالف يعلنون للعالم بمناسبة هرب نابليون بونابرت من البا وعودته الى فرنسا أنه خسر بهذا العمل حقه الوحيد فى البقاء كما أن عودته الى فرنسا بنية إثارتها وقلب نظامها قد حرمته حق التمتع بحماية القوانين. وجعلته فى نظر العالم أجمع بمنزلة لا يحق له معها ان يطمع فى صلح ولا أمان . وتعلن الدول بناء على ذلك أن نابليون بونابرت قد خرج بنفسه عن دائرة العالم المتمدين . وأنه بوصف كونه عدواً للعالم وعاملا جوهريا لأخلال الأمن فيه قد استحق أن يكون موضع انتقام الجميع . » .

وكان تعبير الحلفاء فى الواقع أصدق تعبير لما كان يحسه

نابليون ويريد أن يتجاهله . فأن انجترا وباقى دول أوربا التى أنفقت فى سبيل التخلص منه أكثر من ثمانمائة مليون من الجنيهات . وبذلت ما لا يقل عن مليونين من الأنفس لم تكن لترضى أن تقف فى آخر الأمر مكتوفة الأيدى أمام الأمر الواقع الذى كان يريدها أن تقبله . ولذلك اتفق الحلفاء فيما بينهم على أن يبدءوا بجمع نحو مليون مقاتل ثم يتعهد كل واحد منهم جيوشه بما يكفل لها التفوق على جيوش نابليون حتى يصبح عاجزاً تماماً عن تكدير صفو الأمور من جديد »

الحلفاء يستعدون للقتال

واستشير دوق ولنجتون فى رسم خطة القتال فأشار بأن يقسم الحلفاء جيوشهم الى ثلاثة أقسام :

أولها — يطبق على فرنسا من جهة الشمال (بلجيكا) ويكون مؤلفاً من جيوش بروسيا وانجلترا .

وثانيها — يزحف على فرنسا من الشرق ويكون مؤلفاً من جيوش بافاريا والنمسا

وثالثها — يزحف عليها من الجنوب الشرقى ويكون مؤلفاً من جيوش الروسيا

وتقرر ان تبدأ جيوش القسم الأول بالهجوم فوراً ريثما تتم تعبئة جيوش القسم الثانى . أما الجيوش الروسية التى يتأخر وصولها لطول الطريق وصعوبة المواصلات . فأنها تكون آخر من ينزل الميدان .

على أنه لم يقدر لأحد من رجال القسمين الآخرين الاشتراك فى هذه الحرب . فأن المعركة الفاصلة وقعت مبكرة فى الميدان البلجيكى . اذ علم نابليون بأنه قد اجتمعت فعلا تحت قيادة ولنجتون Wellington فى بلجيكا طلائع جيوش الحلفاء وأنه شرع يزحف بها جنوباً نحو الحدود البلجيكية الفرنسية بينما كان بلوخر البروسى على رأس قوة أخرى قاعدتها نهر الرين . وهو يجد زاحفاً بها نحو الغرب كيما يتصل بجيوش ولنجتون فلم ير نابليون خيراً من أن يسرع الى لقاء هذين الجيشين والقضاء عليهما قبل أن يتصل أحدهما بالآخر . وقبل أن تتم أهبة الجيوش الأخرى ما بين نمسوية وروسية . وغادر باريس فى يوم ١٢ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد يومين كان يعسكر على مقربة من شارلروا . وفى اليوم التالى (١٥ يونيه) تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة .

* * *

هولندا

أنفرس

بروكسل

بلجيكا

ووترلو

ليج

كاتر برا

لينى

نهر الموز

شارلروا

نهر السامبر

معركة ووترلو

معركة ليني Ligny

ويجب قبل بدء المعركة ان نبين كيف كان موقف كل واحد من هذه الجيوش بالنسبة للجيش الآخر فى ذلك اليوم :

فأما البروسيون بقيادة بلوخر فكانوا مبعثرين على نهر الموز عند لييج — وأما ولنجتون فكان يسوق رجاله جنوبا من بروكسل نحو كاتربرا . وقد عرفنا مما سبق أن نابليون كان عند شارلروا . ولما تبين نابليون موقف خصومه رسم خطته كالآتى :

(يسير جروشى) شرقا للقاء (بلوخر) والقضاء على جيشه .

ويسير (ناى) شمالا بغرب للقاء (ولنجتون) ومنعه من التقدم وامداد البروسيين

وقرر أن يبقى هو بين الجيشين ومعه قوة احتياطية يمد بها من يحتاج الى معونته من جناحيه . على أن الذى قدره نابليون لهذا القتال أن جروشى سوف يتمكن وحده من القضاء على بلوخر وعند ذلك تتاح له هو الفرصة لينقض بقوته الاحتياطية على الانجليز بمعونة ناى فيكسر جيوشهم

ويدخل بروكسل. وقد ضرب نابليون بينه وبين نفسه موعداً لدخول هذه المدينة يوم ١٧ يونية . ولم يكتف برسم هذه الخطة فى دائرة فكره وخياله . بل انه أخرج دقائقها الى حيز الفعـــل والتنفيذ فطبع المنشورات التى سوف يذيعها من بروكسل عند مايدخلها ليعلن فيها لأهل باريس أخبار انتصاره وفوزه .

على أن نابليون لم يهجم فوراً كعادته بل أضـاع بقيـة اليوم الخامس عشر فى اســتعراض جنوده . ولم يعبر نهر السامبر الا فى اليوم السادس عشر وكان ذلك كافياً لأن يستعد له بلوخر اليقظ الذى انتهز فرصة هذا التأخير وجمع جنوده عند مدينة لينى . فلما شرع نابليون فى تنفيذ خطة الأمس رأى أن البروسيين قد اجتمعوا أمامه فى جبهة واحدة متماسكة . فعدل خطته على الفور وقرر تطويقهم وسحب ناى من الميدان الغربى موقتا للاشتراك معه فى هذه الحركة . ودارت معركة لينى بين الفريقين واصطدمت فيها عزمة نابليون على أن يشق طريقه نحو المجد من جديد ويغسل عن نفسه عار الغلبة وذل الأسر بعزمة البروسيين على الدفاع عن كيانهم والحيلولة بين نابليون وبين التحكم فى مصائرهم . فكانت معركة رهيبـة

عنيفة لا نغالى إذا قلنا أنها كانت أعنف المعارك التى خاضها نابليون . . .

ودامت المعركة من الساعة الثالثة بعد الظهر الى الساعة العاشرة مساء وتم النصر فيها لنابليون . ولكنه كان آخر نصر قدر له أن يلقاه. واندحر البروسيون فيها «اندحارا لا يتصوره العقل» كما يقول بعض المؤرخين . ولكن عظمة بلوخر تجلت فى ثباته المدهش الذى أبداه عقب هذه الهزيمة فأنه تمكن من تنظيم فلول قوته . واعادة شىء من التماسك اليها . وتقهقر بما بقى منها بانتظام كان له أثره المباشر الغريب عندما دارت المعركة التالية بين ولنجتون ونابليون بالقرب من ووترلو كما سنبين فى هذه السطور

وقضى الفرنسيون ليلة السابع عشر وهم يحلمون أسعد الأحلام عن ذلك المستقبل البسام الذى عاد اليهم بطلهم المحبوب لأحيائه والذى كانت معركة لينى فاتحة لعهده . وباتوا وهم لا يدرون أن هذه الومضة الخلابة انما كانت تخفى وراءها تلك النكبة العظمى التى لم يكن بينهم وبينها أكثر من ثمانى وأربعين ساعة . والتى تفرق بعدها شملهم وتصدع بنيانهم وسقط عاهلهم وحُمل الى أقصى الأرض ليجتر وحده

ذكريات الماضى الأليمة . وليختم أنصع حياة عرفها التاريخ بأسود ساعات سجلها التاريخ .

معركة ووترلو :

كان من أثر ذلك الركود الذى كانت نوباته تعترى نابليون بعد عودته من البا على ما وصفناه فى الفصل السابق أنه عاد للمرة الثانية يضيع وقته الثمين ويبدد الساعات الطويلة فى السكون والهدوء بينما كان خصومه ينتفعون بالثوانى ويستغلون اللحظات . فأنه أخذ بعد معركة لينى يطوف راكبا حول ميدان القتال وهو يحدث قواده عن الحالة السياسية فى باريس . وذهب فى تهاونه وتراخيه إلى حد أن فكر فى تسريح جيشه يوماً كاملا للراحة .

ولعله من سوء حظ فرنسا أن عاود المرض نابليون فى نفس تلك الليلة التى تم له النصر فيها على البروسيين . فلقد كان احساسه بالفتور والمرض هو الذى أوحى اليه بتلك الراحة التى فكر فى منحها لجيشه . وهو الذى كفه عن مطاردة فلول البروسيين عقب هزيمتهم مباشرة والأيقاع بمن بقى منهم بعد المعركة حتى لا تقوم لهم من بعد يومهم ذاك قائمة

وترتب على هذا المرض المفاجئ أن أتيحت الفرصة لبلوخر لجمع شمل رجاله وسار بهم شمالا يحاول الاتصال بولنجتون بينما كان نابليون يعتقد خطأ أن الجيش البروسى أصبح جيشاً مقهوراً مفروغاً من أمره. ولذلك لم يرسل خلفه (جروشى) لمطاردته والقضاء على أنقاضه الا عند ظهر يوم ١٧ . وزاد الطين بلة أن هطل المطر غزيرا طيلة ذلك اليوم . فلزم نابليون فراشه وأضاع ذلك اليوم أيضاً فى جملة ما أضاع من الوقت

أما ولنجتون فأنه بعد أن وصلته أخبار لينى كان قد قرر الانسحاب شمالا واخلاء بروكسل أمام نابليون . ولكنه لما عرف بعد ذلك من بعض رسله بأن (بلوخر) لا يرتد إلى نهر الرين — كما كان يتوقع هو ونابليون معاً — وانما هو يزحف الى مدينة وافر ليتصل بالجناح الأيسر للجيوش البريطانية قرر الثبات فى مركزه عند « مون سان جان » حتى يصله المدد البروسى ما دام فى ذلك ابقاء على بروكسل وما خلفها من خطوط القتال .

وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم الثامن عشر من شهر يونيه سنة ١٨١٥ انقطع المطر الذى استمر طول اليوم السابق . وكان حقاً على نابليون أن لا يضيع بعد ذلك دقيقة

واحدة . ولكن ضباط مدفعيته قرروا له بأن حالة الأرض لن تسمح باستعمال مدافعهم على الوجه الأصلح قبل أن تجف الأرض قليلا . فأخذ بمشورتهم . ولم يبدأ هجماته إلا فى منتصف الساعة الثانية عشرة ظهراً . وعند ذلك استمات له ولنجتون ورجاله وبدأ نابليون يحس بحرج الموقف حيث كانت قد نمت اليه بعض أخبار بلوخر وعلم من كشافته أن المطر والأوحال التى عطلته هو عن الهجوم حتى الظهر لم يعرها بلوخر العاتى اهتماماً كبيراً وظل يخوض غمارها جادا مثابراً هو ورجاله حتى أشرف على الميدان أو كاد . وعند ذلك ضاعف نابليون حدته وأرسل على جيش ولنجتون مابين الساعة الرابعة والسادسة بعد الظهر أربع هجمات عنيفة كبدت الانجليز خسارة طائلة ولكنها لم تفلح فى إجلائهم عن مواقعهم إلا أشباراً محدودة . وبات الفرنسيون ولاأمل لهم فى التغلب على خصومهم الا إذا ساعدتهم المقادير بأن يرجع اليهم جروشى بقوته التى كان يطارد بها البروسيين . وعاد الجيشان يشتبكان ويفترقان ويهجم من يهجم فيهما فلا ينتصر . ويدافع من يدافع فيهما فلا ينكسر الى أن تحرجت بينهما الحال أعظم تحرج . وتعادلت كفتاهما بحيث أصبح الترجيح

بينهما موقوفاً على أتفه الأسباب . وعند ذلك سمعت من جهة الشرق طلقات كثيرة . فاستبشر الفرنسيون وصاحوا قائلين :

— « هذا جروشى ! الانتصار ! الانتصار ! »

غير أن هذه الطلقات لم تكن فى الواقع الا طلقات خمسين ألف جندى بروسى وصل بهم (بلوخر) الى الميدان فى تلك الساعة من النهار . فأدرك نابليون لاول وهلة ما فى الموقف من حرج بالغ . ولاح له شبح ماضيه المجيد وهو يوشك أن يندك فى هذه المعركة الفاصلة . ورأى بعين خياله ما فى المستقبل من ظلمات ومخاوف فلم يجد أمامه من أمل باق إلا رجال حرسه الامبراطورى الخاص الذين كان يضن بهم أن ينزلوا أى ميدان من ميادين القتال . فرتب أولئك الفدائيين الأعزاء فى صفين وسلم قيادتهم للمارشال ناى ثم امتطى صهوة جواده ورافقهم هو بنفسه مسافة طويلة وهو صامت لا ينبس ببنت شفة حتى بلغ النقطة التى رأى أن يفارقهم عندها الفراق الأبدى . ثم رفع يده وهو ما يزال على صمته المطبق وأشار اليهم بسبابته نحو الانجليز . كأنما يريد أن يقول لهم : « هذا هو طريق خلاصكم الوحيد . فضحوا بالحياة فى سبيل استبقاء الشرف ! »

عند ذلك صاح رجال الحرس بصوت واحد « Vive l'Empereur » وانحدروا كالسيل الدافق الى الوادى . وظلوا يكافحون الانجليز لغاية التاسعة مساء . وقد فنيت صفوفهم ولم يبق منهم الا أفراد قلائل تحت قيادة الجنرال كامبرون Cambronne وكان من المحقق ان يلحقوا قريباً بأخوانهم الذين سبقوهم وكان كامبرون نفسه مصاباً بستة جروح خطيرة تنزف منها دماؤه . ولكنه ظل مع ذلك يدافع ويقاتل حتى أشفق عليه أعداؤه أنفسهم . فأرسلوا اليه راية بيضاء يعرضون عليه الهدنة والتسليم هو ومن بقى معه إبقاء على أرواحهم . فما كان منه إلا أن قال كلمته التاريخية الخالدة :

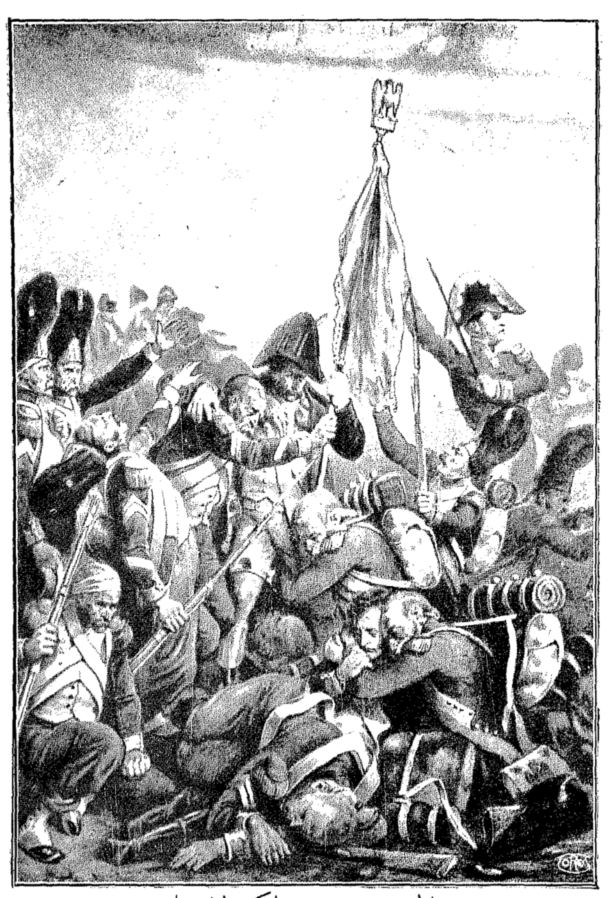
« ان الحرس يموت ولكنه لا يُسَلِّم »

وكأنما عز على نابليون أن تكون هذه المحنة الأليمة خاتمة رجاله البواسل . وقد وقف كل واحد منهم يقاتل ثلاثين من رجال العدو فاستل سيفه وسار على رأس من بقى معه قائلا :

— « لقد طاب الموت اليوم أيها الرفاق ! »

فأسرع اليه سولت وأمسك بزمام جواده وهو يقول :

— « ماذا تريد أن تصنع يامولاى ؟ أفرأيت حظ الأعداء



« الحرس يموت » « ولكنه لا يسلم »

ناقصاً فأنت تريد اليوم أن تتمه عليهم ! »

ولوى عنان الفرس به وتمكن هو وبقية القوادالحاضرين من رد نابليون بعد الجهد الجهيد . فخرج من آخر ميدان قدر له أن يخوض غماره وهو يقول : لقد خسرنا كل شيء الا الشرف !

أما بقيةالقصة التي يرويها التاريخ عن ليلةووترلوالمشهورة فقد سطرها بلوخر بسيوف جنده فى رقاب الهاربين والملهوفين من انقاض القوة الفرنسية . وأحس كل جندى بروسى فى تلك الليلة العظيمة بأنه قد اقتص لنفسه ولوطنه من الفرنسيين وأنه قد وفى نفسه حقها من التشفى والانتقام !

الفصل الثالث

نابليون بعد الهزيمة

خسر نابليون معركة ووترلو . ولكنه لم يخسر فيها شيئاً من سمعته الحربية أو الفنية . فقد أجمع الثقات على أن خطة القتال كانت من أبرع الخطط وضعا وتصميما وأنها إنما خابت فى اخراجها وتنفيذها . وانهزم الفرنسيون فى تلك المعركة ولكنهم لم يسجلوا لأنفسهم صحيفة أبهى ولا أنصع منها فى تاريخ جهادهم وشجاعتهم . ومات جنود نابليون فى ميدان ووترلو زرافات ولكن لم يكن بين من مات فى ذلك اليوم من الفرنسيين من لم يعرف كيف يشهد العالم على أن فى الموت أحياناً من الشرف ما لا يجده الأنسان كثيراً فى الحياة .

ولقد أشرنا غير مرة الى ما جد على نابليون أثناء وجوده فى البا من الترهل والسمن وما أعقبه ذلك فيه من ضعف الهمة وكلال العزيمة . وبينا كيف أنه أصبح كثير

النوم طويل الغيبوبة بادى الفتور غير أنه ما كاد يلج ميدان القتال فى بلجيكا حتى تنبهت فيه كوامن طبيعته وأخذت تتجلى فيه صفاته القديمه تباعا حتى كان صباح يوم ووترلو فاذا هو قد عاد سيرته الأولى من النشاط الخارق والهمة الحادة التى لا تعرف الملال ولا الكلال . وعلى الرغم من توعكه يوم ١٧ يونية فأنه استيقظ فى اليوم التالى (وهو يوم ١٨ يونية الذى دارت فيه معركة ووترلو) فى الساعة الواحدة صباحا وطاف بمواقف الجيش الأمامية ثم عاد فى الساعة الثالثة فسمع تقارير الكشافة والعيون وأصدر أوامره الجديدة . وفى الساعة التاسعة صباحاً ركب الى ميدان القتال حيث اتخذ لنفسه مقعدا وراء قلب صفوفه وبسط أمامه خوانا نشر عليه خرائطه وأمسك فى يده مرقبا يرقب به حركات جنوده . ووقف الى يساره الجنرال سولت يتلقى أوامره فيرسلها سراعا الى بقية الضباط لتنفيذها وظل على هذه الحالة منذ نشبت المعركة قرب الظهيرة حتى أذنت الشمس بالافول . وأقبل الليل بعد ذلك وفى ركابه بلوخر ورجاله . وكان ما كان مما نشرناه فى الفصل السابق . ولما انكسر الجيش ذلك الانكسار الذى لا يجبر بذل نابليون

كل ما فى وسعه ليلم شعث الهاربين ولكنه حاول ذاك عبثاً.
فأن العنف الذى كان يطارد به (بلوخر) فلول الفرنسيين
لم يترك مجالا للم الشعث أو ضم الصفوف . ولقد ظل نابليون
فى يوم المعركة أكثر من أربع وعشرين ساعة من غير أن
ينال أدنى قسط من الراحة فضلا عن انه بقى على ظهر جواده
اكثر من سبع وثلاثين ساعة فى خلال الايام الاربعة
الحرجة التى استغرقها القتال (من ١٤ — ١٨ يونية سنة
١٨١٥)

ولعل هذا الجهد الشاق قد استنفد ما بقى فى جسم
نابليون من النشاط . فأنه عاد بعد الهزيمة الى غيبوبته الأولى .
ويقول أحد من رآه غداة وصوله الى باريس (٢١ يونية)
أنه كان فى ذلك اليوم أشبه الناس بالمجانين . يضحك طوراً
بقهقهة عصبية كأنها خلجات المتشنجين ثم لا يلبث أن يصيح
قائلا : يا إلهى ! يا إلهى ! وهو رافع عينه الى السماء . ثم ينكفىء
يدور حول جدران الغرفة كما تفعل الوحوش فى حدائق
الحيوان . وأخيراً قر قراره وهدأت حركاته ولكنه دخل
فى بحران عميق . فكان حوله أصدقاؤه وأنصاره يهيبون به أن
يعمل عملا لتلافى الخطر المحدق بالبلاد . وأحاط الشعب بقصر

الاليزيه يناديه ليتولى قيادته كى يقوم بثورة يعقوبية أخرى يصد بها زحف أوربا على الحدود الفرنسية، ولكنه لم يكن يستجيب الى أولئك ولا الى هؤلاء. ووقع صك تنازله عن الملك من جديد بناء على طلب الهيئتين النيابيتين (٢٢ يونية) وبقى فيما هو فيه من الذهول حتى تشكلت حكومة موقتة فى باريس برياسة (فوشه) لتحل محل حكومته. ثم لم يلبث أن طلب اليه رئيسها مغادرة باريس فورا. فرحل عنها وذهب يقيم فى قصر مالميزون حيث كانت تقيم زوجته الاولى جوزفين بوهارنيه. على أنه لم تطل اقامته فى هذا القصر اذ علم أن الجيش الالمانى قد دخل الحدود الفرنسية ومع قواده التعليمات المشددة بالقبض عليه حيا أو ميتا. ففكر فى السفر الى أمريكا ليقضى فيها بقية أيامه. وقصد فعلا الى مينا روشفور (٣ يولية) ليركب البحر منها الى الدنيا الجديدة. ولكنه وجد مياهها تعج بالمراكب البريطانية التى وقفت لحراسة الشواطىء الفرنسية والحيلولة بينه وبين الفرار.

وفى ٩ يوليه أمرته الحكومة الموقتة بمغادرة فرنسا فى ٢٤ ساعة فأشار عليه بعض انصاره ان يسلم نفسه لربان احدى هذه المراكب ليحمله الى البلاد الانجليزية على اعتبار كونه

لاجئا سياسيا . والعرف الدولى يقضى دائماً بقبول اللاجئين السياسيين وحماية أشخاصهم . فأخذ نابليون بهذا الرأى وعرض الأمر على الكابتن ميتلند ربان البلرفون

« Captain Maitland of the Bellerophon »

فقبل ميتلند نقله الى انجلترا ولكن السفينة ما كادت تبلغ مينا بليموث فى جنوب انجلترا حتى كانت الحكومة البريطانية قد أصدرت أمراً باعتبار نابليون أسير حرب وقررت نفيه الى جزيرة سنت هيلانة .

وما كاد يصل ذلك الى علم نابليون حتى ثارت له ثائرته وصاح قائلا :

— « انى ضيف انجلترا ولست أسيرها . ولقد تقدمت بمحض ارادتى لأضع نفسى تحت حماية القوانين البريطانية . ولكن الحكومة بعملها هذا قد انتهكت حرمة قوانينها وضربت عرض الحائط بالقوانين الدولية . وأنكرت انكاراً صارخاً واجب الضيافة المقدس ! »

وصادف احتجاج نابليون عند بعض الشعب البريطانى آذانا صاغية وبدأت بعض الصحف فعلا تردد صدى شكايته فارتاعت الحكومة لذلك وخشيت أن تستفحل دعايته ضدها

فأصدرت أوامرها المستعجلة الى الباخرة « نورثمبرلند Northumberland » التى تقرر سفرها الى سنت هيلانة أن تتأهب للرحلة فى أقصر وقت. فلم يملك نابليون أزاء هذه الاجراءات إلا أن يرسل الى الحكومة البريطانية احتجاجه التاريخى المشهور.

« انى أشهد العالم على احتجاجى هذا لما تتخذه الحكومة البريطانية معى من وسائل العنف ولانتها كها أقدس حقوقى التى تمس شخصى وحريتى لقد جئت بمحض اختيارى الى البلرفون فما أنا بأسير انجلترا ولكنى ضيفها. فأن كانت الحكومة حين سمحت لربان البلرفون بحملى الى أرضها لم ترمى الى أكثر من القاء شبكة تقتنصنى بها فأنها تكون قد خفرت ذمتها ودنست رايتها.

وانى لأستشهد بالتاريخ ليسجل على صفحاته أن خصما ظل يحارب انجلترا عشرين عاما ثم أقبل من تلقاء نفسه يحتمى بقوانينها فلم تقابل انجلترا منه هذه الشهامة باكثر من أن مدت له يدا مضيافة حتى اذا ما استسلم لها وهو واثق من كرمها غدرت به وأكلته غيلة واغتصابا

نابليون
فى ٤ أغسطس سنة ١٨١٥ عن ظهر البلرفون فى البحر

الباب الثالث

سنت هيلانة

الفصل الأول : لنجوود Longwood

» الثانى : هدسون لو Hudson Lowe

» الثالث : وفاة نابليون

» الرابع : نابليون يرقد على ضفاف السين

الفصل الأول

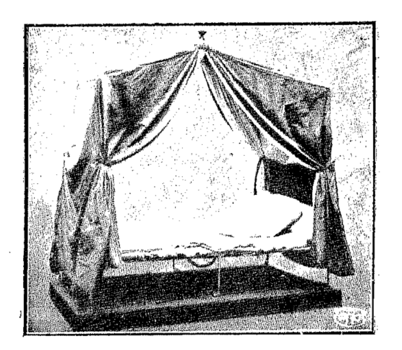
لنجوود

لم تثمر احتجاجات نابليون. وذهبت صيحاته كلها صرخة فى واد. ولم ير بدا فى آخر الأمر من الاستسلام لقضاء الله فرضخ لما جرت به المقادير وقابل بلواه بالصبر. وانتقل هو وحاشيته التى اختارت البقاء معه إلى « النورثمبرلند » وفى ٨ اغسطس أقلعت السفينة بشحنتها الغالية ميممة نحو جزيرة القديسة هيلانة وكان مع نابليون من أصدقائه الكونت مونثلون Montholon وزوجته وولده والكونت برتران Bertrand وزوجته وأولاده الثلاثة والبارون جورجو Gourgaud والكونت لاكاز Las Casas والدكتور أوميرا O'Meara البريطانى الذى استأنس له نابليون منذ عرفه على ظهر البلرفون. وبلغت الجماعة كلها بالاختصار ٢٤ نفساً.

أما جزيرة القديسة هيلانة التى كانوا يقصدونها فهى صخرة عظيمة نائتة فى وسط الأوقيانوس تبعد عن أوربا

بستة آلاف ميل وليس بينها وبين أقرب بقعة من أرض أفريقيا المجاورة لها أقل من ألف ومائتى ميل ولها جوانب منيعة تقوم فى وجه الأمواج كأنها أسوار قلعة حصينة. وقد أصبحت الجزيرة بفعل هذه الجوانب التى تحول بين نسيم البحر وبين باطنها كالأتون المستعر لا سيما فى فصل الصيف حيث تتكاتف الرطوبة مع الحرارة على إحداث جو خانق لا يمكن أن تترعرع فيه الأعمار وتبلغ فيه غاياتها الطبيعية. وكان تعداد أهل الجزيرة عند ما سافر اليها نابليون نحو ٥٠٠ نفس من بينهم مائتان من الجنود وكان فيها ثلاثمائة أيضاً من العبيد ويقرر مونثولون أنه لم يحدث أن بلغ أحد من سكان الجزيرة بيضاً كانوا أو عبيداً سن الخمسين!

وبعد رحلة طويلة مرهقة استغرقت نحو سبعين يوماً ألقت النورثمبرلاند مراسيها (يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٨١٥) على صخور هذه الجزيرة. ونزل نابليون هو وجماعة من حاشيته فاستقلوا زورقا نقلهم إلى الشاطىء حيث دخلوا مدينة جيمستون — أستغفر الله — بل قرية جيمستون الحقيرة التى كانت وما تزال عاصمة الجزيرة والتى لم يكن بها إذ ذاك الا شارع واحد.



سرير نابليون فى سانت هيلانة

وفى غرفة غيرمؤثثة بين أكواخ هذه القرية نزل نابليون وكان يحمل معه سريره الحديدى الذى نام عليه فى ميدان أوسترلتز . فنصبه له أصحابه وسط الغرفة ثم نثروا حوله قليلا من الأثاث الذى استعاروه خصيصاً من السفينة ليزينوا به « غرفة الامبراطور » .

وكانت أوامر الحكومة البريطانية أن ينزل نابليون فى بيت مهجور هناك يبعد عن جيمستون بنحو ثلاثة أميال . وكان يعرف هذا المنزل بمنزل لونجوود . ولكنه كان خربا يحتاج الى ترميم كبير . ويقال انه كان يستعمل حظيرة للابقار . فلزم له هذا الترميم ليصلح لنزول نابليون فيه وقد اهتمت حكومة الجزيرة بأمر هذا الاصـــلاح ففرغت منه بعد شهرين . ومع ذلك فقد كثرت شكوى نابليون منه طول مدة اقامته فيه لأن الأمطار كانت اذا هطلت بغزارتها المعهودة فى تلك الجهات خر عليه السقف من فوقه . ولأن الجرذان كانت قد استوطنت جحور المنزل وفجواته فاستعصى أمرها وعز التخلص منها . وكانت تتخذ لنفسها مسارب فى حوائط البيت وسقفه بل وفى جيوب ملابس نابليون نفسه . وفى قبعته حتى اضطر آخر الأمر الى اعلان الحرب عليها والاستعانة ببندقيته فى مطاردتها

الفصل الثانى

هدسون لو

مرت الأيام على نابليون فى منفاه وهو ينام كل يوم الى ساعة متأخرة من النهار خلافا لعادته . ولكنه لم يلبث أن عاد الى النهوض مبكراً فكان يستقيظ فى الساعة الخامسة صباحاً فيخرج على ظهر جواده للرياضة ثم يعود للاستحمام وعند الساعة الحادية عشرة يتناول طعاماً خفيفاً يبقى عليه حتى الساعة السابعة مساء . حيث كان يتناول طعام العشاء . غير أنه ما لبث أن عدل عن هذا النظام اكراماً لمدام موتلون فجعل الغداء فى الساعة الثالثة والعشاء فى نحو الساعة العاشرة . وكان بعد العشاء يجلس الى رفاقه يحدثهم أو يلعب معهم الشطرنج حتى اذا كانت الساعة الحادية عشرة دخل الى غرفته لينام .

وقد كان من شأن هذا النظام الهادىء أن أكسب نابليون سمنا على سمنه وضعفا فوق ضعفه . فزادت آلامه واضمحلت

صحته وقل نومه . وأصابه ورم فى رجليه وخور فى أعصابه وفتور فى عضلاته .

وزاد الطين بلة أن الحكومة الانجليزية لم ترتح الى تصرفات الأميرال كوكبرن حاكم الجزيرة مع نابليون لتسامحه معه فى بعض الشئون وملاطفته إياه فى بعض الأحايين فندبت بدله حاكما آخر هو سير هدسون لو — وكان رجلا شريراً صارماً يمقت نابليون شخصياً فأتيحت له الفرصة كاملة ليبدى فيها مواهبه الشيطانية فى إيلامه وتعذيبه . وقد نفر منه نابليون أول ما رآه وقال عنه ان عينه كعين الضبع الذى وقع فى فخ .

وقد كان هذا الرجل خليطاً عجيباً من الطباع المرذولة فكان سخيفاً بالغاً فى سخافته كما كان ظنيناً مفرطاً فى توجسه . ومن حماقاته أنه أبى أن يخاطب أحداً الا بالانجليزية وكان مندوب الحكومة الفرنسوية فى الجزيرة لا يعرف كلمة من الانجليزية بينما كان (لو) يجيد الفرنسية ولكنه بقى مصراً على رأيه لا يتكلم الا بلغته وأخيراً تم الاتفاق بينهما على أن يتخاطبا باللغة اللاتينية !

ومن نوادره أيضاً التى تدل على مبلغ توجسه وهوسه أنه علم بأن المندوب الفرنسى قد وصلته بذور من اللوبياء البيضاء

والخضراء . ليزرعها فأوجس (لو) من ذلك شرا وحسب أن فى الأمر دسيسة إذ قد تكون البذور البيضاء رمزا الى البربون لأن علمهم أبيض والخضراء رمزا لنابليون لأنه يلبس فى الغالب سترة خضراء .

وعلى الرغم من أن كل صخرة فى الجزيرة كانت تحمل مدفعاً مُصَوَّباً نحو الشاطىء استعدادا للطوارىء فان (لو) ما زال يستنجد بحكومته ويطلب منها الامدادات والسفن الحربية حتى أصبحت بقعة سنت هيلانة شاكية السلاح بحراً وبراً كأنها أهم مركز فى ميدان حمى فيه وطيس القتال . ولا تسل بعد ذلك عن ضغطه على نابليون ورفاقه وتهجمه عليهم فى كل حين وتعقبهم فى كل مكان بدعوى مراقبة شئونهم حتى ضاق به نابليون ذرعاً وكف أخيراً عن الخروج من غرفته حتى لا يرهقه (لو) بجواسيسه وعيونه . فلما طال احتجابه لعبت الوساوس بقلب (لو) وأوجس خيفة من أن يكون سجينه قد حفر لنفسه نفقا فى الأرض وخرج عن طريقه من الجزيرة . هذا مع أن نظام الحراسة كان لا يسمح بخروج جرذ واحد من جرذانها الصغيرة أو الكبيرة . فقد كانت الجزيرة على ما وصفناها عبارة عن صخر مستدير فى وسطه

سهل عميق لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق ثغرة واحدة أو ثغرتين حتى لو أن الجزيرة هاجمها عشرة آلاف مقاتل فأن خمسين جندياً بداخلها يستطيعون ردهم لقوة استحكامهم وعدم تمكن المهاجم ممن يكون فى مثل موقفهم . ولقد كان كوكبرن يقول لمن يحدثه فى أمر زيادة تحصين الجزيرة من رجاله :

«لا تخف فأن بوارجى تكتنف الجزيرة حتى لو أن الشيطان نفسه أراد أن يبرحها لتعذر عليه ذلك ! »

أما هدسون لو فأنه كان لا يطمئن الا اذا رأى نابليون بعينه أو تحسسه بيده ولذلك كتب (فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨١٩) طالباً اليه أنه لا بد من أن يراه كل يوم ضابط من ضباط الحرس الانجليز وانه اذا لم يتقدم نابليون من تلقاء نفسه ليراه هذا الضابط حتى الساعة العاشرة حق للضابط أن يدخل على نابليون عنوة . ولكن نابليون رفض الرضوخ لهذه التعليمات . وبالغ فى التخفى وعدم الظهور نكاية فى سجانه المتعب فكان الضابط المكلف بمعاينته كل يوم يذوق الأمرين فى مراقبته . تارة يوصوص من الباب . وتارة ينظر من ثقب المفتاح . وتارة يشرف عليه من كوة حمامه .

وتصادف أن ظفر به نابليون مرة وهو على هذه الحال ففتح الباب بغتة وخرج اليه عاريا !

ويطول بنا الشرح اذا نحن تتبعنا وسائل هذا الحاكم الغليظ وأساليبه الفظة فى مراقبة نابليون . ولكن لا بد لنا هنا من الأشارة الى أنه لم يكن فى كل ذلك يرمى الى المحافظة على أسيره . بل انه كان أحيانا يعمد بتصرفاته هذه الى ايلام نابليون وجرح عواطفه ليس الا . فمن ذلك انه كان كلما رآه شديد التعلق بأحد من رفاقه عمل على اقصائه واخراجه من الجزيرة حتى يحرمه من أنس مجلسه . والراحة التى يستشعرها فى محادثته وصحبته . ووصل الجزيرة يوماً أحد المسافرين من أوربا وكان هذا المسافر قد رأى مارى لويز وملك روما فلما علم ذلك هدسون لو حرم عليه ان يقابل نابليون حتى لا يحمل اليه شيئاً من أخبار أسرته .

على ان (لو) كان فى الواقع الى حد ما يردد فى جزيرة سنت هيلانة صدى أحقاد رجال الحكومة الانجليزية فى انجلترا فقد قرروا منذ البداية ان لا يلقب نابليون بلقب « امبراطور » وان لا يخاطب الا بلقب «الجنرال بونابرت» بدعوى انه اغتصب ملك فرنسا اغتصاباً فهو لا يستحق ان

يلقب بألقاب الملوك . مع أنه لا قيمة لهذا الأمر ما دام نابليون قد ترك فرنسا وغادرها لملوكها مرة أخرى . ومع أن انجلترا نفسها كانت تخاطب نابليون وهو فى البا بلقب امبراطور هى ووزرائها الرسميين إلا أنها عادت وشددت على (لو) فى تطبيق هذا القرار . على أن الرجل لم يكن بحاجة الى توصيه . « فأن ما أرادته حكومته بالدرهم كان يجريه هو بالقنطار » على حد قول بعض الكتاب

ومن المضحكات المبكيات أن يعرف الانسان الى أى حد ذهب سير هدسون لو فى تطبيق نظرية حكومته . فأن رفاق نابليون اجتمعوا بعد موته . وأعدوا له قبرا فى تلك الجزيرة الموحشة على قدر ما سمحت لهم به الظروف ثم شرعوا يعدون اللوحة التى تقام عادة على مقابر الأموات فكتبوا عليها :

« هنا يرقد . . . . .

وأرادوا اتمام العبارة بأضافة كلمتى :

. . . . الأمبراطور نابليون »

فما كان من (لو) إلا أن أسرع اليهم ومنعهم من كتابة ذلك مشيرا بوجوب تسميته « الجنرال بونابرت » فقال له رجال نابليون :

« لقد كان نابليون ملك يدكم تتصرفون فيه كيف تشاءون أما وقد مات فقد أصبح ملكا لنا ولفرنسا ولنا اليوم أن نسميه كيف نشاء فأصر هدسون لو على وجهة نظره وأصروا هم أيضاً على وجهة نظرهم . وانتهى الأمر بينهم بأن يدفن نابليون وتبقى اللوحة التى على قبره وليس عليها الا هاتين الكلمتين :

« هنا يرقد »

وهكذا كان

وظل نابليون « راقدا هناك » فعلا أكثر من خمس وعشرين سنة لايحمل قبره الا هذه اللوحة البتراء . ثم نقل بعد ذلك إلى فرنسا باحتفال مهيب لم تكن تضارعه الا تلك الاحتفالات المهيبة الأخرى التى كانت تقام له وهو فى أوج عظمته وبسطة سلطانه .

الفصل الثالث

وفاة نابليون

لما سلم نابليون نفسه بعد واقعة ووترلو الى انجلترا كتب لورد لفربول رئيس وزرائها الى لورد كاسلري وزير الخارجية فيها يقول :

— « حبذا لو كان ملك فرنسا يتولى استلام بونابرت وقتله شنقاً أو رميا بالرصاص لعصيانه ! »

ثم عاد فكتب اليه ثانية يقول :

— « إن كان ملك فرنسا لا يرى من نفسه المقدرة على معاملة بونابرت كما يعامل العصاة فنحن نأخذ على أنفسنا حراسته . »

وليس أدل على سوء نية الحكومة الانجليزية نحو شخص نابليون من صدور مثل هذا الكلام من أكبر رجالها المسئولين . ويستطيع القارىء بعد ذلك أن يفسر لنفسه لماذا وقع اختيار القوم على سير هدسون لو للقيام بواجب هذه

« الحراسة » التي قرر لورد لفربول أنه « سيأخذها على نفسه . »

ولقد ضربنا فى الفصل السابق بعض الأمثال التى توضح مسلك هذا الرجل الخشن نحو سجينه وأبنا كيف أن تضييقه الخناق على نابليون كان سبباً فى لزوم الامبراطور غرفته . واعتكافه فيها وكيف أن هـذا كان بدوره سبباً فى انحلال جسمه وانحطاط قوته والدنو به حثيثاً من قبره .

ولقد كانت رياضة نابليون الوحيدة عند أول حلوله فى جزيرة سنت هيلانة ركوب الخيل وكان يعود على أثر هذه الرياضة أهدأ نفساً وأوفر نشاطاً وأحسن صحة . ولكن (لو) لم يلبث أن وكل به ضابطاً انجليزياً يلازمه عند ركوبه لزوم الظل بحجة أن ذلك يقتضيه واجب الرقابة الدقيقة التى تتطلبها الحكومة الانجليزية على شخص نابليون . فما كان من نابليون الا أن عدل عن الخروج أصلا واصطنع لنفسه جواداً من الخشب وجعل يتأرجح عليه داخل منزله كلما أعوزته الحركة وابتغى لنفسه شيئاً من النشاط .

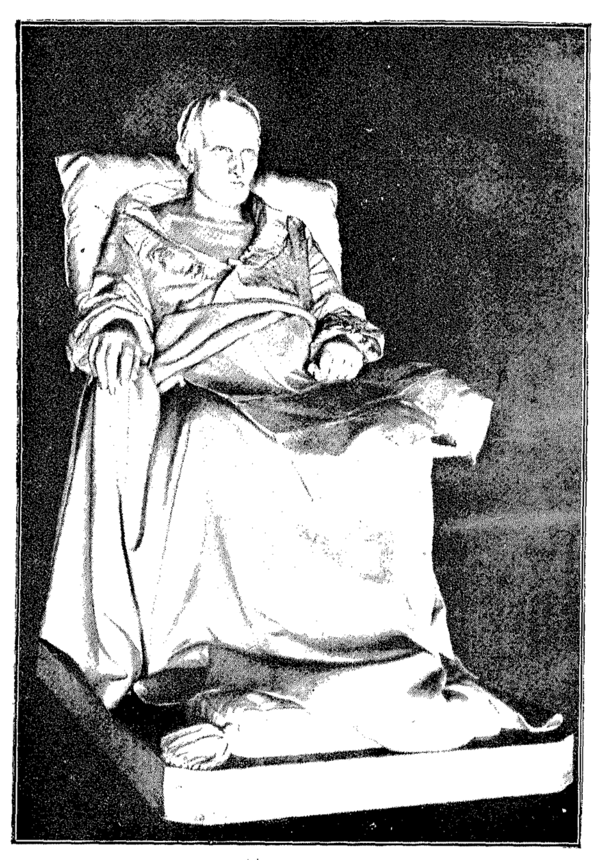
على أن (لو) لم يكن يقصر همه فى مضايقة نابليون على حرمانه من هذه الكماليات . بل انه كان يقتر عليه فى

نفس مأكله ومشربه هو وحاشيته الصغيرة وكان نابليون نفسه قليل العناية بأمر طعامه فلم يكن ليكترث بما يصنعه (لو) معه . ولكنه زار مرة مائدة أتباعه فرأى طعامهم قليلا لا يقوم بحاجتهم . فأمر وكيل خرجه أن يبيع ما عنده من الآنية الفضية لينفق من ثمنها على رجاله . وأصبح فى اليوم التالى فاذا بالطعام يقدم اليه فى صحاف من الخزف . فانقبضت لذلك نفسه واعتراه الخجل وعاف الأكل من هذه الصحاف . وكان وكيل الخرج قد خالف أمر مولاه واستبقى بعض الآنية الأولى على غير علم منه . فعاد الى تقديم الطعام فيها . فسر نابليون بذلك وعاود الأكل فيها كما كان .

وقد ندم (لو) على مافعل . وخشى سخط الرأى العام فى أوربا إذا أذيع فيها أن نابليون باع صحافه الفضية لينفق من ثمنها على طعام أصحابه . ولم تكن تفوت أمثال هذه الأمور نابليون . بل إنه كان شديد التنبه اليها واسع الحيلة فى استخدامها واذاعتها . وقد حصل يوماً أن قل الوقود عنده فأمر خادمه أن يكسر سريره ويوقده ليصطلى به . وشاع الخبر فى الجزيرة فأسقط فى يد (لو) وخشى أن يذاع فى أوربا وصار منذ ذلك اليوم يجانب نابليون . ويجتهد فى كيده عن طريق أصحابه

المقربين اليه الذين كان يأنس اليهم ويرتاح دائما الى مجالستهم. وكانت عادة نابليون كل يوم أن يجلس ساعة أو ساعتين يملى فيهما مذكراته على صديقه لاكاز. فما كان من (لو) إلا أن تصداه ثم أمره بمغادرة الجزيرة وعاد بعد ذلك فطرد الدكتور أوميرا ثم عززهما بالجنرال جورجو. على أن نفى جورجو هذا عاد على (لو) بأوخم العواقب. فأنه ما كاد يصل الى أوربا حتى أذاع فيها كل ما كان يلقاه الأمبراطور على يدى سجانه من ضروب العنت والارهاق. وكان أداة حية لنشر الدعاية ضد جور الحكومة البريطانية وسوء معاملتها لأسيرها المريض.

أما نابليون نفسه فأنه وقع فى حيرة شديدة بعد سفر أوميرا وأصبح يرى أن لا مفر له من أن يقبل الاطباء الذين يعينهم له سجانه أو يبقى مريضاً بغير طبيب. وكانت أوجاعه تتزايد يوماً بعد يوم. وبدأت القرحة التى كانت فى معدته تدخل فى طورها الأخير. وضعفت شهيته للطعام. وساورته فكرة الخوف من أن يموت مسموماً. فامتنع عن كل دواء يصفه له اطباء (لو). « وصار مونثلون يقضى الليالى الى جانبه مواسياً ومعزياً. فيضع الكمادة الساخنة على معدته وهو يشهد



على سرير الموت

عن كتب دبيب الداء ويرى آثار فتكه فى اصفرار الامبراطور وهزاله . وفى عينيه الغائرتين ورجليه اللتين لم تعودا تقويان على حمله .

وبقى على هذه الحال بغير علاج من شهر يوليه سنة ١٨١٨ الى يناير ١٨١٩ وهو كلما عرض عليه (لو) طبيباً رفضه بحجة أنه لن يصف الداء ويعالجه الا بقدر ما يرضى الانجليز فكان هدسون لو يقول عند ذلك .

— « اذا كان بونابرت لا يقبل من أعينه له من الاطباء فلأنه متمارض ويخاف أن تنكشف حيلته ! »

وغضب مندوب الروسيا والنمسا لهذه المعاملة فاحتجا بشدة وأنذرا الحاكم أنه اذا قضى الامبراطور نحبه فهما لا يتحملان تبعة ما ينتج عن ذلك . »

وكان جورجو قد اتصل بأم نابليون وأفضى اليها بما آلت اليه صحة ولدها من الضعف والخور فقامت مدام ليتيشيا بحملة واسعة ناشدت فيها دول الحلفاء أن يهتموا بأمر ولدها فى سجنه القصى . فسمحوا بارسال الدكتور انتومارشى من فرنسا اليه ولكنه كان طبيباً جاهلا استسلم له نابليون قليلا فى أول الامر ثم ما لبث أن تنبه الى خطأ

علاجه وسوء تطبيبه فواجهه ذات يوم صاخبا مقرعا وهو يقول :

« ليس من العدل أن يقضى على مسكين مثلى بهذا الوجه . فأنت جاهل وأنا أجهل منك لقبولى علاجك ! »

وفى عام ١٨٢١ ازدادت حالة الامبراطور سوءاً فأصبحت معدته تلفظ كل مايدخل فيها . وكان القيء أسود اللون مما لم يدع محلا للشك فى موطن الداء . ولكن انتومارشى لم يكن على ما يظهر يستطيع أن يشخص الامراض الا بأنها احتقان فى الكبد . وذلك لانتشار هذا المرض فى جزيرة القديسة سنت هيلانة فى ذلك الوقت فكأن المسألة كانت فى نظره مسألة أغلبية وما تشكوه الجماعة يجب أن يكون هو موضع شكاية الفرد . وظل يتابع علاجه معه على انه مريض بكبده لا بمعدته

ولكن الامبراطور يئس منه أخيراً فرفض كل علاج يقترحه له وعاد الى أساليبه الخاصة الأولى وهى لزوم الحمية واستعمال المغاطس وتناول الاشربة المبردة غير ان الداء كان يدب فيه بسرعة هائلة حتى آمن هدسون لو نفسه بصحة دعواه وصار يعرض عليه من شاء من الاطباء .

وفى ٢ ابريل سنة ١٨٢١ (اى قبل وفاته بنحو شهر)

ذكر أمام نابليون ان نجما ذا ذنب قد ظهر فى السماء . فما كان منه الا أن صاح قائلا :

« ان ظهور مذنب أنذر بموت يوليوس قيصر »

ولم تكن فكرة الموت لتزعج نابليون بل أنه كان مستسلماً لها مستبشراً بها وكان يقول : أنى انتظر الموت صابراً لأنى أرى فيه شفائى من كل هذه الآلام! »

ومما قاله لرفاقه عندما اشتدت به الحال ودخل فى دور النزع : « عند ما أموت سيتعزى كل واحد منكم بالعودة الى أوربا حيث أهلكم وأصدقاؤكم وفرنسا . . . . أما أنا فأنى سألاقى أبطالى فى الجنة . . . أجل ! إن كليبر وديزيه وبسيير وديروك وناى ومورا وماسينا وبرتييه سيأتون جميعاً للقائى ! فأذا رأونى جنوا من الفرح . وسوف نتحدث هناك عن حروبنا وأعمالنا أنا وأولئك الابطال . . ! »

وفى ٢٨ ابريل أفاق نابليون بعد ليلة قضاها فى التوجع والألم وأعطى لأنتومارشى التعليمات الآتية :

« بعد موتى — ولا أخال ميعاده بعيداً — أريد أن تفتح جثتى وأن يستخرج قلبى ويحفظ ليحمل الى حبيبتى مارى لويز

في پارما . ثم اذهبوا الى روما وقابلوا والدتى وأهلى وقولوا لهم : إن نابليون العظيم لفظ النفس الأخير على هذه الصخرة فى أتعس الحالات وأشقاها محروماً من كل شيء ومتروكا لنفسه وللمجد ! »

ولم تكن الأيام التاليــة إلا نزاعاً بين الموت والحياة فى ذلك الجسم المهزول . وأحس نابليون بدنو أجله فاستدعى الأب فينيالى واعترف له بخطايا حياته ثم التفت الى مونثلون قائـلا :

« إنى سعيد بأن تممت واجباتى الدينية . وإنى أتمنى لك أيها القائد مثل هذه السعادة عند موتك . »

وكتب وصيته بيده وقد جاء فى أولها :

إنى أموت فى حضن الدين الكاثوليكى الرسولى الرومانى. ذلك الحضن الذى ولدت فيه منذ أكثر من خمسين عاماً ....

.... وإنى أرغب فى أن ترقد رفاتى على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسى الذى أحببته حباً جماً . »

* * *

وفى صبـاح ٥ مايو هبت عاصفة عاتية على لونجوود اقتلعت أشجارها وحطمت مساكنها الزرية . وتحرك نابليون



وجه نابليون بعد وفاته مطبوعاً على قالب من الجبس

فى فراشه حركة خفيفة ثم سمعه رفاقه يتمتم قائلا : « رأس . . . جيش . . . . فرنسا . . . . ملك روما . » ثم خفت صوته وبدا على شفتيه زبد أبيض . وعلم الحاضرون من اتباعه أن مولاهم قد انتقل من هذه الدنيا إلى العالم الآخر !

الفصل الرابع

نابليون يرقد على ضفاف السين

لما قررت انجلترا نفى نابليون الى جزيرة سنت هيلانة امرت بتفتيش حقائبه وأمتعته هو ورجاله واستولت على كل ماكان فيها من المال والنفائس بدعوى أنها تحتاط حتى لا يجد نابليون ما يعينه على الهرب مرة أخرى من منفاه . غير أنها أعلنت فى نفس الوقت أنها إنما تحتفظ بهذه الأشياء كوديعة وتحفظ لنابليون الحق فى أن يتصرف فيها بوصيته عند موته كما يشاء . وتعهدت بأنها تنفذ نصوص هذه الوصية بحروفها وحذافيرها .

ولما أحس نابليون بدنو أجله كتب وصيته بيده . وهى التى أشرنا اليها فى الفصل السابق وزع فيها ما بقى من حطام ماله وجسمه على أهله وأتباعه وزوجته مارى لويز . ثم أبدى رغبته فى أن ترقد رفاته بعد موته على ضفاف السين

ولكن هذه الرغبة . لم يتيسر لانجلترا تنفيذها فوراً

بسبب الروح الذى كان يسود كل أوربا فى ذلك الوقت . فقد كانت الرهبة لا تزال تسيطر على قلوب ملوكها لدى ذكر نابليون وحروبه . وكانت فرنسا من ناحية أخرى تعانى ضغط حكومة لويس الثامن عشر الرجعية التى بدأت عهدها بمحاكمة المارشال ناى واعدامه فى ساحة من ساحات باريس العامة . ولذلك ظل نابليون فى قبره المتواضع بسنت هيلانة يحرسه أيضاً فى رقدته الاخيرة أحد الجنود الانجليز . ودار الزمن دورته فمات لويس الثامن عشر فى سنة ١٨٢٤ . وولى ملك فرنسا من بعده شارل العاشر الذى أثبت للفرنسيين أنهم كانوا فى عهد سلفه الغابر فى نعيم وحظ عظيم . وذلك بقضائه القضاء الاخير على معظم ما بقى للشعب من حريات حتى ضاقت به الصدور آخر الامر . وعاد وميض الثورة يلمع فى عين كل من كنت تلقاه من الفرنسيين . وعلى الرغم من تهالك الشعب الفرنسى وكثرة ما مر به من المحن والرزايا بسبب ثورته الاولى فأنه لم يبال بالقيام بثورة أخرى فى سنة ١٨٣٠ خلع فيها نير هذا الملك الغاشم وتخلص بها من حكومته الممقوتة .

واعتلى عرش فرنسا بعد شارل هذا « لويس فيليب » ابن

دوق أورليان الذى كان فى عهد الثورة الأولى نصيراً للشعب وزعيماً من كبار زعمائه . فحاول أن يقيم فى فرنسا حكومة ديمقراطية يكون الرأى الأعلى فيها لسواد الأمة وأكثر فى بدء عهده من الأصلاحات التى كان يتوق اليها الشعب . وبدأ الناس يحسون على يديه بشىء من العزة والكرامة التى حرموها منذ فارقهم نابليون . وكان هذا فى ذاته مذكياً لذكرى امبراطورهم العظيم الذى أصبح اسمه عندهم رمزاً للعظمة والمجد . وكل ما بلغته فرنسا فى عهده من السؤدد والفخار . فتقدمت عدة اقتراحات للحكومة بوجوب العمل على نقل رفات نابليون وسعى الناس افرادا وجماعات لرد غربة هذا البطل الخالد . وأخيراً كللت مساعيهم بالنجاح وأسفرت المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والانجليزية عن الاتفاق على اعادة جثمان نابليون الى فرنسا .

وندب الملك لويس فيليب ابنه البرنس جوانفيل ليكون رئيساً على البعثة التى تقرر سفرها الى سنت هيلانة للقيام بهذه المهمة .

وفى ٧ يوليه سنة ١٨٤٠ أبحرت من ميناطولون المركب الفرنسية لابل پول « La Belle Poule » التى أعدت لنقل

رفات الأمبراطور . وعلى رأسها البرنس جوانفيل وبعثته وهى تضم معظم من كان حياً من رفقاء نابليون ورجاله الذين قضوا معه مدة النفى — وكانت تحرسها لافافوريت « La Favorite » إحدى مراكب الأسطول الفرنسى الحربية. وبعد ثلاثة شهور كاملة فى البحر صاح صائح : «La Terre» فعلم الجميع أنهم أشرفوا على الجزيرة . وأنهم أوشكوا أن يكونوا فى حضرة الأمبراطور . فاستولى عليهم شعور الرهبة والخشوع .

«وفى ٩ أكتوبر الساعه الحادية عشرة صباحاً نزل البرنس جوانفيل والبعثة كلها الى البر بصفة رسمية وتوجهوا الى منزل الحاكم حيث وجدوا سلحفاتين عظيمتين كانتا هناك منذ زمن نابليون وهما لا تزالان حيتين الى ذلك اليوم . ثم انتقلوا الى القبر ثم الى منزل نابليون فى لنجوود فوجدوا الحيطان تكسوها كتابات كتبها الذين زاروا المكان ومعظمهم من جنود نابليون وأتباعه ومن تلك الكتابات الجملة الآتية التى تدل على تعلق رجال نابليون بسيدهم :

« استخدم ميشيل روبير الذى كان جندياً فى الحرس على

الباخرة أماليا ليتمكن من السلام على منزل كابوراله الصغير .
الوداع . »

و « الكابورال الصغير أو الاومباشى الصغير » هو الاسم الذى كان يطلقه الجنود على نابليون على سبيل الدعابة والتدليل

وفى منتصف ليلة الخامس عشر من شهر أكتوبر قام رجال البعثة بمهمتهم الرهيبة فنزلوا قبر نابليون وفتحوا تابوته وأزاح طبيب البعثة لفائف القطن التى كانت تحيط بجثمان الامبراطور فبدا من تحتها وجهه كامل التقاسيم . ماعدا تشويه خفيف عند أنفه وفى خديه . وتحقق رجال البعثة من هويته . وشاهد الحاضرون على صدره الوشاح الاكبر لجوقة الشرف . وكان بين الساقين وعاء من الفضة فيه قلب نابليون الذى أوصى به لزوجته مارى لويز .

وأقفل التابوت بعد ذلك وحمل الى (البل پول) وما كادت تمس الجنازة ظهر المركب حتى طفقت مدافع السفن الفرنسية تحيي نقلها وشاركتها فى ذلك مدافع الانجليز من حصون الجزيرة وقلاعها . وبلغ عـــدد الطلقات فى ذلك الاحتفال المهيب ثلثمائة طلقة .

وفى آخر نوفمبر رسا اســـطول البعثة الصغير فى مياه

شير بورغ حيث بقيت جثة نابليون نحو ثمانية أيام تقاطر فى خلالها عشرات الالوف من الناس لتحيتها وتكريمها. وكانت فى خلال هذه المدة أيضاً قد تمت المعدات اللازمة فى باريس للقاء الجثة. فانتقلت الجنازة اليها.

وفى فجر الخامس عشر من شهر ديسمبر ١٨٤٠ كانت الموسيقى تصدح فى كل مكان بباريس. ثم قصفت المدافع وقرعت نواقيس الكنائس. واجتمع كل من بقى حياً من جنود نابليون تحت قوس النصر المشهور. فما هو أن وقعت أعينهم على النعش حتى أجهشوا بالبكاء. وأحاطوا بالعربة لا يبغون عنها حِوَلا. ولقد كان البرنامج يقضى بأن يأتى أولئك الجنود خلف المستشارين. ومندوبى البلديات فى تشييع النعش. ولكنهم رفضوا قائلين:

« ان الامبراطور كان يسير دائماً بين حرسه! »

وقد كانت الطرق فى ذلك اليوم المشهود زاخرة بالجموع وكانت الشرفات والابواب مجللة بالسواد. وكان الشعب يتلقف النعش أفواجا عن أفواج بتلك الصيحة القديمة المحبوبة:

“ Vive l’Empereur ”

على أن مظاهر الحماسة التى غمرت باريس فى يوم هذا

الموكب الخالد ليس مما يصوره الكاتب بقلمه ولكنه مما يتصوره القارئ فقط بخياله .

ولما انتهى الركب الى سراى (الأنفاليد) التى تضم مفاخر فرنسا الحربية والتى تقرر أن يودع فيها جثمان الامبراطور تقدم رئيس البعثة البرنس Joinville بين يدى الملك قائلا :

— « مولاى ياصاحب الجلالة . اقدم لك جثمان الامبراطور نابليون ! »

فأجابه الملك بصوت جهورى :

— « باسم فرنسا أتقبله ! »

وأودعت الجثة مثواها الأخير وتحققت رغبة نابليون ورقدت رفاته على ضفاف السين بين ذلك الشعب الفرنسى الذى أحبه حباً جماً .

انتهى الكتاب

